مكتبة الدراسات الأدبية

٢١

الأمير شكيب أرسلان

حياته وآثاره

تأليف

الدكتور سامي الدهان

الطبعة الثانية

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ شارع كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الأمير شكيب أرسلان

حياته وآثاره

هذا الذى رفع اليراع منارة غمرت سماء الشرق بالأنوار
لو دان أحرار البلاد لسيد ناديتـــه يا سيد الأحرار

« الأخطل الصغير »

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا كان للمؤرخ المنصف أن يصوّر الحال التى يعيش عليها العرب اليوم ، وأن يرسم الفكر العربى فى نهضته الأخيرة وفى وثبته الحيرة المتحفزة ، وأن يذكر أسباب هذه النهضة وهذه الوثبة فهو لا شك فى حاجة إلى دراسة زعماء الفكر فى البلاد العربية الذين عاشوا فى الهزيع الأخير من القرن التاسع عشر ؛ والنصف الأوفى من القرن العشرين . وإنه فى حاجة إلى أن يتبين عندهم الآراء التى بسطوا ، والأفكار التى أرسلوا ، والكتب التى ألفوا ، ليعرف أثر هذه البذور فى التربة العربية ، وليفهم كيف نبتت وترعرعت فأعطت هذه الثمرات العظيمة التى يفخر بها التاريخ العربى الحديث . ذلك لأن المعجزة العربية تكررت ثانية فى القرن التاسع عشر ، على شكل مثير مدهش ، فقد تمت فى سرعة مذهلة ، وخطت خطوات عجيبة يجب أن يعود إليها الدارس ، وأن يتفهم طريقة سيرها وحدوثها ؛ وأن يعود إلى الزمان فيستشف من خلاله حال العالم العربى ، وأن يتصفح الأحداث التى نزلت بأرضه ، والنكبات التى حلت بربوعه ، والقيود التى فرضت عليه ، والنوم الذى خيم على آفاقه ، واليقظة التى تمت على سواعد أبنائه . وأن يوازن بين حاله فى الأمس وحاله اليوم ، والمراحل التى قطعها ، والمشاكل التى خاضها ، والظلمات التى اكتنفته . وأن يعود إلى حال الفكر آنذاك وحاله الساعة ، ليؤمن معنا بأن البون كان شاسعاً ، وأن المسافة بعيدة ، وأن الشعب العربى انتصر انتصاراً كبيراً ، إن لم يكن تاماً فهو فى طريق صاعدة ستنهض به إلى مستواه القديم الذى كان له بين الأمم .

والزعماء العرب والأدباء المفكرون الذين درجوا أواخر القرن التاسع عشر أضاءوا كما كان المصباح لزمانهم يستطيع أن يضيء ، على فقر فى الوسائل ، وظلمة مدلهمة فى الأفق . وكان الزيتُ غيرَ الزيت الذى نملك اليوم . وكان

المستنيرون قبلهم غير المستنيرين قبلنا . فهم الذين أوقدوا الشموع والمشاعل فأفدنا منها ووضح لنا السبيل ، وكانت سبيلهم وعرة .

ومن الخير حين نكتب فى هؤلاء الزعماء والمفكرين أن نبسط أمر الظلام الذى كان يلفهم ، وأن نتطرق إلى عصرهم لنرى كيف كانوا للعصر فى أيامهم فقد تسلموا الراية زعيماً عن زعيم . وكان ساعدهم قوياً جريئاً حين تقدّموا لحمل الراية ليسلمها الزعيم إلى من بعده كما يتسلم فى المعركة قائد عن قائد ، وفى حلبة الرياضة عند الإغريق لاحق عن سابق إلى أن يتمّ الشوط ويظهر النصر .

ونحن اليوم فى صدد زعيم من هؤلاء الزعماء العرب ، الذين عملوا للوحدة العربية ونادوا بالجامعة الإسلامية منذ ثلاثين سنة وجاهدوا فى سبيلها : هو « الأمير شكيب أرسلان » . ولد فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، وظل يعمل خمسين سنة فى ميادين النشاط السياسى والفكرى والأدبى ، قضاها فى بلاده وغير بلاده فكانت منه أعمال كثيرة شغلت معاصريه فى هذه النواحى جميعاً فكان سياسياً وكان أديباً شاعراً وناثراً ، وكان زعيماً من زعماء الفكر العربى ، عمل فى الصحافة العربية والفرنسية جميعاً ، فخلف فى هذه وهذه مقالات كثيرة ، وعمل فى الترجمة فخلف آثاراً جميلة ، وكتب فى الأدب فترك مصنفات حسنة ، وترسل إلى أهله وأصحابه فى العالم العربى فبلغت رسائله مجلدات ومجلدات ، وتقلب فى النعيم من العيش وفى الجحيم من النضال ، وتناولته فى حياته أقلام وأقلام وسلقته ألسنة بنقد وأخذته ألسنة بمدح ، ووقف منه معاصروه مواقف متباينة ، كما وقفوا من كل زعيم وأديب وكاتب وشاعر على مختلف الأجيال . وثارت لزمانه معارك قلمية بسببه ، وقامت فى حياته فئة تنتصر له على أنه زعيم مسلم كبير أو قائد عربى عظيم ، ووقفت منه فئة حاربته على أنه رجل متطرف متعصب ، واختلف النقاد فى أساوبه وتفكيره فاتهمه أناس بالتقليد فى إنشائه وفى تصنيفه ، وجمده آخرون لحفاظه على عمود الشعر العربى ، وقوالب الفصاحة العربية ، حتى لقبوه بأمير البيان ، وعدا عليه كثيرون لسياسته العثمانية فى أول عهده ، ولكن الوطن العربى فى أقطاره كلها ذكره بعد موته على أنه كان

محامياً لا يني ومناضلا لا يهدأ ، وكاتباً لا يقف ، يدافع عن قضاياه ضد كل غربيّ كأنه موكل بحدود العرب كلها ، وأثنى عليه العالم الإسلامى من الهند إلى الأطلسى لأنه وقف للدفاع عن الوطن العربى والدين الإسلامى . وقضى الرجل فى مسقط رأسه بلبنان فاهتزت القلوب لفقده ، على تنوع مشاربها فى الشرق العربى والإسلامى معترفة للرجل بأنه شغل زمانه وأهله ، كما شغل غيره من زعماء الفكر والأدب .

وكان لا بد ، بعد أن سكن جثمانه الكريم فى التراب أن يسكن غبار المعركة فى شأنه وأن يقوم العرب والمسلمون فى الحديث عما خلف لهم من خير ومن فضل ، وأن يبسطوا ما كان له من يد على جيلنا الماضى ، وأن يذكروا شجاعته ونضاله وكفاحه فى نواحى حياتنا . وكان أن وقع علىّ عبء هذا الحديث وشرف هذا البحث ، فى محاضرات كلفنى بها معهد الدراسات العربية العالية بالجامعة العربية سنة ١٩٥٨ بسطت فيها شعره وأدبه وألممتُ فيها بتصانيفه مسرعاً . وكان أن طبعت هذه المحاضرات [١] ، ووقعت من نفوس إخوانه موقع التشجيع فأردت أن أعود إليها ، لأتم ما بدأت به ، وأشرح ما أوجزت فيه ، فقد كان للطلبة فحسب ، وأصبح للناس جميعاً ، وكان فى دراسة شعره فحسب فأصبح الكتاب فى حياته ، وفى آثاره كلها . فالمحاضرات نواة انطلق منها هذا الكتاب . وأنا أعلم أشد العلم بأنى أخوض فى شخصية معاصرة كثيرة النشاط فى السياسة والأدب والاجتماع ، وأن هذه الشخصية لها أصدقاء وأعداء ، مقدرون ومنكرون ، حامدون وجاحدون ، ولكننى أتسلح بالحياد فى الحديث عنه كأنى ما عرفته ، فقد لقيته فى باريس وطال لقاؤنا فلم أتأثر بهذا اللقاء فى هذه الصفحات . وإنما درسته من خلال أقواله المسطورة وكتاباته المطبوعة ، وآثاره الموفورة كما أتناول أىّ قديم من رجال الفكر والأدب ، لا أعبأ بما يشيع عنه خصومه وأعداؤه ، ولا أهتم لما يفرط فيه أحباؤه وأصدقاؤه ، فهو فى المغرب العربى يحتل الصدارة

---

(١) محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان ، ألقاها الدكتور سامى الدهان ، طبعت بمصر ١٩٥٨ فى ١٩٣ صفحة .

فى الزعامة وفى الأدب وفى السياسة ، كما يحتل فى المشرق العربى بل لعلّ المغاربة العرب ينظرون إليه نظرتهم إلى مشرقى عربى دافع عنهم قبل أن يعرف من أمرهم شيئاً أى عربى فى المشرق ، وزار بلادهم كما سمح له أن يزور ، فعاد إلى منفاه فى غربته وقلوبهم فى أضلاعه ، وكلامه فى آذانهم ، وآثاره ملء الأسماع ، وتصانيفه فى كل زاوية من زوايا المغرب الباسل . فطبعت كتبه فى الرباط كما طبعت فى القاهرة وبيروت ودمشق ، وسالت مقالاته فى صحف مصر وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق كما سالت فى صحف تونس والمغرب العربىّ ، وسرت رسائله فى بريد العالم العربى والشرق الإسلامى ، كما سرت فى المغرب العربى وأوربة ، فتكلم فيه الناس وتحدث عنه العلماء ، ولكنه لم يصدر كتاب واحد فى البحث عنه وفى دراسة حياته وشعره . وإنما أراد الله أن يقوم صديقه المجاهد الأستاذ محمد على الطاهر بجمع ما قيل فيه من مقالات قصيرة ودراسات سريعة من خلال الصحف والإذاعات فى أمريكة وأوربة وآسية ، تصور جوانب كثيرة منه إلى رسوم شمسية تمثله فى رحلاته وبين أصدقائه ، وكان هذا الكتاب « ذكرى الأمير شكيب أرسلان[١] » هو كل ما عرف العالم العربى عنه حتى الساعة . وفى هذا قصور كبير وظلم كثير للرجل . فقد كتب عن كل دقائق العالم العربى ومشاكل الدنيا الإسلامية ، وسطر فى تاريخنا القديم ومفاخرنا العظيمة ، وفتوحاتنا الواسعة أسفاراً وأسفاراً ، لم يقعد به عن إكمالها والتجويد فيها إلا رحلاته الواسعة وتنقلاته العديدة من سورية إلى مصر ، ومن مصر إلى تركيا ، ومن تركيا إلى برلين ومن برلين إلى سويسرة حيث انتهى إليها مقامه وكتب له العيش بعيداً عن وجوه المستعمرين الذين حجبوا عن عينيه أحباءه العرب ومواطنيه المسلمين . لذلك أقسم أن لا يطأ التراب المقدس لوطنه وهو تحت سحابة الانتداب وظل المستعمرين فقضى سحابة حياته غريباً منفياً ، قلبه فى ذرى لبنان وقمم البلاد العربية ، ولسانه يجرى فى خدمتهم ، وقلمه يمضى فى الكتابة عنهم ، وجسده الناحل يضوى ويضوى بعيداً عنهم ، يتغضن ويذوى ، حتى استحال إلى هيكل من

---

(١) صدر فى ٥٢٦ صفحة ، سنة ١٩٤٧ بالقاهرة .

عمل دائم وفكر متواصل وكتابة متلاحقة واندفاع مستميت فى خدمة قومه وأهله فلما قدر لهذا الهيكل أن يعود إلى مراتع قلبه ومرابع روحه ، وأن يرجع إلى لبنان ، استطاع أن يستظل بالأرز ، وأن يستحم نظره فى البحر ، زمناً قصيراً ، ولكنه لحق بعدها بالملأ الأعلى ، فصعدت روحه الكريمة إلى بارئها .

وقد خيل إلينا أننا نستطيع أن نشارك فى دفع هذا الظلم وهذا الجحود فبادرنا إلى تأليف هذا الكتاب ، وجعلناه على ثلاثة أقسام :

١ — القسم الأول فى عصره وحياته : وهو يحتوى على أربعة فصول رسمنا فيها العصر من حيث الحالة السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية ، وتحدثنا عن النسب والأسرة ، وحياة الأمير فى مراحلها المختلفة .

٢ — والقسم الثانى ، فى أدبه وبيانه : وهو يحتوى على خمسة فصول تحدثنا فيها عن الشاعر فى مرحلتى حياته الشعرية ، وعن فنون شعره ، ونثره وإنشائه ، وكتاباته ومقالاته ، وثقافته فى اللغة العربية واللغات الأجنبية .

٣ — والقسم الثالث ، فى آثاره ومؤلفاته : وهو يحتوى على عشرة فصول ، تحدثنا فيها عن التراث القديم الذى نشره ، والكتب التى ترجمها ، والمصنفات التى دافع فيها عن العرب والإسلام ، والآثار التى أرخ فيها الأندلس وغزوات العرب فى أوربة ، وما ألفه عن صاحبيه أحمد شوقى ورشيد رضا .

فالكتاب فى تسعة عشر فصلا ، قد يتكرر فيها القول ، وقد يعاد فيها الكلام ، بغية التركيز والتوثيق فلا بد فيها من ربط الكلام بعضه ببعض ، وهو بعد ذلك كله ليس إلا محاولة فى دراسة معاصر متشعب النواحى ، يبدو أنه لا يسلس قياده لباحث كما أسلفنا . فإذا ندّ عنا ما كان لنا أن نقوله فيه ، فعذرنا أنه واسع الآفاق بعيد الأرجاء ، وأن مكان القول فيه فسيح ، ولا يستطيع الإلمام به أى كتاب محدود الصفحات . وذلك لأن الأمير صورة لعصر لما يستقر فى أذهاننا عن عصره رأى قاطع فى سياسته وأدبه واجتماعه . فنحن ما نزال على حيرة فى الحكم عليه أو البت فيما كان من زعمائه وأدبائه ورجاله ، نفتقر إلى تاريخ ثابت فيه ، إن كان للتاريخ أن يكتب برأى واحد

لا يختلف إليه شك أو نقد أو حيرة .

لهذا نرجو الله عز وجل أن يمدنا بروح من عنده لنكون عند التوفيق فى تصوير عصره القلق، وأدبه الواسع وكتبه الكثيرة، وآرائه المتباينة، لعلنا نرضى روح شكيب فى سمائها العليا بعد أن كثرت شكواها فى حياتها الدنيا . فإن حالفنا هذا الحظ هنا فقد حالفنا حظ كبير ونصر عظيم ، ومن الله العون والتوفيق ، له الحمد والشكر على ما هدانا إليه ، ومنه العفو والمغفرة عما نضلّ فيه ، والكمال لله وحده ، وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .

دمشق فى ٢٥ ربيع الأول ١٣٧٩ هـ
٢٨ سبتمبر ١٩٥٩ م

محمد سامى الدهان

القسم الأول

عصره وحياته

حالة العصر السياسية والاجتماعية — حالة العصر الثقافية والأدبية
النسب والأسرة — حياة شكيب أرسلان

الفصل الأول

صورة العصر

الحالة السياسية والاجتماعية

حال الخلافة العثمانية – وضع الولايات العربية
– حال سورية – الفتنـــة الدامية فى ســـورية
– نضال السوريين – استقلال سورية

حال الخلافة العثمانية :

قبل أن نتحدث عن حياة شكيب أرسلان وأدبه وكتبه ، نحبّ أن نفهم حال سورية والبلاد العربية ، وأن نتبين الأوضاع التى كانت سائدة فى زمانه ، لنرى موقعه ومكانته فيها ، واتجاهاته فى السياسة واللغة والأدب ، فالأديب مرآة عصره يتأثر به ويؤثر فيه ، ويعمل على تحقيق مبادئه ومثله وأهدافه على قدر ما تتيح له عبقريته ونبوغه .

والزمان الذى شهده شكيب كان صورة للاضطراب والقلق والحيرة فى الميادين جميعاً ، وكان صورة لنزعات مختلفة وآراء متباينة ، خلفها تقلب بلاده فى أحضان الفتن والقلاقل خلال سنين طويلة ، فقد تعاقبت قرون من الظلام على سورية وفيها لبنان[1] لم تعرف لها مثيلاً فى تاريخها الطويل . ولا بد من

---

(١) نتحدث فى الحالة السياسية ضمن إطار سورية باسم جامع واحد للبلدين معاً ، وذلك لأن سورية كانت تقسم إلى خمس ولايات هى : حلب ، بيروت ، الشام ، القدس ، متصرفية لبنان. ولهذه المتصرفية نظام خاص واستقلال إدارى ولها وال تعينه الدول مع الباب العالى كل عشر سنين. ولكن هذه الولايات الخمس كانت تابعة فى أمورها العسكرية إلى مشير العرض الهمايونى الخامس من فرق الجيش العثمانى ومركزه فى دمشق .

الرجوع إلى هذا التاريخ لفهم الأسباب التى خلفت هذه الجراح العميقة فى قلب هذا البلد العربى .

فقد كانت سورية موطن العزة والأمجاد خلال أحقاب من التاريخ العربى فى عهد الأمويين والعباسيين ، وتحملت غزو التتار والمغول من الشرق وقاست هجمات الفرنجة من الغرب ، وذاقت ألوان العذاب والويلات ، ولكنها لبثت صامدة ، تعتمد على تاريخها الضخم ، ولغتها العربية ، تعيش مع ماضيها على أمل لإنعاش مستقبلها ، وتجاهد فى صبر وجد من غير ونى ولا كلال .

فلما ظهر العثمانيون فى آسية الصغرى ، وانقضوا على الدولة البزنطية الهرمة ، واحتلوا القسطنطينية ، وتوجهوا إلى الغرب فاحتلوا دول البلقان تمددوا فى ربوع العرب فضموا أكثر أقطارها إليهم ، وأصبحوا يحكمون رقعة من الأرض فسيحة ، فى آسية وأوربة وأفريقية ، فكأنهم ورثوا الإمبراطورية العربية والبزنطية جميعا . وقام السلطان سليم يعمل للإمبراطورية الإسلامية لتحلّ محلّ الخلافة العباسية ، فكان له ما أراد حين ضم سورية ومصر والحجاز وتونس وطرابلس الغرب والجزائر ، فحمل لواء الخلافة الإسلامية وسكنت له هذه الأمصار العربية ، بعد أن مزقتها الحروب وأفقرتها ، وشعثت جيشها ، وزرعت الفقر والجهل فى أرجائها .

وعرف التاريخ العربى لأول مرة ارتباط هذه العواصم كلها بعاصمة غير عربية ، فكأنها مشدودة إلى تاريخ غير تاريخها وعرق غير عرقها ، تفرح لفتوح العثمانيين وتحزن لانكساراتهم ، تنصل بوشائج الدين ، وتنضوى تحت لواء الإسلام تابعة غير متبوعة ، تنظر إلى الأستانة فى فخر كما كانت تنظر من قبل إلى مكة ودمشق وبغداد والقاهرة ، وتبذل جهودها وعبقريتها فى نصرتها ، وتسفك دمها فى كل مكان لنصرتها ظالمة أو مظلومة كما تعود العربى أبداً أن يفعل ، أو كأنها بذلك تطيع أولى الأمر منها عملا بالإسلام .

ولكن « الأستانة العلية » كانت تتقلب خلال هذه العصور فى معارك وفتوح وحروب ، وتنصرف من مؤتمر إلى مؤتمر ومن حرب إلى حرب مما زعزع

كيانها وأضعف ثروتها ، وزرع فى صفوف الشعب الشك والقلق . فقد كانت الدول الأوربية لا تنى تحارب الدولة العثمانية وتحوك حولها المؤامرات ، وتجعلها مسرحاً للتوازن فى القوى فيما بينها ، فتشدها واحدة إلى جانبها ليتجمع ضدها أعداء كثيرون ، وتخدع بالصديق وبالعدو فما تدرى أين الصديق وأين العدو ، وتخوض فى ذلك بحراً خضمًّا من السياسة العنيفة تضيع عليها الوقت الثمين ، فلا تستطيع إصلاح أمرها ، والالتفات إلى أحوالها الداخلية . فكأنها تسعى أبداً للترقيع والترميم وردّ المكايد ، حتى فتقت للدول فكرة حماية الدين المسيحى بتركية فتألبت أكثر أوربة المسيحية ضدها ، وقام الشعراء والكتاب بالدعاية لحربها ، وساءت بذلك الأحوال تدريجياً ، من سلطان إلى سلطان حتى كان عبد الحميد أواخر القرن التاسع عشر ، فى زمان شهده شكيب أرسلان .

وهذه الأحوال الخارجية أفسدت على الدولة أحوالها الداخلية فكانت فتن فى خارج آسية الصغرى ، وفتن فى داخل الدولة ، بلغت إلى صفوف الشعب ، فوهنت قواه ، وتصدع الجيش ، وهزل الحكام ، وضاعت الكرامة ، واضطر السلطان إلى أن يشدد النكير على المفسدين والمستغلين والمتآمرين ، فشدد الحراسة ، وقوّى الجاسوسية لتعينه على معرفة المجرمين فولدت البغضاء بين طبقات الشعب ، واتهم الناس بعضهم بعضًا ، وعمّ الخوف والكراهية ، وسرى الانتقام والرعب ، وأظل الناس بسبب هذا الاختلال الخارجى والداخلى عهد لا مثيل له ولا منقذ منه ولو كان السلطان عبد الحميد .

على أن السلطان كان من نوابغ الخلفاء شهد له معاصروه بالذكاء والعبقرية ، فقال فيه جمال الدين الأفغانى ، وقد اجتمع إليه واتصل به ، وأولاه حبه ونصحه : « إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة » ولكن هذا الدهاء لن ينفع فى رتق خرق كبير أصاب الحكم العثمانى على تعاقب السنين ، ولن ينجح فى النهوض بشعب بلغ منه الشك والريبة بحكامه مبلغاً كان أقرب إلى اليأس والانحلال . فقد تمكن الشقاق وقامت الحزازات والأحقاد بين الفقراء والأغنياء ، وبين المحكومين والحكام

ونشأت إقطاعيات مذهلة ، وسرت البغضاء بين الطوائف الدينية ، والأعراق الإنسانية ، وأصبح الشعب وكأنه قطعة من الشطرنج فى ألوانه وعقائده وتياراته ، يذكيه الجهل ظلماً ، وتغذيه الدول الأوربية حقداً وبات قاب قوسين من شفا الهاوية .

فلما أعيا السلطان عبد الحميد هذا الفساد سلك سياسةعجيبة وعمل بقاعدة « فرّق تسد » ، وخيل إليه أن هذا وحده يمكن له فى البقاء ويبعد عنه الانقلاب والقتل والعزل ، فزاد الطين بلة — كما يقولون — وغدا أدنأ الناس خلقاً وأوسعهم فتنة أقرب إلى الغنى والمال والسلطان . وساد الأشرار وابتعد الأخيار ، وامتلأ ديوان الحكم بأنصار الفساد ، وأصبح التعيين فى وظائف الدولة لا يعتمد على الخلق أو العلم أو الخير ، وإنما يرتكز إلى من يكون قلباً حوّلا . وغدا أكثر رجال السراى أميين ، لا يهمهم من عالمهم إلا الفتك بأعدائهم ولا يشغلهم إلا القرب من السلطان عن سبيل أى سبيل ولو كان الشيطان .

وكان السلطان بعد أن سرّح « مجلس المبعوثان » سنة ١٨٧٨ م ، قد جعل ديوانه فى قصر « يلدز » الفخم ، وحشد فيه مستشاريه وكتبته ومرافقيه ، وهذا الديوان كان يقوم صلة الوصل بينه وبين مجلس الوزراء[١] « الباب العالى » فسمى « بالمابين » اختصاراً للفظة العربية ما بين السلطان والباب العالى . وزاد السلطان فأضعف من شأن الباب العالى « مجلس الوزراء » وشلّ قوته ، فنقله إلى « يلدز » كذلك ، ليتصل به مباشرة ، وليتبلغ منه الأمر والحلّ والعقد ، ينفذ أوامر السلطان من غير نقاش أو مداولة ، فبات الحكم بيد عبد الحميد وحده ، وأصبح مصدر التشريع والتنفيذ ، وموضع الاهتمام بالسياسة الداخلية والخارجية ، بيده الجيش والعدل والقضاء والمال ، يتصرف به كيف يشاء ، لا يأمن أحداً ولا يقر لرأى أحد . والمملكة واسعة الأرجاء والدسائس والفتن ترعى

---

(١) فى عهد السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) أطلق على مجلس الوزراء اسم الباب العالى وقد أمر السلطان بتشييد صرح فخم لهذا المجلس ، وضاعف رواتبه ، واسمى رئيسه الصدر الأعظم .

كيف تشاء ، والدول الأوربية حول جدران قصره ، ووراء ستائره ، تحرس الحدود ، كما تحرس الذئاب القطيع ، وتدور حوله كما يدور الثعبان حول الفريسة، لتنقضّ فى الساعة المحتومة ، تأخذ من ضعفه قوة ، ومن أخطائه حججاً ، ومن ضحاياه أسباباً للتدخل فى كلّ سانحة ، فكأنها تشركه فى الحكم ، أو كأنها برلمان عدو ، لإثارة الفتنة وإشاعة الذعر ، فكان المخلصون يرون أن الزمان يهيئ فى كل دقيقة نعش الدولة ، ويحفر فى كل ثانية قبر الحكم .

وكان الأمر يهون بعض الشيء لو رزق الرجل حاشية عاقلة ، أو نصحاء مخلصين ، ولكن هذه الحاشية هى التى حفرت قبر الدولة وزرعت الشك والعبث، وكانت شراً على السلطان وعلى نفسها وعلى الخلافة . فهى طوراً تخوف السلطان من تقرب العرب إليه ، فتدس وتوقع حتى ينفر الرجل من هؤلاء وفى الحاشية من العرب كثير[1] . وهى تارة تخوف السلطان من تقرب المسيحيين بعضهم إلى بعض مع العلم بأنها تفتح سببًا وسبباً بذلك لتدخل الدول الأوربية ، فتخلق الشقاق بين الطوائف وتذعر الأمن ، وتهدد الكنائس فى راحتها والجوامع فى أمنها ، والحرية فى كل قلب .

ولن نوغل فى وصف المابين أو الباب العالى أو الصدر الأعظم ، وهم جهاز الحكم وديوان الخلافة ، فهناك أساطير لا يكاد يصدقها العقل ولكن كاتباً من الكتاب العرب زار الآستانة وخلف لنا كتاباً فى وصف ما رأى وما سمع ، وما تحقق بنفسه ، جعل عنوانه « ما هنالك[٣] » نشر فى مصر خلال الحكم الحميدى ، نستطيع أن نرجع إليه لنرى كيف يبلغ التدهور فى الحكم ، والاستخفاف بالكرامة والخلق ، والسخرية بالشعوب والهزء بالشخصية الإنسانية ،

---

(١) أجرى السلطان عبد الحميد الثانى (وقد تبوأ على العرش سنة ١٨٧٦ م) المرتبات الوافرة على أبناء العرب من سورية ولبنان والحجاز ، وأنشأ فرقة حرس من العرب خاصة به ، وحقق فكرة عزة العابد بإنشاء خط حديدى للحجاج ، كما أنشأ فى الآستانة مدرسة للعشائر . ولكنه جعل التركية لغة التعليم وهى « اللسان العثمانى » — انظر محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ ٢/١٢٧

(١) « ما هنالك » — لأديب فاضل من المصريين ، طبع فى مطبعة المقطم فى مصر ١٨٩٦ م فى ٢٥٥ صفحة ؛ وهو لإبراهيم المويلحى .

دبجته يراعة « إبراهيم المويلحى » ، فقد أخفى اسمه فى الكتاب ، وظهرت براعته فى الأسلوب ، فهو دليل من ألف دليل على النهاية المرصودة للسلطان العثمانى . بل إنه دليل عجيب على بقاء الحكم العثمانى بهذه الصورة ، ومثلها لا يقع فى العصور الوسطى المدلهمة بالشقاء ، بله القرن التاسع عشر ، والأمم تتحفز إلى ذرى الحضارة ، وتزحف إلى الاستثمار ، وتفتح فاها لابتلاع الأمم الضعيفة المسكينة ، وتتربص بالشرق الدوائر ، وتحفر للخلافة الإسلامية قبراً تتردى فيه إلى الأبد ، لتقتسم الأطراف وتسلب الولايات وتسرق الخيرات ، وتستغل الأراضى .

* * *

وضع الولايات العربية :

كذلك كانت العاصمة فى سياستها وفى حكمها أواخر القرن التاسع عشر سادرة فى ظلامها وجهلها ، لا تكاد تنظر خلف الأسوار ، ولا تبصر ما وراء البحار ، قد شغلت بدائها عن الأخطار المحيطة بالولايات المحكومة . وكأنها لم تنتفع بتجربة الدول البلقانية ومؤامرات الدول الأوربية أو كأنها لم تبحث أمر الولايات كلها ، فانصرفت كالنعامة إلى إخفاء رأسها عن الصياد — إذا صحّ أن النعامة من الطيش بحيث يصفونها — بل إنها كانت أضلّ من النعامة . فقد دقت نواقيس الخطر قبل ولادة القرن التاسع عشر ، ودخل الفرنسيون مصر سنة ١٧٩٨ وظلوا فيها ثلاث سنوات ، يحاربون ويقتلون لعلهم يثبتون أقدامهم فى هذا الجزء العربى المبارك توطئة لاحتلال الأجزاء كلها . وكان شعار هذا الاستعمار براقاً خادعاً ، خدع كثيراً من الكتاب العرب ، فرأوا فى المناشير التى طبعت ، وفى المطابع التى حملت ، وفى الصحف التى نشرت ، وفى العلماء الذين تستروا وراء السلاح ، حملة علمية تمحو الجهل ، وتقتل الفقر وتزرع الخير ، وهى حملة الثعلب وخداع الجزار حين يسمن الخراف ، ووراء ذلك ناب مخفى ومدية مطوية ، وقتل كرامة منتظرة .

وسرى الثعبان الاستعمارى إلى سورية فسعى إلى أسوار مدنها وبلغ من حصونها واحدة بعد واحدة ، وكاد يأتى عليها جميعاً لولا الوباء الذى فشا فى جيش نابليون وظهور الإنكليز فى البحر ، فتعاون الوباءان على فضح الاستعمار الفرنسى فى هذه المنطقة لأن اللصوص اختلفوا فى اقتسام الأسلاب، فتسوروا جدران الشرق العربى قبل أن يتم مخطط التآمر ، وبذلك ولد الجنين ميتاً .

ومع هذا لم يتنبه العثمانيون إلى إصلاح الحكم ، والتلفت إلى الخطر ، فلم يحاولوا دراسة السياسة التى كانت تسوقهم إلى الهاوية، وظلوا وراء هذا السيل من الجهل . فلم يحكموا النظر فى أمانى الولايات التابعة لحكمهم . ولم يتعظوا ، وكان عليهم أن يعرفوا أن أعزّ جوهرة فى إمبراطوريتهم العثمانية هى هذه الأقطار العربية . وأن أعزّ الأمانى التى تختلج فى قلوب هؤلاء العرب هى لغتهم العربية ، فقد انطلق العرب قديماً على جناح هذه اللغة إلى أصقاع تتكلم الفارسية والرومية والهندية والتركية والقبطية والبربرية ، فرأى أهل هذه الأصقاع خلقاً يتسامى فى الفتح حتى يساوى بين العربى والأعجمى ، وكرامة متعادلة بين المواطنين القدماء والمواطنين الجدد ، وحقوقاً واحدة بين القادم والمقيم ، فآمنوا بإخوانهم الجدد ، ودخلوا فى اللغة يغرّدون بها ، ويؤلفون فيها ، ويتحدث بها أبناؤها وأحفادهم ، فيذوبون جميعاً فى سحرها وفى أنغامها ، فإذا هم عرب محدثون كالعرب القدماء يحملون معاً لواء حضارة رفيعة من أقصى الهند إلى أقصى المغرب ، لا يتحدثون عن عرق أو جنس ، ولا يفرقون بين مذهب ومذهب ، حتى لفهم الزمان بلواء واحد فسقوا أصقاع العرب بدمائهم ، وجبلوا قوالب بيوتهم بالدمع والعرق معاً ، وضمهم التراب العربى جدثاً إلى جدث ، فآخت الحياة بينهم وآخى الجهاد والموت بينهم ، فلا غالب ولا مغلوب ، ولا مستعمر ولا مسيطر .

وظن العرب بعد نكباتهم المريرة أن الدولة الجديدة العثمانية تسير فى هدى الفتح العربى ، وتصنع صنيع بعض الدول التركية التى عاشت بين ظهرانى حضارة العرب حيناً من الزمن ، وحسبوا أن العثمانين سيتخذون الإخاء فى الحكم ديدنهم ،

وسيجعلون اللغة العربية رايتهم وسبيلهم إلى الحديث والحكم والعلم ، لأنها لغة الإسلام والحضارة وهم خلفاء المسلمين ، يدعون وراثة الخلافة العباسية ، ويظلون بلوائها هذه الأقطار العربية فى آسية وأفريقية ، فهى قد تقدمت للبذل فى صيانتها والحفاظ عليها ، فأراقت دمها وعرقها فى الدفاع عنها بكل مكان فى سبيل بناء هذه المملكة الواسعة .

وبرقت للأقطار العربية بارقة الأمل على يد السلطان محمد الفاتح فقد أراد أن يجعل العربية لسان الدولة ، ثم برقت ثانية على عهد السلطان سليم ، ولكن البرق كان خلباً فضاع مع الأنواء وتقلب الأعاصير ، فتمسك العثمانيون بلغتهم المرقعة ومفرداتهم المتكلفة المنحوتة من العربية نصفاً ومن التركستانية نصفاً آخر ، وفضلوا أن يعيشوا كالسمكة الأسطورية بجسد نصفه آدمى ونصفه حيوانى ، ففرضوا على أنفسهم هذه اللغة فكانت فى الحكم وفى الجيش وفى المدرسة وفى البيت ، وأرادوها أن تكون للولايات كما كانت لرقعتهم المحدودة بآسية الصغرى .

وهنا قام ظلم آخر فى اللسان ، كما قام فى السياسة ، فابتعدوا عن تأليف العرب إليهم وهم أكثرية الدولة ، وتمسكوا بعزلتهم ، فكأنهم ساقوا الأقطار العربية إلى الإحساس بلغة الحاكم ولغة المحكوم ، على ظلم وطيش وسفه ، فلا تاريخ وراءهم فى الماضى ، ولا أخلاق فى الشجاعة والعدالة والاجتماع فى الحاضر ، فأصبح العربىّ المثقف يحسّ هذه المرارة ، ويسكت على مضض .

وقد نبه جمال الدين الأفغانى إلى هذا الأمر ، فرأى أن سبب نجاح الخلافة العربية قديماً هو هذا اللسان العربى الذى أمسك بأطراف الأمم التى اعتنقته ، فأصبحت من العرب بلسانها ، ونسيت عصبياتها المختلفة ، فأخذت بلغة العرب ، حين نعمتْ بعدالتهم وقرّت بحبهم ومساواتهم ، فتبارت فى الفصاحة العربية ، وتعربت بفضل الأخلاق العربية والصفات المثالية عندهم . وقال[١] : « فمصر بينما هى هرقلية رومانية ، ومقوقسها عامل له فيها ، أصبحت فى قليل من الزمن إسلامية فى الأغلبية ، عربية بالصورة المطلقة فى كافة مميزات العرب » ، ثم قال :

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى ، تأليف المخزومى ، ص ٩٧ .

« فأكبر عامل على تعريب أولئك الأقوام هو الفضائل الأخلاقية والصفات العالية التي كانت تأتى بها العرب مع بأسهم وشجاعتهم» ، ثم انتهى إلى قوله[١] : « فالأتراك أهملوا أمراً عظيماً وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح رحمة الله عليه ، وأحب أن يعمل بها السلطان سليم وهى قبول اللسان العربى لسان الدولة وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم ، ليفقهوا أحكامه ، ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه ومكارم أخلاقه ، فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهرى فقط ، بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه . وذلك ما تم ولا يتم إلا باللسان ، وهو أهم الأركان » .

ولا شك فى أن هذا العالم الكبير قد وضع يده على الداء ،ودل على مصدر الفشل عند العثمانيين ، فرأى أن بعدهم عن العربية ، وحضارة العرب أبعدهم عن قلوب العرب . وكان هذا من أهم الأسباب فى انسلاخ الولايات العربية عن جسد الخلافة فى المستقبل .

وقد نهض « محمد بن عبد الوهاب » بثورته فى قلب الجزيرة العربية ، ضد هذا الظلم العثمانى ليعيد أمجاد العرب كما كانت . وفهم إبراهيم باشا هذا التاريخ العربى أشد الفهم ، فنادى بالعروبة وعرف أن هذا هو السبيل الأوحد لانتصاره ، مع أنه من عرق غير عربى ، ولكن شمس مصر لوحته — كما قال — فجعلته عربى الوجه واليد والهدف. وبذلك استطاع أن يخضع سورية لحكمه وأن يقرع أبواب الآستانة نفسها[٢] ، ولولا خوف الإنكليز من دعوته العربية وسياسته فى توحيد مصر [٣]وسورية لأجهز على العثمانيين ، ولقامت

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٩ .

(٢) قال إبراهيم باشا لبوا لكونت الفرنسى عن سبب عزمه على دخول الآستانة : « أريد أن أدخلها للإصلاح لا للهدم ، لكى أقيم حكومة عربية تضطلع بحكم الإمبراطورية » يقول مؤلف حسر اللثام قال إن فرنسة كانت العضد الوحيد لإبراهيم باشا ، أنظر ص ٧٥ وما بعدها .

(٣) قال كتاب حسر اللثام ص٤٥ ، عن حكم إبراهيم باشا سنة ١٨٣١ فى سورية، وعدالته خلال تسع سنوات : « وبعد حكم إبراهيم باشا فى الشام بدأ عصر التنوير والإصلاح ، فقد كان الذى قبل أيامه لا يعد نفسه من الآدميين ، فلما انتشرت راية العدل وعم الأمن وتساوى الناس أمام الحاكم . . . خطا النصارى الخطوات الواسعة فى ميدان الحضارة » .

منذ ذلك الحين وحدة البلدين على دعائم القومية العربية(١) . ولكن إنكلترة كانت تفهم ما للغة من سحر فى توحيد العرب ، فوقفت دونها وأعلنت الحرب على إبراهيم باشا ، وردته إلى بلده ، وسلخت منه سورية ، وأقرت ولاية مصر لأسرة الخديويين الألبانيين ، ورضى الباب العالى بهذه الخديعة ، فجعل ولاية مصر لمحمد على وراثية مستقلة ، سنة ١٨٤١ ، على أن يكون للعثمانيين الحق فى تعيين الوالى . وبذلك انسلخت أكبر ولاية عربية عن الجسد العثمانى ، وكانت هذه كافية لتنبيه الغافلين فى الباب العالى إلى اجتذاب القلوب العربية ، وتقريب السياسة بين الأتراك والعرب ، على شكل محالفات شرقية تسد الباب على الدول الأوربية التى تفيد من الخلاف بين العرب والعثمانيين ، فتفرق بينهم أول الأمر ، ثم تضرب كلا على حدة ، وتستحوذ على هؤلاء وهؤلاء !

ورأى العثمانيون بأعينهم نتيجة سياستهم الغافلة حين أتمت دول المسألة الشرقية خطة المؤامرة ، فهجمت على الأقطار العربية ، وقطعت أوصالها ، واحتلت أراضيها بعد منتصف القرن التاسع عشر ، واقتسمت الأسلاب بينها ، كأن العالم يعيش فى غابة موحشة ، ينال كل حيوان مفترس حصته بأظلافه . وهكذا وقعت البلاد العربية فريسة الغزو الأوربى ، فاحتلت فرنسة بلاد الجزائر سنة ١٨٤٠ بعد حرب وحشية وخيانات ملوثة استمرت عشر سنوات ، وأخذت تونس سنة ١٨٨١ ، ودخلت إنكلترة بجيوشها مصر والسودان سنة ١٨٨٢ ، وسلبت فرنسة مراكش سنة ١٩١١ ، وتسللت إيطاليا إلى طرابلس الغرب سنة ١٩١١ ، وبذلك اقتسم القراصنة اللاتينيون والسكسونيون بلاد العرب كلها فى الشمال الإفريقى من قنال السويس حتى جبل طارق . وذلك بحجة إنقاذ هذه الربوع من يد الرجل المريض وسعياً وراء تحضيرها وتمدينها ! . .

وتلفت هؤلاء المستعمرون بعد ذلك إلى شرقى البحر المتوسط ، لسلب

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى بقلم المخزومى ص ٢٥٩ .

سورية أخيراً من يد الدولة العثمانية ، كما سلبوا غيرها ، ولكنهم هذه المرة تدخلوا تحت شعار مختلف هو حماية الأقليات المضطهدة ونصرة المسيحية المعذبة ، كما يدعون .

وبصدد الأقليات يأخذ جمال الدين الأفغانى على العثمانيين تساهلهم مع القوميات والطوائف المختلفة ، فهو يلاحظ[١] أن مستشار نظارة الخارجية العثمانية كان أرمنياً وهو « أرتين باشا » ، وأن سفيرها لدى إنكلترة أنكى الدول وأشدها عداوة للعثمانيين كان رومياً وهو « موزوروس باشا » ، وأن حاكم جزيرة كريت هو « قسطاكى باشا » . ويتساءل بعد ذلك فيقول : فهل يمكن أن نرى مستشار خارجية إنكلترة هندياً أو مصرياً ؟ ويقول صفوة باشا : إن سبب انفصال الولايات المسيحية عن الدولة كان نتيجة لحسن معاملة السلطنة لأهلها وترك التقاليد الأصلية حرة .

ولكن قصة الذئب والحمل خالدة على الزمان تعود إلى الذاكرة كلما استعرض الإنسان سيرة الاستعمار وأسبابه ، وهى مذهلة بالنسبة إلى الولايات العربية وموقف الغرب منها ، كما نرى بعد قليل .

* * *

حال سورية :

كانت الدولة العثمانية تحكم بلادها وتدير شئونها بمعرفة الأمراء من ضباطها الذين تعهد إليهم بتنظيم الشئون العسكرية فى مقاطعاتهم .وكان أمراء الأمراء يوجهون المرتبات إلى مستحقيها ، وتصدر الإرادة السلطانية وفقاً لمراسيمهم . وكانت اللامركزية سبباً من أسباب النجاح فى أول الأمر . ثم استفحل الخلل فى الإدارة الرئيسية بالعاصمة ، وكان خسرو تولى منصب إمارة الأمراء فى سلطنة سليمان ، فشرع فى توجيه الإقطاعات إلى العسكريين بالرشوة ، ونهج

(١) هذه المعلومات نقتبسها من الكتاب الممتع الذى ألفه محمد جميل بيهم فى فلسفة التاريخ العثمانى ج ٢ ص ٤٦ وما بعدها .

خلفاؤه نهجه ، ثم تجاوزوه حتى ضاق الناس بهم ذرعاً ، وتحولت أكثر الأراضى إلى هؤلاء الحكام .

وكان هؤلاء الملتزمون آمنين لعدم وجود أسلاك برقية أو سكك حديدية أو طرق معبدة تسهل إيصال الشكوى . وبدعة تضمين الأمصار ترجع إلى عهد السلطان سليمان القانونى ، فقد رأى حاجة الدولة إلى الأموال الكثيرة بعد القروض والحروب وقرر أن يسند أمور الدولة إلى الملتزمين ، وتدنى حال الملتزمين إلى وضع ، صوّره المؤرخ التركى جودت فقال[١] : « لما أبى أصحاب الدين والإنصاف أخذ الالتزامات أقبل عليها الأراذل والأسافل ، فكان ذلك سبباً آخر لتخريب القرى الهمايونية والإقطاعات . وقد خربت المدن من جراء المظالم التى ارتكبت والاعتداءات . ووقع الرعايا وهم فى الحقيقة خزنة الدولة فى أشراك الفقر » . وبسط المؤرخ التركى طريقة الضمان فقال إنه كان يجرى فى الآستانة على طريقة المزاد ، وأن المزاد كان صورياً ، وذلك لأن الوزراء كانوا شركاء الملتزم . وكان الملتزمون يستغلون الأموال من مصارف « غلطة » باستانبول برباً فاحش بغية تأمين الرشوة للمتنفذين ، وتأدية الأقساط الأولى ، حتى إذا بلغوا مقرّ ولايتهم تفننوا فى أساليب ابتزاز الأموال ، فكانوا يضعون الضرائب الباهظة ، ويطلقون أيدى ملتزمى الأعشار والمكوس ، ثم لا يتورعون عن المصادرة واتهام الأبرياء بالخيانة فى سبيل ابتزاز الأموال .

ولما جاء السلطان مصطفى الثانى سنة ١٦٩٥ ، وافق على تلزيم الولايات مدى الحياة ، فساعد ذلك على استئثار الملتزمين واستبدادهم وأصبحت الدولة العثمانية أشبه بإمارات متحدة مستقلة دون الرجوع إلى الباب العالى . فساد الظلم وعمت الرشوة وانتصر الاستبداد . وظل الحال على ذلك حتى كان القرن التاسع عشر[٢] فازداد سوءاً على سوء ، وتحدث الأتراك والغربيون حين زاروا سورية

---

(١) الدولة العثمانية ، جميل بيهم ، ص ٤٦ .

(٢) فى كتاب حسر اللثام ص ٢٦ يقول : إن كل إيالة قسمت أقساماً : « كل قسم كان عبارة عن مدينة ونواحيها وسميت هذه الأقسام متسلميات ، وكان لكل قسم حاكم يسمونه متسلماً يعينه=

— وهى إحدى الولايات العثمانية التى كان يحكمها العمال من الأتراك باسم السلاطين — عن صور مزرية فى الحكم خلال هذا القرن لا سبيل إلى عرضها هنا ، لأنها أصبحت معروفة ، سخر منها الأدباء والشعراء ، وسارت أقوالهم مسرى النكتة والفضيحة . فكيف يلتزم الحاكم ما لا يؤديه ويضمنه ؟ وكيف يستدين قبل تعيينه ليسدد خلال ولايته فى أقرب وقت وأقصر سبيل خوف الربا والمصارف ؟ وكيف يجبى الضرائب فى المدن والقرى ، ويصدر القرارات ، ويحصل على الإرادات السنية ؟ كل ذلك عجيب مضحك ، لكنه حين يقع فى بلاد ألفت العدالة العربية والأمن كسورية ، يصبح مبكياً محزناً[1] . فقد هجر الفلاح أرضه وتخلى عنها وسكت ابن المدينة على مضض لهذه المسرحية ، يئن ويتألم فتردد ضلوعه وحدها هذا الألم ، ويسكت لسانه لأنه إذا نطق فالسيف فوق الرقاب ، والنفى مسلط على كل باب . وأنى للفلاح أو الموظف الصغير أن يشكو ودونه مراتب ومراتب ، وإقطاعيون ومتنفذون وأغوات وبكوات !

ولهذا انتشر الارتزاق غير المشروع ، وفشت الرشوة ، وضيقت الرقابة خناقها على العرب ، ونهضت الجاسوسية على أوسع مدى ، وأصبحت مؤهلات التوظيف فى دوائر الحكومة هى المهارة فى التجسس والتذلل والكذب والرياء — كما قلنا — ولم تعد العفة والاستقامة من أسباب التقدير والإكبار ، وبالجملة

= الباب العالى رأساً ، أو والى الإيالة ومرجع أموره فى متسلميته إلى والى الإيالة التابع لها » ، ثم يقول : « وأما المتسلمون فكانوا يسعون وراء منفعة أنفسهم أولا ، لا يهمهم خربت البلاد أم عمرت . ولم يكن لهم قانون يجرون عليه ويؤاخذون على مخالفته ولكنهم ساروا بحسب الأهواء والميول وكثيراً ما سعوا فى تفريق الرعية حتى يساعدهم الانقسام على نوال ما يبتغون » .

(١) كان الأمن مفقوداً فى السفر ، يعتدى المسلح على الأعزل ، والجور فى العصابات والحكام مشهور رددته الكتب — انظر حسر اللثام ص ٢٩ حيث يقول : « وكثيراً ما كان الوالى يصادر الناس فى أموالهم » ويقول إن أكثر الاعتداءات كانت تقع من الجند لأنهم بالجملة جهلاء أميون ، وكثيراً ما تقع بين الجند أنفسهم فيلحق بالأهالى أضرار كثيرة وتنهب الدكاكين وتقفل الأسواق ، وكم من مرة أضحت بعض المدن وخصوصاً الشام وحلب مطعما للنار من جراء ذلك . وقد كان الاعتداء على العرض والقتل مما يحدث فى كل يوم ، ولذلك كثرت الأبواب على الشوارع والحارات تقفل حين الثورات

ماتت الفضائل الإنسانية فى نفوس الحكام والمتنفذين وفسدت معاييرهم ، وسارت الأمثال الشعبية تصوّر هذه الحال المزرية[1] ، فكأنّ الناس يعيشون فى فوضى ؛ ينقض بعضهم على بعض من غير عدالة أو قانون أو مساواة ، أو رادع أو ضمير .

وازدادت نفقات العاصمة فى عهد عبد الحميد لأنه احتاج إلى شبكة واسعة للجاسوسية تحصى أنفاس المتذمرين والشاكين ، وتحفظ الملك والسلطان من المتآمرين والقتلة والسفاكين ، فأمر ولاته فى الأطراف أن يسددوا العجز وأن يدعموا موازنة السلطان ، فكان على هؤلاء أن يدفعوا للآستانة ما يترتب عليهم قبل تسديد الرواتب المحلية . ولذلك كانت هذه الخزائن فى الولايات تعجز عن دفع رواتب الموظفين فى أوقاتها ، وكثيراً ما كانت تتراكم الرواتب عدداً من الشهور .

وكان العقلاء من السوريين يضيقون بهذا السجن الكبير ، ويودون أن يرتدع السلطان عبد الحميد ، وأن يتنبه إلى الأخطار المحيقة بملكه ، ويرون أن العصر الذى يعيشون فيه لا يتفق مع ما هم فيه . وفتقت للسلطان فكرة عبقرية أخرى سار عليها ، وهى تقريب العرب ، فراح يصطفى من أبناء الأسر[2] العربية المسيحية والمسلمة حاشية له ، ثم انقلب يقرب المسلمين على أنه حافظ لدينهم ووارث لخلافتهم ، فهو سلطان البرين والبحرين ، وهو خليفة رسول رب العالمين ، وأن زوال الهلال العثمانى زوال للدين الإسلامى ، وأن الغرب فاغر فاه ، ليبتلع الإسلام ، فهو عدوّ الدين يتربص بالمسلمين شرا[3] . وكان هذا

---

(١) حبذا لو سعى أحد الدارسين إلى جمع هذه الأمثال الشعبية لتصوير الحال الاجتماعية آنذاك .

(٢) مثل أبى الهدى الصيادى وفضل باشا والحسين وعلى وحيدر والعابد .

(٣) يقول الأستاذ محمد جميل بيهم ، فى فلسفة التاريخ العثمانى ٢ / ٦٥ إن أوربة كانت تدعو إلى حرب صليبية ضد الشرق . وكان بوالو وليبنتز يعبران عن هذا ، ويدفعان إلى الاهتمام بشئون الشرق على شواطىء الدردنيل . وأن روسية كانت تعلم رجالها قتال الترك ، ومناها ينحصر فى حرب الروس لآل عثمان حرباً صليبية كذلك بغية إنقاذ النصارى من المسلمين .

النداء يرسل على المنابر والحلقات وفى المدارس ، على ألسنة الخطباء فكانوا يختمون أبداً بالدعاء له والتمكين لسلطانه . فينظر الناس إلى خاقان المملكة نظرة ملؤها الإيمان والصبر لعلّ الله يغير الحال ويوسع على السلطان ، ويكبت أعداءه .

وهذه التفرقة بين المسلم والمسيحى التى اصطنعها الولاة والعمال قد أساءت إلى الدولة وساقت إلى شعور غريب بين الأخ المواطن وأخيه ، لم يكن يعرفه السوريون قبل ذلك — كما قلنا — فقد عاش المسيحيون أجيالاً لم يلحق بهم ضرر من جراء دينهم وعقيدتهم وعبادتهم ، فتجاور فى سورية مسجد[١] وكنيسة ، وتعالى أذان وناقوس ، وضمن الحكم الإسلامى العربى حقّ العبادة لكل مواطن . فلما أوحى العمال المتشدقون بهذا التفريق ، ذهب العامة مع هذا التيار ، ووقعت أحداث بين المسلم وغير المسلم بوحى العمال العثمانيين وتشجيع أفراد من الباب العالى[٢] حتى بلغت إلى حوادث مؤسفة فى سورية ، فوقعت اعتداءات ومذابح فى منتصف القرن التاسع عشر ، وخاصة فى القسم الغربى من سورية (بجبل لبنان) موطن شكيب أرسلان .

---

(١) جاء فى كتاب حسر اللثام عن نكبات الشام ، المطبوع بمصر سنة ١٨٩٥ ، أن عدد نفوس سورية الطبيعية من المسلمين على وجه التقريب كان يزيد على المليون ، وعدد المسيحيين حوالى تسعمائة ألف نفس ، منهم (٢٧) ألفاً من الموارنة ، و (٢٥) ألفاً من الروم الأرثوذكس ، و (٥٠) ألفاً من الروم الكاثوليك ، و (٣٥) ألفاً من بقية الطوائف ، وأهم الأماكن التى يسكنها المسيحيون جبل لبنان وبيروت ، وقل أن يخلو مكان فى سورية من بعض طوائف المسيحيين . ومعظم الدروز كانوا يسكنون فى حوران ولبنان ووادى التيم .

(٢) فى كتاب حسر اللثام ، ص ٢٣ يعترف مؤلفه بعدالة السلاطين العثمانيين السابقين ، ويشيد باحترامهم للطوائف المسيحية ، ويضرب الأمثال العديدة لذلك منذ السلطان محمد الفاتح إلى أن يقول : « فكان كل يمارس دينه وعوائده ولغته على ما يريد . وقد كان خلفاؤه من السلاطين العظام يسيرون على هذه المبادىء » ثم يقول فى نزاهة عن حوادث ١٨٦٠ الفاجعة : « إن الفتن والمذابح التى ورد ذكرها فى تاريخ الشام لم تكن بقصد أحد من السلاطين أو رجال دولتهم الأمناء بل من العمال الأردياء » وهو يصف ص ٣٦ جهل العامة من المسلمين وعبثهم بالنصارى ونبزهم بالكفر والإساءة إليهم بالألفاظ والأعمال ثم يقول بأن العقلاء من المسلمين ينكرون على العامة هذا ويردونهم بالقوة .

الفتنة الدامية :

كان الأمير بشير الشهـــابى حليفاً لمحمد على فى مصر ، فاضطره الإنكليز إلى التنازل عن إمارته ، فلجأ إلى استانبول ومات فيها . وخلفه على الإمارة فى لبنان الأمير بشير قاسم الشهابى[١] ، وكان ضعيف الحزم بالنسبة إلى ابن عمه الأمير بشير الكبير ، وكان بذىء اللسان سيئ المعاملة ، لذلك قرر الدروز خلعه ، فانتصر له النصارى ، ووقعت الواقعة بين الفريقين فى قرية « دير القمر » بأعلى جبال لبنان ، سنة ١٨٤١ م .

وهذه الواقعة هى الحركة الأولى التى أظهرت النفور بين النصارى والدروز بمظهر المعركة وسجلتها بدماء الفريقين وضحاياهم . والمهم أن فرنسا تدخلت فى الأمر ، فدعت إلى إعادة الحكم فى الشهابيين تظاهراً فى نصرة النصارى الموارنة ، فوسعت شقة الخلاف ، وبرهنت على أن الأيدى الأوربية كانت تعمل فى السر والعلن على إذكاء الفرقة ، وأنها تزيد فى شكوك السلطان العثمانى وفى خوفه من النصارى وتوهمه بأن هؤلاء كانوا صنيعة لأعدائه وأنهم من حلفاء أوربة ، ولها من وراء ذلك هدف معلوم هو إثارة الفريقين لتبرير تدخلها السافر فى أمور دولة مستقلة باسم حماية الدين .

وقد وفقت فرنسة فى تدخلها لجهل[٢] الباب العالى ، وجهل العامة فى البلاد ، وانتشار التبشير الاستعمارى ، فانتصرت انتصاراً مذهلا فى قسمة الجبل اللبنانى الأشم إلى فريقين وجعلته على ولايتين ، يفصل بينهما طريق

---

(١) قص الأمير شكيب سيرة الدولة العثمانية فى تعليقاته على ابن خلدون — انظر ص ٣٠١ من كتابه .

(٢) فى كتاب حسر اللثام ص ١٢٩ أن قنصل فرنسة فى بيروت وهو « ده لسبس » كان يستدعى أكابر المسلمين والدروز والنصارى إلى بيته فيأمر فيهم وينهى ، ويحكم فى قضاياهم على ما يريد ويهوى ، ويظهر للناس بكل واسطة أنه مراقب على حكومة السلطان وأن قوة الدولة صارت كلها فى قبضته ، ولطالما ألقى أناساً فى السجن وأفرج عن أناس ، ونقل الأرزاق من رجل إلى خصمه ، وحمى أصغر الخادمين فى بيته ولو أنه ارتكب أعظم الجرائم . وظن الناس أن البلاد صارت إلى قبضة الإفرنج .

يؤدى إلى دمشق . ولكن الدولة عينت على القسم الجنوبى الدرزى الأمير أحمد عباس الأرسلانى والياً ، والأمير حيدر إسماعيل أبا اللمع والياً على القسم الشمالى المارونى ، فاعترفت بشطر البلاد إلى قسمين ، ومهدت للنزاع الدائم ، وخلقت نفوراً بين الفريقين . ومع ذلك غضبت الطوائف الكاثوليكية لهذا التقسيم ، فعاد الدروز والنصارى مرة أخرى إلى النزاع المسلح وسكنت الدولة هذه الفتنة الجديدة .

ثم وقعت الواقعة الكبرى ، وكانت هذه المرة فاجعة من فواجع الوطن العربى ، وجرحاً كبيراً فى سياسة الدول الأوربية فقد عاد الدروز والنصارى إلى القتال ، وكانت مذبحة هائلة سنة ١٨٦٠ م لم تقف عند جبال لبنان وإنما تعدتها إلى دمشق نفسها ، فسقط فى ربوع سورية عدد كبير من القتلى والجرحى ، وتفجرت الدماء غزيرة زكية ووقعت حرائق كثيرة ولم تفد منها إلا فرنسة فقد كانت تبعث الحزازات وترقب المصير ، فتدخلت باسم الدول الاستعمارية هذه المرة الثانية بجيشها ، ووصل الجيش إلى بيروت العربية ، يهدد وينذر ، وكاد الأمر يتطور إلى حوادث خطيرة لأنه خروج على العرف الدولى ، حين تنتصر دولة أوربية لطائفة من طوائف المواطنين[1] ، وتضطر السلطان العثمانى إلى فرض العقاب بالسلاح . ولهذا أرسلت تركيا فؤاد باشا الداهية ونفت عدداً كبيراً من المواطنين فيهم الأبرياء والمثيرون ، تسكيناً للخواطر وإرضاءً لفرنسا ، فقبلت فرنسا هذا الحلّ وعادت بعساكرها مكرهة نزولا عند رغبة النمسا وإنكلترة اللتين دعمتا تركيا هذه المرة خوفاً من تغلغل النفوذ[2] الفرنسى فى هذه المنطقة

---

(١) لن نخوض فى أمر الموارنة وصلة بعضهم بفرنسه فى كتاب جميل بيهم ٢/١٠٣ كثير من التفصيل .

(٢) فى كتاب حسر اللثام ص ٣٨ ، أن دول أوربة تخابرت فى أمر سورية ومصائبها وقرت على إرسال جيش أوربى لإعادة الأمن ومنع الذبائح فى الشام ، ولما كانت فرنسا فى أوج عزها فقد كلفتها أوربة بالنيابة عنها بهذه المهمة ، على شرط أن تخرج الجنود الفرنسية من البلاد حال استتباب الأمن ، فأرسلت فرنسا سبعة آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال بوفور داوبول ، فوصلوا إلى بيروت فى ١٦ أغسطس ١٨٦٠ وهم ينشدون الأناشيد الفرنسية ، ويتوعدون الدروز كما فى الصفحة ٢٥٢ من هذا

أكثر مما بلغ إليه .

وهكذا غدا السلطان العثمانى تحت سيطرة المؤامرات الاستعمارية وأصبح على قلق مشين ، فقد فرضت هذه الدول نفسها لحماية الطوائف المسيحية ، وقامت تنتصر كل منها لطائفة ضد أخرى ، فكانت روسيا تنتصر للمسيحيين الأرثوذكس كما انتصرت لهم فى البلقان وكانت إنكلترا تنتصر للبروتستانت ، وفرنسة تعزز الكاثوليك . فكأن هذه الدول جعلت من نفسها جمعية الأمم قبل أن تخلق جمعية الأمم ، أو كأنها انتصبت وصية على الدولة القاصرة تحمى طوائفها ، وتردع السلطان العثمانى عن ظلمه وغيه ! وهى تعرف أنها تثير بعض المواطنين ضد بعض ، وأنها بذلك تغرس البغضاء بين نفوس الأمة الواحدة فالمسلمون والمسيحيون عرب كلهم لقبائل متصاهرة وعشائر متناسبة ، بل إن شطراً من هذه القبائل والأسر مسيحى وشطراً مسلم ، يرقون بنسبهم إلى أب واحد وأم واحدة ، فأظهرت بذلك تعصباً مشيناً ، فى تاريخ الغرب ، وخلقت شعوراً بالاشمئزاز فى قلوب المواطنين السوريين . وعرف العقلاء أن هذا التدخل لم يكن لمصلحة المسيحيين ضد المسلمين ، وإنما كان وسيلة وسبباً لبسط الاستعمار على الطرفين ، وقسمة الوطن الواحد إلى قسمين كانا على أشد الوفاق قبل بذر التفرقة بينهما ، فقد اشتركا على مدى الأجيال فى بناء الوطن العربى ، وفى تشييد حضارته وثقافته فكان من المسيحيين كما كان من المسلمين وزراء وكتاب وأعيان وشعراء لم يفرق بينهم أحد خلال عصور الحضارة العربية والإسلامية ، كما بسطنا .

والواقع أن الظلم الذى وقع على المسيحيين كان يقع مثله على المسلمين ، فقد كانت الفوضى تعمّ الطوائف كلها ، وكانت الجاسوسية والاستبداد والاستعباد مصلتة على رقاب الشعب العربى كله فى سورية ، جباله والوديان

الكتاب ، وبقى الجيش شهوراً فى بيروت بعد ذلك . والمهم فى الكتاب فرح المؤلف بقدوم الجيش الفرنسى وحزنه لذهابه كما فى الصفحة ٢٥٤ ، وقد رسم مهارة وكيل تركيا فؤاد باشا ودهاءه وألاعيبه — انظر الأتراك لشكيب ص ٢١٠ (فى تعليقاته على ابن خلدون) .

قراه ومدنه . ولكن أكثر العقلاء كان يخاف على الراية العثمانية أن تنطوى إلى الأبد،وأن تحلّ محلها رايات الدول الاستعمارية،فتصبح فى كل وطن عربى راية لدولة أوربية ، كما وقع فى الشمال الأفريقى ، بل كان أكثر المسلمين يرى فى الخلافة العثمانية ظلاً للخلافة الإسلامية ، وكان فى هؤلاء مفكرون وكتاب ، وعلى رأسهم جمال الدين الأفغانى وكاتبنا شكيب أرسلان — كما نرى فيما بعد — لذلك كان هؤلاء جميعاً يأملون أن يصيخ السلطان سمعه إلى مطالب شعبه فى كل ولاية ، وأن يسير على هدى الدستور والشورى ، وأن ينتقل بالحكم من مرابع الدكتاتورية الغافلة إلى الدستورية العاقلة ، وأن ينقذ ما بقى من هيبة الدولة العثمانية فى الداخل والخارج ، فقد استشرى الفساد فى نفوس الشعب ، وعم الفقر والخراب ، وهلعت النفوس من الظلم والاستبداد .

* * *

نضال السوريين :

فلما أصمّ السلطان سمعه ، كثرت الشكوى ، وطمع السوريون فى أمرين اثنين لا ثالث لهما ، أولهما إحلال اللغة العربية محلها اللائق ، وجعلها رسمية فى الدواوين والمدارس ، وثانيهما إدارة البلاد السورية إدارة لا مركزية . وعلى هذا لم يجاهر السوريون أول الأمر بالانفصال عن الدولة العثمانية ، ولم يطالبوا بها إلا حين استفحل الخطب ، وقويت الطورانية ، وسعى رجال الأستانة فى تتريك العرب [١] ومحو قوميتهم ، وقتل شخصيتهم التاريخية ، وأظهروا عداءهم للعرب ، وأبدوا احتقارهم لتاريخهم ، وصمموا على تشتيت رجالاتهم والفتك بهم كما فعلوا بالأرمن والأكراد .

---

(١) يقول جمال الدين الأفغانى عن العثمانيين فى خاطراته ، بقلم المخزومى ص ٢٣٦ : « وازداد تأثراً إذ أراهم يرتكبون خطأ أفضح ، وهو جريهم وراء تتريك العرب واستبدال اللسان العربى لسان الدين الطاهر والأدب الباهر وديوان الفضائل والمفاخر باللسان التركى » — ويرى كذلك بأن على الأتراك أن يسعوا بكل قوتهم وجهدهم فى تعريب أبناء جنسهم ، ولو فعلوا لكانوا فى أمنع قوة وآمن حصن من الانتقاض والخروج عن سلطانهم . فهو يسفه سياستهم ويدعم القومية العربية كأحسن العرب ، كما قلنا قبل قليل .

وقد انبثقت آراء الإصلاح منذ منتصف القرن التاسع عشر على أيدى جمعيات مختلفة ، نشأت فى سورية ، أولاها الجمعية السورية ، أسست سنة ١٨٤٧ بمعونة المبشرين الأمريكان ، ثم الجمعية العلمية ، فالخيرية . وساعدت الصحافة على جلائها ، وبدأت الأقلام بالمطالبة الهادئة ، ولكن سيف الرقابة نهض إلى إسكاتها وإخمادها ، فهاجر فريق من الكتاب إلى مصر ، وعملوا على إصدار صحافة تناصر هذه المطالب[١] .

والحق أن أكثر هذه الجمعيات وهذه الصحف والمؤتمرات كانت تطالب بالإصلاح فى دائرة « الوطن العثمانى » ، ولكن بعضها فيما يبدو كان يضمر الشر لوطنه وللعثمانيين جميعاً ، فكان يتصل بالدول الاستعمارية[٢] ، ويعمل لدولة أجنبية معينة ، فيسعى إلى الانفصال على أن يجعل قومه تحت لواء استعمارى . وكان أكثر هؤلاء يعملون فى خارج سورية ، بعضهم يوالى فرنسة وبعضهم يوالى إنكلترة ، يأساً منهم فى صلاح العرب لإدارة أنفسهم بأنفسهم ، وإنكاراً لجدارة العرب بالاستقلال التام . وهؤلاء قلة معروفون لا يمثلون الرأى العام أو الفئات الوطنية المناضلة ، وإنما هم استغلاليون وجدوا فى كل زمان ومكان من أقطار الأرض ، لاخلاق لهم ولا تربية كريمة تسوقهم إلى احترام أنفسهم واحترام أمتهم .

والمهم أن هذه الفئة الأخيرة على قلتها أثارت شكوك الأتراك العثمانيين ، وأساءت إلى خطة العرب الأحرار ، فاتهم كل حر يسعى إلى الإصلاح بأنه يعمل لصالح الدول الأجنبية وخاصة بعد خلع السلطان عبد الحميد

---

(١) فى كتاب « القومية العربية » للأمير مصطفى الشهابى تفصيل شاف عن هذه الحركات طبع مصر ١٩٥٩ .

(٢) يقول محمد جميل بيهم : « ومن المؤسف أن هذا الصوت لم يكن يصدر فى أوربة عن قوميين مخلصين وإنما كانوا موتورين أو وصوليين أو مأجورين للأجانب ، فقد أصدر إبراهيم المويلحى جريدة الخلافة فى نابولى سنة ١٨٧٩ ، انتقاماً للخديوى إسماعيل ، والدكتور لويس صابونجى نشر جريدة تحمل اسم الخلافة سنة ١٨٨١ ومجلة الاتحاد العربى وكان يعتمد على أموال بريطانية . وأصدر خليل غانم فى العام نفسه بباريس جريدة البصير ، وكانت تغذيها الأموال الفرنسية » .

سنة ١٩٠٩ ، وقد انقضى القرن التاسع عشر بشره وقلقه ، فشهد تمزيق الدولة العثمانية[١] ، وعرف النكبة الكبرى فى سلخ الدول العربية عنها ، وجعلها تحت وصاية الدول الاستعمارية . وأصبح من العسير أن يصدق العثمانيون طيب النوايا العربية فاشتدوا على العرب وخاصة بعد سيطرة جماعة « الاتحاد والترقى » على الحكم . فقد ظهر هؤلاء أول الأمر بمظهر التآخى مع العرب ، وتعاونوا معهم على خلع عبد الحميد ، ولكنهم قلبوا للعرب ظهر المجن ، وراحوا يبطشون بالجمعيات العربية المخلصة فى الآستانة وغير الآستانة. وبدءوا بنفى الضباط والقبض على الزعماء من العرب ، وشرعوا فى تتريك البلاد العربية ، وقتل الشعور القومى فيها ، فكان أن طما السيل على العرب ، وانتقلوا بعد وقوع الحرب العامة إلى عداء سافر بين الترك والعرب ، وإلى حرب بين القومية العربية والقومية التركية الطورانية ، بعد أن كان فى القرن التاسع عشر مجرد المطالبة بالإصلاح ضمن السلطنة العثمانية .

أجل لقد بدا للعقلاء من العرب أن شقة الخلاف بعيدة ، وأن الأمل الذى عقدوه على إصلاح حالهم وصلاتهم ، وتنقية الرابطة بينهم وبين العثمانيين قد غدا سراباً . فتوجهوا إلى النضال والكفاح واعتمدوا على قوميتهم العربية ، وقد قويت فيهم عقيدتها ، عن سبيل التجارب الماضية والاتصالات الكثيرة بالغرب وثقافته ومدارسه . فقد زرع الغرب فى قلب سورية مدارس كثيرة كانت كافية لفتح أعينهم على النور الجديد ، درس فيها العرب تاريخ أوربة وتحررها من الظلم والإقطاعية ، ويقظة القوميات فيها ، كما درسوا فيها تراثنا الماضى وتاريخنا القديم وبطولاتنا العارمة ، فاستيقظ فى المثقفين شعور بالعزة العربية القديمة ، وافتخار بالأدب العربى واللسان العربى ، وأحسوا بوجوب مجاراة الغرب فى

---

(١) يأخذ جمال الدين الأفغانى على الأتراك أنهم توغلوا فى أوربة وشبه جزيرة البلقان ، وأنهم جعلوا القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة فى قلب البلاد الأوربية ويرى أن خطأهم فى هذا يعادل خطأهم فى عدم تعميم اللسان العربى على الأتراك انظر خاطرات جمال الدين المخزومى ، ص ٢٣١ وما بعدها .

يقظته ، واللحاق برفعته وحضارته ، فهم أبناء حضارة قديمة علمت أوربة وأسدت إليها يدا كبيرة ، فلا عليهم إن أخذوا من الغرب بعض ما لهم عليه من دين ، وأفادوا منه فى نضالهم الفكرى والاجتماعى والسياسى .

وتأثر المثقفون من العرب بزعماء الإصلاح فى العصر الحديث فقرءوا آراء المفكرين من الجنسيات المختلفة ، واهتزوا لآراء «مدحت باشا» فقد جاء والياً على سورية سنة ١٨٧٨ ، وسار فى إصلاحاته ، فمتح الشوارع وبنى الجسور وسهل المواصلات ، وجعل فى دمشق شارعاً كبيراً سمى باسمه ، ونشر الأمن ، وعلم الناس التواضع والشورى والحرية والدستور ، فكان مع محمد بن عبد الوهاب وإبراهيم باشا[١] ثالث ثلاثة خدموا بحركاتهم السياسية يقظة الأمة العربية[٢] . وتأثر المثقفون كذلك لصيحات جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى وثلاثتهم كذلك ينادون بقوة اللغة العربية ، وعظمة الفتوحات الإسلامية والحضارة العربية ، وكلهم ينادون بالعودة إلى استعمال اللغة العربية . فكان السيد جمال الدين يدعو إلى ولايات إمبراطورية من الأقطار العربية على كل منها خديو يكون تابعاً له ، وكان الكواكبى ينادى بالخلافة للعرب ، لأنها لا تكون طبعاً إلا فيهم وفى قريش ، فدعا إلى أن تكون العاصمة مكة أم القرى ، وألف كتابيه « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » فرسم خطة مقبلة لسياسة الجيل العربى على أسس جديدة ، ومقاومة الطغيان التركى ، وصور الخلافة العثمانية ؛ ووصف احتقار الأتراك للعرب مؤخراً على

---

(١) فتح ابراهيم باشا مدارس فى حلب ودمشق ليرضع العرب أفاويق الوطنية والثقافة العربية .

(٢) يقول الأستاذ محمد جميل بيهم فى حديثه عن ولاية مدحت باشا على سورية (١٨٧٩ — ١٨٨٠) إنه كان يرمى إلى الاستقلال فيها ، بالاتفاق مع المشير أحمد أيوب باشا ، على أن يكون كخديو مصر . وكان يعتمد على فرنسة فى تحقيق أمنيته ، فأطلق الحرية ، وقرب أبناء الأسر ، ونصبهم فى الوظائف الكبرى وعمل على توحيد قلوب الطوائف وهو وإن لم يكن يرمى إلى تنشيط الفكرة القومية العربية ، ولكن مساعيه أفضت إلى نشاط قومى فى الشام . ونحن نبسط الرأى لوصف العصر ، ولا نعلق عليه لأنه ليس من صلب بحثنا فى شيء .

أبعد ما يكون الوصف وأصدق ما يكون الكلام ، وأصرح ما تكون الكتابة[١] ومحمد عبده كان ذروة فى فهم الحضارة العربية والإسلامية ، وكان داعية لقوة البيان ، وسعة الحرية ، وعمق الثقافة ، وتكوين جيل عربى واع .

وسمع العرب كذلك بأنباء النضال العربى فى الجزائر ، فرأت دمشق الأمير « عبد القادر الجزائرى »[٢] فى بيوتها وقرأت له ، وعرفته بين ظهرانيها ، فقد اجتمعت إليه بعد عودته من انكسار الجزائر ، وخداع الفرنسيين له سنة ١٨٤٠ ، وتأكدت بأن البطولة العربية ما تزال حية فى النفوس وأن الأبطال من العرب أحفاد ابن الوليد وابن الجراح ما يزالون يعيشون فى القرن التاسع عشر على توثب وتحفز كما كان يعيش أجدادهم ، يأبون الذل ويكرهون العبودية ، ويسعون إلى رفعة العرب . وقد أطرب الأسماع صوت إبراهيم اليازجى يدوّى :

تنبهـــوا واستفيقوا أيها العرب   فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

لذلك كله وقف العرب موقفاً حاسماً من قضيتهم الكبرى ، فقام جماعة منهم يطالبون صراحة بالاستقلال الداخلى ضمن الاتحاد مع الحكومة العثمانية على أن تبقى الخلافة لآل عثمان ، وصرفوا همهم إلى اللغة العربية وإلى اللامركزية. وكان زعماء هذه الجماعة يقولون : « إن العرب ألفوا الترك والترك ألفوا العرب » فلا سبيل إلى الحرب بينهما ، ولكن تسوى الأمور بالحسنى والمفاوضات .

وقامت جماعة أخرى ترمى إلى استقلال البلاد العربية خالصة من أى سلطة ، مهما كانت الضحايا ، لأن الأمة العربية جديرة بالعز والاستقلال والحرية ، لا تقل عن الأمة العثمانية فى شىء ، بل إنها أشد عراقة لأنها تملك تاريخاً قديماً وحضارة موروثة .

وظن العرب أن المفاوضات تنجح بين الترك والعرب ، وأن الحجة العاقلة منتصرة على الطيش والغطرسة ، وعاشت الجمعيات على نشاط كبير واتصال

---

(١) فصلنا الكلام عن الكواكبى فى كتاب نشرناه بمصر ، فى دار المعارف سنة ١٩٥٨ ، وفيه بيان لهذه الآراء ونصوص تدعمها .

(٢) اقرأ سيرة الأمير بقلمه فهى مفصلة عاطرة ، فى صفحاتها خير كثير .

مستمر فى سبيل ذلك ، وكلها أمل فى أن يفهم الأتراك صداقة العرب وقيمتها . وكانت السياسة التركية تراوغ وتداور أول الأمر ، حتى كانت الحرب العامة الكبرى ، فراح الاتحاديون يبذلون الوعود والعهود ، وسكن العرب لئلا يضعفوا جبهة الأتراك فى الحرب الضارية ، أملا بأن يحصلوا فيما بعد على ما يؤملون ، فاشتركوا مع الأتراك فى نضالهم ضد الحلفاء ، وسمعوا « جمال السفاح » يخطب فى دمشق ود العرب[1] ، ويتحدث عن أمجادهم وأمانيهم ، فخدعوا كما خدع الكتاب السوريون فقد دعاهم جمال باشا إلى كتابة مقالات فى جرائد المقتبس والمفيد والشرق والأمة ، تدعو إلى جمع كلمة العرب حول الدولة العثمانية فى محنتها . فاجتمع كبار الكتاب من السوريين لهذه المهمة ، وفيهم محمد كرد على وعبد القادر المغربى وشكيب أرسلان وغيرهم ، وراحوا يبثون فكرة التآخى ، ويلوحون لقومهم بالصبر ، حتى تكشف الغدر ، حين أرسل جمال باشا الوحدات العربية إلى الأناضول لتحل محلها الكتائب التركية فى سورية ، يريد إخماد القوة العربية ، وقتل الكفاح العربى ، فى أواخر يونيو سنة ١٩١٥ ، وقبض على الزعماء العرب والأحرار المناضلين ، وعلق على المشانق الشخصيات البريئة من كرام العرب وخيارهم فى سورية ، فأفاق الناس فى صباح ٢١ أغسطس سنة ١٩١٥ على غدر بشع لا يشبهه غدر ، فقد رأوا أبناءهم البررة يتأرجحون على أعواد الموت تهزهم الريح التى هبت منذ ذلك الصباح لتدوى بعد ذلك بكل واد ، وتصرخ بالثأر فى كل بيت ، وتهيب بالعرب إلى الكفاح ، ولتذهب بعرش العثمانيين مع كل صدى .

* * *

(١) فى الصحف التى نملكها نص هذا الخطاب ، وخاصة فى جريدة الشرق ، لسنة ١٩١٥ ، وفيه يتهم الثوار العرب بالخيانة والتواطؤ مع الأجانب ، ويقدم لذلك ببيان معسول الألفاظ .

استقلال سورية :

ويبدو أن الأخطاء التى اقترفها الأتراك ضد العرب ، والحملة التى قام بها الشباب المتهورون[١] من جمعية الاتحاد والترقى ، قد وسعت شقة الخلاف ، فتحولت الفكرة عند العرب من اللامركزية إلى الاستقلال . وقامت الجاليات اللبنانية السورية تعمل فى مصر بنصيب وافر من النشاط ضد الأتراك ، وآمن العاملون فى حقل السياسة بأن الأمور تسير إلى قطع كل صلة ماضية ، وأن سياسة الخلافة والاتحاد الإسلامى والجهاد المقدس كانت لتخدير العرب والغدر بهم ، وتحويلهم إلى شعب مستعمر ، فنهضوا بفكرة جديدة لشطر العرب عن الأتراك ولو أدى ذلك إلى إشهار السيف عليهم ، فقد برهن الساسة الطورانيون أنهم لن يتورعوا عن البطش بالعرب وضربهم بالسيف ، وأحسّ الغربيون بهذا النفور ، وعرفوا ما قام من تناكر بين الجانبين ، وأسرعت بريطانيا باسم الحلفاء تجسّ نبض العرب ، ورسمت خطتها فى التقرب منهم ، وبذل الوعود المعسولة ، والتعهد بتحقيق الأمانى الغالية ، وذلك لعزل الشعب العربى عن الترك خلال الحرب الدامية ، وبهذا يكسب الحلفاء رقاعاً كبيرة إلى جانبها من غير حرب ، وتبعث فى نفوس سكانها نفوراً ضد الترك ، فكأنها خلقت جبهة داخلية معها ، لا تكلفها إلا سطوراً على ورق .

وكان أن اتصلت بريطانيا بالشريف حسين ، وكلفت السير مكماهون ممثلها فى مصر بالتفاوض معه ، فأبى الشريف أول الأمر ، ولكنه اضطر إلى قبول المفاوضات ، فوضع العرب فى كفة الحلفاء ، واضطرهم إلى أن يدخلوا بلادهم فى باب المساومة قبل نهاية الحرب . وأصبح العرب ينتظرون تحقيق استقلالهم على يد الحلفاء ، على أن يساهموا فى محاربة الأتراك .

وانطلقت رصاصة الثورة العربية ، وهبّ العرب لنصرة الجيش العربىّ الجديد ، تحت راية الحسين وأولاده ، والحسين وأولاده كانوا على صلة بالسياسة

---

(١) يبدو أن أكثرهم تأثر بآراء اليهود الأتراك « الدونمة » فعملوا بدسائسهم .

العثمانية ووقوف تام على مراميها ، فقد أقاموا فى ضيافة الأتراك بالآستانة قرابة خمس عشرة سنة ، واتصلوا بالثقافة العربية والتركية ، وخبروا أمور الحكم وحال الإدارة عن كثب ، وفهموا أوضاع العرب والترك وأدركوا أمانى العرب وما يعتلج فى صدورهم من تحفز للاستقلال وسعى إلى الكرامة والعزة .

ووفى العرب بعهودهم للحلفاء وحاربوا ضد الأتراك حلفائهم بالأمس ، وانتصروا عليهم ، وكانت فرحة كبرى بتحقيق أول ملك عربى لهم فى دمشق بعد أن اختفوا عن مسرح الحكم خلال خمسمائة سنة . وصفقت القلوب اعتزازاً ، وتزينت دمشق لهذا العرس الجديد ، وبرقت الأمانى بعودة العرب إلى سالف أمجادهم ، وخيل إلى الناس أن « بنى أمية » عادوا إلى عرشهم فى دمشق وأن بغداد ومكة تنضمان تحت هذه الراية العربية الخفاقة ، وأن الزمان بسم بعد عبوس . ولكن الحلفاء كانوا بالمرصاد ، قد أحكموا الوقيعة والدس ، فقاموا بمسرحية بارعة فى الدناءة ، فدخلت فرنسة من لبنان إلى سورية ، على غدر شنيع فمرت على جثث الأبطال من سورية ، وكانت معركة « ميسلون » ، وكان انسحاب فيصل إلى بغداد .

ووضح الأمر للعرب ثانية فعرفوا أن الخديعة قد تمت عليهم ، وأن تقسيم أقطارهم قد رسم فى باريس ولندن ، وأن هاتين العاصمتين قد وزعتا الأرا ضى بينهما ، فلبنان وسورية لفرنسة ، وفلسطين والعراق لإنكلترة ، وأن مسرحية الأمانى العربية قد انتهت بالفاجعة فى القضاء على استقلال العرب ، واستعمارهم تحت ستار جديد هو الانتداب الأوربى .

وعاد العرب إلى النضال من جديد ضد الحلفاء ، منذ سنة ١٩٢٠ ، معتمدين هذه المرة على أنفسهم ، بعد أن فهموا أن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى ، وأن الحرية تبنى على الجماجم وتكتب صفحاتها الحمراء بالدماء ، فكانت ثورات ومظاهرات ، وإضرابات ، لم يهدأ خلالها الشعب السورى فى الداخل . فقد قامت المظاهرات فى كل بلد وقرية ضد المنتدب الجديد ، فلم يعرف هدوءاً ولا قراراً ، ولم يستطع أن يفكر فى سكنى سورية نهائياً كما فكر فى مستعمراته ،

وقامت الثورات الدموية فى دمشق وحوران وجبل العرب ، فسجلت انتصارات رائعة اهتزت لها أركان فرنسة المحاربة ، وتهدمت البيوت ، وامتلأت السجون ، وغلت المراجل حقداً وثأراً ضد الغاصب المستعمر . وتأثر الشعب العربى فى أقطاره لنكبات سورية ، وانتصر لها بالمال والسلاح والدعاية ، فتوثقت عرى الأخوة وولدت بشائر وحدة الشعب العربى على جسر من الآلام والمصائب .

وناضلت سورية فى الخارج كذلك فاستنفرت أبناءها فى مصر وأمريكة وكلفت خيرة رجالها للمطالبة بحقوقها على مقربة من جمعية الأمم ؛ فكان « شكيب أرسلان » فى هذا الوفد الدائم المطالب المنافح المدافع ، يخطب ويكتب ، ويقابل المسئولين ، ويذكر بوعود الإنكليز ويسألهم عن رسائل مكماهون مع الشريف حسين ، حتى وقعت الحرب الثانية .

وتقدمت جيوش النازية فى كل مكان ، واستعمرت بلاد فرنسة المنتدبة نفسها ، وذاق الفرنسيون بعضاً مما كانوا يذيقون العرب ، وبذلت الوعود ثانية للعرب إذا ما وقفوا هذه المرة إلى جانب الحلفاء ، فقد أحاط الألمان بتخوم العرب ، وراحت دعاياتهم فى نصرة الإسلام والعرب تزرع البيوت وتصمّ الآذان، ولكن العرب وقفوا عقلاء أذكياء، فأعلنوا الحرب على النازية، وصمموا على استثمار النصر واستخلاص بلادهم . فلما انتصر الحلفاء هبّ العرب إلى هيئة الأمم الجديدة فى أمريكا ، يطالبون بتنفيذ الوعود المقطوعة . فتنكر الفرنسيون ثانية ، ولكن السوريين نهضوا لهم بالسلاح وسقطت الضحايا تترى ، وكادت الحرب تقع على مدى واسع عالمى ، فتدخلت الدول لمنع فرنسة من ارتكاب حماقة جديدة تودى بالسلم .

وأفاد العرب من خلاف أوربة الشرقية والغربية ، وعاشوا فى هيئة الأمم أياماً مريرة يسمعون فيها مطالبهم من جديد ، فكتب لهم النصر واستقلت سورية ، واستقل لبنان ، بعد جهود كثيرة وجهاد طويل ، خرج منه البلدان على فقر فى الاقتصاد ، وضعف فى المال ، وذلك لأن الثعالب مرت بكروم العنب فلم تبق على ثمر ، وتركت الشجر عارياً يرفع أيديه بالدعاء على المستعمرين .

وعاد البلدان إلى استكمال استقلالهما بالسلاح والاقتصاد وانصرفا إلى إعداد مستقبلهما ، فى سبيل الانضمام إلى العرب فى كل قطر لتحقيق الأمانى الغالية التى كتبها العرب منذ ثورتهم الأولى فى القرن السابع للميلاد . وعاد شكيب أرسلان إلى بلاده ليشهد هذه الأيام الجميلة وقد سقط العلم الفرنسى إلى غير رجعة ، وتفتحت عيون الآمال إلى غير إغماض ، ولكن الله أراد أن يعيش أياماً قليلة ، يغمض بعدها عينيه فى تربة أهله وأجداده ، بعد أن جاهد فى السياسة بقلمه ولسانه حتى آخر نفس من أنفاسه ، فكانت له خطة معينة اختطها بين ألوان الرأى فى الجهاد السياسى ، سنبينها حين الحديث عن حياته ، بعد أن بينا حال السياسة فى بلاده وتياراتها المختلفة ، كمقدمة لفهم سياسته الشخصية فى حياته وآثاره .

الفصل الثانى

صورة العصر

الحالة الثقافية والأدبية

الكتابة والقراءة — المطابع — المدارس
الصحافة والجمعيات الأدبية — الشعر فى سورية

الكتابة والقراءة :

بسطنا فى الفصل السابق صورة للحال السياسية فى عاصمة الخلافة وفى الولايات العربية ، ورسمنا القلق الذى كان يستحوذ على هذه الرقعة من الشرق ، والفوضى التى كانت تتحكم فى الإدارة ، وعرضنا لمؤامرات الدول الاستعمارية على الدولة العثمانية والعرب جميعاً . وعرفنا أن هذه البقعة الكريمة لم تعرف القرار والهدوء فى الداخل والخارج ، فلم تستطع أن تتلفت إلى أمر الثقافة والمعرفة لأنها كانت فى خوف من المؤامرات المختلفة التى كانت تنصب على رأسها وتحوم حولها ، لذلك نستطيع أن نستنتج حال البلاد العربية وخاصة سورية تحت الحكم العثمانى ، فى الثقافة واللغة والأدب . فقد فشا الجهل وانتصرت الأمية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فلما انتصف القرن كتب المعلم بطرس البستانى صاحب دائرة المعارف (١٨٢٠ — ١٨٨٢) يصف حال الثقافة فى زمانه سنة ١٨٥٩ ، وما قبلها فى أسلوب متهكم :

« لو كلفت[1] الوقوف أمام سيادتكم لأجل الكلام عن هذا الموضوع نحو

---

(١) « مجانى الغرر لكتاب القرن التاسع عشر » ، جمعه يوصف صفير : بعبدا (لبنان) ١٩٠٦ وفيه خطبة للمعلم بطرس البستانى سنة ١٨٥٩ ، أى قبل عشر سنوات من ولادة شكيب أرسلان — انظر ص ٣٨ وما يليها .

ثلاثين سنة قبل الآن لكنت أخجل . . . لأنني حينئذ كنت ألتزم أن أجول فى أسواق هذه المدينة — حتى لا أقول فى كامل البلاد التى كانت فى الأزمان السالفة مرضعة للآداب وسريراً للتمدن — وأفتش باجتهاد على من يقدر أن يقرأ مكتوباً أو كما يقال يفلك الاسم » . فهو يصف الحال فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر على هذا الضعف والفقر ، ثم يقول : « وأما الآن فإنه يوجد أمور كثيرة تقوى آمالنا فى المستقبل ، ومع أننا مدينون فى أكثر هذه الأمور للغرباء ، يمكننا أن نرفع رءوسنا بما وجد منها عندنا مع قطع النظر عن مصدرها » وبذلك يبين الرجل كيف قفزت الثقافة خلال ثلاثين سنة من يأس مرير إلى أمل بالمستقبل ، ونحن نتابع وصفه لهذا الأمل وهذه الحال حين يرسم الثقافة قبل عشر سنين من ولادة شكيب أرسلان فيقول فى أهل زمانه :

« إن العرب فى أيامنا هذه قنوعون جدّاً فى أمر الآداب فإنهم يكتفون بأقلها ، ويحسبون أنفسهم أنهم قد وصلوا إلى أعلى طبقات العلم مع أنهم لم يقرعوا بابه . ومن تعلم منهم كتاب الزبور والقرآن يقال إنه قد ختم علمه ، وإن تعلم شيئاً من أصول الصرف والنحو يقال فيه إنه قد صار علامة زمانه ، وإذا نطق بالشعر فلا يبقى عندهم لقب يصفونه به » .

ثم يقول : « أما العلوم اللغوية فإننا قلما نجد أحداً من أبناء العرب يمكن أن يشار إليه بالبنان بأنه يعرف لغته وقواعدها حق المعرفة . فإنهم فى الأكثر يكتفون من علم اللغة بحفظ بعض كلمات غريبة ميتة يدرجونها فى كتاباتهم وأشعارهم بقصد إظهار معرفتهم والتمويه على الجمهور » . ويصف حال الرياضيات والفلك والطب ثم يقول : « وأما صناعة الإنشاء فهذه منحصرة فى نقل بعض كتابات قد ورثناها من المرحومين ، وأما الخطب فهذا ميدان الدينى منها المنابر ، وميدان الدنيوى القهاوى ، ولا يدخل فى هذا الميدان إلا من كان خشن الصوت حسن الذاكرة ، يحفظ بعض حكايات من قصص السندباد البحرى وبنى هلال وما أشبه ذلك من الحكايات الموجودة فى كتاب ألف ليلة

وليلة وغيره ، ويحكيها على من حضر فى القهاوى » . ويقول بعد ذلك : « وأما الشعر الذى من شأنه أن يتقدم جنازة الآداب أو يبشر بولادتها فبابه مفتوح عفواً لمن أراد الدخول ، وكل من حافظ على القوافى وألبس معانى الأقدمين أخلاق ثياب ، فهو شاعر ، ولكن إذا أبدع بأنه أتى بكلمات غير مفهومة وأظهر مهارة وبراعة فى التضمين والاقتباس حتى لا أقول فى السرقة من الأقدمين فهو خنذيذ[١] » .

وهذا الكلام فى وصف العصر هام جدًّا ، لأنه وثيقة معاصرة كتبها شاهد عيان ، فرسم حال الجمهور وعامة الناس ، ولكنه لم يتطرق إلى النوابغ الذين نبتوا وترعرعوا ، فلم يشتهروا فى أيامهم كما اشتهروا بعد ذلك ، والمهم أن « البستانى » بسط صورة عامة للثقافة وأراد أن يثير الهمم والقرائح إلى الجد والإنتاج ، فأزرى بالمقصرين ، وهزئ بالمتخلفين ، وأراد أن يكون قومه فى أدبهم ولغتهم وثقافتهم على مستوى الغرب ، فقد كان بطرس البستانى واقفاً على ما فى أوربة ينهل من معارفها بلغاتها .

ومهما يكن من أثر هذا الوصف وأسلوبه ، فنحن محتاجون إلى أن نبين فى شىء من التفصيل حال المدارس والمطابع والصحف ، لنصل إلى أثر النوابغ فى هذا العصر ، وتأثيرهم فى شكيب أرسلان .

فقد كانت المدارس أول الأمر قاصرة نادرة ، ولكن الكتاتيب كانت منتشرة قرب الأديرة أو الجوامع لتلقين الكتب السماوية وتلاوتها وتبصير المؤمنين بأمر آخرتهم ، فالشعور الدينى كان أول حافز على التعلم والتفهم ، لأسباب كثيرة ليس هنا مجال البحث فيها . ثم أضيف فى هذه الكتاتيب أمر تبصير الطلاب بشىء من النحو والصرف والحساب والخط ، فكانوا يخرجون من عاميتهم إلى شىء من الكتابة والقراءة ليستعينوا بهما على أمور الحياة العادية .

ولم تكن المدارس وحدها نادرة فى صدر هذا القرن بل كانت الكتب

---

(١) الخنذيذ ، الشاعر المجيد المفلق ، والعالم بالشعر ، والخطيب البليغ .

كذلك عزيزة الوجود فى البلاد العربية ، فإذا وجدت فهى غالية الثمن لا تبلغ إلا إلى أيدى الأغنياء والموسرين الذين كانوا غالباً يزينون بها صدور بيوتهم ويتباهون بها كما يتباهون بالأثاث والرياش الثمين . وكانت المطبوعات العربية فى أوربة قليلة فى الشرق كذلك ، لا تعرفها إلا القلة المحدودة ، وأما مطبوعات الشرق فقد كانت محصورة تقريباً بخزائن السلطنة العثمانية وبيوت الوجهاء والمتنفذين فيها وفى الأقطار العربية .

أما المكتبات والخزائن فقد كانت تحوى المخطوطات القديمة وبعض المطبوعات ، ولكن الأيدى لم تكن تصل إليها بسهولة ، وقد وصفها المعلم البستانى فقال[1] : « ومع أنه يوجد مكاتب كثيرة خصوصية فى هذه البلاد ترى بخل مقتنيها أو متوليها من الجهة الواحدة ، وعدم أمانة مستعيرى الكتب من الجهة الأخرى ، يقفلان عليها أبواباً حديدية ويتركانها لرحمة العث ومأوى للغبار . ولكن ما الفائدة من تكثير الكتب إذا لم يكن من يقرؤها ؟ »

وندرة الكتب والمطبوعات تعود فى الشرق إلى ندرة المطابع فقد كان فى لبنان أوائل القرن الثامن عشر مطبعة عربية واحدة فى قرية « الشوير » تعنى بالكتب الدينية فحسب فلا تتلفت إلى المطبوعات المدرسية . وكان فى حلب مطبعة عربية كذلك ، ولكنها بطلت بعد وفاة منشئها سنة ١٧٢٤ ، وأنشئت مطبعة عربية فى مصر قبيل مطلع القرن التاسع عشر ، وذلك حين قدم نابليون فاتحاً مستعمراً ، فصحبته مطبعة عربية سنة ١٧٩٨ ، أخرجت عدداً من النشرات وفيها كتاب للتهجئة بالعربية والتركية والفارسية ، لخدمة الجيش وأنصاره من التراجمة وعمال الإنشاء والدواوين ، وللدعاية الحربية .

وأما عاصمة الخلافة « الآستانة » فقد ظهرت فيها الطباعة العربية على عهد السلطانين سليم ومحمود ، فأخرجت عدداً من المؤلفات العربية والتركية لا يتجاوز الثلاثين ، وفيها « القاموس المحيط » .

والحق أن الطباعة العربية لم تنطلق على مدى أوسع إلا فى عهد « محمد على »

---

(١) مجانى الغرر ، ج ١ النثر ، ص ٤٢ .

والى مصر ، فقد رغب فى نشر المعارف ، وأنشأ مطبعة بولاق الشهيرة ، سنة ١٨٢٢ وظلت تعنى بالكتب العربية ربع قرن أصدرت خلاله خمسين كتاباً تقريباً فى العربية والتركية والفارسية ، تناولتها الأيدى ، ودخلت بيوت العلم ، وغمرت « الأزهر الشريف » بمصر وكان أحسن حصن من حصون المعرفة لذلك الزمان ، فنبغ فيه بعض الكتاب والشعراء ، وأصبح النور يختلف إلى المجالس والدور ، ويرفرف فوق الرءوس بعد طول ظلام .

وما كاد الثلث الأول من القرن التاسع عشر ينقضى حتى انتشرت المطابع العربية فى الشرق ، فقامت بمصر مطبعة بولاق بنصيبها الوافر ، إذ طبعت ثلاثمائة كتاب تقريباً ، أكثرها فى العلوم المستحدثة كالرياضيات والطب والجراحة ، وأقلها فى الأدب . وقامت فى جهات الشام ثلاث مطابع[١] أولاها مطبعة الأمريكان وقد نقلت سنة ١٨٣٤ من مالطة إلى بيروت ، وثانيتها اليسوعية ظهرت سنة ١٨٤٨ ، وثالثها فى القدس الشريف ، مطبعة الآباء الفرنسيين باشرت أعمالها سنة ١٨٤٦ للميلاد . وظلت هذه المطابع تؤتى أكلها ، وتدفع ثمارها إلى العقول والأذهان خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر[٢] ، حتى كانت ركناً من أركان النهضة العلمية والأدبية فى البلاد العربية ، فطبعت الكتب العديدة وازدهرت المدارس بفضلها ازدهاراً كبيراً .

* * *

(١) فى خطبة بطرس البستانى سنة ١٨٥٩ أن فى بيروت آنذاك خمس مطابع أو ست .

(٢) فى كتاب حسر اللثام عن نكبات الشام ، ص ١٥ يصف الحال بعد سنة ١٨٦٠ م : « فى بيروت من المطابع الكبرى عدد كبير فهى تطبع الكتب لكل بلاد الشام ولسائر المشرق . وجرائد الشام عن بكرة أبيها تطبع فى هذه المدينة الزاهرة ما خلا ثلاثة هى طرابلس فى المدينة التى تسمى باسمها والفرات فى حلب وسورية فى دمشق ، والجريدتان الأخيرتان من جرائد الولايات الرسمية .

المدارس :

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر ، نهض لبنان إلى إنشاء المدارس الصغيرة والكبيرة ، فكانت فى القرى وفى المدن ، وفى الجبال والوديان ، تعلم العربية وتعنى بها ، وذلك لأمر سياسى دينى هام[1] ، فالعثمانيون فرضوا التركية على مدارس الحكومة لأنها تؤهل غالباً للوظائف الرسمية ، ومفتاحها معرفة اللغة التركية للتفاهم مع أولى الأمر فى الولايات وفى عاصمة الخلافة ، فأقبل إليها المسلمون يدرسون فيها التركية وآدابها ؛ والفنون والعلوم يدرسونها بهذه اللغة الغالبة لغة الحكم والدواوين والمعرفة الرسمية . وكانت اللغة العربية فيها لغة ثانوية أجنبية تدرس أصولها بالتركية دراسة سطحية ، على أيدى أتراك أو مثقفين بالتركية ، فالقواعد تلقى بالتركية وأمثلتها تعطى بالعربية ، كما كانت تدرس بعض اللغات الأجنبية عندنا منذ سنوات . ولذلك كان المدرسون قلما يعنون بالعربية ، فإذا فعلوا فذلك لتعليم القرآن وتلاوته وتجويده – كما قلنا – ، على أن يشرح بالتركية شرحاً مبتوراً لا يلم بألفاظ الحرية ولا يبعث على تفهم كرامة الإنسان ، لأن ذلك كان محرماً أشد التحريم . وعلى هذا كان التعليم فى مدارس الحكومة لا ينشط الأدب العربى ، ولا يشجع الشعر والترسل كأنهما من زخرف الثقافة والكماليات كما كانت الموسيقا والرسم والفنون الجميلة منذ عهد قريب .

لهـــذا كله انصرف المسيحيون وغيرهم إلى المدارس الخاصة ، فأقبلوا على مدارس الإرساليات الدينية والمدارس الأهلية الطائفية ، فقد كانت وحدها هى التى تعلم العربية وآدابها ، وتعنى بها فى قوة وشغف وحرية كرهاً للغة

(١) فى كتاب حسر اللثام عن نكبات الشام طبعة ١٨٩٥ ص ١١ ، يقول مؤلفه عن معارف الشام : « فحيث يكثر الأجانب والمرسلون تكثر المدارس والكتب ، وحيث يقل عددهم تقل المعارف ، وليس للحكومة من المدارس إلا الشيء القليل ، وهى قاصرة على أولاد المسلمين » وقال بعد ذلك إن الفتيان والفتيات أقبلوا إلى مدارس الإفرنج على أشكالها ، كما نزح فريق كبير منهم إلى القطر المصرى وأميركا وأوربا – انظر كلام البستانى فى عدد المدارس ص ٤٣ ، مجالى الغرر .

العثمانيين ، وإثارة لعاطفة الكرامة والحماسة والوطنية ، فخدمت بذلك القومية العربية خدمة غير مباشرة وحفظت لسان العرب وشجعت الشعر القومى ، وفيها تخرج شكيب أرسلان — كما سنرى بعد قليل — .

وهذه المدارس أنشئت أول الأمر بهمة أصحاب الخير ورؤساء الطوائف لإنقاذ الأطفال الذين لا يجدون مكاناً يتعلمون فيه لغتهم العربية ، فنشأت مدارس عين ورقة ، وعين تراز ، والشرفة ، وغيرها . وقد أنشأ مدرسة عين ورقة البطريرك يوسف اسطفان المتوفى سنة ١٨٢٠ ، وتخرج بها بطاركة وأساقفة وأدباء ، وأنشئت مدارس غيرها على غرارها ، لا مجال لتعدادها ، وإحصاء النوابغ الذين تخرجوا عليها[١] .

وكان لحوادث السياسة المزعجة أثر كبير فى إنشاء هذه المدارس ، فقد حدثت فتن ومذابح أقواها فتنة سنة ١٨٦٠ بين النصارى والدروز — كما بسطنا — فى الفصل السابق فنزح اللبنانيون والسوريون إلى بيروت خوفاً من تكرر الحوادث والفتن ، وأصبحت بيروت تعج بالوافدين من هذه الأسر ، وتضج بالحركة الاجتماعية ، وتستقبل الأجانب من كل فج ، للتجارة والدعاية والتبشير ، فى ظل الامتيازات الأجنبية . وبذلك غدت بيروت مدينة الشرق الأوسط ، واكتسبت أهمية ثقافية وعمرانية واجتماعية ، تتصل بالغرب فى عقر دارها ، وتسمع اللغات وراء جدرانها وفى ساحاتها وبيوتها ، واستلزم ذلك كله إنشاء مدارس تعنى بالعربية واللغات الأوربية على حد سواء . فنشأت نهضة اجتماعية وأدبية فى سورية — وبيروت نافذتها على العالم — . وفتحت أبواب التجارة على مصراعيها ، وأقبل إليها الأجانب ، وانتشرت فيها المطبوعات العربية من

(١) فى هذا الكتاب نفسه ، ص ١٢ : « وأما المدارس فى بلاد الشام فكلها للأجانب ما خلا الشىء القليل منها ، وأشهرها المدرسة الكلية للمرسلين الأميركيين فى بيروت ومدرسة القديس يوسف للمرسلين اليسوعيين والمدرسة البطريركية لطائفة الروم الكاثوليك ، ومدرسة الحكمة لنيافة المطران يوسف الدبس رئيس الطائفة المارونية فى بيروت ، والمدرسة الرشدية للحكومة المحلية ، ومدارس البنات كثيرة . . . وفى البلاد مدارس أخرى أشهرها فى جبل لبنان ، كمدرسة عين طورة ومدرسة قرنة شهوان ، ومدرسة عين ورقة ، ومدارس برمانا والشوير وغيرها والثلاث الأخيرة للانكليز » .

بولاق والآستانة وأوربة ، وسكنتها طائفة من نوابغ الرجال العثمانيين ألموا بالأدب والعلم ، وتثقفوا فى أوربة ، فشدوا أزر المشروعات الثقافية ، وغدت سورية تنافس مصر ، بل أصبح القطران منبعاً للعلم والعرفان والمدنية [١]

وتنافس المرسلون الأميركان واليسوعيون والعازاريون فى بث المعرفة والتبشير وإعمار مدارسهم وكلياتهم ، وأصبحت مباءة لكل مثقف ، وازدادت قوة ونشاطاً فى الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، فأنشأت الحكومة للمسلمين فى بيروت المكتب الإعدادى سنة ١٨٨٥ ، وأنشأ بعض الأهالى مدارس أهلية أهمها المدرسة العثمانية لصاحبها ورئيسها الشيخ أحمد عباس الأزهرى سنة ١٨٩٧ ، والمدرسة الوطنية ، والمدرسة العلمية ، وكانت تدرس فى أكثر هذه المدارس اللغتان التركية والفرنسية إلى جانب العربية فتخرج المثقفين والكتاب والشعراء والصحفيين .

* * *

الصحافة والجمعيات الأدبية :

وإلى جانب هذه المطابع والمدارس ، ازدهرت الصحافة ازدهاراً كبيراً ، فقد أفاد الطلاب والشباب وتعلموا وتثقفوا وهبوا يرسلون مقالاتهم وكتاباتهم على متن الصحف والجرائد . فتزاحم أرباب الطوائف كذلك على إنشاء الصحف . وقام اليسوعيون بإصدار جريدة البشير سنة ١٨٧٠ وأنشأ المعلم بطرس البستانى (١٨٢٠ — ١٨٨٢) مجلة الجنان فى هذه السنة نفسها ، وأخرج عبد القادر القبانى جريدة ثمرات الفنون سنة ١٨٧٤ ، وأنشأ شاهين أبكاريوس ويعقوب صروف وفارس نمر من تلاميذ الكلية الأمريكية مجلة علمية أسموها « المقتطف » ظلت تطبع فى بيروت ، ثم انتقل محرروها إلى مصر سنة ١٨٨٦ ، كما انتقل غيرهم فقد ضاقوا بالمراقبة ، وخافوا من الجاسوسية والوشاية ، فانقلبوا إلى مصر حين رأوا أن الصحافة فيها تعيش على حرية واسعة ، على الرغم من وجود الإنكليز

---

(١) انظر كتاب الأب لويس شيخو « الأدب العربى فى القرن التاسع عشر » .

فيها ، فقد كان الانكليز على دهاء واسع يريدون أن يجتذبوا أحرار العرب من الأقطار العربية ويزينوا لهم العيش فيها والكتابة فى ظلهم ، حتى غدت مصر ملجأ الأحرار الفارين من الظلم أو الطالبين للرزق ، فانتعشت الصحافة فى أرض الكنانة[١] ، وزاد عدد الجرائد فيها حتى بلغ المئة . أما الجمعيات الأدبية فقد انتعشت كذلك ومنذ سنة ١٨٤٧ أنشئت فى بيروت « الجمعية السورية » بمساعى المرسلين الأمريكيين ، وانتظم فى سلكها نخبة من الأدباء ، يبلغ عددهم الخمسين ، أربعون منهم من لبنان وعشرة من دمشق ، مثل فانديك ، وبطرس البستانى ، وناصيف اليازجى ، وسليم نوفل ، وميخائيل مشاقة ، وإبراهيم طراد ، وظلت هذه الجمعية عاملة حتى سنة ١٨٥٢ ، تجتمع مرة فى الشهر ، وتجمع الكتب وتلقى الخطب .

ثم تشكلت جمعية أخرى سنة ١٨٦٨ ، دخل فيها كثير من أعضاء الجمعية الأولى ، وبلغ عدد المنتسبين إليها مئة وخمسين عضواً ، وأكثرهم من بيروت ودمشق وحمص وبقية المدن السورية ، ومن أعضائها المشهورين حسين بيهم ، وعبد الرحيم بدران ، إبراهيم اليازجى ، سليم رمضان ، نقولا مدور ، يوسف شلفون ، وغيرهم .

ولكن تعاقب القلاقل والفتن والدسائس على لبنان ، واشتداد الرقابة وانتعاش الجاسوسية المرهقة دفع المفكرين وغير المفكرين إلى التفكير بالهجرة عن لبنان وسورية ، فنزح جماعة كثيرون إلى أوربة ومصر ، ثم توجهوا فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر إلى أمريكا ، ولكن أكثرهم توجه إلى مصر ، وخاصة بعد أن استتب الانتداب الإنكليزى فيها ، وتمكن الفساد من الحكم العثمانى ، فغدت مصر قبلة الثقافة والعلم والأدب وأصبحت قبلة الصحافة — كما قلنا قبل قليل — .

---

(١) فى كتاب حسر اللثام ، ص ١٢ : « والسوريون اليوم أصحاب القلم فى كل البلدان العربية ، فهم يحررون كل جريدة عربية تذكر فى القطر المصرى وغيره من الديار العربية ، وليس فى بلاد الشام واحد من المؤلفين أو أصحاب الجرائد غير سورى الأصل » .

وأصبحت أرض الكنانة مراد العلماء والباحثين والمتعلمين وفاض خيرها على العالم العربى وخاصة على سورية ، فأقبل إليها أبناء الشام ينهلون من مناهلها ، ويردون ينابيعها الثرة . وقد وصف شكيب هذا الخير فقال[1] : « فى بيروت والحق يقال ابتزغ زرع العلم المصرى ، وأخرج شطأه ثم انبث فى جميع الشامات » ثم ذكر بأن مصر أصبحت ميداناً لجياد القرائح السورية ، وأن أنبغ الذين تخرجوا فى بيروت إنما ظهروا واشتهروا فى مصر ، كما أن معاهد مصر خرجت كثيراً من أبناء سورية فى العلوم بالأزهر والقصر العينى ، ثقافة دينية ولغوية وطبية .

واتصل القطران المصرى والشامى أواخر القرن التاسع عشر بروابط الرحلة والثقافة والصحافة ، فأصبح كل منهما يشد الآخر فى كل ضرب من ضروب الرقى العقلى ، يتحمل السورى إلى مصر كلما حزبه أمر أو أرهقه ظلم ، ويتحمل المصرى إلى سورية فيختارها ملجأ وموئلا ، كما فعل محمد عبده وأصدقاؤه . وهنا تشابه الأدبان وتأثر أحدهما بالآخر لأنهما استقيا من ينبوع واحد هو القديم الرائع ، فحملا الراية فيلقاً بعد فيلق وجيلا بعد جيل .

* * *

الشعر فى سورية :

عرفنا من قبل أن السياسة العثمانية خنقت اللغة العربية فى سورية وأخمدت شعلة الأدب العربى فيها خلال قرون ، فأصبح الشعر نظماً وحرفة وألاعيب لفظية يتسلى بها المتأدبون فى سمرهم ، فلا منابر ينشدون عليها أطيب الشعر وأحلى النثر ، ولا مدارس يلقنون فيها هذا البيان العربى الرائع ، ولا صحف ولا جرائد تحمل الفصاحة إلى الآذان ، لأن الاذان نسيت هذا الجرس على طول ما سمعت من عجمة ورطانة .

فلما كان القرن التاسع عشر وقعت المعجزة فى سورية ولبنان ، فقد بدأ

---

(١) النهضة العربية للأمير شكيب ، ص ٨ .

القرن والشعر كسيح مقصوص الجناحين ، وما كاد يستوى القرن حتى خفق الشعر بجناحيه وطار إلى سماوات جميلة وآفاق حلوة ، يغرد بأنغام عرفها العرب وطربوا لها ، هي أنغام العباسيين عادت إلى هذه الربوع .

وإذا أردنا أن نضرب الأمثال ، أوردنا أسماء بعض الشعراء الذين عاشوا فى القرن الثامن عشر وقضوا فى مطلع القرن التاسع عشر ، لا يكاد يقرأ الأدباء شعرهم حتى يحسوا بالتكلف والمضض والعنت والصنعة ، لا موسيقا فى قوالبه ولا بريق فى معانيه ، لا يقف للشعر الجميل فى شىء ، ومن هؤلاء الشعراء أحمد البربير (١٧٤٧ — ١٨١١) ولد فى دمياط وتوفى فى دمشق ، ونقولا الصايغ وبطرس كرامة ، وإلياس أده ، ونقولا الترك ، (١٧٦٣ — ١٨٢٢) . ويحسن أن نقف عند هذا الأخير فقد طبع ديوانه منذ أعوام قليلة ، فأظهر صورة لصدر هذا القرن تؤكد الحكم الذى أطلقنا . فى الديوان خمسمائة قصيدة تلم بالتاريخ كوثيقة هامة ، ولكنها لا تتصل بالشعر الجميل ، لأنها تراكيب عصر الانحطاط وقوالبه ، وقد قال الأستاذ فؤاد البستانى الذى قدم للديوان : « كان شاهد عصر جليل . دقيق النظر مرهف الشعور ، صائب القياس ، ولكنه سيء التعبير والديوان يحتوى على الرثاء والمدح والوصف والمزاح » .

وجاءت بعد هؤلاء طبقة تقول الشعر فتحسن فى بعضه وتسقط فى بعض . ولكنها ما زالت تتأرجح فى فهم الشعر وفى نظمه ، ومن هذه الطبقة الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ — ١٨٣٥) والشيخ حسن قويدر ، والشيخ أمين الجندى من حمص . وتبع هذه الطبقة رجال أولعوا بالشعر كالشيخ محمد البربير (١٨٤٥ — ١٨٦٥) ومحمد أرسلان ومارون النقاش ومحمود العظم ، ولكنهم لم يبلغوا شأواً يرفع الشعر إلى مراتب الفحولة والقوة كما بلغ على يدى الشيخ ناصيف اليازجى (١٨٠٠ — ١٨٧١) .

والشيخ ناصيف[١] هو زعيم هذه الطبقة من شعراء البعث ، قويت به

---

(١) يحسن أن نشير هنا الى الكتاب الجميل فى «شعر لبنان» تأليف صلاح لبكى ، طبعة مصر .

النهضة الأدبية، وارتفعت بهلغة الشعر ، واستحكمت الجزالة والمتانة فقد أعجب بالقدماء كما أعجب زملاؤه، ولكنه كان يحاكي الفحول فحسب ويجاريهم ويتأثر خطى المتنبي حتى كان صورة مصغرة عنه ، وإن كان قد أدرك بعض شعره كلال هبت ريحه من شعراء الانحطاط ، ولكنه فى جملته جميل حسن . وقد عالج الصنعة فى بعض شعره على عادة زمانه فأخذ بنظم الألغاز والأحاجى والتأريخ فبز معاصريه وكان معجزة فى الفهم والذكاء والأريحية واللغة ، تنساق القوالب على لسانه كأنه فى أهل الصحراء أو كأنه فى القرن الثالث العباسى أو الرابع على الأقل . لذلك عده النقاد خلاصة الشعر فى زمانه ، بل إنه قفز بالشعر إلى مرابع القوة والإحسان ، حتى كان شعره جسراً متيناً عبر عليه الشعر فى زمانه من الانحطاط إلى العصور العباسية ، وظهر على الشعراء قبله ظهوراً كبيراً كأن هوة عميقة تفصل بينه وبينهم ، فلن يوازن بغيره كنقولا الترك وبطرس كرامة .

وقد تأثر به تلاميذه ، فأخذوا بتقليد الأقدمين فى المبنى والمعنى والصور والتشابيه ، فوقعوا فى صدر العصور العباسية لكثير من شعرهم وطرقوا المديح والرثاء والوصف والهجاء ، ولعل لوثة الانحطاط أصابت بعض شعرهم فهموا بالصنعة والتأريخ والمحسنات اللفظية والألعاب البديعية . ولكن ذلك لا يضير شعرهم ، وإنما يرفعه فى نظرنا إلى مستوى التقدير والإكبار ، وخاصة حين نبلغ الهزيع الأخير من القرن التاسع عشر فنقع على إبراهيم اليازجى (١٨٤٧ — ١٩٠٦) وعلى نجيب الحداد (١٨٦٧ — ١٨٩٩) فقد رفعا لواء الشعر فى لبنان وغير لبنان ، ودخلا فى ألوان من فنونه قاربت الشعر العالمى الإنسانى فى مواضيعها وفى نبراتها ، وفى أنغامها ، مع المحافظة على روعة اللغة والبيان ومتانة السباك وقوة الأسر وشدة الأيد .

وسبب انتصار اليازجى وخلفائه بعده فى نظرنا هو عكوفهم على عمود الشعر العربى ، وتمسكهم بالتراث القديم ، وأخذهم ببيان العرب الرائع ، فأعادوا للشعر فى سورية نضرته بعد ذبول ، ومجده بعد انحطاط ، وإشراقه بعد أفول ،

وبذلك أحدثوا هذه المعجزة العربية فى الشعر ، بعد أن مرت به عصور الانحلال والانحطاط ، وكادت تقضى على إشراقه وأصالته ، فنهض هؤلاء به نهضة أعادت الأمل إليه ، ووصلته بالقرون الذهبية كأن النوم لم يرن على العيون ولم يغمض الأجفان .

وهذا دليل كبير على سحر الشعر القديم ، وسر من أسرار خلوده وبقائه ، ففيه جمال ثابت على الأجيال — كما يقول الأستاذ أنيس المقدسى [١] — وهو مثل كل قديم رائع يحدو أهل الثقافة عند الأمم جميعاً إلى الرجوع إليه ومطالعته والتمتع به على مرّ الأجيال ، فكأنه يشحذ الهمم ويثير الشعور ، ويحيى الأنفس . ولا يعنى هذا أن ننفى عنصر التطور والتجدد فى الشعر ، فهناك أسباب وأسباب تدفع إلى التغير والتحسن ، وإدخال المعانى والقوالب والصيغ والصور بما يناسب العصر والمكان والظروف ، فالأدب يساير النهضة ، ولكنه يبدأ أولا بالتقايد والمحاكاة ، ثم ينتهى بالانطلاق والتحرر والتحليق فى أجواء قد يجهلها الأدب القديم ، ولكن الجديد يصبح قديماً على هذا المنوال ، وما نظن أن الشعر الإنسانى يحتاج إلى تفضيل أو موازنة بين قديمه وجديده لأن كلا يمثل الزمان والظروف ويعكس العوامل الدافعة إليه ، ويختص بظواهر قد لا توجد فى أخيه [٢]

وإذا كان لبنان قد رزق ناصيف اليازجى وصحبه فى إذكاء الميل إلى القديم والانطلاق منه إلى الجديد ، فقد رزقت مصر كذلك محمود سامى البارودى وأحمد شوقى وإسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم فساروا إلى مرابع الشعر القديم وسكنوها ورتعوا فيها ثم انطلق كثير منهم إلى مرابع جديدة حملته إليها أجنحته ، فبعض رزق قوة فى التحليق بلغت به إلى سماوات جديدة وآفاق بعيدة ، وبعض قعدت به الأجنحة عن الطيران البعيد فظل لاصقاً بسماء القدماء ، ولبث عالقاً

---

(١) العوامل الفعالة فى الأدب العربى ج ١ ، (٢) : انظر المصدر السابق .

بأساليب العباسيين ، ولحقت مصر الحديثة بلبنان ، واجتمع من شعر هذا القطر وهذا القطر بيان أحدث هذه النهضة الجديدة ومحا عار الانحطاط ، ومكن لشعراء المستقبل أن يكتسوا بريشهم وأن يحلقوا فى سماء أبعد وأفق أسمى ، وقد حقق أمل الشعر العربى لأيامنا فانطلق شبابنا من أقفاص الماضى وما يزالون يطيرون .

ولكننا لم نكتب هذه السطور لتأريخ أدبهم ورسم شعرهم ، وإنما رسمنا العصر الأدبى قبل « شكيب أرسلان » ، ووصفنا الشعر الذى عاصره خلال حياته ، فقد تأثر باليازجى وطلابه ، وسابق البارودى وجارى شوقى ، فكان منه شعر نصفه فى مكانه من فصول هذا الكتاب ، لنرى أين يقع الرجل من هؤلاء الشعراء فى عكوفه على القديم وتقليده للعباسيين ، وأخذه من مدرسة اليازجى ومدرسة البارودى وشوقى بقدر .

والمهم مع ذلك أن شعراء سورية ومصر قد انقسموا فى نظرتهم آنذاك إلى الخلافة العثمانية إلى فرقتين اثنين ، فرقة ظلت عثمانية الروح والهوى تنصر السلطان ، وتمتدح الوطن العثمانى حتى سقوط الخلافة ، وفرقة أنكرت هذا الاندفاع نحو العثمانيين . وظهر ذلك فى الشعر ظهوراً واضحاً . فقد سار على خطة العثمانية فى لبنان بطرس كرامة ، وناصيف اليازجى وأحمد فارس الشدياق[١] ، ويوسف الأسير ، وعبد الحميد الرافعى ، ومن عاصرهم ، فارتفعت قصائدهم إلى الولاة والحكام والسلطان بالمديح والإكبار والدعاء بالنصر والظفر ، وناصيف اليازجى يمثلهم جميعاً فى قوله :

خليفة الله ظلّ فى خليقته ظلتْ به تتقى الدنيا وتستترُ
لا ترتضى غيره الدنيا لها ملكاً لو كان جبريل يأتيها أو الخضرُ

وسار قادة الحركة الأدبية فى مصر ، شعراء وناثرين فى هذا السبيل

(١) ولد هذا العبقرى الأديب فى عشقوت بلبنان وعاش متنقلا فى أوربة (١٨٠٤ — ١٨٨٧) .

كذلك ، فاتصلوا بالعثمانيين مادحين شعراً أو نثراً وغمرتهم نعم السلطان ، ومنهم : على أبو النصر (١٨٨٠) وعبد الله فكرى (١٨٨٩) وعبد الله النديم (١٨٩٦) وإبراهيم المويلحى (١٩٠٦) والبارودى وأحمد شوقى ، وحافظ وإسماعيل صبرى ، وأحمد نسيم ومصطفى الرافعى . ويبدو أن شوقى كان ألطفهم تغنياً بمحامد الخلافة وتعظيم العثمانيين حتى سقوط الخلافة .

ولعل هذه الفرقة التى سارت على هوى العثمانيين كانت ترى فى الخليفة ممثلا لعظمة الشرق والإسلام ، فأيدته بشعرها ، ودعت له فى قوافيها ، لا فرق فيها بين شاعر مسيحى وآخر مسلم .

وأما الفرقة الثانية التى خالفت أختها ، فقد حملت على السياسة العثمانية الفاسدة ، ورأت أنها تدفع البلاد إلى الهاوية ، وأرادت أن تثير الشعور القومى فى التظلم من ضغط الآستانة وظلمها ، ولكن فى ظل الوحدة العثمانية ، وكان فيها نجيب الحداد ، وولى الدين يكن .

أما « شكيب أرسلان » فقد اختار الفرقة الأولى وسار فى سبيلها شعراً ونثراً . قولا وملا ، جهاداً ودعاية ، حتى سقوط الخلافة ، مما نبسطه فى ترجمة حياته وتحليل شعره ، بعد قليل .

الفصل الثالث

النسب والأسرة

فى الجاهلية والإسلام — فى العصور العباسية
والد شكيب أرسلان

فى الجاهلية والإسلام :

رسمنا العصر الذى شهده شكيب أرسلان ، ووصفنا الحالة السياسية والاجتماعية والأدبية فى زمانه لنصور الإطار الذى عاش فيه ، ولنعرف مبلغ تأثره بالتيارات التى كانت فى وطنه سورية . وسنعرض الآن لعشيرته لنعرف كذلك أثرها فى حياته ، فهى هامة فى تنشئته وتربيته وفى آرائه وأقواله وأدبه. فقد كان شكيب يعود إلى الزمان والبلد والبيت فى كل ما يكتب ، ويسعى جاهداً فى تصويرها ورسمها خلال كتبه ومقالاته وديوانه على أنها ينابيع معرفته ونبوغه ، وكان يطيل الاعتزاز فوق كل شيء بنسبه وعشيرته ، فيختار المناسبات للحديث عنهما ، فأرخ لهما كما أرخ لزمانه ، ونظر إليهما من زاوية خاصة ، كما ينظر المؤرخون حين يترجمون لحياتهم وبلدهم وزمانهم ، وما علينا إلا أن نرجع إلى ما كتب وأن نتخذه سبيلا إلى الحديث عنه ، فهو أعرف من غيره بنفسه وبيته .

نشر الأمير شكيب فصلا مطولا عن نسب عشيرته « آل أرسلان » ، بين فيه تسلسل الرجال من أهله على مر التاريخ ، نقله عن سجل محفوظ عنده ، فكان فيه مؤرخاً ثبتاً جايلا . وقد ظهر أول مرة بمجلة الزهراء[1] ثم أعاده فى تعليقات

---

(١) الزهراء ١٠/٦٠٨ ، سنة ١٣٤٦ هـ ، ثم أعاده فى كتاب روض الشقيق وهو ديوان أخيه نسيب أرسلان ، نشر بدمشق سنة ١٩٢٥ وسنتحدث عنه فى مكان آخر .

وحواش مذيلا به ديوان أخيه نسيب أرسلان ، فكأنه رسم لمن بعده طريقاً للحديث عن هذا النسب . وقد جعله على السنين بادئاً بالمحدثين من أهله صاعداً فيه إلى بنى لخم بن كهلان ، وهم يرجعون بأرومتهم إلى المنذر ابن الملك النعمان الشهير بأبى قابوس ممدوح النابغة الذبيانى ، فوصل بين القرن السادس والقرن العشرين للميلاد ، واستعرض الجاهلية والإسلام ، ليعرفنا بقومه وأمجادهم ومفاخرهم وما أتوه من أعمال ، وما شاركوا فيه من بناء الحضارة العربية والإسلامية ، ليشير من جانب خفى إلى ما قد يدور على الألسن فى زمانه من حديث عن « الدروز » بنى قومه ، وعن مدى خدماتهم ، وعن سبب وقوفه فى حقل السياسة والاجتماع للدفاع عن هذه الحضارة العربية ، يفعل كما فعل الأجداد ، فيكون خير خلف لخير سلف .

والحق أن الأمير جهد فى كتابة هذا النسب جهداً كبيراً ، فعاد إلى مصادر التاريخ يتتبعها ويناقشها ويعالج نصوصها على عادة القدماء لينتهى إلى مثل الثقة فى بيان تاريخه وتاريخ أهله ، وختمه بقوله : « والقارئ يرى أننا تحرينا جهد الاستطاعة ، وعرضنا الروايات والآراء ، ولم يكن استقصاؤنا فى هذا البحث إلا لأجل تمحيص ناحية من نواحى التاريخ العربى هى أخبار عرب لبنان والسواحل الشامية من زمن التاريخ . وكذلك جرياً على شنشنة العرب فى حفظ أنسابهم والتنقيب عن أخبار أجدادهم ، والناس مأموونون على أنسابهم ، وفوق كل ذى علم عليم[١] »

ويبدو من هذه الصفحات التى تجاوز المائة أن « آل أرسلان » ينتمون إلى أكبر بيت من بيوت العرب وأعرقها فى الإمارة والمجد تجرى فيه دماء العروبة والكرامة على أربعة عشر قرناً ، يتوارث الأبناء فيه عن الآباء كرم العنصر وشرف المحتد ، ويقفون أبداً للدفاع عن حياض العشيرة والوطن ، فلا غرو إذا انتقلت العروبة إلى شكيب وأهله ، فأورثته العزة والإباء والنخوة .

أما فى الجاهلية فقد سجلت الأسرة بالحيرة أعمالا باهرة وصفحات لامعة .

---

(١) روض الشقيق ، ص ٢٦٢ .

فلما جاء الإسلام انتقل الأمير « عون» أحد أجدادها من العراق إلى الشام مع خالد بن الوليد لنجدة أبي عبيدة بن الجراح قائد الجيوش الإسلامية من قبل أبي بكر الصديق . ثم حضر ابنه « الأمير مسعود » المشهور بقحطان واقعة اليرموك بألف وخمسمائة من أصحابه وشهد « واقعة قنسرين » ، وقام ابنه المنذر « التنوخى » بغزوات عديدة ، ثم حضر « الأمير بركات » واقعة نهر الزاب التى انهزم فيها مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية .

وهكذا كانت الأسرة فى خدمة الجهاد والأمجاد خلال الراشدين والأمويين ، تقيم فى المعرة بين حلب ودمشق حتى كانت خلافة العباسيين . فسار الأمير أرسلان بأمر الخليفة أبي جعفر المنصور العباسى مع أخيه المنذر من المعرة إلى إلى لبنان ، وعمر مع قبيلته الباسلة جبال بيروت الحالية . وراح يحارب المردة(١) وكانوا صنائع الروم فى لبنان وكثيراً ما كانوا يقلقون الدولة العربية وينقضون طاعتها ، فهزمهم عند « نهر الموت» « وأنطلياس » شمالى بيروت .

وبهذا استوطن الفرع الأرسلانى ربوع « وادى التيم » بلبنان منذ سنة ١٤١ هـ ، وتفرق أبناؤهم فى الجبل الأشم .

ولما قدم الخليفة المهدى ابن المنصور العباسى إلى دمشق سار إليه الأمير المنذر وأخوه الأمير أرسلان ، وقابلاه فى قرية « المزة » قرب دمشق فاستقبلهما ببشاشة وأجرى لهما الإقامات الكافية . وسارا معه إلى بيت المقدس ، ثم عادا إلى مواطنهما فى اعتزاز وسرور . ووقعت وقائع كثيرة بينهما وبين المردة ، واشتهر اسمهما فى كل ناد . ولما مات الأمير أرسلان سنة ١٧١ هـ ، دفن فى بيروت . وانتقل ابنه الأمير مسعود مع أهله إلى « الشويفات (٢)» ، فعمرها

(١) فى كتاب مجمع المسرات ص٣٢ ، أن الموارنة أصلهم من السريان ، أى أن الآراميين جاءوا من حمص وحماة ، وأن الذين يتبعون الدين المسيحى لملك القسطنطينية اسمهم الملكيون ، وأن الذين تمردوا عليهم سموهم المردة وهم الموارنة ، وهؤلاء فضلوا سكنى المغاور وفقر العيش على الذل والهوان ، فقد كان لبنان منذ القديم ملجأ لكل شريف خائف من سريان وروم كاثوليك وأرمن .

(٢) الشويفات قرية كبيرة جميلة ، مبنية على مرتفعات الجبل اللبنانى تكثر فيها أشجار الزيتون وهى قديمة منذ العهد الرومانى ، تبعد ١٢ كيلو متراً عن بيروت إلى الجنوب منها .

وبنى فيها مساكن كثيرة وأصبحت قرية كبيرة ، وغدت وطناً لآل أرسلان خلال العصور إلى اليوم ، وفيها ولد شكيب أرسلان .

في العصور العباسية :

ولسنا فى حاجة إلى الإفاضة عن كل فرد من أفراد هذه الأسرة فى مقال شكيب تفصيل كثير يحسن الرجوع إليه ، ولكننا نحب أن نشير إلى أنهم كانوا أبداً لحماية الإسلام ضد أعدائه ، فى عهد العباسيين كما كانوا فى عهد الأمويين ، فقد قام الأمير النعمان (المتوفى سنة ٣٢٤) لحرب المردة فى واقعة نهر بيروت ، وأسر بعضاً وقتل بعضاً ، وأرسل الرءوس والأسرى إلى بغداد ، وكتب إلى موسى بن بغا أن يعرض ذلك على المتوكل الخليفة العباسى ، فأرسل إليه المتوكل سيفاً ومنطقة وشاشاً أسود شعار العباسيين ، وكتب إليه كتاباً يمدح فيه همته وتقريراً بالولاية له ولذريته[١] .

وفى خلال الحروب الصليبية نهض أبناء أرسلان إلى الدفاع عن حوزة البلاد الإسلامية ، والجهاد ضد هؤلاء المغيرين الأوربيين المتسترين بستار الدين ، وكان منهم ضحايا فى بقاع لبنان قرب بيروت أو على شطئان الأنهار الصغيرة فى لبنان ، واشتهر منهم الفرسان الذين دحروا الصليبيين وسجلوا صفحات الفخار فى هذه الحروب الدامية .

فلما قامت الدولة العثمانية بأمر الحكم فى هذه البقاع العربية ، وقف الأرسلانيون إلى جانبهم ، ونهض أمراؤهم فى حراسة الثغور وفى خوض المعارك من أجل الخلافة ، فشاركوا فى جبهات القتال النائية والقريبة ، وكانوا فى البر والبحر فرسان النصر ، فى قبرص ولبنان وفى غيرهما ، فشهد لهم العثمانيون بالشجاعة والوفاء والبطولة .

وهكذا سقى الأرسلانيون أرض الوطن العربى بدمائهم الذكية ، فحرسوا

---

(١) روض الشقيق ص ١٤ .

الحدود وحموا الثغور ، وكانوا أمراء وفرساناً يحترمون العدالة ويعملون لحماية الحق ، فلما وقعت فى لبنان حوادث سنة ١٨٦٠ بين الدروز والنصارى بسعى الدول الغربية ، وقف العقلاء إلى جانب المظلوم ، وسعوا إلى حماية إخوانهم النصارى ، وكثيراً ما افتدوهم بأنفسهم وعاقبوا العامة من أبنائهم على جهلهم وطيشهم . وسالت فى ذلك سطور بالغت فى الوصف والاتهام ، كتبت فى الظرف نفسه تحت تأثير الثورة والدماء والعصبية . فنقل عنها الغربيون الموتورون ، وأخذ بها الغافلون من كتاب اليوم ، وجعلوا الدروز سبباً فى هجرة النصارى من لبنان . والحق أن الثورة كانت تتغذى بالجهل والحمق والطيش ، وتنتعش بمؤامرات الغربيين ودسائس الحكام ، وما كان لعقلاء الدروز بنى قومه من أحداث تلك الفتن إلا أسى بالغ وحزن عميق ، وقد أفصح عنها « شكيب » حين رسم تلك الأيام السوداء بقلمه ، فكان خير من يتحدث عن نزاهة قومه وحبهم للشهامة والحرية والبطولة والاستقلال .

الأب :

وقد ظلت هذه الأخلاق النبيلة فى قوم شكيب متوارثة منذ الجاهلية إلى يومه ، يتسلم الراية سيد عن سيد خلال العصور أمراء سيف وقلم حتى كان أبوه « الأمير حمود أرسلان » ، فقام بالأمجاد كما قام آباؤه وأجداده ، وأخذ من الثقافة كما أخذ من الإدارة[1] فأحب الأدب والأدباء ، وأطال الاجتماع إلى الشخصيات الفذة فى بلده ، وسعى إليهم فى بيروت أو دعاهم إلى قريته « الشويفات » يلقون من إكرامه وحسن وفادته ما يدفع ألسنتهم إلى الشكر ، ويلقى فى أفئدتهم الحب والإكبار . وقد كان « الأمير حمود » مسموع الكلمة مهيب الجانب ، على بسطة من الحياة والرزق والجاه ، وكان مديراً لناحية « الشويفات » فإليه ترنو أبصار بلدته وأهله وعشيرته .

(١) فى روض الشقيق ص ١٨ يقول شكيب : « كان والدى رحمه الله يحب لغة قومه ، وله مشاركة فى النحو والصرف والأدب وله نظم لا بأس به » .

وقد تزوج من امرأة شركسية الأصل ، فولدت له فيما ولدت خمسة أولاد ، هم : نسيب ، وشكيب ، وحسن ، وأحمد ، وعادل ، نشأهم كلهم تنشئة عربية ، وأخذ بيدهم إلى العلم والثقافة ، وقد كان منهم ثلاثة اشتهروا فى قومهم وفى عصرهم ، وبلغ صيتهم أبعد آفاق الشام والعرب ، فكان ابنه « الأمير نسيب أرسلان » شاعراً محسناً[١] ، وإدارياً حازماً شغل المناصب فى بلده ، فأصبح فيما بعد مديراً للمنطقة ، ثم اعتزل الإدارة والسياسة وانصرف إلى الزراعة والشعر حتى قضى على مجد وشهرة .

واشتهر ابنه « الأمير عادل أرسلان » ، فأصبح شاعراً جزلا رقيقاً ، سارت قوافيه فى نصرة الأمة العربية وخاض غمار الجهاد فى الثورة السورية ، فقاد المجاهدين وكافح الأعداء ، واستعذب المشاق فى سبيل أمته وبلاده حتى انتصرت أمته واستقلت فأعطته ما تملك من مناصب رفيعة فى الحكم والإدارة ، فكان وزيراً وسفيراً لبلاده حتى قضى كذلك على سمعة وشهرة فى السيف والقلم[٢] » .

واشتهر ابنه « الأمير شكيب أرسلان » فكان كاتباً كبيراً فى زمانه ولقب بأمير البيان وحجة الإسلام ، ودخل ساحات الجهاد بقلمه ولسانه ، وجاهد فى سبيل العرب والإسلام ، خلال خمسين سنة نفصل الأمر فيها فى الفصل التالى .

---

(١) طبع الأمير شكيب ديوان أخيه نسيب وسماه « روض الشقيق » نتحدث عنه فى فصل آت بعد قليل .

(٢) لم يطبع ديوان الأمير عادل أرسلان وا أسفاه ، وشعره من الطراز الرفيع ، وله مذكرات سياسة كان يتحدث عنها إلينا حين نزلنا ضيوفاً عليه فى أنقرة وكان وزيراً لسورية آنذاك . فحبذا لو نهض أصدقاؤه بهذه المهمة خدمة للأدب وللسياسة العربية .

الفصل الرابع

حياة شكيب أرسلان

المرحلة الأولى (١٨٦٩ — ١٨٩٠)

المرحلة الثانية (١٨٩٠ — ١٩١٨)

المرحلة الثالثة (١٩١٨ — ١٩٢٥)

المرحلة الأخيرة (١٩٢٥ — ١٩٤٦)

المرحلة الأولى (١٨٦٩ — ١٨٩٠) :

كان الأمير شكيب أرسلان يسجل أحداث زمانه وأنباء عصره فى كتبه ، ويتحدث خلالها عما فعله وعما قام به ، فيصور لنا نشأته وحياته بالأرقام والسنين ، فكأنه كتب ترجمة حياته بقلمه متفرقة فى الكتب موزعة فى الصفحات ، سعينا إليها جهدنا فجمعناها، لنرسم مراحل حياته منذ الطفولة حتى الوفاة .

يقول شكيب فى الحديث عن أخيه نسيب[١] : « ولد المرحوم أخى سنة ١٢٨٤ هـ ، وكنا ساكنين فى بيروت فى حى « المصطبة » فى بيت يقال له «برج الجمال» ، وبعد مولده بسنة رجع المرحوم والدى إلى قصبة الشويفات لأنه كان قد جعل مديراً لناحية الشويفات أى الإقطاع الأرسلانى الخاص من

(١) روض الشقيق ، ص ١٧ .

« قضاء الشوف » . وقد ولدت أنا بعد أخي بسنة ونصف سنة فى الشويفات » . وتحدث فى مكان آخر فقال إنه ولد يوم الاثنين ٢٥ ديسمبر سنة (١٨٦٩) الموافق لأول رمضان سنة ١٢٨٦[١] هـ .

وقد فتح الطفل عينيه على مناظر جميلة من سحر لبنان وجبله الأشم ، ورتع منذ طفولته فى أحضان اليسر والسعادة والنعيم والإمارة . فما بلغ الخامسة من عمره حتى دفع إليه أبوه معلماً يلقنه القراءة والكتابة ، هو الشيخ مرعى سلمان ، وقد أصبح فيما بعد شيخاً لقصبة الشويفات ، فهو أول من قرأ عليه ألف باء — كما يقول — . وقد ذكر شكيب أنه ترعرع مع أخيه نسيب ، فنشأا معاً كأنهما توأمان لقرب السن بينهما ، ودرجا معاً فى مراحل التعليم .

ويقول شكيب[٢] : « ثم صعدنا للاصطياف بحسب العادة فى « عين عنوب[٣] » فندب لنا والدنا رجلا اسمه أسعد أفندى فيصل ، لأجل إقرائنا كتاب الله ، فحفظنا منه جانباً عن ظهر القلب ، ولكننا نزلنا من الصيفية قبل أن نختمه . ثم أدخلونا مدرسة للأمريكيين فى « حارة العمروسية » بالشويفات ، فتعلمنا فيها مدة ، وقرأنا من جملة ما قرأناه الجغرافية والحساب ومبادئ الإنكليزية . وسنة ١٢٩٦ هـ — ١٨٧٩ م أدخلونا « مدرسة الحكمة » فى بيروت وهى التى أسسها « المطران يوسف الدبس » رئيس أساقفة الطائفة المارونية ،

(١) ذكر شكيب نفسه تاريخ ولادته فى مواضع عدة من كتبه ، ولكنها تختلف باختلاف السنة الهجرية وتحديد موازنتها بالسنة الميلادية . فقد قال فى كتابه عن شوقى إنه كان سنة ١٨٩٠ بين العشرين والواحدة والعشرين ، وقال فى ديوانه إنه قال قصيدة سنة ١٨٨٦ وعمره ست عشرة سنة .

ثم قال فى كتابه عن السيد رشيد رضا إنه نشر الباكورة سنة ١٨٨٧ وعمره سبع عشرة سنة ، فهو قد ولد (١٨٦٩ — ١٨٧٠ م) تقريباً — انظر ذكرى شكيب ١٢ — . وأما اسم شكيب فلعله من الشكب وهو العطاء وهو علم لأحد شعراء إيران المتأخرين ، وأرسلان معناه الأسد .

(٢) روض الشقيق ص ١٨ .

(٣) قرية جميلة من قرى لبنان ، يقصدها أهل المنطقة للاصطياف .

وكانت هذه المدرسة مشهورة بإتقان العربية » .

ولابد من الوقوف عند هذه السطور التى كتبها الرجل عن نشأته فهى تفصح عن تربية حسنة لا تقع إلا للمحظوظين فى أواخر القرن التاسع عشر ، وذلك لأنه بعد أن حفظ بعضاً من القرآن ، أخذ بالعلوم العصرية وبمبادئ اللغة الإنكليزية قبل أن يجوز العاشرة من عمره ، ثم لبث سبع سنوات يتعلم فى مدرسة الحكمة ببيروت (١٨٧٩ — ١٨٨٦ م) . ومدير المدرسة هو المطران الدبس[١] المؤرخ العالم المشهور ، وقد عرف لزمانه بسعة الثقافة وبعد آفاقه فيها ، مما نرى أثره فى كتابه الضخم « تاريخ سورية » جعله منذ الخليقة إلى يومه على ثمانى مجلدات كبيرة ، ويعد من أوسع المراجع وأغناها فى هذا الباب .

وقال شكيب بعد ذلك : « وفى أول سنة من دخولنا تلك المدرسة جاء الأستاذ الشيخ عبد الله البستانى معلماً فيها ، فلم نقرأ العربية إلا عليه ، وإنما حضرنا بضعة دروس من ابن عقيل على الخورى بولس عواد الذى هو اليوم المطران بولس عواد . ولم نكن نتعلم فى مدرسة الحكمة سوى العربية على الشيخ البستانى والإفرنسية على المعلم شاكر عون والتركية يومين فى الأسبوع على ضابط يقال له عبد السلام بك من الشام » .

فهو منذ السنة الأولى فى العاشرة من عمره يتلقف العربية على البستانى[٢] وهو أستاذ جليل فى عصره عشق المفردات اللغوية ، وسعى عمره فى تصيدها فكان منه معجم كبير هو « البستان » وكانت منه كتب فى النحو والتاريخ تدل على تضلعه وسعة معارفه ، وله شعر جزل فخم سنعرض لأثره فى شكيب بعد

---

(١) المطران يوسف الدبس (١٨٣٣ — ١٩٠٧) تعلم اللغات السريانية واللاتينية والإيطالية وعلوم المنطق واللاهوت ، وقد ترقى فى الكهنوتية حتى أصبح أسقفاً على أبرشية بيروت ونواحيها ، وشيد كنيسة كبيرة هى من أعظم الكنائس فى سورية ، وله مؤلفات كثيرة فى المنطق والفلسفة والتاريخ .

(٢) انظر فى الحديث عن الشيخ عبد الله البستانى كتاب رواد النهضة الأدبية لمارون عبود ص ١٧٩ ، ومعجم المطبوعات لسركيس ص ٥٦٠ ، وقد صحح هذا العالم كتاب الاقتضاب للسيد البطليوسى وله كتاب فى النحو . وله شعر سنتحدث عنه بعد قليل فى الكلام عن شكيب الشاعر ص ١٠٤ .

قليل . وهو فى هذه السنة نفسها يأخذ الفرنسية على المعلم شاكر عون[١] ، وقد عرف الرجل بوقوفه على الفرنسية وقوفاً كبيراً ، فقد رحل إلى فرنسة ودرس فى مدرسة « فرساى » الثانوية ، وبرع فى اللغة وعلومها ، وكانت منه آثار فى الترجمة ومقالات فى الأدب ومجلة يحررها . ويأخذ التركية كذلك عن أستاذ من الشام ، فيحفظ منذ نعومة أظفاره مفردات كثيرة من اللغة الإنكليزية ، والفرنسية والتركية ، لتكون زاداً له فى كبره .

وذلك إلى جانب العربية شعرها ونثرها ونحوها ، فيأخذ بالشعر الجاهلى والمعلقات وشعر المخضرمين ، ويطيل النظر إليها ويتعلق بحفظ الجيد منها ، وإذا هو بعد سنوات قليلة يقرض الشعر وينظم فيه مقلداً متبعاً ، فى متانة ونقاء ، يسابق أخاه نسيباً ويسابقه نسيب ، فإذا بأخيه يصبح المجلى فى حلبة الشعر بين زملائه ، ويصبح شكيب المصلى . ولكن شكيباً يفوز على أقرانه حتى على أخيه فى النثر فيمسك بالمرتبة الأولى ، ويشير إليه إخوانه ومدرسوه حين يحتاج الأمر إلى خطيب أو شاعر أو كاتب ، ويغدو مبرزاً تلتمع فى أساريره النجابة والذكاء ، ويشتهر منذ صباه بالتفوق والنبوغ . فلما زار مدرسة الحكمة الإمام محمد عبده ، وكان منفياً فى بيروت — إثر ثورة عرابى — قُدّم إليه الفتى على أنه مفخرة إخوانه ، فقال الإمام فوراً : « إنى أعرف اسمك وستكون من أحسن الشعراء » وكانت الشهادة أعلى ما يطمح إليه شاب فى مثل سنه لذلك الزمان .

ولما بلغ شكيب الثامنة عشرة من عمره ، دخل مع أخيه نسيب « المدرسة السلطانية » فى بيروت سنة ١٨٨٧ ، وأقاما بها سنة يتعلمان التركية والفقه ، وحضرا درس مجلة الأحكام العدلية على الإمام محمد عبده ، فأحبّه الفتى ولازم أستاذه الشيخ فى مجالسه الخاصة ، وانعقدت بين الأسرة وبين الإمام كذلك

---

(١) ولد شاكر عون سنة ١٨٤٥ ، وأرسل بعد حوادث سنة ١٨٦١ إلى مدرسة فرساى بباريس وقضى سنين فى التعليم بمدرسة الحكمة ثم مدرسة الشيخ عباس ، ومن آثاره ترجمته لكتاب خطبة التاريخ العام لبوسويه مع الشيخ عبد الله البستانى وأنشأ مجلة النديم ، وله مقالات فى الأدب والاجتماع توفى سنة ١٩٢٦ — انظر الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين ، ص ١١٩ .

صداقة أكيدة حتى قال شكيب[١] فيما بعد : « فكنا نزوره فى منزله ببيروت وكان يزورنا فى بيتنا بالجبل . وكان المرحوم والدى يجل الأستاذ الشيخ كثيراً ، وكان الشيخ يجل والدى كثيراً أيضاً ويقول إنه من أعقل من عرف فى حياته » . وذكر شكيب هذه الزيارات فيما بعد ، فقال إن أباه الأمير حمود كان يسمر فى بيروت عند الحاج محيي الدين حمادة ويقضى بقرب الإمام ليالى ممتعة ، وكثيراً ما كان يصحب معه ابنه شكيب . وكان لهذه الاجتماعات أثر كبير فى حياة شكيب وفى تكوينه وتوجيهه ، فقد اتخذ الإمام مثلا أعلى لحياته ، ورأى فى أدبه وسيرته ودعوته للإصلاح وعمله لخير المسلمين طريقاً يسلكها وشعاراً يرمى إليه ، ونهجاً يسير فيه ، حتى غدا يقلده فى خطاه وفى آثاره ومقالاته . فلما قضى الأمير حمود أرسلان والد شكيب فى هذه السنة سنة ١٨٨٧ ، فكر الشاب طويلا فيما يصنع وفيما ينهج ، فقد أوفى على الغاية من الدراسة لأيامه ، وأصبح شاعراً على حداثة سنه ، وكاتباً على ضعف تجربته فى الحياة ، ورمى بطموحه إلى أمر بعيد ، وهو أن يصبح زعيماً من زعماء الإصلاح فى العالم العربى ، كما كان الإمام محمد عبده تماماً . والحق أن طموح الشاب لم يكن عبثاً أو سراباً ، وإنما كان مبعثه هذا التقدير الذى كان يلقاه والثناء الذى كان يسمعه ، فيرسل الشعر تصفق له الأيدى ، ويرسل المقالات فتنشرها كبريات الصحف ، فأصبح متفوقاً على أخدانه ، ودفعه هذا التفوق إلى الأمل بمستقبل نير يصبح فيه الكاتب المشهور والشاعر القدير ، والزعيم المرصود .

ولذلك شعر بالوحدة بعد سفر الشيخ محمد عبده ، وأحس بضيق بيروت بالنسبة إليه ، فتحمل إلى مصر سنة ١٨٩٠ وبهذه الرحلة ختم الصفحة الأخيرة من المرحلة الأولى لحياته ، مرحلة التعلم والتكوين ، مرحلة المدارس ذات الجدران ليدخل مرحلة جديدة يتكون بها كذلك على مدارس واسعة لا تحدّها جدران

(١) روض الشقيق ص ١٩ .

ضيقة ولا يلم بها مدرسون فى حصص معينة وفصول محدودة .

والواقع أن هذا اللقاء بين شكيب وبين الإمام فى مطلع الشباب كان له أثر كبير فى حياة صاحبنا . وهذا الأثر كان قوياً كالتيار جرف كل شىء وأثار فى نفس الشاب شعوراً خفياً ظل يظهر ويقوى حتى استبد به . وكثيراً ما نرى فى تراجم الأعلام مثل هذا .

* * *

المرحلة الثانية (١٨٩٠ — ١٩١٨) :

سافر شكيب إلى مصر ، وعمره إحدى وعشرون سنة ، فى مطلع الشباب الريق ، وزاده شعر متين ونثر قوى ، وذكاء حاد ، وحافظة مدهشة ، تدعمه أسرة عريقة وجاه واسع ، وتشفع له معرفة شخصية بالإمام محمد عبده ، فاستطاع أن يدخل حلقة ذلك الرجل العظيم ، وأن يلازمه ، وأن يمكث بقربه شهرين كاملين ، تعرف فيهما إلى أرقى الشخصيات فى مصر بل فى العالم العربى . وقد أشار إلى ذلك فقال : « سنة ١٨٩٠ كانت أول قدمة لى إلى مصر ، وكنت بين العشرين والواحد والعشرين من العمر ، فمكثت سبعة أشهر فى الإسكندرية ، ثم جئت إلى مصر ، وكان أكثر اجتماعنا ذلك الوقت بأستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده وبرهطه المعهودين » وذكر هذا الرهط وعدّد من أسمائه ، وهم كلهم طلائع نهضتنا العربية الحديثة ، ورسل حياتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية فيهم سعد زغلول علم الأعلام فى السياسة والأدب والاجتماع ، وفيهم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد وجريدته عمت بعد ذلك آفاق البلاد العربية وكانت مدرسة للوطنية والأدب الحق ، ينشر على صفحاتها كل كاتب يريد أن يكون أمراً مذكوراً . وفيهم أحمد زكى باشا الذى أصبح شيخ العروبة ، فى تحقيقاته وكتبه وأدبه ، وفيهم شعراء وأدباء وساسة تضيق عن استيعاب أسمائهم وأمجادهم سطور وسطور .

ولا شك فى أن هذه البيئة كانت تمثل أكبر جامعة من الجامعات دخلها

الشاب وخرج منها على اطلاع وثقافة وسياسة فزادته يقيناً برسالته التى راحت تراود أحلامه وأمانيه ، وهى رسالة الإسلام والدفاع عن الخلافة ، والذود عن العرب ، ومناضلة الاستعمار ، إنها رسالة جمال الدين الأفغانى انحدرت إليه عن سبيل محمد عبده . فوقر فى نفسه أن يتصل بجمال الدين وأن يسافر إليه لينهل من الينبوع ويستقى منه فيروى ظمأ نفسه وغليل روحه ، ويقف على كثير مما كان يعتلج فى قلبه من الأسئلة . فسافر إلى باريس وعاد منها إلى الآستانة واجتمع بجمال الدين سنة ١٨٩٢ ، وهو فى الثانية والعشرين من العمر(١) فنفض أمامه جملة مشاهداته فى مصر وفى الغرب ، وما دار فى خلده عن الشرق والإسلام وموقف الاستعمار والتبشير منهما ، فأعجب به جمال الدين كما أعجب محمد عبده من قبل وقال له : « أنا أهنئ أرض الإسلام التى أنبتتك » . وهذه الشهادة لا تقل عن شهادة محمد عبده فى شكيب ؛ بل إنهما كل ما كان يحمل من شهادات جامعية عالمية يعتز بها ، بل لعلهما وجهتاه فى حياته(٢) وخطتا له سيرته فى الأدب وفى الإصلاح كما نبسط ذلك مفصلا فى الأبواب التالية حين الحديث عن مناحى نشاطه .

وعاد شكيب أرسلان إلى بيروت بعد أن طاف فى أوربة ودار الخلافة ، وأرض الكنانة ، يحمل فى صدره رسالته الخالدة ، وفى قلبه أمانى أمته ، وقد تأثر أيما تأثر بما سمع وبما رأى فاتخذ ديدنه الدفاع عن الخلافة العثمانية بعد أن وقف على دسائس الاستعمار ، وعرف ما لم يعرف قومه من خطط الاستيلاء على بلاد العرب والمسلمين ، وفضل أن يقف إلى جانب بنى عثمان فى نضالهم ضد الغرب إلى أن تنجلى غمامتهم ، لئلا يتفرق الصف فى الشرق الإسلامى وليكون

---

(١) فى حاضر العالم الإسلامى ٢٩٨/٢ : « وكنت لما عدت من أوربا إلى الآستانة سنة سنة ١٨٩٢ ذهبت إليه فى نهار وصولى فاستقبلنى براً وترحيباً ، ولزمته تلك المدة إلى أن اضطررت إلى السفر إلى وطنى سورية . ففارقته آسفاً » .

(٢) تحدث شكيب عن جمال الدين فأفاض ، ونشر عنه مقالة بعد ست وثلاثين سنة فى مجلة الثقافة بدمشق ص ٣٣٧ ، سنة ١٩٣٣ .

معهم فى الحرب ضد التبشير وتفرقة الصفوف . ولذلك كان موقفه كموقف جمال الدين ومحمد عبده فى نصره العثمانيين يختلف عن موقف كثير من زعماء لبنان آنذاك ، الذين تأثروا بالإرساليات والدعايات الأوربية . وبهذا كان ينسجم مع كثير من كتاب مصر وشعرائها أواخر القرن التاسع عشر كأنه مصرى يعيش فى لبنان ، فيشبه مصطفى كامل أشد الشبه فى سياسته نحو العثمانيين ، كأنهما يستقيان من ينبوع واحد ، على ما بين البلدين من اختلاف فى الوضع السياسى وفى التيار الاجتماعى .

ولعلنا حين نروى رأى مصطفى كامل فى الدولة العثمانية وفى موقف بلاده مصر منها ، ونعرف السياسة التى يرسمها لذلك نفهم موقف شكيب على حقيقته ، يقول مصطفى كامل[1] : « فإذا كان الخلاف القديم قد جر على الدولة وعلى مصر المصائب والبلايا ، فواجب على بنى الدولة وبنى مصر أن يعتبروا به وأن يجعلوا الوفاق والاتفاق رائدهم فى كل أعمالهم . فمصر من الدولة روحها ومن الخلافة فؤادها . ولا حياة لهذا الجسم العظيم إلا بالاتفاق بين أعضائه فى العمل . وإذا كانت دول أوربا تتحد وتتفق مع قوتها وعظمتها عندما يهم المسيحية أمر ، فكيف لا نتحد معاشر المسلمين ، وبلادنا واقعة فى أشد البلاء ، والأخطار محدقة بها من كل جانب وأعداؤها يكيدون لها أعظم كيد كلما سنحت لهم الفرص » .

وهذا جواب على نظرة كثير من السوريين إلى موقف شكيب وقلقهم من سيره فى نصرة العثمانيين . ولقد اجتمع برشيد رضا واتصلت بينهما روابط المحبة ، ولكنهما كانا على اختلاف فى وجهة النظر إلى العثمانيين ، فرشيد رضا يمثل نظرة طبقة من السوريين كانوا يطلبون اللامركزية ويسعون إلى التخلص من استبداد الأتراك . ولكنهما كانا يتفقان فى أمر واحد هو الوقوف فى وجه الاستعمار الغربى ، ويسعيان معاً فى الدفاع عن البلاد العربية والإسلامية . واختلاف الرأى

---

(١) كتاب المسألة الشرقية تأليف مصطفى كامل ، مصر ١٨٩٨ ، ص ١٠٤ .

لم يفسد بين الرجلين حبًّا متبادلا وعاطفة متشابهة فى الإخلاص والود ، مما نبينه فى مكانه من صفحات هذا الكتاب على تفصيل .

وفهم العثمانيون موقف شكيب أرسلان من الخلافة ، وظنوا أنهم يستطيعون كسبه أبداً إلى جانب مصالحهم ، فاستغلوا إيمانه بالخلافة الإسلامية ودعم الخليفة العثمانى ، فأحبوه وقربوه فأساءوا إليه إساءة بالغة لم يلتفت شكيب إلى نتائجها . فقد كان مخلصاً فى سيرته لا يسعى إلى كسب مغنم أو منصب أو زعامة شعبية ، وإنما كان يفضل بقاء العلم العثمانى على دخول الأجانب فى أمر أمته وبلاده ، ويفضل أن يكون مع المسلمين ضد المسيحية الأوربية . فكان يردد لذلك كلمة « مسيحية شرقية[١] » رأى أنها كانت مخلصة عاشت فى كنف الدول الإسلامية المتتابعة منذ الراشدين إلى يومه مرعية المقام كريمة الجانب ، لا تهدر حقوقها وكرامتها . ولكنه وحده كان يسير فى هذا السبيل مع عدد من وجهاء لبنان ، وكان أكثر قومه ينظرون إليه نظرة خاصة فلا يرون رأيه ، وإنما يريدونه أن يسير فى صفوفهم ضد العثمانيين مهما كلف الأمر . وفى هذه الصفوف جماعة موتورون آلوا على أنفسهم محاربة العثمانيين ولو تطلب الوضع حماية الأوربيين . وكان هذا بعيداً كل البعد عن سياسته وأهدافه . ومن هنا دخل الرجل معركة خفية ثم علنية ، واتهمه كثير من قومه فى أنه يتواطأ مع الأتراك ، ويتآمر معهم ضد أبناء بلده ، وهو من ذلك براء ، كما نرى بعد قليل .

وأعاده والى لبنان يوسف باشا فرانكو قائمقاماً لقضاء الشوف سنة ١٩٠٨[٢] وقد قارب الأربعين من عمره ، فكان يملك الإمارة والقلم كما كان آباؤه وأجداده من الأمراء ، وراح يدير الأعمال فى جزم كما أدارها أبوه من قبل ، على إباء وشمم ، فكان صورة لعشيرته ، فما أطاع أوامر الولاة العثمانيين فى حال يظلم بها

---

(١) كان عبد الرحمن الكواكبى قبله يردد هذه الكلمة ، ويفرق بين مسيحية الشرق ومسيحية الغرب .

(٢) فى بروكلمن ٣/٣٩٥ ، أنه عين أول مرة سنة ١٩٠٢ .

قومه ، ولم يحاب عقيدة دون عقيدة ، فاختلف فى ذلك عن الساسة العثمانيين ، وقد ساءت أحوالهم ، وغلبت الرشوة ، وعم الفساد ، وضاق الناس ذرعاً بأحكامهم وضجت البلاد من قوانينهم وتصرفاتهم الطائشة — كما رسمنا فى وصف العصر — لذلك ظل فى منصبه هذا عدة أشهر ، ثم استقال من منصبه .

وانتخب بعد ذلك نائباً عن حوران فى مجلس النواب (المبعوثين) بالآستانة وظل كذلك حتى قبيل الحرب الكبرى . ومن هنا دخل باب السياسة الواسع ، واضطر إلى أن يقف مواقف عسيرة ، يقفها الساسة فى ذلك الزمان بين العرب والعثمانيين . فكان يتصل بكبار الرجال فى سورية وفى الآستانة ، وكان يتدخل بحكم نيابته فى هذه الأمور المضطربة والأحكام المتناقضة ، والدعايات المختلفة ، فكان عليه أن يوفق بين آمال الشعب المحكوم المتظلم ، وسياسة الخلافة القلقة قبيل الحرب العامة ، وقد تكالبت الأمم الغربية على سورية ، وراحت تدس دعاياتها وسمومها ، وتروج فى العرب حكاية الرجل المريض المحتضر .

وشعر شكيب بخطر الغرب وتبشيره ، وأحس بانفصال الدول عن الخلافة ، ووقوعها تحت سيطرة الاستعمار الأوربى ، فكان يطير إلى البلقان حيناً لنجدة الجيش العثمانى هناك ويسافر إلى طرابلس الغرب لنجدة العرب ضد الطليان . وعين مفتشاً لجمعية الهلال العثمانى وسافر تحت لواء هذا الهلال إلى طرابلس الغرب للدفاع عن إخوانه هناك ضد المغيرين سنة ١٩١٢ ، برفقة الضباط الأتراك وفيهم أنور باشا ، ولبث فى تلك البقعة العربية يحث الهمم ويؤمن المؤن ، ويضمد الجرحى من إخوانه العرب لاستخلاص هذا القطر من براثن الحرب الصليبية الاستعمارية . فوقف فى خطوط القتال ، ونصب نفسه درعاً فى حماية الإسلام ولكنه فشل حين فشلت الحامية ، وعاد يحز الأسى فى نفسه بعد أن رأى بعينيه تحقيق السياسة الاستعمارية ، وآمن بصدق نظرته ، ونادى فى قومه بأن الدعاية الأوربية كانت تسعى لفصل العرب عن الترك ، فى سبيل الاستيلاء على العرب لا لخير العرب ورفاهيتهم واستقلالهم . وجاهر برأيه هذا فى تلك الأيام التى أصر فيها زعماء العرب على النضال بجانب الحلفاء فى سبيل استقلالهم ، حتى وقعت الحرب الكبرى .

فلما اندلعت نار الحرب سنة ١٩١٤ ، ووقف العثمانيون مع الألمان فى صف ، ووقفت دول أوربة الكبرى المستعمرة فى صف آخر رأى العرب أن يفيدوا من هذا الخلاف ، وأن يحصلوا على وعود باستقلالهم الكامل إذا وقفوا إلى جانب ما سمى بالحلفاء آنذاك . ورأى شكيب غير ما رأت الكثرة من زعماء العرب وعلى رأسهم الحسين بن على ملك الحجاز . فكانت الكثرة العربية ترجو سحق الأتراك وانتصار الحلفاء ليكون الاستقلال للعرب ثمناً لهذا النصر . وكان شكيب يرجو سحق الحلفاء ونصرة الدولة العثمانية ليطالب العرب بعدها باللامركزية وبالاستقلال . فقد كان يصيح مجاهراً بأنه لن يقف فى صف الدول الاستعمارية الغربية ضد العثمانيين ، وأنه لن يشهر السيف على الدولة المسلمة لينصر الدولة الأوربية مهما كلف الأمر ، فقد عرف بتجاربه ورحلاته وقراءاته أن الاستعمار يتخذ العرب جسراً إلى قتل هذه الدولة الشرقية ليلتهمها ثم يلتهم أجزاءها العربية بعد ذلك ، واعتبر بطرابلس الغرب ومن قبلها الجزائر وتونس ، وضرب الأمثال لقومه ناصحاً .

وكان من سوء حظ شكيب أن الولاة العثمانيين والباب العالى والقادة العسكريين حين عرفوا موقف العرب منهم صمموا على مقابلتهم عداء بعداء ، فلم يستعملوا الحكمة فى اجتلابهم وفى تقريبهم ، وفى إصلاح سياستهم وحكمهم فى البلاد العربية . بل إن جماعة الاتحاد والترقى قرروا أن يسيروا على سياسة طورانية خرقاء ، وأن يعاملوا الدول العربية معاملة الدول المحكومة ، فعزموا على البطش بقادة العرب ، واتهامهم بالخيانة والسير فى ركاب الدول الغربية المستعمرة. فكانت ثلمة أبعد من أن يسدها شكيب وغير شكيب ، وخاصة حين ساقوا العرب إلى صفوف القتال وأوردوهم مورد الهلاك ، وعاملوهم معاملة عسكرية قاسية — كما رأينا فى وصف العصر .

واشتدت الحرب على الأتراك وتوالت خسائرهم وقلت أموالهم ، وجاعت جيوشهم ، وظهر ذلك واضحاً فى لبنان ، حين أحس القادة الأتراك بجوع الجيش وقلة سلاحه ، وكثرت الدعايات حوله ، وتحول الشعب العربى عن

نصرته وحبه ، فجاع لبنان كما جاع الجيش ، وضاقت الحال بالخلافة .
واختلف القادة فيما بينهم ، وقام التحاسد بين أنور باشا وبين خصمه ومنافسه جمال (باشا) السفاح ، ووقعت سورية ولبنان فريسة هذا الخلاف الأحمق . ولم ينفع تدخل القادة الألمان فى إصلاح الحال ، فتوالت الصيحات من لبنان ، وعلت نداءات الدول الأوربية فى التظلم من جوع الشعب وفساد حاله ، وظن الناس فى هذه الربوع العزيزة أن الأتراك كانوا يقصدون إلى قتل الشعب العربى وتجويعه انتقاماً منه ، وإخماداً لثورته فى طلب الحرية .

وزاد الحال سوءاً تظاهر الدول الأوربية بالنصرة ، وسعى قناصلهم فى تقريب العرب وفى استجلابهم وفى دعوتهم إلى الثورة ، فنهض جمال السفاح لقتل كل أمل فى التقريب بين العرب والترك ، فعلق المشانق فى ساحات بيروت ودمشق ، وساق إليها الأباة من العرب ، واتهمهم بالخيانة العظمى والتواطؤ مع الأجنبى المستعمر العدو .

وكان موقف شكيب ما يزال مع الخلافة العثمانية يدعمها فى جريدة « الشرق» بدمشق مع فئة من الكتاب العرب — كما قلنا فى الحديث عن العصر ، يدعون لنصرة الإسلام ضد الغرب المستعمر ، ويعملون على وحدة المسلمين والإبقاء على سمعة الخلافة العثمانية وقوتها وسيطرتها كما كانت فى عهد الأمويين والراشدين ، ولعلهم كانوا يعيشون مع الأمجاد الإسلامية أكثر مما كانوا يعيشون مع الواقع العثمانى . فقد خالفهم سوء الحظ فكان الخليفة العثمانى نفسه شر ممثل لأمانيهم الغالية ، وكانت الإدارة العثمانية بعيدة كل البعد عن تحقيق آمالهم ، وكان جمال السفاح يلوح لهم بالعمل لخير العرب والمسلمين فى خطاباته وتصريحاته ، فإذا انقلب إلى ضباطه الأتراك دبر المكايد والمشانق فساق إخوانهم واحداً بعد واحد إلى الموت والنفى ، حتى إنه أخيراً عمل على سوقهم هم أنفسهم إلى المصير الأسود ، وذلك ليجهز على كل مفكر عربى وأديب عربى يحسن البيان القرشى أو يتبع الأساليب العدنانية . وقد اعترف شكيب أرسلان نفسه بأنه حاول ردع جمال السفاح عن أعماله حتى خاف على نفسه من

الشنق [١]، بل إنه ذكر أن الديوان العرفى فى « عاليه » طلب نسيب أرسلان أخا شكيب للتحقيق معه فيما كان يكتبه هذا الشاعر فى جريدة « المفيد » انتقاداً للدولة والأتراك ، وأيقن الرجل أن مصيره سيكون كمصير إخوانه الشهداء من العرب . ويعقب شكيب على ذلك مبرراً سبب نجاته ونجاة أخيه من أيدى جمال السفاح بعبارة نعدها مفسرة لموقفه آنذاك فهو يقول بعد عشرة أعوام[٢] : « ولكن الدولة كانت تعرف صداقة الأرسلانيين لها ، وكونهم من أشد الأسر السورية على النزعة الأجنبية وأن الاستقلال العربى عندنا محمود ما لم يكن مشوباً بالسيطرة الإفرنجية إذ لا يعود استقلالا إذ ذاك ، فكانت شهرة أسرتنا بعداوتها للأجانب وعداوة الأجانب لها شفيعاً دائماً لنا عندها . وهذا سبب خلاص أخى نسيب وأخى عادل مع اشتراكهما فى الحركة » .

لقد كان شكيب إذن فى حركته خلال هذه الفترة يقف مع الخلافة العثمانية ضد الغرب والسيطرة الأجنبية ، وينظر إلى السلطان العثمانى كرمز لإنقاذ الإسلام والمسلمين من هجوم هؤلاء الغربيين فى القرن العشرين كما هجموا فى القرون الماضية . ولكن هذا لم ينج الرجل من هجوم الأحزاب العربية المطالبة بالانفصال أو اللامركزية حتى إنهم اتهموه بالعمل عند الأتراك لمنع الباخرتين الأمريكيتين من الوصول إلى ميناء بيروت وفيهما الأرزاق والملابس المرسلة من السوريين فى المهجر إلى أهلهم بلبنان . وقد دافع شكيب عن نفسه بوثائق كثيرة بين فيها أن الذين فعلوا هذا هم الحلفاء حين احتجزوا الباخرتين زمناً طويلا تلفت فيه الأرزاق وأصابها العفن ، لكى يتهم الشعب العربى فى لبنان

---

(١) عن كتابه رشيد رضا ص ٢٠١ – وانظر كذلك مجلة المنار لسنة ١٩٢٢ ص ١٢١ حيث كتب مذكراته عن معرفته لجمال باشا منذ قدوم هذا السفاح إلى سورية ، وعن نصح شكيب له فى البعد عن التهور وظلم الموارنة ، أو اضطهادهم . وعن محاولاته منع الشنق وهو يتهمه بأنه كان يخالف طلعت وروح السلطنة والمسئولين العثمانيين ، فكان مستبداً طائشاً .

(٢) روض الشقيق ، دمشق ١٩٢٥ ، ص ٢٣ – وفى مذكراته بمجلة المنار يقول إن جمال السفاح منع شكيباً من السفر إلى الآستانة لئلا ينقل إلى المسئولين شر أفعال هذا السفاح وتأثيرها فى العرب والإسلام ، ثم زجره جمال ص ١٣٠ .

دولة الأتراك بهذا العمل الإجرامى الذى خلا من كل إنسانية وشفقة ورحمة ، وجاوز حدود الحرب إلى الوحشية فى الغاب .

ومهما يكن من أمر فقد قاسى شكيب أرسلان خلال هذه الظروف الحرجة أقصى ما يقاسيه سياسى ، من اتهام وبغضاء ، ولكنه ما ونى مرة فى السعى لجمع الطرفين المتناقضين الأتراك والعرب لصد الهجوم الغربى ودفع الاستعمار عن بلاده[1] . فكان العرب يقاسون الجوع والذل والموت والنفى ويتلظون بسعير الحرب والفاقة ، وكان الأتراك يشتدون فى الظلم والجور والقسوة والاتهام خوف الدسائس الأجنبية والثورات الداخلية ، فلم يكن من سبيل إلى جمع الآراء إلا إذا كان جمع النار والماء فى يد واحدة ممكناً. وأخفق الأتراك فى سياستهم فكأنهم ألقوا بالعرب فى أحضان الحلفاء يرجون عندهم النصر والخير والاستقلال فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار. وأخفق شكيب فى سياسته فأنحى عليه قومه باللائمة وسطروا عليه وقوفه مع العثمانيين وبعده عن المشاركة فى الثورة العربية التى انطلقت من الحجاز ، وتناولته الأقلام بالنقد والهجوم ، واعترف شكيب بذلك فقال : « وكان الملك حسين عفا الله عنه وأنصاره من العرب يحملون على حملات شديدة باللسان والقلم ، وكثيراً ما كتبت جريدة (القبلة) طعناً وقذفاً بحق كاتب هذه السطور يدل على ما هناك من ضغن » . وكان شكيب يرد عليها بأن الحسين بن على كان خارجاً على دولة الخلافة ، وأنه وثق بمواعيد البريطانيين وألاعيبهم ، وكان عليه أن ينتظر نهاية الحرب لتسوى الأمور بين العرب والترك ، واتهمه بأنه وإخوانه ساقوا بلاده إلى استعمار جديد تحت ظل الفرنسيين . وانتهت الحال بعد الحرب بظفر الحلفاء ، واستقلال العرب خلال شهور ، ولكن الحلفاء كانوا يبيتون فى الخفاء أمر تقسيم البلاد العربية بينهم فى الشرق الأوسط ، كما تقاسموا من قبل البلاد العربية فى أفريقية الشمالية فذهب العثمانيون وانحسرت الخلافة الإسلامية ، وطوى لواؤها عن هذه الربوع ، ولكن

---

(١) فى حاضر العالم الإسلامى ٤/ ٣٧٧ : « عند ما زرت ألمانيا سنة ١٩١٧ اعتقد أنور أننى أقدر من غيرى على حل المشكلات المتعلقة بينهم وبين الترك » .

ألوية جديدة راحت تخفق فى سمائها ، هى ألوية فرنسة وإنكلترة وإيطالية التى كانت تدافع بالأمس عن حقوق العرب ، وتتظاهر بمناصرتهم وتحقيق ثورتهم وإبلاغهم إلى شاطئ الحرية .

وهذه المرحلة الثانية التى قضاها شكيب من حياته كانت مرحلة التجارب السياسية خاضها الشاب منذ سن العشرين حتى قارب الخمسين تلفه تيارات مختلفة من آراء ومذاهب كانت تضطرم فى أيامه وتثور ، شهد خلالها الاضطراب والقلق ، وأراد أن يحقق خطته الإسلامية فى جمع المسلمين تحت راية الخلافة العثمانية ، ولكن خابت أمانيه خيبة قوية ، فلصقت به الدعايات وجابت على اسمه وسيرته سمعة ظلت تلازمه طويلا ، فراح يدافع بقية حياته عما كان منه خلال هذه الحقبة ، فملأ صفحات وصفحات من رسائل ومقالات ، شغلت من وقته وفراغه ، ولكنه استطاع خلالها على الرغم من متاعب السياسة وغرورها أن ينصرف قليلا إلى الكتب القديمة ، وأن يعكف على خزائن المخطوطات فى استانبول ، وأن يختار منها كتابين اثنين فى النثر العربى لعلهما من أفخر ما أخرج العرب أولهما الدرة اليتيمة لابن المقفع طبعه سنة ١٨٩٧ ، وثانيهما رسائل الصابى أبى إسحق طبعه سنة ١٨٩٩ ، كما أخرج للناس ترجمته لكتاب شاتوبريان « آخر بنى سراج » ونشره سنة ١٨٩٧ ، مع ذيل وتاريخ . وهذا قليل قليل على رجل يزحف نحو الخمسين .

* * *

المرحلة الثالثة (١٩١٨ — ١٩٢٥) :

ظل شكيب خلال الحرب العامة يقاسى الأمرين من سياسة جمال السفاح ، فقد كان يحب البقاء للخلافة العثمانية ، ويريد للعرب الكرامة والهناءة ، ولكن السفاح طغى وبغى ، وقتل ونفى وهجر ، حتى طفح الكيل واستاء شكيب وتذمر ، وتدخل كثيراً ولكن وساطاته لم تنجح حتى خاف على نفسه ، فهاجر من سورية إلى استانبول أوائل سنة ١٩١٧ وظل فيها إلى نهاية الحرب واستقدم

عائلته إليها ، وتحمل نفقات الغربة — كما قال فى مذكراته[1] — حتى لا يعود إلى سورية وجمال فيها .

ودعته الحكومة الألمانية فى هذه السنة نفسها ١٩١٧ إلى زيارة عواصمها الشهيرة مثل هامبورغ وفرانكفورت وكولونيا ومونيخ وغيرها ، فلبى الدعوة ، وبرفقته موظف خاص من وزارة الخارجية ، فرحب الألمان بذلك واحتفوا به فى كل مكان ، وحاضر فى تلك البلاد وشهد أعيانها من وزراء وساسة محاضراته ، شرح فيها حال المجاعة فى سورية ولبنان وحمل مسئوليتها على الضابط جمال السفاح ، وشهر به وطلب عودته وإقصاءه عن سورية ، لأنه كان يثير المشاكل ، ويخلق الفوارق بين المسيحيين والمسلمين ، ويدعو إلى سوء الظن بسياسة الدولة العثمانية ، فينفر العرب مسيحيين ومسلمين ، ويبث البغضاء بغطرسته وجهله ، ووفق شكيب فى إقناع الألمان وساسة الأتراك فضيقوا على جمال السفاح واضطروه إلى أن يطلب العودة إلى الآستانة ، فعاد إليها مقهوراً . وبهذا خدم شكيب قومه وأنقذ البقية الباقية من زعماء السوريين من حبل المشنقة ، كما خدم بلاده فى إعادة منفيي سورية إلى أوطانهم .

فلما انتهت الحرب العامة بإخفاق الألمان والأتراك ، واحتل الحلفاء البلاد العربية على أنها كانت ولايات عثمانية فهى تابعة للدولة المغلوبة ، ونكثوا عهودهم ومعاهداتهم مع العرب ، وأشرفوا على أمور الدولة العثمانية نفسها بحكم الحرب ، تضعضع الأتراك ، وقام اليونان بحربهم ودخول ديارهم ، وأمسك مصطفى كمال بزمام القيادة . ووقع فى الشعب التركى نفسه نفور من الاتحاديين وكره لزعمائهم وشعور عام بأنهم ساقوا الدولة العثمانية إلى الحرب والخسارة . فأصبح من المستحيل على زعماء الاتحاديين البقاء فى تركية ، خوفاً من انتقام الشعب . ومنعهم مصطفى كمال من دخول الأناضول حذراً من وقوع الشقاق بوجودهم .

---

(١) يحسن بالقارىء أن يرجع إلى المذكرات التى كتبها شكيب فى برلين ١٩٢٢ عن سياسة جمال فى مجلة المنار ١٩٢٢ ص ٢٩٠ وما بعدها وخاصة عن وضع سورية والأتراك ورأيه فى جمعهما سياسياً على نظام شبيه بالنمسا والمجر .

لذلك فر هؤلاء الزعماء إلى خارج تركية ، فتوجه جمال السفاح إلى الأفغان لتنظيم جيش هذه الدولة الإسلامية ، ولكن الأرمن اغتالوه حين منصرفه من أوربة إلى الأفغان . وتوجه أنور وزملاؤه إلى ألمانية عن طريق روسية . وخرج شكيب كذلك متوجهاً معهم من طريق الروسية إلى برلين . ومن برلين قصد إلى سويسرة فبقى فيها من أواخر سنة ١٩١٨ إلى أوائل سنة ١٩٢٠ . ثم عاد إلى مونيخ فبرلين وهناك التقى بأنور عائداً من موسكو ، وكتب شكيب يصف ما كان بينه وبين أنور[١] :

« وكان يلح على دائماً فى الذهاب معه إلى موسكو ، وأنا أعتذر له عن مشقة ذلك على ، إلى أن رضيت أخيراً بأن أذهب على شرط أن لا أقيم فوق جمعتين . وكان مرادى مشاهدة حال الحمر بنفسى ، والفحص عما إذا كان يصح الاعتماد عليهم فى المسائل التى نحن فيها أم لا ؟ وعما إذا كان هناك من أمل بأن تستفيد منهم البلاد الشرقية والأمم المستضعفة أم لا ؟ فأقمت بموسكو شهراً أجريت فيها بنفسى التحقيقات التى أردتها . وفى أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢١ فارقتها وودعت أنور ، وهذا آخر عهدى به » . .

ويقص علينا شكيب أمر هذه الرحلة إلى موسكو فى حزيران (يونيو) من سنة ١٩٢١ ، وما شاهده من أحوال المسلمين فى الروسية وما كان من لقائه بأدباء[٢] الطاغستانيين والقازانيين ، وزيارته الجامع هناك ، وقضائه صلاة الجمعة . ثم يروى لنا ما كان من قتال أنور فى القوقاس ومساعيه فى نصرة المسلمين ضد الروس ، فى حديث طويل لعله من أجمل ما خط شكيب بعنوان « الشهيد أنور » ، يصف فيه مراحل الحرب ثم موت أنور ، وحبه له ، وإكباره لشجاعته . كما يروى فى مكان آخر طموح أنور[٣] إلى إنشاء سلطنة فى أفغانستان يجلس عليها القائد ، وإلحاحه فى أن يكون معه شكيب فى ذلك ، ولكن موت أنور حطم هذه الآمال .

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ٤ / ٣٧٩ .

(٢) حاضر العالم الإسلامى ٢ / ٢٨٦ .

(٣) ذكر الأمير شكيب ٤٣٠ ، وكتابه عن رشيد رضا ص ٥١٢ .

وعلى هذا لبث شكيب فى ألمانية ، لأنه لا يستطيع العودة إلى بلاده فقد احتلها الفرنسيون ، وراحوا ينكلون بالأحرار من العرب ، وينتقمون ممن كان مع الساسة العثمانيين وعلى رأسهم شكيب .

وفى هذه الفترة نصحه صديقه الدكتور ميشال بيضا فور نهاية الحرب أن يشترى داراً ببرلين وأن يفيد من سقوط العملة الألمانية (المارك) ، فإنها تدر عليه ما يعيش به حين تعود العملة إلى قوتها . فقبل شكيب النصيحة ، وعمل بها ، وأعانته زمناً قليلا ، ولكنها جلبت عليه شكوك الناس وريبهم فيما بعد ، فظن الدساسون أن النازيين جعلوا له مالاً يرتزق منه ، ليكون داعية لهم فى البلاد العربية ، فلم ينج الرجل من الأقاويل والغمز حتى فى غربته وشقائه[١] . وقد تخوف أهله هذا الحال ، فكتبوا إليه ينصحونه بالعودة إلى سورية ، وذكر ذلك يقول[٢] : « ولما احتل الفرنسيس سورية كتب إلى المرحوم أخى — نسيب — يبدى لى رغبته ورغبة العائلة ومن لنا من الأصحاب والأتراب فى رجوعى إلى البلاد . وقال لى من جملة كلامه : إن المرحوم الشيخ محمد عبده قد رضى بالإقامة بمصر مع وجودها تحت احتلال الإنكليز ، وأنه حسبى الاقتداء بأستاذنا المشار إليه إذ لا يجوز لنا ترك بلادنا بتاتاً مهما عز علينا استيلاء الأجانب عليها . قال لى : وإن كنت لا ترضى أن تقيم بالمنطقة الساحلية التى يخفق فوقها العلم الفرنسى ، فإنك تقدر أن تسكن بدمشق حيث توجد حكومة عربية مستقلة . فقد كان يومئذ الأمير فيصل بن الحسين على رأس حكومة عربية مستقلة فى الشام . فجاوبته بأننى أخشى إذا رجعت إلى البلاد من الوقوع فيما لا خير فيه ، لأن الفرنسيس لا يلبثون أن يتعرضوا لى بسوء مهما تجنبت السياسة . وأما السكنى فى الشام فلا تكون إلا مؤقتاً ، وسنكون بعد ذلك مضطرين إلى الهجرة منها ، لأن فرنسة لابد أن تستولى على الشام ، وهى الآن فى المكالمة مع إنكلترة والمساومة حتى تسمح لها بالتقدم إلى المنطقة الداخلية من سورية .

(١) انظر دفاع المرحوم محمد كرد على فى مذكراته ، ومجلة الكتاب ١٩٤٨ ص ٣٧٩ .

(٢) روض الشقيق ، مقدمة الأمير شكيب ، ص ٢٥ ، طبعة دمشق سنة ١٩٢٥ .

إذن لا فائدة من إيابى إلى سورية ، ولن أقدر أن أسكت بإزاء استيلاء الأجنبى . فسكت المرحوم بعد جوابى هذا ، ولم يراجعنى من ذلك الحين فى هذه المسألة » .

وهكذا كان شكيب يرى من أمور السياسة ما لم ير غيره ، فيعرف نوايا المستعمرين ، ويتوقع البطش بالعرب بعد أن بطشوا بالترك ، لأن حملتهم كانت مزدوجة ، أولا للتفريق بين الأمتين ، ثم بضرب إحداهما وهى الترك وضرب العرب بعدهم وقد فعلوا . ولذلك وقف من الثورة العربية أول الأمر موقف المخالف ، لأنها كانت ضد العثمانيين ، فلما انتصرت ، وملك فيصل أصبح العرب ضد دسائس المستعمرين الأوربيين فوقف يناصر بنى قومه ، ويبنى على العرش الجديد العربى آمالا جساماً ، لعل العرب يستعيدون مجد بنى أمية ، فراح يشد أزر فيصل وينتصر له ، وقال فى سياسته الجديدة : « إننا منذ انتهاء الحرب العامة توجهت همتنا إلى إيجاد الوحدة العربية تدريجاً منذ عشرين سنة[١] » ، وأصبح ينادى بأنه جندى من جنود الأمة العربية ، له ثلاثة أهداف جليلة واضحة تمام الوضوح أولها الاتحاد ، وثانيها التحرر وثالثها السير فى موكب النهضة والعلم والبحث[٢]. وكان يعرب عن أمله فى مستقبل العرب والجامعة العربية فيرى أن ستين مليوناً يستطيعون أن يجندوا حوالى مليون جندى على الأقل لحماة الجامعة العربية[٣] .

وقد عرف الملك فيصل إخلاص شكيب للقضية العربية ، وآمن بخدمته لها ، وسعيه فى سبيلها ، ورأى أن هذا الرجل كان يعمل للعرب تحت ظل الخلافة الإسلامية . فلما قضت الخلافة راح يعمل لهم تحت ستار الإسلام ضد الاستعمار . لذلك كان فيصل يعرف منه ما كان الناس يجهلون ، ويقدره حق قدره ، ويبادله الود والتحية ويقول شكيب بصدد الحملات عليه من أنصار الحسين[٤] : « ولم يكن بينهم من هو عف اللسان بحقى غير الملك فيصل .

---

(١) ذكرى شكيب ص ٣٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٤٢ .
(٣) كتابه عن رشيد رضا ، دمشق ١٩٣٧ ، ص ٣٦١ .
(٤) المصدر المذكور ص ٣٦١ .

وكنت أحبه منذ كان زميلا لى فى مجلس الأمة بالآستانة . وانتهت الحرب العامة ، وتقاسمت دول الحلفاء البلاد العربية . وظهر ما ظهر من نكث الإنكليز بعهودهم . وبقى الملك حسين — عفا الله عنه — مستمراً على الوقيعة بى بالرغم من أنى عند تأسيس الحكومة المستقلة فى دمشق أعلنت وجوب تأييد فيصل والانضواء تحت لوائه . وكتبت فى الصحف وإلى أصحابى بأنى ضد الملك حسين وأولاده فى خروجهم على الدولة لأسباب يعرفها الخاص والعام . ولكن متى صارت المسألة بينهم وبين الأجانب فلا سبيل للتردد فى الانتصار لهم ، لأن القضية تكون حينئذ بين عربى وأجنبى » .

وهكذا قطع شكيب لسان الدعاة المتشدقين الذين يريدون أن يفرضوا على الناس سياسة خاصة وهم وراء ستائر البيوت على الدمقس والحرير ، ينفثون مع دخان لفافاتهم سموم التهم والدس . فقد أخذوا عليه مقامه فى برلين ، ونسوا أنه لجأ إليها حين أصبح الألمان لا يضرون ولا ينفعون ، وأنه اتصل بهم من قبل فآثرهم على غيرهم لضعف أذاهم على العرب بعد سقوطهم . وقد عرفه الألمان قبل ذلك وأكبروه كشاعر وأديب ، وكان له أن يرافق إمبراطورهم غليوم إلى سوريا وأن يمضى فى صحبته إلى دمشق ، وأن يقفا معاً على قبر « صلاح الدين » ليذكره بأمجاد الإسلام وانتصاراتهم ضد الصليبيين فى أعظم معركة ضد أوربة المتآمرة وهى « حطّين » . وسمعوا شعره ونثره فى وصف بلادهم وفى تكريم شاعرهم الكبير « غوته » حين وقف على قبره يستلهم من غرره درراً .

وفى برلين انصرف الأمير شكيب إلى نصرة العرب والدعاية لهم وهو لا يطمع عند قومه بمنصب أو جاه أو مال ، فكتب إليه فيصل الأول يشكره ويذكر أياديه بعد أن سقط عن عرشه فى الشام ويذكر شكيب ذلك[1] قائلا : « ومن هؤلاء الملك فيصل — رحمه الله — فإنه ما سقط عن عرشه فى دمشق حتى أرسل إلى بمكانى من برلين رسالة تدل على منتهى الثقة ومزيد الاعتقاد بإخلاصى للقضية العربية . وأفضى إلى بأسرار لا يفضى بها إلى أعز الناس عليه . وبعد ذلك

(١) كتابه عن رشيد رضا ص ١٦١ .

بسنوات جاءنى منه كتاب هو عندى يقول فيه : أشهد بأنك أزل من تكلم معى من العرب فى قضية الوحدة العربية » .

واتصلت الرسائل والأخبار بين شكيب وفيصل ، وكانت لخير العرب ولجمع شملهم والعمل لقضاياهم . وقد اجتمع الرجلان معاً سنة ١٩٣٠ بجنيف ، وكان معه فى نصرته فى أحلك الأيام وأشدها على فيصل ، وقد شهد السيد هاشم الأتاسى رئيس الجمهورية السورية فى الماضى لشكيب بعد وفاته ، فقال[1] : « وكان المرحوم جلالة فيصل يذكره بخير . وإذا ذكر أمامه يطريه ويثنى عليه . ويقول ليس لمجاهد عربى فضل إلا وله مثله عليه . لئن جاهدنا بسيوفنا فقد جاهد بقلمه بما لا يقل تأثيراً عن فعل تلك السيوف » . والحق أن شكيباً كان يردد دائماً : « العرب أمة واحدة ، لها تاريخ واحد ومصالح واحدة وآمال واحدة » فسبق من جاء بعده[2] ، وعلّم الأجيال كيف يكون العمل للعرب والسعى لخيرهم .

وقد بسطنا هذا كله ، وأفضنا فيه ، واستشهدنا بأقوال فيصل الأول لننتهى إلى وصف خطة شكيب فى هذه المرحلة ، بعد خيبة آماله فى انتصار العثمانيين على الغرب ، لنقول إن عقلاء العرب لم ينفضوا أيديهم من شكيب ، وإنما فهموا مواقفه وقدروها حق قدرها . ودليلنا على ذلك أن الزعماء العرب حين اجتمعوا فى القاهرة ، وشكلوا اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى سنة ١٩٢٢ ، قرروا تأليف وفد عربى يدافع عن سورية وفلسطين ، ويسعى لتحرير هذين القطرين من براثن الاستعمار ، فيبسط قضيتهما أمام الرأى العالمى ، ويتابع المحاماة عن حقوقهما والعمل لاستقلالهما فى جمعية الأمم بجنيف . ولم يجدوا بدّاً من الاستنجاد بشكيب والإفادة من ثقافته ورجولته وإخلاصه ونضاله ، فانتخبوه سكرتيراً أول للوفد ، وأرسلوا إليه برقية إلى برلين تدعوه إلى تأليف الوفد المذكور .

وسافر شكيب من برلين إلى جنيف ١٩٢٥ للقيام بهذه المهمة المقدسة[3] الجديدة بتكليف من قومه ، ليكون سفيراً لهم فى الغرب وليقف وحده ضد زعازع

---

(١) ذكرى شكيب لمحمد على الطاهر ص ، ٤٤٧ .

(٢) أصبح هذا الكلام نفسه فيما بعد شعار بعض الأحزاب .

(٣) انظر كتاب « أعمال الوفد السورى الفلسطينى » مصر ١٩٢٣ فى ١٥٢ صفحة .

السياسة وليناضل فى سبيلهم ، لا يكاد يهدأ ولا يفتر ، يكتب ويدافع حتى ما يتحمل جسمه بعد ذلك دفاعاً ولا نضالا مما نتحدث عنه فى المرحلة التالية .

ولكننا قبل أن نختم هذه المرحلة نحب أن ننبه إلى هذا القلق الذى أصاب الرجل وهو فى الخمسين من عمره لا يعرف له مكاناً بين أهله يركن إليه ، ولا يستطيع أن يزور بلاده وأسرته لأنه حرب على حكامها الغربيين يعدونه عدواً لدوداً وخصماً عنيداً ، وإنما كان يصل إلى مرسين فيسكنها مدة ليقرب من الشام ، وليستنشق عبيرها ، ويتصل بأخبارها فما يستطيع مثله أن ينقطع عنها أو أن يبتعد عن أحوالها كأنه موكل فى العمل لها طوال حياته . وكان يفرح بقربه من الشام ليتصل بأمه ويراها ، فقد أخلص لها وأحبها ، وسعى إلى لقائها وأبدى شوقه فقال[1] : «وأكثر ما كنت أفكر هو بسيدتى الوالدة وأخى المرحوم نسيب ، حتى إننى لما رأيت الوالدة لا تستطيع ولا تريد أن تأتى إلى أوربة وكنت لا أقدر أن أدخل سورية ولا فلسطين ولا مصر ، تركت سويسرة وذهبت إلى الآستانة ومنها إلى مرسين لأكون فى أقرب الديار إلى سوريا ، ويهون على الوالدة أمر السفر إلى محل وجودى فأتمكن من مشاهدتها . وهكذا كان فقد أقمت بمرسين سنة ونصف سنة ، ولا سبب لاختيارى السكنى فى تلك البلدة إلا هذا السبب » .

وأغلب الظن أن الأمير شكيب انصرف خلال هذه الحقبة إلى قراءة الآداب الأوربية ، على قلقه وحيرته فى مصيره ، وأنه عكف ثانية على بعض الكتب الفرنسية ، فأتم فصولها وأعاد نشرها سنة ١٩٢٥ ، وهذه الكتب هى آخر بنى سراج[2] لشاتوبريان وأناتول فرانس فى مباذله لنيقولا سيفور ، وتعليقات من الفرنسية على كتاب « حاضر العالم الإسلامى » ، إلى مقدمة جميلة لديوان أخيه نسيب . وهذه الصفحات المترجمة كانت سبيلا إلى تسنم شكيب ذرى البيان العربى ، فقد امتزجت روائع الصور الغربية بمفاتن أساوبه الجميل المتين ، وتغلغلت فى نفسه أخيلة الأدب الأوربى ، فخرج على الناس ببيان فيه عذوبة

---

(١) روض الشقيق ص ٢٦ .

(٢) ترجمه أول مرة سنة ١٨٩٧ ، وطبعه بالإسكندرية ، كما رأينا قبل قليل .

وفخامة وقوة وجزالة لم تكد تعرف قبله لمعاصريه إلا فى الندرة بعد الندرة . واشتهر أول ما اشتهر بترجماته التى سارت فى المثقفين والقراء ، فكانت من أوائل الكتب الجميلة التى عرفت للأمير إلى جانب مقالاته السائرة ورسائله المتناثرة . وتمنى له أصدقاؤه وأحباؤه والمقدرون لأدبه أن يسير هذه السيرة طوال حياته وأن يعكف على الترجمة والنقل لعله ينعم فى دنيا الأدب بما لم يتح له فى دنيا السياسة ، فالأدب خالد على القرون يتذوقه المثقفون كلما خلوا إلى ضلوعهم وقلوبهم يتحسّسون فيها مكان الحب والجمال والفن ، ويذكرون للفنانين أياديهم وفضلهم على الإنسانية ، وأما السياسة فقد جلبت على شكيب وأنداد شكيب قلقاً وحيرة وتنغيصاً ، ومدّت على أعمار السياسيين سحائب وستائر حجبت كثيراً من فضائلهم فى النواحى الأخرى . ولذلك أصاب شكيباً كثير من هذا الظلم السياسى وأضل كثيراً من الناس فى فهم سيرته وتقدير فنه . ولو قد انفرد شكيب لقلمه المتفنن ، ولسانه البين ونفسه الفياضة يسكب على الورق ما يحس قلبه الكبير من أدب ، لا ينصرف إلى غيره ، لكان منه غير الذى كان ، ومع هذا فقد دعى بأمير الشعر والنثر ، وأطلق عليه الأدباء « أمير البيان » . وكتب الناشر على ترجمته لأناتول فرانس «كاتب الشرق الأكبر صاحب العطوفة الأمير شكيب أرسلان من أعضاء المجمع العلمى العربى » وكتب على ترجمته لشاتوبريان « أشهر كتاب العرب فى التاريخ والسياسة والأدب الأمير شكيب أرسلان » . وكتب على حاضر العالم الإسلامى : « أمير البيان والمجاهد الكبير الأمير شكيب أرسلان » .

ولعلّ هذا البيان هو الذى رشحه للمجمع العلمى العربى بدمشق، فأصبح عضواً فيه منذ نشأة المجمع وافتخر به المجمع ، واعتز هو بلقب المجمع فلم يغفل ذكره مرة واحدة فقد كان الانتساب إليه لذلك الزمان مفخرة الجيل وقلادة النبوغ وشهادة الرفعة فى موكب الخالدين من زملائه محمد كرد على وخليل مردم وفارس الخورى وسليم الجندى وعبد القادر المغربى وعبد القادر المبارك ، وكلهم من فحول العصر وكتاب الزمان وأساتيذ الجيل ، يذكرونه حاضراً وغائباً ،

ويعتزون به شاهداً وبعيداً ، فقد عمل للبيان العربى كما عملوا ، وسطر فى صفحات الأدب المعاصر ما سطروا فكان خالداً على الرغم من زعازع السياسة وأباطيل الدعاية .

* * *

المرحلة الأخيرة (١٩٢٥ ــ ١٩٤٦) :

انتقل شكيب إلى جنيف ليقر فيها قراره ــ كما قلنا ــ ، وقد كتب يصف انتقاله[١] : « وأخيراً لما رأيت أن مهمة تعقب القضية السورية لدى عصبة الأمم تقتضى أن أكون دائماً فى سويسرة ، وجاءنى الإلحاح فى ذلك من أبناء الوطن لا سيما الجالية الذين بأمريكا ، تركت مرسين ورجعت إلى سويسرة ، لكن بعد أن رويت غايلى من مشاهدة السيدة الوالدة ، إذ كنت أخشى أن يوافى أحدنا الأجل قبل لقاء الآخر . أما أخى نسيب ، فلم تساعد السياسة الوطنية أن أعود إلى البلاد بدون اتفاق مع فرنسة حتى يقيضُ لى أن أشاهده » . وكم من حسرة لشكيب على بعده عن بلاده . وقد كان وحده أملا من آمال السوريين فى الغرب ، وفهم الفرنسيون هذا فعرضوا عليه أن يكون وسيطاً بينهم وبين قومه قال[٢] : « ولما دعانى المسيو جوفنيل عند نصب فرنسة إياه مفوضاً سامياً على سورية ، وحادثنى فى أمر الاتفاق بين فرنسة وسورية رغب إلى أن أرافقه وأكون مساعداً له على تمهيد العقبات والوصول إلى اتفاق يرضى به الفريقان فقلتُ له : إننى لا أستطيع أن أذهب إلى سورية قبل أن يتم الاتفاق فى باريز وتوقع فرنسة عليه ، وتبلغ ذلك جمعية الأمم ، فقال إنه لا يقدر على إمضاء اتفاق كهذا بدون الوقوف على أفكار الآخرين ففصلتُ من باريز راجعاً إلى برلين وذلك أواخر سنة ١٩٢٥ ، والثورة السورية فى إبان اشتعالها » .

وعاد بعدها من برلين إلى جنيف يرسل صوته مدوياً فى إثارة الضمير

---

(١) روض الشقيق ص ٢٦ .
(٢) روض الشقيق ص ٢٥ .

الأوربى لإنصاف العرب والمسلمين ، فكان يكتب فى الصحف الفرنسية ويطبع المنشورات بالفرنسية ، ويرسل النداءات إلى العالم فى إنقاذ وطنه وفى ردع المستعمرين المتوحشين عن ارتكاب جناياتهم فى بلد تحالف معهم ضد الأتراك أبناء دينه فكان جزاؤه جزاء سنمار .

وقام بأمر الوفد السورى الفلسطينى ، فقرع أبواب الدول ، وقابل المسئولين ، واحتج وخطب وكتب ، ونشرت « اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى » ما فعله الوفد فى الغرب فى كتاب[1] نستطيع أن نرجع إليه لنرى الأمير ساعياً مع إخوانه ، متنقلا فى إيطاليا ، يثير فى رومة حملة ضد فرنسا وإنكلترة ، فاجتمع بموسولينى وكان رئيساً لحزب الفاشيست ، ثم تحمل إلى لندن يقابل المسئولين فيها لتنفيذ وعود مكماهون التى قطعها للحسين ، فيشتد على القوم ويعنف ، ويتهم الساسة بالخروج على قواعد الفروسية والبطولة والإنسانية ، ويخطب بذلك فى كل مكان بالمآدب والحفلات والمقابلات ، ويحمل على الاستعمار ، ويدلل على ظلمه وجرائمه وخططه الجهنمية فى تهديم البلاد العربية وقتل أحرارها ، وسجن زعمائها ، واستثمار مواردها وعزلها عن العالم .

وقد نجح هذا الوفد فى إفهام القضية السورية الفلسطينية ، وأثارها فى العواصم الأوربية ، ونبه أنظار الأمم إلى جرائم فرنسة فى بلاده ، وجرها إلى مراقبة أعمالها ، وتحذيرها من مغبة مفاسدها ، وخدم بذلك السوريين فنقل أصواتهم إلى جمعية الأمم فى جنيف وأقض مضجع المستعمرين . وكان إخوانه فى سورية لا يأمنون نقل أنبائهم المؤلمة خارج الأسوار المنصوبة حول بلادهم ، فالرقابة تمنع كل شىء ، والأخبار يشوهها الانتداب ويستغلها لمدح أياديه ، فيخيل للعالم أن البلاد تسبح فى بحر من السعادة والنور والخير ، تحت إشراف الدولة المنتدبة .

وذاع صيت شكيب فى العالم العربى من مشرقه إلى مغربه ، وعرف العرب والمسلمون أيادى الرجل على قضاياهم فى الدفاع عنهم ونقل شكاواهم ، فأصبح

---

(١) هذا الكتاب عنوانه « أعمال الوفد السورى الفلسطينى من مايو ١٩٢٢ — إلى أكتوبر ١٩٢٢ » ، طبع فى يناير ١٩٢٣ بالقاهرة ، فى ١٥٢ صفحة ، يحسن بالقارىء العودة إليه .

موضع ثقتهم جميعاً ، ومحل احترامهم وإكبارهم ، وزال عنه كثير من التهم التى كان يلصقها به الدساسون فى العهد العثمانى . ولقى فى سبيل هذه الشهرة عناء كثيراً وعنتاً كبيراً ، وسعادة واسعة ، فراح العرب والمسلمون يكاتبونه ويسألونه ويشتكون إليه ، ويتصلون به ، وكان عليه بعد أن زحف نحو الستين أن يجيب من يعرف ومن لا يعرف بقلمه السيال وبيانه الفياض ، فأصبح فى كل دسكرة وناحية رسالة من خطة تنير ناحية أو تفيد فى فتوى سياسية أو تعين فى مشورة .

وقد دعاه عرب المهجر فى أمريكا الشمالية شتاء سنة ١٩٢٧ إلى زيارتهم فى بيوتهم الجديدة ، وترؤس مؤتمرهم المنعقد فى (ديترويت) فلبى الدعوة ، وسافر إليهم ، فرأى العالم الجديد وناطحات السحاب بعد أن طاف فى روسية وألمانية وفرنسة وإيطاليا ، وأصبح يغذى الصحف العربية فى كل مكان ، وراح ينشر مذكراته فى جريدة « مرآة الغرب » بنيويورك[١] ، وتحدث فيها عن جمال السفاح ومقاومته له وردعه إياه عن فظائعه المنكرة ، فى قتل الأحرار من العرب ، وتحذيره لهذا الضابط المتكبر عن نتائج أعماله على الدولة العثمانية وعلى رابطة العرب والترك . وهذه المذكرات جزء من مذكراته الكاملة التى أودع أوراقها « مكتب المؤتمر الإسلامى » فى القدس لتنشر بعد وفاته ، وقد أرسلها إلى صفيه وصديقه المجاهد الحاج محمد أمين الحسينى مفتى فلسطين ، فقد رأى أنه أحسن مكان يودعه أسراره وجواهره . وقد قال شكيب إنها تبلغ مائتى صفحة كبيرة[٢] وقال عنها : « مما قيدت خلاصة فى ترجمة حياتى التى أوصيت بأن تنشر بعد موتى ، واستودعتها مكتب المؤتمر الإسلامى فى بيت المقدس » .

وما تزال المذكرات الكاملة لشكيب مخطوطة لم تنشر ، سألنا عنها سماحة المفتى فى القاهرة ، بمنزله العامر ، لشهر فبراير ١٩٥٨ ، فأعلمنا بأن هذه المذكرات كان يرسلها الأمير فى أوراق على مراحل بأزمان متفاوتة ، وقص علينا

(١) هذه المذكرات نشرت فى مجلة المنار كما ذكرنا ، بالمجلد (٢٣) لسنة ١٩٢٢ فى مواقع متعددة من أعداد هذه السنة ، تحت عنوان « كوارث سورية فى سنوات الحرب من تقتيل وتصليب ونخمصة ونفى مشاهدات ومجاهدات شاهد عيان هو الأمير شكيب أرسلان » .

(٢) ذكرى شكيب ص ٧ ، وكتابه عن رشيد رضا ص ١٦١ .

ما تحتويه هذه المذكرات ، فإذا بها لا تخرج فى خطوطها العامة عما رسمناه من ترجمة حياته . وطمأننا على أنها ما تزال محفوظة فى الذخائر بالقدس ، أعانه الله على نشرها وطبعها خدمة للراحل وأياديه على العرب .

وفى سنة ١٩٢٩ ترك سويسرة ليحج إلى بيت الله الحرام وقد بلغ الستين من عمره ، فطاف الديار المقدسة ، وزار ربوع العرب الأقدمين ، ولقى من ملك الجزيرة عبد العزيز بن سعود كل إكرام وتقدير ، فصحبه العاهل فى أكثر رحلاته ، وتوثق بينهما الحب والود وأعجب به المليك أيما إعجاب ، وأراد أن يتقدم إليه بأية خدمة يطلبها الأمير ، فأبى شكيب ورفض هنا كما رفض كل خدمة من أيادى الملوك قبله ، ومع هذا فقد أشاع خصومه بعد الرحلة أنه كان يريد أن يصبح سفيراً للسعوديين فى أوربة ، وكذب العاهل هذه الشائعة ، وتمنى أن يقبل الأمير مثل هذا المنصب أو فوقه ، أو أن يبقى عنده فى الحجاز معززاً مكرماً ، وليس فى حمى العاهل من يرتفع إلى مثل مكانته ، وقد آوى جناحه من هم أقل منه وأهون على العلم والأدب والعروبة . وذلك أن الأمير عرف بالإباء والشمم كأجداده حتى رمى بالعناد ، وإيثار الفقر والحاجة على التمتع بنعم الملوك . وغيره هم الذين أفادوا باسمه وجمعوا المال عن سبيله ، وهو عن المال وعن هؤلاء فى أرفع مراتب العفة والإباء .

ونحن لا ننكر أن الأمير أفاد من هذه الرحلة الجميلة فأخرج كتاباً فى وصفها سماه « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » ، طبعه فى مصر ، فكان من أحسن كتبه . وصف فيه هذه الربوع المقدسة ، وصفاً يرجع إليه الأدباء والمؤرخون كلما هزهم الشوق إلى موطن الرسالة ومهبط الوحى ، ويعجب به العرب لأنه دعا فيه إلى الوحدة العربية وإنشاء الجامعة العربية مراراً .

وفى سنة ١٩٣٠ قام برحلة إلى إسبانيا ، فجاس خلال مدنها وقراها ، وصافحت عيناه جدران الأندلس الحلوة ، فنقلها صوراً بارعة ورسوماً باكية ضاحكة إلى كتابه « الحلل السندسية » فخلّف للناس مرجعاً ثميناً عن أرض

الفردوس المفقود ، أعجله الموت عن تمامه على كثرة صفحاته ووفرة تعليقاته .

وأنشأ فى هذه السنة نفسها مجلة بالفرنسية سماها « الأمة العربية » والتسمية دليل واضح على شعور شكيب ، وشاهد يفضح الدساسين ، وعنوان على إيمان الرجل بالعرب والعروبة . والدساسون يتشدقون اليوم بأقوالهم فى هذه السنين العجاف على أسرة من حرير خلف جدران ناعمة ، وكان هو يرسلها صواعق رحمماً على الغرب فى مجلة يغذيها بعرق الفقر والتعب والجهاد فى لغة فرنسية بديار الغرب أنفسهم أعواماً وأعواماً وحده ، يكتب ويصحح ، ويطبع ويراسل ، ويصدرها فى انتظام مجلدات إثر مجلدات ، تشهد له بالنضال فى سبيل العرب ، والعمل لاستقلالهم ، والانتصار لثوراتهم فى كل مكان ، فى سوريا ولبنان والعراق ومصر وفلسطين والمغرب وكل البلاد الإسلامية ، لا يبالى غضب الإنكليز أو حمق الفرنسيين ، وإنما يشيد بأبطال العرب ، وكم حاولوا إسكات لسانه وقلمه ، وكم دفعوا إليه شذاذ العرب ، وأذنابهم من الموظفين فما نفع نباحهم ، وظلت القافلة تسير إلى النور والمجد . وكم لفقوا عليه من تهم ، وكم زوروا عليه من رسائل ليكيدوا به وهم أصحاب دوائر كبيرة للمباحث والاستخبارات ، وهو وحده يكتب ويجاهد فيرد كيدهم إلى نحورهم . وذابت التهم ، وظهر كالجبل الأشم معتماً بالنور الساطع فلم تضره القرون الناطحة وإنما أوهتها صلابته وشدته .

ومن الخير للجيل العربى المقبل أن يترجم مقالات شكيب ليرى فيها أسلوب المؤمن البارع ، والكاتب الفحل ، فما أتيح لعلم من أعلامنا أن يجلى فى بيانين وأن يبرز فى لغتين كما كان لشكيب فى زمانه ، وإذا أراد أصحاب الأمر فى الثقافة عندنا أن ينفعوا المتعلمين باللغتين ، عمدوا إلى ترجمة الصفحات وإثبات العربية أمام الفرنسية متقابلة ، ليعرضوا صدق الترجمة وجمال البيان .

وفى سنة ١٩٣٤ وقعت حرب بين ابن السعود والإمام يحيى ، وقررت لجنة المؤتمر الإسلامى فى القدس إرسال وفد إلى جزيرة العرب ، واختير شكيب فى الوفد ، فسافر للإصلاح بين العاهلين ، وكانت له يد فضلى على العرب فى

جمع الشمل[١] . وبذلك زار الحجاز مرة ثانية ، ولبث أربعة أشهر فيه ، وطار صيته وسار ذكره فعاد إلى أجواء السياسة العربية يحلّق فيها فكان النسر الميمون ، يحمل الخير والنعيم إلى بلاد العرب .

ورجع شكيب إلى جنيف يتابع نضاله وكتاباته لا يقف عن التحبير والتأليف حتى قال عن نفسه إنه : « لا يضيع دقيقة واحدة من وقته ، وأنه يتلقى أكثر من ألفى مكتوب فى دور السنة ، فيجيب عليها كلها ، ويكتب زيادة عليها مائتين إلى مائتين وخمسين مقالة فى دور السنة . وينشر من التآليف بضعة آلاف من الصفحات المطبوعة تأليفاً[٢] » .

وقد تحدث الأستاذ الرئيس المرحوم محمد كرد على عن شكيب فقال[٣] : « كتبت إلى شكيب مرة أن يجمع لنا مقالاته التى تصلح للانتفاع بها فى المستقبل ، لطبعها فى كتاب برأسه ، وأن يؤازر مجلة المجمع العلمى ، فأجابنى من لوزان (يوم ٩ مارس ١٩٣٠) بما يأتى : " أما ما أشرت به من الكتابة فى مجلة المجمع فواجب ، وإن لم نكتب فيها فأين نكتب ؟ لكن ، يا أخى ، أصبحت من هذه الكتابة فى خطب وأى خطب ، كلما قرأ الناس لى مقالات فى الجرائد انهالوا علىّ بالاقتراحات ولا أبالغ إذا قلت إن الجرائد والمجلات التى تبغى أن أكاتبها تزيد على أربعين ، وكلها تقترح وتجد من الواجب أن أجيبها إلى رغبتها ، وبعضها إذا كررت الطلب ولم أبادر إلى إرضائها بمقالة أو مقالتين لم تجمجم استياءها . ولا أعلم لماذا يؤدى كرم الأخلاق بالإنسان إلى العبودية ؟ فأنا على ثقة أنى لو لم أكتب فى بعض جرائد وبعض مجلات وكنت قابعاً فى زاوية أقرأ لنفسى وأكتب لنفسى ما كانوا يطمعون هذا الطمع بى . لكنهم ما داموا يقرأون هنا مقالة وهنا مقالة من آثار سخافتى تشتد بهم رغبة المطالبة والإلحاف فى سؤالى مقالات . ومن الغريب أن هؤلاء السائلين يعرفون ما الكتابة

(١) السيد رشيد رضا ص ١٦٤ .

(٢) المصدر المذكور ص ١٦٢ .

(٣) مجلة الكتاب ، مارس ١٩٤٨ بمصر ص ٣٨٠ .

ولا يخفى عنهم أن المقالات لا يوحى بها وحياً ، ولا يقال لها كونى فتكون ، وأن مقالة واحدة قد تأخذ نهاراً تامًّا من الشروق إلى أن تتوارى الشمس فى الحجاب ، ومنها ما يأخذ يومين وثلاثة ، وأن القصار منها ذات العمودين والثلاثة لا تحرر فى أقل من ساعة . وأن على هذا المسكين الذى يتقاضونه كل هذى المشاق أشغالا أخرى لنفسه ولعائلته ولوطنه ، وأن عنده كتباً لابد أن يطالعها إلخ . . . هذا لا يهمهم أصلا ، بل يعرفون جملة واحدة من جميع بضائع الطلب : تكرموا علينا بمقالات من قلمكم السيال ".

"وفى أوربا يطالبون الكتاب بمثل ذلك ، لكن لا يضيعون على كاتب دقيقة واحدة سدى ، فالوقت نقد ، وكل وقت عندهم له ثمن . وأنا مضى علىّ الآن ٤٤ سنة وأنا أحرك قلمى وأكتب إلى الجرائد مجاناً لا أبتغى جزاء ولا شكوراً ، وأدفع أجرة البريد من كيسى ، فلو حسبت ثمن وقتى ، بل أجر البرد من ٤٠ سنة إلى اليوم لكان مبلغاً لا يستخف به ، فأنا أسامح بكل ما تعبت وبكل ما أنفقت من ذهنى وعيونى ومالى ، وإنما أستمطر شفقتهم أن ينظروا إلى رجل وطئ ساحة الستين ، وصار محتاجاً إلى الراحة . . . " »

ويمضى شكيب فى رسالته فيجيب على اقتراح صديقه محمد كرد على ويقول : « وتشيرون بأن نجمع ما كتبناه أو شيئاً مما كتبناه ، وهو أمر يحكّ فى صدرى دائماً ، فهل عندنا الوقت اللازم لذلك ؟ إنى لا أريد أن أجمع كل ما كتبته فإنه يملأ أجلاداً وأجلاداً ، ومن يقرأ هذا كله ؟ ومن يؤدى كلف طبع كل هذا ؟ ولكنى أفكر فى انتقاء الأحسن وجمعه وإعادة النظر فيه ، وتصحيح شىء وحذف شىء ، وإضافة شىء إن وجد ضروريًّا ، وهذا كله يستلزم وقتاً . فأما طبع ما خطته بنانى فغير مستطاع ، لأنه مفقود منه الشىء الكثير ، والمحفوظ منه أزيد مما يلزم . فإنى فى أوربة منذ اثنتى عشرة سنة ، وفى الشهر الواحد من هذه المدة كنت أحرر لا أقل من ١٠ مقالات ، ففى السنة ١٢٠ مقالة . فى الاثنتى عشرة سنة ١٤٤٠ مقالة ، فإذا جعلت كل مقالة ٣ صفحات من قطع هذا المكتوب فهذه فوق أربعة آلاف صفحة ،

أى ثمانية مجلدات كبار . وهذا من ١٢ سنة ، وقبل ذلك عشتُ أكثر من ثلاثين سنة وأنا أكتب ، فلا يقلّ المحصول الذى فى هذه الثلاثين سنة عن محصول الاثنتى عشرة سنة الأخيرة ، فهذه عشرة آلاف صفحة بالأقل . كلا ، هذا لن أقدر على طبعه ، وهذا كله ذهب فى الجرائد الطائرة ، وهذا كله أنفقت فيه جوهر حياتى ، وكفنته بأجرة البوسطة من كيسى ، وأجره على الله . وغاية مكافأتى عليه أنهم بعد موتى سيقولون فى ترجمة حالى : كان رحمه الله يكتب كثيراً جدًّا سبعاً أو ثمانياً من الساعات كل يوم ، ولم يكن يساويه فى ذلك إلا المرحوم كرد على . فذلك أيضاً كان من الأفذاذ فى هذا الباب . لا تحزن لقولى المرحوم كرد على ، عسى لا يكون ذلك قبل مائة سنة . ولكن ينبغى أن تعلم أنك لا تعطى حقك إلا بعد فراق هذه الدنيا . وما دام المرء حيًّا فقلوب معاصريه قاسية عليه . وأنا أفضل أن تقسو عليك القلوب وأنت حى من أن ترثى لك وتكثر من إنصافك ، وقد مضيت بعد زمان طويل . . . »

وذكر محمد كرد على فى مقالته أن شكيباً جمع منتوج قلمه سنة ١٩٣٢ فبلغ ١١٥٣ مكتوباً خصوصيًّا ، ١٠٨ مقالات وقصيدة واحدة ونحواً من ألف صفحة من علاوات على حاضر العالم الإسلامى !

ولعلنا أسرفنا فى هذه الناحية فأوردنا سطوراً طويلة من رسالة شكيب ولكننا أردنا أن يستمتع القارئ بأسلوب الرجل فى هذه السنّ ، وأن يعرف مقدار ما كان يكتب ويسطر ويحبر قبل أربع عشرة سنة من وفاته وأن يقدّر بعد ذلك ما كان منه خلال عمره كله ، وأن يحسبه على غرار ما فعل شكيب نفسه ليدرك معنا سر إعجابنا بالرجل ، ومبلغ نشاطه فى خدمة إخوانه وقومه والقضية العربية . فما حدثتُ أحداً من كبار الرجال أو أوساطهم اتصل بشكيب إلا وجدت عنده خبراً عن رسائله أو نبأ يشير إلى ضخامة عددها فى حوزته ، فحبذا لو نهض أصدقاؤه بنشر هذه الرسائل فى كتاب لذكراه . وقد قرأتُ فى كتابه عن رشيد رضا أنه بلغ مقدار ما وجهه من المخاطبات والنداءات إلى رجال الدولة مقدار (١٥ ــ ٢٠ مجلداً) وأنه أهدى هذه الوثائق إلى وزارة الخارجية

السورية[١] ، فعسى أن يقوم الدارسون بمراجعتها واستخلاص ما يمكن نشره منها ، فهى لا شك هامة تنير الظروف والأحداث التى قد تغمض على المعاصرين فى بحث تاريخنا القومى .

ومع هذا كله ، لم يسكت عنه خصومه الذين كان يغرر بهم الاستعمار ويدفعهم إلى النكاية به ، فقد وقع له سنة ١٩٣٥ أن اتهمته شرذمة ضالة بأنه تواطأ مع السيد أمين الحسينى الزعيم الفلسطينى على السير فى ركاب إيطاليا لقاء مال تناولاه منها ، وكان ذلك بسبب دناءة أحد الصحفيين فى فلسطين ، دفعه الإنكليز إلى تزوير كتاب على لسان الأمير شكيب نشره فى الناس . ثم تبين أن الكتاب يفضح نفسه بسبب فشل التزوير ، من ركاكة العبارة وأخطاء النحو وسوء التفكير . والأمير فضح خصومه بعد ذلك بمقالات متعددة ، أعاد فيها إلى الذاكرة ما كتبه عن طاغية الطليان بسبب « الجبل الأخضر » وترحيل العرب عنه . وشغلت التهمة وقته وجهده زمناً ليس بالقصير .

وفى سنة ١٩٣٧ سمح للأمير بأن يزور سورية ، فطاف بلدانها وخطب فى قومه ، وحاضر فى أندية علمية مختلفة ، واختاره المجمع العلمى العربى بدمشق رئيساً له تكريماً لجهاده وإكباراً ليده ، ولكنه لم يمارس هذه الرئاسة برغم صدور قرار بها ، لأن من شروطها بقاء الأمير فى دمشق ، ولكنه اضطر أن يعود إلى سويسرة فقد تحالف عليه أعداؤه السياسيون من السوريين ، وكاد له الفرنسيون كيداً عظيماً فاتخذوا من عباراته فى الإسلام والدين سبباً لإثارة الجماهير والنعرات وخاصة فى حلب فعرف أن الاستقلال ما يزال بعيداً ، وأن قراره فى بلاده ما يزال حلماً من الأحلام .

وفى سنة ١٩٣٩ ، سمح له كذلك بزيارة مصر ، فدخل الإسكندرية والقاهرة ، ومكث فيهما أربعة أشهر[٢] بعد غياب سبع وعشرين سنة يلقى

---

(١) السيد رشيد رضا ص ١٦٢ — وقد ذكر جبرائيل جبور فى مجلة الأبحاث ١٩٥٤ ص ٣٤ أن رسائل شكيب إلى بعقلين وحدها تبلغ طناً من الرسائل ! . . . ولعله يريد المبالغة فحسب !

(٢) ذكرنا فى الطبعة الأولى أنه أقام سبعة أشهر ، وصوب الأمر صديقنا الأستاذ محمد على الطاهر .

أصحابه القدماء ، ويعيش من جديد فى ذكرياته الماضية حين كان يكتب فى الأهرام والمؤيد وفى غيرهما وتسيل مقالاته فى النفوس وتثير القلوب إعجاباً وإكباراً ، وحيث كانت مجالس الإمام محمد عبده وصحبه الكرام ، ولكنه عاد بعدها إلى أوربة وقد بلغ السبعين من العمر ، وهو يناضل ويكافح ، ويسافر [١] ويزور ويتعلم دائماً ويستفيد دائماً ، حتى أعيته الرحلة وأعوزه المال . لأنه أنفق كل ما بيده وباع معظم ممتلكاته فى لبنان وسورية ، وعاشت أسرته عيشاً بسيطاً فى بيت قليل الأثاث فرشه بالزرابى الشرقية ، كما وصف زائروه ، ومع ذلك كانت نفسه رفيعة أبية تأبى الطلب والذل والعون الأجنبي وتتظاهر بالغنى والثراء . وقد نقل أصدقاؤه إلينا أنه ما كان يستطيع أحياناً دفع أجر القهوة فى المكان الذى يجلس فيه . ولم يبق له من مورد مالى يرجع إليه فى الملمات إلا بيته الذى اشتراه عقب الحرب الأولى ، فلما وقعت الحرب الثانية سعى إلى برلين مراراً ، ولكن الألمان حرموا إخراج النقود من بلادهم فلم يستطع أن ينال « ماركاً » واحداً . ومع ذلك اتهمته إذاعة فرنسة بالتعاون مع النازيين بسبب هذه الزيارات وأشاعت بأن هتلر منحه لقب ابن برلين ، كما اتهمته إنكلترة من قبل بالتواطؤ مع الطليان الفاشيست ، وصدق العرب دعايات حلفائنا الكرام ! وآمنوا بصدقهم فراح فريق المؤمنين منا بالحلفاء يلوم شكيباً على ما يفعل ، وتصدى الأستاذ محمد كرد على لوصف هذه التهمة الملصقة بصديقه شكيب فقال [٢] :

« إلى الآن لم تثبت وطنية الأمير شكيب أرسلان عند بعضهم ، فتأمل عقول أبناء هذا الشرق وردد معى قول البهاء زهير :

يا أيها البـاذل مجهوده ... فى خدمة أف لها خدمة
إلى متى فى تعب ضائع ... بدون هذا تأكل اللقمة
تشقى ومن تشقى له غافل ... كأنك الراقص فى الظلمة

---

(١) طاف شكيب أكثر الدول الأوربية ، فزار بلغاريا والنمسا وألمانيا وبافاريا والدانمارك والسويد وإنكلترا وفرنسة وروسية وإسبانيا وأمريكا والمغرب .

(٢) مجلة الكتاب ، مصر ، مارس ١٩٤٨ ص ٣٧٩ .

رأيتُ بعض من يدهنون للسلطة أوائل الحرب الأخيرة (١٩٣٩ - ١٩٤٥) يعترضون على الأمير شكيب لذهابه من سويسرا إلى برلين . وسألنى أحدهم عما إذا كان يليق بمثله أن يذهب فى هذا الوقت العصيب إلى بلاد الألمان ، فقلت له : ولم لا يذهب ؟ أليس هو حرًّا بنفسه قال لا ، ليس هو حرًّا ، وذهابه إلى أعدائنا ليس من الوطنية فى شىء . فأجبته ، وقد آلمتنى قحته ، أى منة لكم على شكيب حتى لا يتحرك إلا بأمركم ، وهل هو مستخدم عندكم تدرّون عليه الرواتب والعلاوات ؟ ها هو فى أوربا منذ أكثر من عشرين سنة يناضل عنكم بلسانه وقلمه ، فما هى المعاونة التى قدمتموها له ؟ لو نبغ شكيب فى أمة غربية تقدر رجالها قدرهم ما شعر بالضيق حياته قط ، بل لكان موسعاً عليه فى الرزق والنفقة . وقلت له : إن الذى عرفته أن للأمير شكيب عقاراً فى برلين ابتاعه زمن الحرب الكبرى أيام سقوط المارك ، ويحاول اليوم بيعه أو استيفاء ريعه ليرتفق بثمنه ، ولا يتم ذلك إلا بحضوره » .

وهذه صورة عن تفكير قومنا بزعمائهم ، يؤخذون بالإذاعات والإشاعات ويدخلون فى حرب ضد النازية وضد غيرها كما يدخل دون كيشوت ، فيصدقون كذب أنفسهم ، وهذا شر البلاء . وكان هذا الدس يبلغ شكيباً ويثيره فيرسل الرسائل إلى أصحابه والمقالات إلى الصحف ليبرر خطته ، ويدعم نظرته ، وأنه براء من السير فى ركاب أحد من هؤلاء المستعمرين ، فهو قد نذر نفسه للدفاع عن قضايا المسلمين والعرب لا يكاد يسكت عن الكلام فيهم والسعى من أجل استقلالهم . وكان أن وقع هذا الاستقلال بعد نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ ، وخرجت فرنسة من سورية ولبنان . وتحققت أكبر أمنية من أمانى حياته وقد جاوز السادسة والسبعين من العمر فأصبح واهى القوى ضعيف العزم ، لما بذل من صحة وجهد ومال فى سبيل السياسة وفى سبيل الأدب .

والحق أن إنتاجه خلال هذه الفترة فى إقامته بجنيف من سنة (١٩٢٥ - ١٩٤٦) كان فى أعلى نشاطه وفى أجمل خصبه ، وفى أنعم مآثره ، فقد أخرج الرجل سلسلة من الكتب هى أروع ما كان له فى حياته ، فكأنه بلغ القمة بعد

أن زحف نحو الستين وجاوز السبعين فأخرج كتاباً عن الديار المقدسة ، ونشر كتاباً للأوزاعى ، ثم راح يؤلف فى تاريخ العرب بأوربة ، فأصدر كتاباً عن غزوات العرب فى فرنسة وإيطاليا وسويسرة وجزائر البحر المتوسط ، كما أصدر كتاباً عن أمجادهم فى إسبانيا وهو أطول كتاب خطه بيده أذاب فى سبيله نور عينيه وأسال مداداً كبيراً فى تحبيره . وتلفت إلى الراحلين من أصدقائه وقد ناهز الستين يبكيهم فى كتب أخرج منها اثنين أولهما فى أحمد شوقى وثانيهما فى رشيد رضا ، فجمع بين الشعر والنضال الدينى والسياسى فى إنتاجه ، كما جمع فى برديه بين أدب شوقى وكفاح رشيد رضا ، فكان أمة فى شخص وجماعة فى فرد ، وحزمة من النور والهدى فى جسد واحد . وأخرج خلال هذه الحقبة ديوان شعره وتعليقات على ابن خلدون ، ورسالة وصف فيها تأخر الإسلام ، فكانت آخر ما ظهر له من كتب ، والمخطوط منها كثير ما يزال ينتظر المخلصين الأوفياء فى تأدية رسالته بإصدار ما خط قلمه الفياض .

* * *

بلغ شكيب السادسة والسبعين من عمره ، وقد أطل نور كريم على بلاده آنذاك ، وأشرق الاستقلال على لبنان ، فلاح له أن يعود وأن يقبل الثرى الذى ناضل دون نقائه والأرض التى حارب من أجلها ، فقد تطهرت من رجس الأجنبى ، وله أن يموت فيها ، وأن يرقد على جنباتها قرير العين هانئ النفس لما بذل ولما وفق الله . فقد ازدادت علله ، وأصابه تصلب الشرايين ، ووقف عن الكتابة كثيراً بسبب هذه العلل ، فزاد قلقه وحزنه ، فقد كان أحب صديق إليه هو القرطاس والقلم ، والبعد عنهما بعد عن الحياة نفسها .

ولكن كاهله كان مثقلاً بالديون ، فعاقه ذلك عن المبادرة إلى الرجوع وأخذ يسعى ويكدح لقضاء ديونه ليتسنى له الرحيل ، وهو خالى الذمة[1] . فلو كان صدقاً ما يدعيه هؤلاء المتنطعون من أنه سار فى ركاب النازية والفاشية لخلا من الحاجة ، ولازداد فى الغنى والثروة ، كما خلا غيره وازداد أعداؤه .

---

(١) الدكتور تقى الدين الهلالى ، فى ذكرى شكيب ص ٣٤٨ .

ولكنه لم يكن من الذين يبيعون أوطانهم للمستعمرين ، وقد هجر الأوطان ليهاجمهم ويحاربهم ، والعجيب أن الدساسين يعيشون فى قرار وهدوء بين أهليهم وأولادهم ! والمتهم – زوراً وبهتاناً – يتنقل على جمر الغضا فى الغربة بعيداً عن أهله ووطنه ، يهاجمونه وهو يهاجم الاستعمار ، فهم حرب عليه وهو حرب على الاستعمار ، وهذه صفحة من صفحات الجهل فى السياسة ، نحارب أصدقاءنا فى صفوف أعدائنا ، فالغنيمة للعدو فى تفرقتنا .

ومع هذا صبر شكيب للمحن والتهم وراح يجمع المال[١] ليدفع أجر العودة ، حتى إذا وفق إلى ذلك ، بعد عام تقريباً ركب البحر إلى بيروت فوصلها فى ٣٠ أكتوبر ١٩٤٦ عن طريق الإسكندرية ، وكان فى الباخرة السيد عبد الله الجفرى ، فاجتمع به ونقل عنه بعض أقواله الأخيرة فى الباخرة ومنها : « إن الجامعة لن تستطيع تنفيذ مبادئها والاطمئنان إلى مستقبلها دون أن يكون لها جيش قوى مرهوب الجانب تستطيع أن تشترك فيه جميع دول الجامعة العربية[٢] .

فهو فى مرضه وفى شيخوخته وخلال تعب الرحلة لم ينقطع عن التفكير والعمل للعرب وللجامعة العربية . فلما وصلت الباخرة بيروت استقبله لبنان على المرفأ ببيروت ممثلاً بشعبه ورجالاته وحكومته استقبال الفاتحين ، لأنه كلل رأس لبنان والبلاد العربية بمفاخر كتاباته ومقالاته وأحاديثه ، فكان رأساً من الرءوس الشامخة عمل للمسلمين والشرق والعرب ، وردد دائماً أن أحلام طفولته فى هذه « الجامعة العربية » قد تحققت[٣] . وكتب للسيد عبد الله المشنوق – وكان إلى جانب سريره – بيد مرتجفة قبيل موته : « أوصيكم بفلسطين » . فبرهن أنه كان يعمل دائماً للعرب ، وأنه إنما عمل فى فجر شبابه لصالحهم تحت ستار الدولة العثمانية ، فلما كفر الأتراك بالإسلام وبالعرب جميعاً رمى بهم ، وانقلب يحاربهم ويحارب الاستعمار أنى كان ، بل إنه يحارب أعداء قومه على اختلاف

(١) طلب شكيب إلى عبد الحميد شومان أن يقرضه ١٥٠٠ فرنك سويسرى وإلى أحمد حلمى أن يقرضه ألف فرنك سويسرى – انظر تفصيل الدين فى ذكرى شكيب ٤٧٣ .

(٢) ذكرى شكيب ، ص ٤٧١ .

(٣) ذكرى شكيب ص ٤٦٨ .

مذاهبهم وأوطانهم ، حتى كَلّ عن الحرب فقد وقف القلب .

ويشاء طالع الرجل أن يقضى أربعين يوماً فى وطنه ، متع نظره خلالها بلقاء والدته بعد غياب طويل ، وشوق كثير . وروى غليل نفسه بلقاء أصحابه وأهل بلده وأقربائه ، وشفى ألم قلبه بالنظر إلى الربوع التى عشقها وعمل لها ، حتى أضناه الشوق والسعى ، والكتابة والتأليف ، فهو يزحف نحو الثمانين من عمره ، لم يكد يعرف خلالها راحة كاملة أو هدوءاً شاملا ، كما عرف كثير من زملائه . وكذلك النفوس الكبيرة تتعب فى مرادها الأجسام ، لا تستريح ولا تريح . لذلك نصحه الأطباء بأن يقلل من الجهد ، وأن يتحاشى الزيارات الطويلة ، ثم طلبوا إليه أن يعتكف وحده ، وأن يلزم فراشه ، وجعلوا له ممرضة تسهر عليه وتمنعه من الحركة . ولكنه غافلها ونزل عن سريره فهوى إلى الأرض ، وأصيب بفالج نصفى ، توقف معه لسانه البليغ عن الكلام ، وساءت صحته ، وعبثاً حاول الأطباء إنقاذه ، فقد كانت الإصابة شديدة ، فلبث أربعة أيام كاملة فى داره على شبه غيبوبة ، وكانت والدته بعيدة عنه فى « الشويفات » ، وكان شقيقه الأمير عادل وزيراً فى سورية ، فغادرها ليلزم سرير أخيه ، واشتدت به العلة ، ولم ينفع فيه دعاء ولا دواء ، فقد نضب الزيت ، وانتهت الحياة ، وناهز الرجل السابعة والسبعين من عمره ، فأسلم الروح إلى بارئها ، ولفظ أنفاسه الأخيرة ليلة الاثنين فى ٩ ديسمبر ١٩٤٦ .

ودوى النبأ الفاجع ، فهرع الأمراء الأرسلانيون إلى بيته يرسلون إليه النظرة الأخيرة لوداعه ، وهبت بيروت ودمشق إلى داره ، واهتزت الأسلاك بنبأ الفاجعة ، وساد وجوم رهيب فى أنحاء العالمين العربى والإسلامى لموته ، وشيع فى اليوم التالى بموكب مهيب وصلى عليه فى الجامع العمرى ببيروت . وسار فى صدر هذا الموكب الحاشد رئيس الجمهورية اللبنانية آنذاك الشيخ بشارة الخورى والدمع يترقرق من عينيه ذاكراً يد الفقيد فى إعادة والده من المنفى وإنقاذه من حبل المشنقة ، معترفاً بما كان له من فضل عميم فى استقلال العرب وخاصة لبنان وسورية .

ونقل جثمان الراحل إلى مسقط رأسه فى « الشويفات » فعاد إلى الربوع

الحبيبة التى عرفته صبيًّا ويافعاً ، واحتضنته زعيماً وكاتباً مشهوراً . وانضمت روحه إلى عشيرة الأرواح الخالدة من بنى قومه الذين عملوا منذ الجاهلية فى سبيل العرب وجاهدوا خلال عصور الإسلام فى سبيل الأمجاد والمفاخر ، فحفظوا كيان الوطن ، وحرسوا حماه وحدوده فاستحقوا عرفان أجيالنا وإكبارهم ، ورتعوا فى دنيا الخلود .

وتتابعت المقالات فى تأبينه ورثائه[1] ، وتعداد آرائه وحسناته ، ووصف حياته وآثاره ، ورسم جهاده فى لبنان وسورية ومصر وفلسطين والمغرب وأمريكا وأوربة ، وبيان أياديه على العرب والمسلمين فى الدفاع عنهم بقلمه ولسانه حتى لم يبق فى قوس كنانته منزع ، فقضى حقهم عليه ، ولكنهم حتى الساعة لم يقضوا حق شكيب أرسلان على دنيانا العربية .

وكان من حظى وسعادتى أن وقفت للحديث عن أدبه وكتبه فى محاضرات موجزة ألقيتها ، ثم عدت إليها أوسع القول فيها ، فكانت هذه الصفحات المتواضعة ، وأملى أن ينهض المشتغلون بالأدب الحديث إلى جمع آثاره المتفرقة فى المجلات ، ونشر مذكراته ، وإحصاء رسائله الإخوانية ، وتشكيل لجنة لإحياء ذكراه ، تعنى بتعريف جيلنا ما كان لشكيب من فضل عليه ، وتسمى بعض المدارس باسمه ، أو تزين بعض الساحات برسمه وتمثاله أو تنهض للكلام عنه ، فتفصّل ما قلنا لعلها تفيه حقه ، وفوق كل ذى علم عليم .

(١) كتب إلى صديقه المجاهد الأستاذ محمد على الطاهر يقول : لم تقم لشكيب فى سورية ولبنان حفلة واحدة لتأبينه ، وإنما كان تأبينه فى جميع أنحاء الأرض إلا فى وطنه . وهذا ظلم نرجو أن يمحى قريباً .

القسم الثانى

شعره ونثره وثقافته

الشاعر — فنون شعره — النثر الفنى — الكاتب الأديب
ثقافته فى اللغة العربية واللغـــات الأجنبيـــة

أأمير فصحاها وباعث مجدها ومديل محتدها من الأقدار
لو كافأتك ببعض ما حليتها نفحت ثراك بدملج وسوار
ولكنت لو جمع الزمان شتيتها بطل الندى ومستشار

الفصل الخامس

الشاعر

الشعر قبل شكيب – أستاذه الشاعر – المرحلة الأولى
مجاراة الفحول فى عصره : البارودى ، شوقى ، عبد الله فكرى

الشعر قبل شكيب :

تحدثنا عن الشعر فى سورية خلال القرن التاسع عشر، ونريد أن ننقل هنا رأى شكيب نفسه فى هذا الشعر وحكمه فقد تحدّث الأمير سنة ١٩٣٧ بدمشق عن حال الشعر فى سورية قبل خمسين عاما، فوصفه بالندرة والقلة والضعف، وقال إن أحسن شاعر لعهده كان ناصيف اليازجى، نبغ فى بيروت، وطارت شهرته ولو وجد بعد الخمسين لما كان إلا واحداً من جماعة . وذكر أسماء الشعراء لذلك العهد فكانوا عدداً محدوداً ، وقال : « ولم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق والمغرب معشار العدد الذى نجده فى يوم الناس هذا من هذه الطبقة الراقية فى الأدب منذ خمسين سنة أو ستين سنة فما قبل، وكان إذا نبغ شاعر أو برع كاتب ضرب به المثل لتفرده وخلوّ الجوّ حوله . والحال أنه لو نشرته اليوم من قبره، وعرضته فى الجمع لوجدت أمثاله يعدون بالعشرات ، وإن كانت لا تزال له طلاوة ، فهذه الطلاوة لا ترتفع به إلى صفوف العبقريين وإنما تجعله فى صف المجيدين[1] » .

وهذه الكلمة تؤرخ حال أكثر الشعر فى لبنان قبل خمسين عامًا من نشأة الأمير شكيب . فلما تفتحت عيناه على الأدب ، وسمعت أذناه شعراً عربيًّا، فى أواخر القرن الماضى سعى إلى القريض والإنشاد ، وتعلق بالنظم فى المناسبات

(١) انظر النهضة العربية لشكيب أرسلان . ص ٣٣ ، وما نشرناه من كلمة البستانى فى وصف الحالة الثقافية فى الفصل الثانى ص ٤٢ والشعر فى سورية ص ٥٠ .

يروى طموحه وحبه للعربية. ولا شكّ فى أن شعره فى صباه كان من هذا الشعر الذى كانت له طلاوة وحلاوة ، ولكنه لا يرتفع إلى صف العبقريين — كما قال مخلصاً فى نقد أكثر الشعر قبله — .

ولكننا نحب أن نبسط صورته ، لنرسم أدب هذا الرجل منذ كان فتى يافعاً إلى أن بلغ أشده وارتقى إلى ذروة الشهرة . ونحب أن نسير معه منذ عكوفه على الشعر إلى انصرافه عنه وإنشاده فى ميادينه خلال فترات متقطعة . فقد كان شعره فى مرحلتين أولاهما التقليد التام للشعراء الفحول من العرب ، كأنه صورة لشاعر أو أكثر فى كل قصيدة من قصائده . والمرحلة الثانية هى صورة للشعر الذى كان ينشد فى مصر وفى غيرها .

أستاذه الشاعر :

ونريد هنا أن نبحث عن سبب إنشاده للشعر وعكوفه عليه ، فقد عرفنا ينابيعه ومصادره فى الثقافة . وعرفنا أن مدرسة المطران (مدرسة الحكمة) كانت تهتم بالشعر ، وأن الأستاذ عبد الله البستانى اشتهر بقوله وعكف على خرائده ، وأنه كان يعنى باللغة عناية فائقة قادته إلى معجم كبير فى اللغة سماه « البستان » ما يزال مرجع العلماء . فقد دخل عبد الله البستانى — فيما بعد — عضوية المجمع العلمى العربى بدمشق(١) ، وكان من خيرة اللغويين ودعائم الكتاب ، وقد نافس اثنين من كبار اللغويين المعاصرين وهما الشيخ عبد القادر المغربى والأب أنستاس الكرملى ، وكلاهما معروف بكتبه ومقالاته الرصينة اللغوية . ونحن عرضنا للبستانى فى صدد الشاعرية ، لنبسط من شعره هنا وأثره فى تلميذه الأمير شكيب . فقد كان من غير شكّ يقرأ على طلابه شعره ، ويثير فيهم قول الشعر وتقليد القدماء ، لأن شعره فيما سنرى كان صورة للشعر الجاهلى فى البادية أو كأنه شعر الصعاليك أو الشنفرى أو تأبط شراً — كما يقول الأستاذ

---

(١) انظر فى ترجمته ومصادر البحث عنه : مصادر الدراسة الأدبية ليوسف داغر ، ج ٢ ، ص ١٣٩ ، (عاش البستانى ١٨٥٤ — ١٩٣٠) — وانظر ما قلناه عنه فى صدد الحديث عن نشأة شكيب ص ٦٤ .

مارون عبود – فيه ولنستمع إلى بعض نظمه لننتهى منه إلى شعر طلابه ، فقد عكف الرجل على تشطير معلقة عنترة ، وتحويلها مديحاً للمطران يوسف الدبس قال فى جملتها[١] :

(هل غادَر الشعراءُ من متردم[٢]) فتسدّ ثلمتـــه برأس المرْقم
أم هـــل وددتَ ظباء منعرج اللوى (أم هل عرفت الدار بعد توهم)
(حُييتَ منْ طلل تقادَم عهده) حتى التـــوت عنهُ نُهى المــترسم
يبكى به غـــدقُ الرباب لأنـــهُ (أقوى وأقفر بعد أم الهيثم)[٣]
(إنْ تغـــدِ فى دونى القناع فإننى) أدعُ القنوع ومدح «يوسف» مغنمى[٤]
حـــبرٌ إذا هـــزّ الـــيراع فإنـــه (طبٌّ بأخـــذ الفارس المستَلئم[٥]

فنحن لا نرى بين أسلوب الرجلين ما يكون فى البعد بين العصرين الجاهلى والمعاصر ، مفردات وتراكيب وصوراً وأسلوباً وموسيقا ، حتى لنرى فى إبداعه التقليد تلميذاً لعنترة العبسىّ ، فهو يعترف حين يذيل القصيدة بذلك قائلا :

وإليكها بدويـــة عبسيةً تُسدى إليك ثناء « عنترة» الكمى
نسجتْ لها كف الحضارة مطرفاً يُزرى إذا خطرت بكل مُسَهَّمِ

ذلك أنه وقع فى العصور الأولى للشعر العربى فى نفسه وفى هواه وحبه ، فعشق أساليبها وراد مغانيها ، واستطاع أن يتحدى الزمن وأن يلحق بشعر الجاهليين . ومديحه وأوصافه وشعره القصصى والمسرحى تشهد كلها بهذه المتانة والجزالة بل تعجّ بالألفاظ اللغوية النادرة والصور العتيقة ، فهو حين يبلغ بتشطير المعلقة إلى وصف الناقة يقول :

---

(١) انظر رواد النهضة الحديثة لمارون عبود ، ص ١٨٠ – ومعلقة عنترة العبسى .
(٢) المتردم : المحل الذى يرقع ويصلح ، يريد أن الشعراء لم يتركوا فناً إلا طرقوه – والمرقم : القلم .
(٣) الرباب : السحاب الأبيض – أقوى وأقفر : خلا – أم الهثيم : كنية عبلة .
(٤) أغدف الستر : أرخاه .
(٥) طب : حاذق – المستلئم : لابس اللامة وهى الدرع .

(وكأن رُبًّا أو كحيلا مُعْقَدَاً) سالا غداة ذميلها كالحنتم[١]
فأديرها مثــلَ المجس ودفها (حش الوقود به جوانب قمقم)[٢]
(ينباعُ من ذفرى غضُوب جسرة) تحكى إذا وخدت زفيف الزهدم[٣]
أكرم بها من بازل عيهامــة (زيافة مثل الفنيق المكدم)[٤]

فالصدور تشابه الأعجاز وتنافسها فى غرابة مفرداتها حتى ليحار القارئ حين تزال الأقواس إلى أى من الشاعرين ينسب الشطور وما أرى السامع يتبين الفرق بينها فى سهولة ويسر إلا إذا كان يحفظ المعلقة .

وقد نشأ على يد البستانى شعراء وكتاب مشهورون هم شبلى الملاط ، وأمين تقى الدين ، ووديع شديد عقل ، وبشارة الخورى ، ويوسف البستانى وإسعاف النشاشيبى ، وداود بركات .

ولعلنا أدركنا بعد هذا سرّ عكوف الأخوين على الشعر ، وعرفنا لماذا كان الأستاذ البستانى يفضل الأمير نسيب على أخيه الأمير شكيب ، حين كانا يتنافسان فى قول الشعر ، فيحله المحل الأول ويحلّ أخاه الأصغر المحلّ الثانى ، وقد قال الأمير شكيب فى شعر أخيه لهذه الحقبة : « وكان يديم مطالعة المعلقات السبع والدواوين الخمسة ، وما أشبه ذلك من الشعر الجاهلى وشعر المخضرمين فما مضت مدة حتى تكونت له لغة عريقة فى العروبة تشابه لهجة الأولين[٥] » ثم قال فيه : « ولم يكن يقرأ شعر المولدين إلا فى الندرى » . ونحن نبعد فى

---

(١) الرب : الدبس — الكحيل : ردىء القطران — المعقد : الذى أوقد تحته حتى غلظ — الحنتم : شجرة الحنظل .

(٢) حش : أوقد — الوقود : الحطب ، يصف عرق ناقته بلون الدبس أو القطران يسيل من القمقم فوق النار .

(٣) ينباع : ينبع أى يسيل — الذفرى : عرق وراء الأذن — الجسرة : الموثقة الماضية — الزفيف : المشى المتقارب فى عجلة — الزهدم : الأسد .

(٤) بزل البعير : فطر نابه أى انشق ، فهو بازل — العيهامة : الناقه السريعة — زيافة : مسرعة — الفنيق : الفحل من الجمال — المكدم : الذى كدمته الفحول فى العراك .

(٥) روض الشقيق ، مقامة ص ١٩ .

القول والأحكام وشعر نسيب ملء الديوان بين أيدينا نستطيع أن نقرأ منه بغير اختيار ، لندلل على إعجابه بشعر الأقدمين ، وسعيه فى إثرهم ، قال نسيب يرثى الشاعر البارودى :

شعر ترى فيه سلاسة حاضر — سهل الطريقة فى جزالة باد
يختال فى حلل الفصاحة زاهياً — كالروض أخضله سحاب غاد
لك منه كل قصيدة سـيارة — يترنم الشادى بها والحادى

فتراه يشيد بالجزالة والفصاحة ويجد لهما شبهاً بالروض أخضله السحاب الغادى ، ويجد لشعر البارودى نغماً يترنم به الشادى والحادى ، فهو يعكف فى ألوانه على الوشى القديم وعرائس الأفكار الجاهلية ، وينشد الحفاظ على العهد وحرمة الود ، وخيار الشمائل .

* * *

المرحلة الأولى من شعره :

فإذا سعينا إلى شعر الفتى شكيب وهو فى سن الرابعة عشرة وقد نشره فى ديوانه « الباكورة[١] » ، وجعله بين أيدى الناقدين حين بلغ السابعة عشرة ، وقدّم بين يديه بقوله : « جامعة لبكائر شعرنا من سنة ١٨٨٤ إلى سنة ١٨٨٧ أى أيام كنا فى الرابعة عشرة إلى أن صرنا فى السابعة عشرة من العمر » .

فى هذه السن التى يتقدم فيها أبناؤنا إلى شهادة الكفاية (بالدراسة الإعدادية) وينشئون كلاماً لا يفهم ، وعبارات لا تقرأ ، وأساليب لا تنتظم مع العربية فى سبيل ، يذكرون حين يجب التأنيث ، ويؤنثون حين يجب الذكير ، ويرفعون حين يجب النصب أو الكسر . كان الفتى شكيب يستعرض القريض ، وحواليه دواوين العباسيين وفحولهم ، يقرؤها ويقرؤها ثم يحفظ من قوالبها ومعانيها ما يحفظ ،

(١) « باكورة نظم الأمير شكيب ارسلان » بيروت ١٨٨٧ ، فى ٩٢ صفحة .

ويصبها بعد ذلك فى شعر فتىّ غض ، سنعرض له بالتحليل لنبيّن خطواته الأولى التى كان يرسلها فى ميدان فسيح شديد الخطر ، على قواف كثيرة ، وأوزان منتظمة ، لا يختلف إليها باطل الشعر الحديث الذى نسمع من أفواه أدعياء الشعر اليوم . وأكثر ما فيها من خطر أنها كانت ترسل إلى أئمة البيان فى ذلك العهد ، وتهدى إلى فحول الكتاب والناقدين والشعراء ، فقد بدأ الفتى فى هذه السنّ بإهداء « باكورته » إلى الشيخ محمد عبده ، حين ربطت بينه وبينه رابطة الصداقة من كبير إلى صغير ، ومن أستاذ إلى تلميذ ، فقد قال فى الإهداء يمدح الإمام[١] :

يا أوحـد العصر الذى عقدت على ... تقـديمه فى الفضل خـيرُ خناصر
لا غـرو أن أهـدى إليكَ رقائقى ... وأنا رقيقُ فضائل ومـآثر
ليس القريض سوَى تأثر خاطر ... ممـا به للمـرء قرة ناظر

ثم يقول له :

أهديك بعضاً من عقيق قريحتى ... يا بحر لكن لا أقول جواهـرى
أبيـات إحسان وليس جميعهـا ... من كل بيت بالمحاسـن عامـر
قد جادها صَوبُ الصبا وبنشرها ... نمّ الصبـا عن كل عرف زافر
درجتْ معى أطوار عمر واصـل ... ما جاش من يـوم بليل ساهر
قـد باكرتنى قبل صادق فجره ... مُـذْ كنتُ من أعوامه فى العاشر

ونحن مع الشاعر الفتى بأنها ليست كلها من المحاسن إن كانتْ لشاعر كبير ، ولكنها لشاعر ناشئ ، يعرف ما كان منه ويعترف بما يخرج على قلمه من تقليد وترصيع ووشى وترقيع . فقد كان تلميذاً فى هذا كله للعباسيين فى الرقة والعذوبة ، يتتبع ألوانهم وألفاظهم ويحشر مفرداتهم وقوافيهم على وزن جميل وسياق حلو لسنه . فكأنه فى مدرسة الشعراء المصريين المحدثين الذين نشئوا على

---

(١) الباكورة ، ص ٣ : « اهداء الباكورة لحضرة العالم العامل الفيلسوف الكامل واسطة عقد الحكماء ودرة تاج البلغاء الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده المصرى أيده الله تعالى » .

أيدى « الوسيلة الأدبية » للمرصفى بعد أن قرأوا البارودى ، وتلذذوا بهذا الشعر العباسى الجديد ينتعش ثانية تحت شمس القرن التاسع عشر وهى تغيب .

وإننا حين نحمد فى الفتى هذا الطموح فى التقليد وفى الإهداء ، نحمد له ظروفه التى واتت ، وحظوظه التى اجتمعت ، فقد كان له وهو فى العاشرة أن يستمع إلى عبد الله البستانى وشعره وشرحه وتعليقاته وقراءاته ونشيده للشعر وروايته للقديم ، وسعيه فى تعليم القريض لهؤلاء الأطفال فويق العاشرة من أسنانهم حين يصحح لهم القوافى والأوزان ، ويسدّد سواعدهم فى نظمه وإنشاده . وكان له من حظوظه كذلك أن استمع وهو فى الخامسة عشرة إلى إمام الفكر والبيان محمد عبده فى مجالس خاصة كانت تعقد فى بيروت أو فى الجبل ، وكان له أن نشرت الصحف شعره وقدّمت بين يديه ، واستمعت إليه فى « مدرسة الحكمة » يلقى على الناس قصيده ، فصفقت واستحسنت ودفعت الفتى إلى أن يسير فى الطريق الشاعرية التى رسمها له أساتيذه ، وأعانه عليها أبوه ، وشجعه معاصروه . فراح قبيل السابعة عشرة يقول منشداً فى « مدرسة الحكمة » عن الشرق وقد ارتد إليه بهاؤه وعاد إليه رواؤه ، وأصبح يرفل منمنماً فى ثياب الشعر والقريض ، وقد كان مدى الدهر يتعلق بالذرى ويحلق فى السماء ، فقد أطلع أنجماً زهراً اهتدى بهنّ كل سار ، وأنبت الملأ الأخيار والعصبة الأولى ، أعلوا منار الرشد وخلوا لقومهم سبل المآثر ، فلما طوتهم أيدى البين ، وغار ضياء الشرق وأظلم وجهه وقتاً قليلا ، أسف العالم لبعده وشعر بفقده ، عادت طلائع العصر تنبت الهمم وتنطق الفضائل ، فيتلفت الغرب معترفاً بفضلنا القديم وعلو كعبنا فى العلوم والأخلاق . وهنا ينادى وطنه يدعوه إلى النهضة ويصيح بالشرق أن يستفيق ، فالغربى سائح سابح ومن يعتصم بالعلم يعتز ويرتق ، والوحدة سبيل إلى النجاح وطريق إلى المجد . ويختم بامتداح أمير الورى عبد الحميد[1] :

---

(١) الباكورة ص ١٠ — ويبدو أن الأمير جمع بعض قصائده فى عبد الحميد ونشرها فى «بعيدا» سنة ١٨٩٥ ، فى ١٦ صفحة ، بعنوان « المدائح السنية فى شمائل الذات الحميدية » الجزء الأول .

فلا زال فى عصر الخلافة قائماً   لما انآدَ من أمر العباد مقوّما
ينثُّ عليه الخافقان بعدلِهِ   ثناءً جميلاً بالدعاءِ مختّما

ونحب أن نلاحظ هنا وقوفه عند الخلافة فى الدعاء للخليفة والثناء عليه والافتخار بوجوده ، واعتصامه بحبل الإسلام وهو فى هذه السن ، وفى هذه البيئة من « الشويفات » بلبنان ومن موقعه فى « مدرسة المطران » ، مع شعوره بانتعاش الفرق والطوائف والأديان ، فى جو كان التعصب فيه يبرق ويرعد بعد عشرين عاماً أو تزيد من فتنة الستين بين الدروز والنصارى . وسنرى أثر هذه الخلافة فى سياسة الرجل بعد ذلك ، حين يصبح شابّاً ، ويقرأ للمصريين ويتصل بشعرائهم اتصالا وثيقاً فيرى ما يرون ويقول ما يقولون فى الدعوة نفسها والاعتصام نفسه ، والشعور بالإسلام وعاصمة الإسلام كأن الآستانة كانت فى نظرهم دار السلام للعصور الزاهية السابقة .

وقصائد «الباكورة» هذه على نفس طويل ، فالقصيدة التى عرضنا لبعض معانيها تبلغ فى أبياتها مئة وثمانية ، على قافية واحدة ميمية لناشئ فى السادسة عشرة من عمره ، لا تجد فيها وزناً مختلا أو قافية متكررة وذلك لا يقع إلا للنوابغ من الناشئين . وهى كما رأينا من الشعر العباسى فى الأخلاق والنصائح واستثارة الهمم لو كان للعباسيين أن ينظموا فى هذه الموضوعات أو يطيلوا فى أمرها . وصورها مستقاة من الشعر العباسى كذلك ومفرداتها تقع فى الصوارم والسيوف والأنوار والسباق والرهان ، والردى والبين ، والمآثر والمفاخر ، والبحار وركوبها ، ومتن الأسفار والمشقة ، والمنارة والهدى

وليس هذا مما يعيب الفتى لأنه نظر حوله فرأى أن الشعر قد انقطع حبله وانصرم ميدان الفحولة ، وتقطعت الأسباب على قرون عدة ، فليس له إلا أن يركب جسراً جديداً على غرار البارودى وشعراء « الوسيلة الأدبية » فى عصره ليصل بين العباسيين وبينه ، فهو من طلائع هذا الشعر ، نظمه فى السنين والأيام التى نظم فيها شوقى أوائل شعره ، بل إنه نشر الديوان الأول « الباكورة » قبل عشر سنين من صدور الأول « للشوقيات » .

لذلك كان يلح على هذه الديباجة العربية المشرقة الفصيحة ويقول : « عند حضور امتحان المدرسة السلطانية وهو فى السادسة عشرة» كذلك ما قاله فى القصيدة السابقة من معان فى إشراق العلم وظهور بدره ، فهو تلميذ والموضوع ينشد فى مدرسة للعلم يحثّ فيها على اللحاق بالأولين ، ولكنه يركب متن التراكيب العباسية فيقول(١) :

هو الجدّ حتى البعد للقرب سابقٌ   وحتّى الخوافى خلفهنّ القوادمُ
وحتّى ترى ما كان فى نيله الرّجا   صريمًا قد التفتْ عليه الصّرائمُ
وهل يبلغ الآمال إلاّ مجاهدٌ   وهل يطردُ الأهوال إلاّ مُقاومُ
وهل دون غايِ الجَهد تُدرك غايةٌ   ودونَ احترامِ النّفس تعنو المخارمُ

وكأننا نستمع إلى قوافى المتنبى ومعانيه فى الخوافى والقوادم والصريم والصرائم والأهوال والمقاوم ، واحترام النفس والمخارم أو كأن أبا تمام ينشد وهو فى أوائل شعره قصيدة فى مدرسة بيروت على شاطئ البحر ، ، وقد التقت الثقافات واختلفت الألسنة ، ودار بالرءوس تيار منبج وبلاط سيف الدولة ، فتناشد الشعراء من كل جانب يتبارون فى الصيغ البحترية والتمامية ، ومن ورائهم أساتيذ اللغة والبيان يرقبون هؤلاء الشباب فى حلبة السباق ، وينظرون إلى ألسنتهم فى حرص وحذر ، ينقدون ما خرج منها عن معاجم العرب وما اضطربت فيه السليقة، وما ابتعد من عمود الشعر ، فهؤلاء الأعلام ينشئون فى المعاجم صباح مساء ، يكبون على لغة العرب ليلهم ونهارهم ، أمامهم المعلقات ومن خلفهم الشعر الأموى والعباسى ، وبين أيديهم معاجم البصرة والكوفة وبغداد ، وما تبعها فى الأمصار ، تنتظر صدور المعاجم اللبنانية على أيدى اليازجى والبستانى وآلهما . والذين يؤمنون بتأثير الجو فى الطالب ، سيجدون الشباب على دين الشيوخ لا يخرجون قيد أنملة عما رسمت لهم الأقدار فى الشعر العربى فكأن لبنان استحال إلى أسواق عكاظ ومدارس بغداد وبلاط حلب ، يضج بهذا الشعر العباسى الجديد إذا صح التعبير ، بل إنه كما يسميه المستشرقون الشعر المدرسى الجديد .

---

(١) الباكورة ، ص ١١ ، وديوان الأمير شكيب ، ص ١٣٨ .

والشاب شكيب يستعيد فضل الأعارب فى العلم وسبق أياديهم فى المعرفة ، فقد شغلوا الورى بغاراتهم والملاحم كما شغلوه بالعلوم والمعارف فقال فيهم [١] :

فمنهم بآثار العدوّ صَوائفٌ ومنهم لآثار العلوم مَعالمُ
لقد أوسعوا الأمرينْ فتحاً كأنما مكارمُهم فى الحالتينْ مغارمِ
فعنَّت رُهَام الطير فوق رياضهم وأثنتْ عليهم فى النزال القَشَاعِم [٢]

كان هذا هو الشعر الذى يلقى فى لبنان بعد عصر طويل من الظلام والجهل ، وعلى لسان شاعر فتى لم يتجاوز السادسة عشرة من سنيه . فهل يستطيع ناقد أن يظن أن هذا الشعر يقع فى أواخر القرن التاسع عشر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، بعد ما شهد من فتن وثورات وقلاقل ورعب وخوف وقتل ومذابح فى بلد أراد له الأتراك أن يتقن التركية وفصاحتها ، وأن يأخذ بآدابها وعلومها ، فإذا به يرجع القهقرى ألف عام ليتعلق بالمتوكل وعصره أو الرشيد وشعرائه ويعود من هذا وهذا بعقود ثمينة ترفع مستوى الشاعرية وتحلق بالآمال إلى مستقبل للشعر سعيد ، يعيد هذه العهود الذهبية للشعر العربى .

أجل، إنها عهود سعيدة وبداية حميدة فى التقليد أول الأمر لعل التقليد يسوق إلى الابتداع والابتكار ، ويجيء بعدهما شعر جديد يمثل هذه الفترة الناهضة من شروق جديد قبيل القرن العشرين . ولكن القلق الذى كان يساور النفوس فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين كان يساورها فى الأدب . فلم تكن ثمة إلا مدرسة واحدة قائمة فى الشعر هى مدرسة الشعر القديم ، بل هما مدرستان ، مدرسة الشعر الجاهلى ومدرسة الشعر العباسى ، أما المدرسة الحديثة التى عزفت عن هذه وهذه فما كانت تصرخ وتجأر وتصيح ، وإنما كانت تهمس همساً ، وترسل أنفاسها فى شعر جميل جديد ، ترتقى إلى الفن فى الشعر متأثرة بأجواء الغرب وآدابه ، ولكنها لم تكن تسر الأسماع المعاصرة التى استفاقت على الشعر الجزل يجلجل بقوافيه وأوزانه ، فيأخذ الأسماع بمبانيه وتستولى المبانى على المعانى

---

(١) الباكورة ، ص ١٢ ، وديوان الأمير شكيب ، ص ١٣٩ .
(٢) رهام كغراب : ما لا يصيد من الطير ، والعدد الكثير .

وتطغى عليها ، فتقوم الأذن آنذاك مقام العقل والنفس والشعور ، ذلك لأن الشعر العربى فيما كانوا يقولون ولد مع الغناء فدخل الأسماع قبل القلوب وأسكر الآذان قبل الجنان ، ونفذ إلى الشعور القومى باللغة والإرث التركيبى قبل أن ينفذ إلى الفنية فى القول والشاعرية البعيدة فى الخيال . وشأن الشعر العربى بلبنان ومصر كشأنه فى كل قطر آخر ، نام قروناً ، فلما استيقظ استعاد الماضى كركيزة أساسية ، لينهض منها إلى حاضر وثيق ، ثم إلى مستقبل يختلف عن الماضى والحاضر ، إلى شعر آخر قد لا يتصل بهما إلا فى أنه من اللغة نفسها ولكنه فى تركيب جديد وخيال جديد .

ولكننا ما نزال مع شكيب فى بنيان هذا الماضى واستعادة هذا التراث نستمع إليه يقلد القدماء فى رسم عواطفه وآماله ، وثقته بالشرق وخوفه من الغرب ، يرفض الذل والهوان ويسعى إلى النصر والفخر ، يدعو قومه إلى العزم والعلى والجهد والفضل ، ويختم بالسلام على السلطان وسليل بنى عثمان ، الذى أطاعه البران مشرق ومغرب ، وأقام أمور العرش بعد أن تظاهرت عليه خطوب قواصم فسد الثغور وجاز إلى دار الوغى وأحكم العدالة ، فهو بدر تكامل نوره وغيث تدفق ودقه (١) :

يُعيد لنا عزّ الخلافة عَهْدُه ... ويغتبطُ الإسلامُ إذْ هُوَسالِمُ
تُضيءُ على الدُّنيا مَطَالِعُ شكره ... وتعطر فيهِ بالدُّعاء الخوَاتِمُ

ختم القصيدة بالخليفة عبد الحميد ، وذهب إلى الخلافة الإسلامية والسياسة العثمانية ، وهو فى هذه السن ، فحمد العدالة والخير والنور ، بلسان كلسان شعراء الخلافة القدماء ، يشكرون حماية الثغور وبسط العدالة ، ودفع الخطوب ، لا يتحدثون عما حولهم من شكوى تجأر بالظلم والقسوة والرشوة والجاسوسية والتعصب للدين والعرق ، وأفضلية الترك على العرب . ولعل شكيباً كان ينظم بنور الثقافة الإسلامية وقد رحل بفكره إلى قصور الخلفاء ، ودار بينهم وتعلق بشفاههم

(١) الباكورة ، ص ١٤ .

وآمالهم ، ودخل رءوسهم وخرج منها بهذا الشعر ، لا يفقه لأثره فى النفوس إلا أنه يستعيد الهمم ويبعث النشاط ، ويثير الحفائظ لمجد قديم وعز تالد ، فيتخيل رجوع بغداد ، وعودة دمشق ، وكأن « معاوية » يخطر بثيابه أو الرشيد يزهى على أترابه ، وقد جلسا للشعراء ينشدون على الأبواب ما كان من فصيح القول وجميل الكلام .

ولعل السامع يظن أننا نتهم الفتى بأنه ما شكا ولا تعتب ولا شعر بالنكد المر والصبر الطويل والبعد القاسى ، فنحن لم نذهب إلى ذلك ، بل إننا نرى أنه تابع الشعراء القدماء فى هذا فشكا دهره كما شكوا وتعتب من زمانه كما تعتبوا ولكن على أسلوبهم لا على الأسلوب الذى كنا نريد أن يسلك فيه وأن ينتهى إلى مغانيه . فقد بدأ شعرنا الجاهلى بالشكوى وما انقطع عن الشكوى . ولو أحصى ما كان للدهر من أعداء فى قلوب شعرائنا لفاتنا الإحصاء وأعيانا العد . وأى ديوان خلا من ذم الدهر والأصحاب وتقلب المرء فى الزمان يقاسى عذاب الموت والحياة ، فهو حليف مصائب أبداً لا يغنيه حرصه ولا تواتيه حظوظه ، وإنما يحس عمره أنه مظلوم محروم ، لم ينل ما تسمو إليه همة نفسه . ولعل هذا لبعد الهمة عند كثير من الشعراء ، وبعد التقليد عند من حرموا هذه الهمة .

وأما الفتى فهو أمير ابن أمير دخل المدارس الراقية فى عز ورفاهية — كما رأينا — وتعلم وصاحب ورأى علية القوم كما قلنا ، ولم يحرمه الزمان قبل السادسة عشرة أمراً كما حرم نظراءه من جياع لبنان وفقراء الجرود وأشقياء القرى وعبيد الإقطاع ومنكوبى الرزق والأيتام والمطرودين . ولكن هذا كله ليس فى حساب الشعر الوجدانى الرومانتيكى ، لأن نفسه وحدها هى التى تحس ما فيها فحسب فتملى على الشاعر قوافيه وبحوره ومعانيه . فالضيم الذى كان يلقى هو بعد الأحبة يبكى وينتحب كما تبكى الورقاء وتندب فى الصباح ، تشب فى قلبه شرارات الأسى فلا يطفئها صيب من ماء العين . وعجيب أن يذكر النكبة فى شعره فيقول (١) :

---

(١) الباكورة ، ص ١٥ ، والديوان ١٤٢ .

فيا ليتَ شعرى هل أرى الدهرَ مرةً لدى غفلة عن نكبتى يتَنكّبُ
أليست لتصفو منه يومًا سرائرٌ فيحلو لنا طَعمٌ وينساغُ مشربُ

وأى طعم مر فى فم شكيب ، وأى شراب لم يسغه وهو فى حفلة مدرسية يقف فيها شاعراً يتغنى ومن حوله أساتيذ الشعر وأئمة البيان ، وقد أصبح خطيبهم تصفق له الأيدى وتطرب له القلوب ؟ ثم إنه يتدرع بالصبر ، ويدعى أن الحوادث عجمت عوده ، فما عدم شدة وجلداً ! ويقول (١) :

إذا الحقُّ لم يُصبح على الكلّ سائداً فليسَ لحر فى البرية مأرَبُ

فهل يغضب لغيره أم يغضب لنفسه ، أم يسير فى تقليده للشعراء الذين شكوا قبله وتعتبوا ، فشكا وتعتب وهو يعترف (٢) :

وإنى من القوم الذين هُمُ هُمُ إذا غابَ منهم كوكبٌ لاح كوكبُ

فافتخر بنسبه وقومه لأنهم كالبدور والشموس ، من آل يعرب ، يسمون فوق السحاب ويعلون فى الذرى كالعقاب ، وهو فى ذلك شبيه فى لفظه ومعناه بشعر الأولين ، يكاد يكشف عن أقوالهم وينطق بأشعارهم فى تبديل طفيف وتغيير خفيف ، لأنه منهم وهم منه فهو وارث مجدهم وهو وارث شعرهم ، له أن يقول ما قالوا وأن يعيد ما نطقوا به قبل ألف سنة أو تزيد .

ولن نبعد فى الاستشهاد بفخره فهو كثير فى ديوانه الأول يكاد يكون كل شيء فى هذه القصائد الطويلة . ولكن المهم فيها أن أول الديوان توجه إلى الشيخ محمد عبده ، ومنتصفه يتوجه إلى جمال الدين الأفغانى ، فيرسل إليه شعره ، بعد أن سمع به قبل أن يغادر لبنان فيما نعلم وقبل أن يجوز حدوده ، فهو ما يزال يرشف العلم فى مقاعد المدرسة . ولكن عقله مع رجال الإصلاح ، وقلبه مع هؤلاء الذين ملأوا الأسماع وقد عرف فضل جمال الدين عن سبيل

(١) المصدر نفسه ، ص ١٦ ، وديوان الأمير شكيب ١٤٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧ ، وديوان الأمير ١٤٣ .

محمد عبده فى بيروت ، وأصغى فى ليالى بيروت والجبل إلى حديث الإمام عن أستاذ الشرق ومحرك الشعور فيه وباعث اليقظة فى بنيه ، فتاقت نفسه إلى أن ينظم فيه قبل أن يجتمع إليه فى الآستانة بعد سنين . وهنا موضع يثير العجب فى همة هذا الفتى الطامح فى سن السادسة عشرة ، يجمع بين القطبين العظيمين فى شعره وحبه وتقديره ، فكأن ضلوعه تهتز لذكرهما و إكبارهما لكثرة ما يرى لهما من قول وما يحيطهما من ذكر فاشتهى أن يكون له مثل ما كان لهما ، فأجمع على أن يقتدى بهما ، وسنرى أثر ذلك فى مستقبل أيامه .

ومهما يكن من أمر فقصيدته[١] فى جمال الدين الأفغانى ، « جمال الإسلام » هى قصيدة المديح والإعجاب ، صاغها على أن هذا المصلح كان صورة المثل الأعلى لما يحب شكيب ويهوى . فرأى فيه الهمة والمضاء ، ورأى أنه فرد فى نفس الأملاك وعزة الأفلاك وجود الغمام وطبع سام ووجه سليم ، ويراع كالغيث فى انسكابه ، وذ كاء كالنار فى ضرامه ومعان لو أوحيت إلى جماد لهزه الشوق نحوها والغرام ؛ فهو للمسلمين حجة فى دينهم ، وهو فى المشرقين بدر تمام .

وأكثر من قصائده فى مديح الإمام محمد عبده لمناسبات مختلفة يبثه فيها خالص الحب والإكبار ، فهو خطيب الورى بالحق ، مظهر للخير يمحو الضلال ، وهو بكل فضيلة مشهور ، ينفع الجماعة ، وهو بدر ونجم ، وليث وسيف ، وبحر ومنار هدى ، علمه واسع وقلمه يزرى بكل مهند ، يصول به على الأعادى ، ويتردى بأثواب المحامد كلها ، ولذلك تعشقه كل القلوب كأنه بكل قلوب العالمين معلق ، وهو يعترف بأنه يسعد حين ينال من الإمام لفظة تشرفه . ويهنئه بزفافه وبالعيد الأضحى . وهذا الشعر فى المديح شبيه بالشعر العباسى كذلك يفتتحه بالغزل فيقول[٢] :

---

(١) ديوان شكيب ، ص ١٥٤ .

(٢) الباكورة ، ص ٣٠ ، وديوان الأمير شكيب ، ص ١٥٦ .

لقلبيَ ما تَهمِي العيونُ وتَأرقُ   وللعين ما يبلى الفؤاد ويرهقُ
وما كنتُ ممن يدخل العشقُ قلبه   ولكنّ من يدرى فنونك يعشقُ

وهو ينظر فى معناه ومبناه إلى قول المتنبي نظراً قريباً جداً :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى   وللحب ما لم يبق منى وما بقى
وما كنتُ ممن يدخل العشق قلبه   ولكن من يبصر جفونك يعشق

بل لعله أراد أن يعارضه معارضة وهو يعلم أن الناس يحفظون المتنبي ، وأن اليازجى على مقربة من بيته يشرحه ويعلق عليه ويطيل الناس الاقتباس منه والنظر فيه . فالأمير لم يغز المتنبي فحسب ، وإنما أراد أن يعارض الشعر القديم كله فقال فى مطالع قصائده [١] : « باتت سعاد على ذا كله وغدت ، تضفو عليها من النعمى سرابيل» ويقول[٢] : أدر لنا راح تذكار الحمى . . . ويقول : حتام تجذبنى القدود وأجنح . . وصدر شعره بذكر غزلان العقيق وبانه ، وذكر ميا والقباب ، والطلول والشعاب ، وشام البرق ، ومرّ بالطلول ، وأشاد بالعذيب وبارق ، فلم يغادر معنى من معانى العباسيين أعجبه إلا صاده ، ولا لفظاً من ألفاظ المواقف والساحات والمحطات عند الرمال والجبال والتلال إلا اصطنعه لشعره واتخذه لقصيده ، فهو سوق يعرض فيها كل ما اشترى من بضاعة الأجداد ، وما جمع من أموالهم وذخائرهم ونتاجهم ، يعترف بذلك بقوله فى تهنئة بزفاف وجيه من الوجهاء [٣] :

فخذها من الشعر العراقى غادة   تناهت إلى ماء السماء جدودها

ولا عجب فى ذلك حين يقر بخطته وسبيله ، وحين يرسم هواه ومذهبه فهو يحن إلى أرض الأجداد ، ويرجع إلى هؤلاء المناذرة أبناء ماء السماء من الحيرة ، ويتغنى بالشعر الذى نبت فى أرضهم وانتعش تحت سمائهم .

---

(١) ديوان شكيب ١٥٨ .
(٢) ص ١٧٤ .
(٣) الباكورة ، ص ٥٦ .

وسواء فى ذلك مديحه ورثاؤه، فقد كان من غير شك يرى رأى أساتيذه فى « مدرسة المطران » من أن الرثاء مديح للميت، فيقبل فيه بحكم القضاء، ويقول إن الردى عم البرايا ومات الناس حتى الأنبياء وأصبحنا رعايا للمنايا ، وعلينا من ولايتها لواء . فسبيل الخلق إلى فناء وغايته إلى زوال وسفر لمراحل ختم وابتداء ، نولد مع البكاء ونسير إلى الرمس فى بكاء ، ونحن لا نرجو فى الدنيا بقاء ولا نغتر بما فيها من خداع ورياء . وهو حين ينتقل إلى الفقيد يتساءل عن موقعه الفخم فى الإسلام ومكانه فى قومه ، فهو ركن انهد وبناء انهار وصرح قد دك لأنه إمام مبارك طيب الخلق ، عاطر الذكر ، مهذب الطبع ، مشرق الوجه ، علم الهدى ، عم البرايا ضياؤه فسلام على قبره وسقى الله تربته .

وهذا الرثاء قديم قديم لم يغير منه شكيب لفظاً أو معنى لأنه حاول النظم فى موضوعه ، وسابق أقرانه فى مغانيه وجرى فى حلبته كما جرى الشعراء من عصره وقبل عصره ، فما كان إلا صورة مكررة ، ونسخة معادة ، كل الفضل فيها أن الفتى نجح فى التقليد وفاز فى المعارضة ، وبلغ الغاية حين استوى مع القدماء فى معانيهم ومبانيهم وهو فى مثل سنه . وهذا مقدار نبوغه وسر الإعجاب فيه ، مما أذاع صيته وأدار اسمه بين قومه ، وجعله موضع النظر ، ووصل بينه وبين شعراء عصره ، وبعث على الكتابة والتراسل بينه وبينهم ، كزميل ورفيق فى رحلة الشعر العربى آنذاك من مرحلة التقليد إلى مرحلة ثانية فيها ابتكار وفيها خلق ، سنتحدث عنها ونصور ما كان منها .

فالمرحلة الأولى للأمير شكيب فى شاعريته دارت بين الرابعة عشرة من سنيه والعشرين ، خلال ست سنوات ، قضاها فى لبنان بين بيروت والجبل يمدح المدارس التى دخلها والأساتيذ الذين عرفهم والعلماء الذين اجتمع إليهم والحكام الذين اتصل بهم ، ويرثى ويتغزل ، فى حدود الشعر التقليدى الذى رسمنا كثيراً من معالمه ، فأوضحنا جمال بيانه وأسر عبارته ، وشدة فصاحته وجزالته ، وأشرنا إلى شبهه بالشعر العراقى والتزامه الشعر العباسى ، ومعارضته لفحول الشعر العربى . وقد أردنا أن ندلل على نبوغ الفتى منذ نعومة أظفاره

وحداثة سنه ، حين استطاع أن يقف لهؤلاء الشوامخ من شعرائنا القدماء وأن يقتبس منهم وأن يعارضهم وأن يشمخ بهمته إلى مجاراتهم فى ميدان الشعر ، فوفق إلى ذلك توفيقاً بارعاً لا يكاد يميزه عنهم إلا ما بينه وبينهم من فرق فى السن ، وبعد فى العصور واختلاف فى الجو والتربية والإقليم . ومع هذا كانت له سليقة فصيحة وجزالة وبداوة ، ومتانة وقوة ، تجعله فى المقدمين من زملائه وفى الطليعة من شباب عصره .

وقد دهش معاصروه حين سمعوا شعره ووصف ذلك بنفسه فقال[1] : « وكنت وأنا لذلك العهد فى المدرسة ، لم أتجاوز الرابعة عشرة من العمر ، ولكنى كنت بدأت النظم ، وكانت جرائد بيروت تنشر من شعرى ، وهذا مصدق وهذا مكذب . ومن الناس من يقول : لا يمكن أن ناشئاً فى هذه السن الحديثة يفرى هذا الفرى . وما زالت هذه الشبهة تعترض حتى كثر النظم وتواترت الأدلة فزالت الريبة وانقلعت الشبهة ، ولم يمض مدة ثلاث سنوات حتى كان لى ديوان اسمه « الباكورة » .

وسنرى ما يكون منه بعد هذا الديوان .

مجاراة الفحول فى عصره

البارودى :

انتشر شعر شكيب فى مصر والشام ودار على الألسنة اسمه واتصل بالأدباء المصريين واتصلوا به ، وكانت بينه وبينهم علائق ود وحب وإكبار ، وخاصة محمود سامى البارودى ، وشوقى ، وعبد الله فكرى .

ولقد كتب شكيب فى مؤلفه عن شوقى يستعيد هذه الذكريات ويصف ما كان بينه وبين هؤلاء الشعراء بعد أن بلغ الأربعين من عمره . فقال فى صدد البارودى[2] :

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ١٤٧ .

(٢) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، نشره سنة ١٩٣٦ ص ١٠١ .

« فقد كان اطلاعنا على شعر محمود سامى البارودى بواسطة الأستاذ الإمام حجة الإسلام الشيخ محمد عبده يوم كان ضيفاً فى بيروت . وكنا نلازمه استفادة من واسع علمه واستفاضة من عارض فضله ، فهو الذى عرفنا بالوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفى . وكنا أنا وأخى نسيب رحمه الله نصبو من صبانا إلى طريقة الأولين فى الشعر ، ونؤثر شعر الجاهلية والمخضرمين والبطن الأول من المولدين على شعر أهل الأعصر الأخيرة ، مهما حلت نكاتهم وكثرت الأنواع البديعية فى أشعارهم. ولم نكن نجهل علم البديع ، ولا كان يفوتنا شىء مما فى خزانة ابن حجة ، ولكن ذلك كله كان عندنا لعباً ولهواً بالقياس إلى المعلقات السبع وشعر النابغة والأعشى ثم شعر الأخطل وجرير والفرزدق وعمر بن أبى ربيعة، ثم شعر أبى العتاهية وأبى نواس وبشار ومسلم بن الوليد ، ومروان ابن أبى حفصة وأبى تمام والبحترى وطبقتهم . وكان المتنبى كله لا يروقنا إلا من جهة الأمثال والحكم ، وكنا نرى شعره فى الأحايين نازلا عما يجب أن يكون . فلما قرأنا شعر محمود سامى سكرنا بأدبه ، ورقصنا على قصبه ، وبعث لنا نشأة روحية لم نعهدها فى أنفسنا من قبل أن عرفناه ، وعلمنا أن فى المعاصرين من قدر أن يضارع الأولين وأن يسامى بنفسه أنفاسهم . »

ثم يقول شكيب بعد هذا إنه ظفر بجميع قصائد البارودى التى فى « الوسيلة الأدبية » فلم يكن يخرم منها بيتاً واحداً لشدة إعجابه بها ، ثم حفظها وقال : « إن محمود سامى هو بذاته مملكة عربية » ثم أضاف : « ولذلك كنت أرانى خريجاً فى الشعر لمحمود سامى البارودى[١] » ، وقد ذكر الأمير شكيب ، شعر البارودى وأثنى عليه فقرأ البارودى ذلك فى منفاه بسيلان ، فكتب إلى شكيب هذه المقطوعة[٢] :

أشدتَ بذكرى بادئاً ومعقبـًا ... أمسكتُ لم أهمسْ ولم أتكلَّمِ
وما ذاك ضنـًا بالوداد على امرئ ... حبانى به لكن تهيَّبْتُ مقدَمي

---

(١) عاش البارودى ١٨٣٨ – ١٩٠٤ ، فبينه و بين شكيب ثلاثون سنة تقريباً فى السن .

(٢) شوقى وصداقة أربعين سنة ، وديوان شكيب أرسلان ، ص ٥ .

فأما وقد حقّ الجزاء فلم أكن ... لأ نْطقَ إلاّ بالثناء المُنَمْنَمِ
فكيف أذودُ الفضلَ عن مستقره ... وأنكر ضوءَ الشمس بعدَ توسمِ
وأنتَ الذى نَوَّهتَ باسمى ورِشتنى ... بقول سرى عنى قناعَ التوهمِ
لك السبقُ دونى فى الفضيلة فاشتمل ... بحلتها فالفضلُ للمتقدّمِ
ودونكها يا ابنَ الكرام حبيرةً ... من النظم سَداها بمدح العُلا فمى

وهذا شعر عباسى جزل جميل ، فيه عبارة البحترى وتراكيبه المتينة الفصيحة ، يشكر بها شكيباً على ذكره ويذكر له فضله وينوه بضوء الشمس ، ويشهد له بسبقه فى الفضيلة حين كساه ببرد المديح والفضل للمتقدم ، لذلك أرسل إليه تلك الحبيرة من النظم سداها بالمدح . ولعل السبب الذى دفع البارودى إلى هذا الشعر وهذا التقدير هو أنه رأى فى شكيب أسلوباً يسعى إلى أسلوبه بل أسلوب الشعر الذى يحبه فى جزالته وفخامته ، فأرسل يكاتبه معجباً به على ما بينهما من سن ومن مكانة . فقد كان البارودى رئيس النظار قبل ذلك ، وكان أمير الشعراء فى مصر ، وشكيب فتى ناشئ يتسلق طريق الشهرة والإجادة ، وما عتم شكيب أن أجابه على مقطوعته بقصيدة تبلغ أربعين بيتاً ، افتتحها بقوله(١) :

لَكَ الله من عان بشكر منمنم ... لتقدير حقّ من عُلاك محتّمِ
وشهم أبىّ النّفس أضحى يرى يداً ... تذكّر فضل أو جميل لمنعمِ
رأى كرمًا منى تذكر قوله ... فدلّ على أعلى خلال وأكرمِ

إلى أن يقول فى مدحه (٢) :

ولو كان يُرقى المــرء ما يستحقه ... إذن لبلغتَ النيرات بسلّــمِ
وأنت الذى يا ابن الكرام أعدتها ... لأفصح من عهد النواسى ومسلم
وأشهدُ ما فى النّاس من متأخر ... يُدانيك فيه لاَ ولاَ متقدّمِ

---

(١) ديوان شكيب ، ص ٥ .
(٢) المصدر المذكور ، ص ٦ .

لأبْصرت شخص البحترى منك بحترا ً وخلق أبى تمــام غير متمم
لك الآبداتُ الآنساتُ التى نأت وأنْسَتْ عكاظَ الشعر بل كلّ موسم

فإذا وازنا بينهما رأينا بوناً غير قليل فى اختيار المعانى واصطياد الأغراض ، لأن شكيباً أعاد وأبدى ، وفصل ومثل ، فجعله شهماً تثير اللفظة عنده وفاء وأدباً ، جعله مطراً يسقى الرياض بوابل فلاعجب للطائر حين يترنم بمديحه ثم . رفعه فوق الشعراء من متقدم ومتأخر ، لأنه نشر ميت الشعر وأحيا رفاته وأعظمه ، ففى برديه البحترى وخلق أبى تمام ، لذلك بعث إليه بتحية حملها ريح الهند ثم عزاه بمنفاه ، فالأيام بؤسى وأنعم . فإن كان البارودى يقع من العصر العباسى فى خيرة شعرائه فشكيب يرود فى أطرافهم ويلحق بأكنافهم ويسعى لركبهم ، وليس ببعيد حين تتقدم به السن ويتابع سبيله فى القريض المنمنم . .

ويعلق شكيب على هذا بقوله : « فأنت ترى فى كل حرف من حروف قصيدتى هذه حالتى النفسية التى تتلخص فى هذه الجملة : إن البارودى هو إمامى فى الشعر ولا أنكر أنى قبل أن قرأت شعر البارودى بدلالة الشيخ محمد عبده كان سبق لى نظم غير قليل ، وكان اطلع عليه الشيخ محمد عبده نفسه فقال لى فى اجتماع فى الجامعة الأميريكية فى بيروت وقد عرفوه بى : أنت ستكون من أحسن الشعراء [1] » .

ثم يقول فى سبب هذا التراسل ، إن شعر البارودى قد هزه هزاً عنيفاً لم يسبق له مثله حين قرأ شعر غيره . ثم يضيف : « وكنت كثيراً ما أحدث نفسى بنشدان وسيلة أتحكك بها بهذا الشاعر الكبير ، فأحصل منها على جواب منه فأكون سعيداً ، ولكننى كنت أتهيب الإقدام » واعترف بأنه كان يتلو شعر البارودى كل يوم بعد تلاوة كتاب الله ويترنم به فى نجواه ويجعله نقل أسماره وغبوق ليله وصبوح نهاره . فما لبث أن اهتدى إلى وسيلة يبلغ بها إلى مراسلته وهو أن يستشهد بشعره فى مقالاته التى كان ينشرها فى الأهرام بذكر اسمه وبغير

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ص ١٠٤ انظر ص ٦٥ السابقة .

ذكره مرة أخرى ونعته بلقب أمير الشعراء ، فتلقى منه ما روينا من شعر ، ثم جاءه منه كتاب فى النثر يبدؤه البارودى بقوله : « سيدى الأمير » وصف فيه فرحه بلقاء كتابه ووصف نظمه بأنه السحر فقال : « وما عساى أن أقول فى نظم لو وصفته لقلت سحراً ، ونثر لو وردت شرعته لكان بحراً ، إنها والله منة لا يقوم بها الشكر ولا يتدرج إلى معروفها النكر » . وامتدت المراسلة بين سامى البارودى وشكيب نثراً وشعراً وصل إلينا كثير منه ، وفيه يقول البارودى من أبيات تزيد على العشرة(١) :

هو الهمامُ الذى أحيا بمنطقهِ — لسانَ قوم أجادوا النطقَ بالضَّادِ
تلقى به « أحنف » الأخلاق منتدياً — وفى الكريهة « عمراً » و « ابن شدَّادِ »
أخى وداداً وحسبى أنه نسب — خالى الصحيفة من غِلٍّ وأحقادِ
أفادنى أدباً من مَنْطِقٍ شَهِدتْ — بفضلهِ الناسُ من قارٍ ومن بادِ

يرى فيه هماماً أحيا اللغة العربية ، وطيباً حسن الأخلاق كأحنف ، شديد المراس كعمرو وابن شداد ، وأعاد شهادة الناس فى شهرة شكيب وعلو كعبه . وأجابه الأمير على أبياته بقصيدة طويلة بدأها بالأسلوب الجاهلى فى وصف العيس والظعائن ، وفى رسم الحب والشوق وامتداح البارودى فى شمائله وأخلاقه . وهنا أجابه محمود سامى بقصيدة طويلة أرسلها من جزيرة سيلان فرد التحية بمثلها وأحسن منها ، ووصف طرب قلبه واهتزاز جوانحه لرسالته ، ثم عبر إلى تصوير الطبيعة فى الجزيرة من ليل زهر كواكبه طويل ظل يرقبه حتى انجلى وطلعت حمامة فوق الأراك تصف الهوى بلسان صب مولع ، وتدعو الهديل فأملت عليه هذه الرسالة التى جعلها شعراً فى شكيب(٢) :

هى من أهازيج الحمام وإنَّما — ضمنتها مدح الهمام الأروع

---

(١) ديوان البارودى ١ / ٢٤٠ ، يضرب المثل بحلم أحنف وشجاعة عمرو بن معد يكرب انظر ديوان شكيب ٧ .

(٢) انظر ديوان البارودى ٢ / ٢٤٥ ، وديوان شكيب أرسلان ، ص ١٠ .

هو ذلك الشهم الذى بلغت بـه مسعاتـه حدَّ السماك الأرفعِ
نبراس داجيـة وعُقلة(١) شارد وخطيبُ أندية وفـارس مجمع
صدق البيان أعضَّ «جرول» باسمه(٢) وثنى «جرير» بالحرير الأطوع(٣)

حتى يقول :

فاسلم «شكيب» ولا برحتَ بنعمة تَحنو عليكَ بأيكها المُتفرّعِ(٤)
فلأنتَ أجـدرُ بالثّناء لمِنّـة أوليتَها ، والبرّ أفضلُ ما رُعى(٥)

ومدحه البارودى فجعله شهماً بلغ السماك ، ونبراساً وخطيباً وفارساً يعنو له الشعراء ويثنى عليه الفحول . ورد إليه شكيب مدحته بمدحة أشد وأطول فافتداه بنفسه وتغزل بحبه وبسط جواه وارتفع بشعره إلى مستوى المخضرمين فى ألفاظ بدوية ومعان مبتكرة حيناً تقليدية أحياناً ، فجعل ابن المقفع يثنى على أدب البارودى ، ولو كان فى العصر القديم لما روى الأصمعى لغيره ، قد قاد مملكة الكلام ، وأسلوبه سهل ممتنع يقول فيه(٦) :

سهلُ البيان عصيـهُ للمحتذى فلأنتَ منـه بينَ عاص طَيعِ
خُلقت له عُليا اللغات فلو هَفا نحوَ الركاكة جاء كالمتصنـعِ
تغدو المعانى حُوَّماً حتى إذا سامين فكرتهُ هبطنَ بموقع

وبعيد ما بين أسلوبه هنا وأسلوبه فى بدء شبابه ، ولعل ذلك لأنه كان يعارض سيد الفحول فى زمانه أصالة وفصاحة ويحاول أن يرقى إلى أسلوبه ، حتى لقد تقرب منه فى كثير من الأحيان ، وكاد يتشبه به لو أمعن فى اللحاق

---

(١) العقلة : ما يقيد .
(٢) الجرول : الأرض ذات الحجارة ، وهو لقب الحطيئة . أعض جرول أى أخمله وأذله .
(٣) حبل البعير . أى أذل جريراً .
(٤) دعا له بالسلامة من الآفات .
(٥) يشكر له قصيدته .
(٦) ديوان الأمير شكيب ، ص ١٤ .

وراءه وسار طويلا فى الترسل معه ، ولكن ذلك لم يطل طويلا كما كان يريد الأمير ، ونحب أن نشير هنا إلى تقدم الشاعر فى ميدان الدقة والبراعة ، والغوص على المعانى الفائقة والتفنن فى أساليب الشعر العليا ، وشعره هنا من خير ما قال فى هذه المرحلة التى نعرض لها .

أحمد شوقى :

جارى شكيب أمير الشعراء البارودى — كما سماه — واتخذه أستاذاً وإماماً لأنه أسن منه وأطول باعاً فى الشعر وأكثر غوصاً على المعانى وتعلقاً بأساليب العباسيين ، فأفاد منه وحاذاه وارتقى ببيانه واستقى من معينه فى سورية ، كما استقى شوقى وحافظ وغيرهما . ولكنه اتصل بعد ذلك بشوقى وهو فى مثل سنه ، وقريعه فى النشأة والتنقل والأخذ بأساليب الفصاحة والعكوف على العباسيين ، فجاراه مجاراة الزملاء ، وأحبه محبة الأخدان الأوفياء . وأعجب به وأثنى عليه خطواته وبايعه بإمارة الشعر بعد البارودى ،واقترح عليه أن يجمع شعره فى ديوان وأن يسميه « الشوقيات » وقد ذكر أحمد شوقى ذلك فى مصدر الشوقيات للطبعة الأولى [١] : « جمعتنى باريز فى أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان وأنا يومئذ فى طلب العلم ، والأمير حفظه الله فى التماس الشفاء ، فانعقدت بيننا الألفة بلا كلفة . وكنت فى أول عهدى بنظم القصائد الكبرى ، وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه منه منشوراً فى صحف مصر ، فتمنى أن تكون لى يوماً ما مجموعة ثم تمنى على إذا هى ظهرت أن أسميها الشوقيات .

ثم انقضت تلك المدة فكأنها حلم فى الكرى أو خلسة المختلس أو هى كما قلت :

صحبت شكيباً برهة لم يفز بها ... سواى على أن الصحاب كثيرُ
حرصتُ عليها آنةً ثمَّ آنةً ... كما ضنَّ بالماسِ الكريم خبيرُ

---

(١) الشوقيات ، ديوان الضعيف أحمد شوقى ، الجزء الأول ، مصر سنة ١٨٩٨ ، ص ٢٢ .

فلما تساقينا الوفاءَ وتمَّ لى وداد على كل الودادِ أميرُ
تفرّق جسمى فى البلادِ وجسمُهُ ولم يتفرَّقْ خاطرٌ وضميرُ

هذا أصل التسمية سبقت به إشارة لا تخالف ، ودفعت إليه طاعة واجبة » .

وكان الأمير شكيب يقرأ فى الصحف قصائد شوقى ، فيعجب بها المرة بعد المرة ، ويطرب لها ويتهافت عليها بعد ذلك تهافت الظمآن على نمير الماء لأنه رأى فيه « الشاعرية بجميع شروطها : النسج الرقيق المتين ، والأسلوب الرشيق الرصين ، واللغة العربية الفصحى التى لا تؤتى من جهة ، والمعنى المتناهى فى الدقة ، اللابس من اللفظ أجمل حلة ، والانسجام المطرد من الأول إلى الآخر فى سكب واحد وسبك متوارد [١] » . وحكم شكيب بأن هذا الشاعر سيكون من شعراء العصر ، بل سيكون أمير شعراء العصر . ذلك لأن شعره من السهل الممتنع أشبه بشعر البهاء زهير أو الحسن بن هانئ أو المتنبى . ويبدو أن لقاء الرجلين فى باريس جمع بين قلبيهما ووحد بين روحيهما ، فولدت ألفة وصداقة ونشأ تراسل بينهما .

ويقول شكيب[٢] : « وكنت مع ذلك أعارضه فى الأحايين ، فإنه نظم مرة قصيدة لدى زيارته الأولى للآستانة وحلوله ضيفاً كريماً على السلطان عبد الحميد ، فإنه قال يومئذ :

رَضِيَ المُسلمون والإسْلامُ فَرْعَ عُثْمَانَ دُمْ فَدَاكَ الدَّوامُ
كيف نُحصى على عُلاكَ ثناءً لكَ منك الثناءُ والإكرامُ

وأورد شكيب القصيدة كلها وقال : « وهذه القصيدة غير خالية من أبيات فيها غموض وأخرى فيها تعقيد ، ولكنها على كل حال عامرة بشوارد

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٨ .
(٢) المصدر السابق ، ١٥ ، وديوان الأمير شكيب ص ٩٣ ، والشوقيات ١/ ٢٩٦ .

الأبيات ، وشوقية كسائر الشوقيات ، وفيها درر يتائم وألفاظ كسجع الحمائم ، ولما طالعتها نظمت من البحر والقافية(١) :

هل لسانٌ أقواله الإلهـامُ ؟ أم بيانٌ آياته الأحكـام ؟
فتبارى الألفاظ شأو المعانى ويوفىّ حقّ الثناء الإمام ؟
الذى شرّفت خلافتُه الأر ضَ فحفّ البريةَ الإكرام ؟
وغدتْ لهجةُ الثنـاء عليـه مثلما دامَ للصَّلاة إقـامُ
قعدت نهضةُ البلاغة عنـه ودنتْ عن خياله الأوهـامُ

ويحسن بنا أن نقف عند هاتين القصيدتين وقد أنشدهما شاعران فى سن واحدة وفى معنى واحد ، لنتبين مدى التوفيق عند كل منهما ، فى اللفظ وفى المعنى ، فقد أصبح أولهما أمير الشعراء واشتهر حتى غدا وحده فى الميدان . يصيخ الأدباء إلى شعره وينصتون لقوافيه ، وأصبح ثانيهما أمير البيان ، وابتعد عن ميدان الشعر بعد ذلك .

أما شوقى فقد نظر إلى عبد الحميد نظره إلى الشمس ، ليس يزيد فى رفعتها وضوئها ما يقال من كلام ، بل هو فى محله فوق الشمس ، يمجد الزمان الذى أنبته خليفة وإماماً ، لأنه شرف باذخ وملك كبير ، وأمر جسيم ، إنه عمر ابن الخطاب فى عدله ، حنا على البائسين والأيتام فسرى الخصب فى دنيا خلافته ووافى البشر وزاد النماء والجنى ، فقد جمع العالم الإسلامى حوله وحماه بالولاء والإسلام . لذلك وقف الشاعر منه موقفه من الركن والحطيم يستلم عند بابه ، يسأله نصر مصر وحمايتها ، فقد أصابها الظلام وعلا قراها الجهام ، ويطلب إليه رعايتها فهو خير راع .

وأما شكيب فيتساءل فى مدح شوقى حين عارضه عن أقواله أهى إلهام أم آيات أحكام ، تتبارى الألفاظ والمعانى فى مدح الإمام هذا الإمام الذى شرفت خلافته الأرض فحفته البرية بالإكرام وغدا الثناء عليه قائماً ما قامت الصلاة ،

---

(١) ديوان الأمير شكيب ، ص ٩٦ : « فعارضته بالقصيدة الآتية : »

ذلك لأن صنائعه تترى فى البرايا يكفل الناس كالغيث يكفل الغبراء فى انسجام ، فالطير والوحش تنطق بفضله . وهو عظيم ما رأى الناس مثله عظيماً . وخلافة بنى عثمان كافلة للشرق يغدو بدونها المشرق يتيماً ، فلن يذل الإسلام وعلى رأسه خليفة عصر كعبد الحميد .

ثم رجا عبد الحميد أن ينصر مصر ، فالقلوب تصبو إليه والعصر يرتجيه وفى يمينه كتاب وفى شماله حسام ، والشرق فى حماه قد أسلم إليه زمامه ، ثم يختم شكيب بقوله(١) :

إنْ أحاول على عُلاك ثناءً ... فهو ممَّا قَضى علىَّ الذمامُ
أو أعارض فتى القريض فما عا ... رض ورد الحدائق القُلاَّمُ(٢)
ذا مجالٌ رضيتُ فيه من السَّبْـ ... ـق بعزم لم يثنه الإحْجَامُ

فهو يتواضع أمام شوقى تواضع النوابغ ويرى معارضته لفتى القريض وسيد الشعر كمعارضة القلام للورد . ومع هذ يحلو للناقد أن يوازن بين الرجلين فى هذا العصر كما كان يوازن القدماء بين شاعرين يجريان فى حلبة واحدة ، فلا سابق ولا مسبوق وإنما يتعاوران ملاءة الإجادة فى مجمل الأبيات ، بيت يعلو وبيت يسفل ، وبيت يشهد للأول وآخر يشهد للثانى حتى نراهما عند مستوى واحد فى التحليق والتوفيق ، فإن لشوقى هنات فى بيتيه حين يقول فيهما :

يسأل الناسُ عندها الناسَ هل فى النا ... س ذو المقلــة التى لا تنامُ
أمْ من الناس بَعْدُ مَنْ قَوْلُهُ وحْـ ... ـىٌ كريمٌ وفعلُه إلْهَــامُ

إنها شبيهة بهنات الأعشى حين شلشل ، ومسلم حين سلسل والمتنبى حين قلقل ، وشوقى ذكر الناس فبرم الناس وتململوا من تكرار اسمهم مرات فى سطرين ، حتى ليصدق قول شكيب فيها ، إن فيها غموضاً وتعقيداً ببعض أبياتها .

وفى شكيب هنات كذلك حين تقعر فذكر « قعس » والرياضيات وخبر

---

(١) ديوان شكيب ص ٩٨ .

(٢) القلام : القاقلى .

كان ، وضئضئ الخلافة ، والوشيج ، وتهطع الملوك . . .

وحسبنا من هذه الموازنة اليسيرة أن يقف الرجلان معاً فى صعيد واحد من التقدير والإكبار ، والموازاة ، وأن يشتركا فى السعى إلى ذرى الشاعرية ، فليس بالقليل أن يقف شاعر إلى جانب شوقى وأن يوازن به بعد أن غدا أميراً للشعراء ، وشاعراً للأمراء والسلاطين والملوك ، دعاه شكيب بشاعر مصر وصناجة العصر . وكتب إليه شوقى على نسخة ديوانه التى أهداها : « إلى أميرى وأخى شكيب أرسلان » بتاريخ ٢٧ مارس ١٩٠٠ ، وما رأينا شاعراً ساجله أو عارضه أو وقف إلى جانبه على كثرة الشعراء فى مصر ؛ كما قال فيه شكيب[١] :

فرأيتُ «شوقى» لم يَدَعْ فى عصره ... قِرنًا يهزّ قناتـه لقناته

ذلك لأنه « الفذ الذى لا يساجل ، والجواد الذى لا يجارى » ومع ذلك عارضه شكيب ووقف له وقال فيه[٢] : « وقد وجد مع هذا من رجح قصيدتى على قصيدته ومنهم الشاعر الأديب داود بك عمون الذى صار فيما بعد الحرب رئيساً لحكومة لبنان ، وهو من أترابى فى السن ، وقد تذاكرتُ وإياه فى موضوع هذه المعارضة ، فرأيته يستحسن قصيدتى على قصيدة شوقى ، فقلت له وأين أنت من قوله :

ما كلام الأنام فى الشمس إلاّ ... أنهـا الشمس ليس فيها كلام

فقال لى : وأنت جعلت بإزاء هذا البيت قولك :

وفعال الضرغام أوقع فى النـ ... ـفس من القول إنه الضرغام

وعلى كل حال فلست أدعى سبق شوقى فى هذا الميدان ، وأنا الذى أقول فيه فى القصيدة التى قلتها فى يوبيله[٣] :

---

(١) ديوان شكيب ص ٨٣ .

(٢) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢٠ .

(٣) ديوان شكيب ، ص ٤٢ ، وقد أرسلها شكيب من أمريكا إلى مهرجان شوقى ، وتلاها خليل مطران سنة ١٩٢٧ ، وقد نظمها فى البحر قبل وصوله إلى نيويورك .

وفرت يا شوقى السباق على الورى　　برئاسة بات السباق وراءها
تتقطع الأعناق عن إدراكها　　حتى الأمانى لا تحوم إزاءها

كذلك كانت علائق شكيب وشوقى كما كانت بين البارودى وشكيب فيها ترسل وتناظر ومعارضة ، وهما فى عصرهما عمودا الشعر الذى ظهر صرحه وعلا بنيانه ، شهدا له وشهد لهما ، ونظما فيه ونظم فيهما ، فاحتل مكانه من ديوانيهما بما لم يقع لسورى قبله أو بعده ، وإنما كان فذًّا فرداً فى هذا . وسنرى مبلغ اعتزازه بذلك ووفائه حين نعرض لكتابه فى شوقى وحديثه عن البارودى .

عبد الله فكرى :

واتصل شكيب كذلك بغيرهما من شعراء عصره . فذكر أن الإمام محمد عبده لما اطلع على « الباكورة » وهو مجموع ما نظمه من الشعر قبل السابعة عشرة — كما قلنا — طلب إليه أن يبعث بنسخة منه إلى عبد الله فكرى(١) وكان من أعز أصدقاء الإمام . فأرسل شاعرنا نسخة ومعها الأبيات التالية(٢) :

بذذتَ الناس فى نظمٍ ونثرٍ　　وفقتَ الخلقَ من بدو وحضرِ
فكيف يقوم عندك نزرُ شِعرٍ　　يذيب الرعبُ منه كلَّ شَطْرِ

وقال فيها يشير إلى خلو ديوانه من الغزل والتشبيب ، كأنه يعرف شعره كما عرّفه أبو فراس الحمدانى :

جعلتُ القول فى سيف ورُمْح　　وعفتُ النظم فى قــدّ وخصر
فإنى عاشق غرر المعــالى　　ولى نفس فداؤك نفس حرّ
إذا فكرتِ يوماً فى كلام　　يكون بمدح (عبد الله فكرى)

فتلقى عبد الله ديوانه أجمل لقاء وتقبله قبولا حسناً وأجابه على شعره بقصيدة قال فيها :

---

(١) من شعراء مصر ، عاش ١٨٣٤ — ١٨٩٠ ، وله الآثار الفكرية .
(٢) ديوان الأمير شكيب ١٨ .

أتتْ تختالُ في حِبَرٍ وحبر ... على العشاق لا كِبَرٍ وكِبْرِ
منعمة الشبيبة لم يَرُعْها ... مشيبٌ في العذار أقام عذرى
لقد وافت على سَحَرٍ تُريني ... بدائع نظمها نفثات سحرِ[1]
ألا حيا رُبى بيروت عني ... ولبنان الحيا منهلّ قطر
وحيا من بها ربّي وحيا ... زمانًا مرّ فيها غير مُرِّ

وفى هذه القصيدة يمتدح عبد الله فكرى نسب الأمير وجدوده وأصله وتعلقه بالمعالى والأمجاد وانتصاره فى الشعر والقريض . فشهد له كما شهد الشاعران المفلقان قبله ، وأحرز شكيب شهرة فى مجالس الشعر بمصر وحظى عند هؤلاء الشعراء بمقام لا يرقى إليه إلا الفحول وشاعرنا فى سن الشباب ما يزال ، وفى أول الطريق لم يختر بعد سبيله فى الأدب ، ومع ذلك كان منه شعر فى ديوان صغير سنعرض له فى الصفحات التالية .

(١) روى شكيب فى ديوانه هذا البيت ، على اختلاف ، من ذاكرته .

الفصل السادس

فنون شعره فى المرحلة الثانية

الرسائل والمساجلات — الرثاء — التاريخ — الوصف — الشاعر العثمانى

رأينا أن الأمير شكيب تقلب فى أعطاف المدارس ببيروت وعلى أيدى الفحول من اللغويين والأدباء ، وقد ذكرنا فيهم عبد الله البستانى والإمام محمد عبده ، وتنقل فى بروج الصداقة بين شعراء مصر البارودى وشوقى وفكرى ، وعلمنا أن همته كانت تسمو إلى الأدب الرفيع ، ورأينا أن لسانه نظم ونظم حتى كان منه ديوان صغير قبل السابعة عشرة سماه « الباكورة » ، جعلناه فى المرحلة الأولى من نشأته وتكوينه . ولكن الشاب ظل يعتلج البيان على لسانه ويتطرق الخيال إلى جنانه فينفث منه الشعر فى المناسبة تلو المناسبة ، كما كان يفعل العباسيون ، حتى تجمع من ذلك ديوان ، قدمه إلى الطبع سنة ١٩٣٥[١] ، وقد جاوز الستين من عمره ، فيه ألوان وفنون يجب أن نعرض لها لنقف على ثقافته الأدبية ونظرته إلى مدارس الأدب لعصره فى المرحلة الثانية .

أول ما نلاحظ فى الديوان قلة الشعر فيه على أربعين سنة سلخها الرجل فى الأدب والكتابة والبيان . ومرد ذلك عزوف الأمير عن الشعر وتعلقه بالنثر فقال [٢] : « ولكن مما لا مرية فيه أننى منذ أيام الشباب ، قلما نظمت الشعر رغبة فيه ونزوعاً منى إلى الاتصاف بالشاعرية ، بعكس النثر الذى كان أبداً

---

(١) « ديوان الأمير شكيب أرسلان » وقف على ترتيبه وطبعه السيد محمد رشيد رضا ، وقدمه سنة ١٩٣٥ ، فى ٢٠٥ صفحات ، جمع فيه كل شعره القديم والجديد .

(٢) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢٠ .

مرمى آمالى ومطمح خيالى . وسألنى مرة إبراهيم بك المويلحى الكاتب المشهور ، عندما اجتمعنا فى الآستانة سنة ١٨٩٠ ، فقال لى : أيهما أفضل عندك النظم أم النثر ؟ فأجبته لا مقايسة عندى بينهما . إنى أفتخر بأن أكون كاتباً وأستحى من أن أكون شاعراً . فاستحسن المويلحى هذا الجواب ، الذى لا شك أنى بالغت فيه ، ولكنه كان يعرب عن ذات صدرى ، لأننى طول حياتى لم أحاول أن أكون فى الشعر سباق غايات وطلاع أنجد ، على حين أنى كنت أرى منتهى السعادة فى الدنيا فى أن أكون من الكتاب المعدودين ، وقلما نظمت الشعر انبعاثاً من نفسى ، وإطاعة لمجرد خاطرى ، فليس لى على هذا الوجه إلا قصائد معدودات . وكل ما عدا ذلك من شعرى إنما نظمته قياماً بواجب أو امتثالا لرسم أو نزولا عند رغبة . ولهذا تجد أكثر شعرى مراثى للأصحاب أو للأعلام الذين لا مناص من رثائهم . وسيظهر ديوانى قريباً إن شاء الله فيقف القراء منه على تحقيق كلامى هذا . »

الرسائل والمساجلات :

وقد ظهر ديوانه بعد قليل ، بل فى العام نفسه ، وكان كما قال مجموعة من المساجلات الشعرية بينه وبين البارودى ، وبينه وبين عبد الله فكرى ، ومفاكهات أدبية ، ورسائل تهنئة ، وقد جاء فيها أنه كتب لإسماعيل صبرى الشاعر المشهور وكان محافظاً لثغر الإسكندرية ، فذكر صبابته وهواه ، ثم امتدح الرجل لشهامته وبلاغته وقال فيها :

واليكَ يا ملكَ القَريض قصيدة ... وقفتْ على خجل بباب عُلاكَ
قدمتْ على «اسماعيل» وهى عريقة ... فى « لخم » طامعة بنيلِ رضاك

فجعله ملك القريض ووقف أمامه خجلا ، على ما يعرف لنفسه من أرومته فى لخم وعروبته فى القوم وشدة أسره فى الشعر .

(١) ديوان شكيب ، ص ٢١ .

وفى الديوان مساجلات بينه وبين الشاعر المرحوم خليل مردم بك من سراة دمشق — ورئيس المجمع العلمى سابقاً[١] — كتب الخليل إليه بعد أن قرأ قصيدة شكيب فى الغزل ، وقد داعب بها صديقاً من أعيان مصر ، فقال الخليل[٢] :

يامن سُحِرْتُ بقَوْله هل ذاكَ مِنْ | تأثير عَيْنَيْها وأنتَ جليسُها ؟
إنْ كنتَ أحببتَ الصليب لأجلها | وشجا فؤادَك قارعاً ناقوسها
والروح والإنجيل حلفة صادق | ويمين حقّ لا يردُّ غموسُها
إنىّ لهجتُ بذكر « يوحنا ومر | قس » وازدَهى فى ناظرى «جرجيسها»
وشريتُ تكريس البتول « ويوسف» | وحفظتُ ما قد قاله قدِّيسُها
هذا ولولا حبّ دين محمَّد | « من دون كاد » لأمّ بى قِسيسُها

وأجابه شكيب مداعباً على القافية والوزن ، يتغزل بمباسم ثغرها ، ويغمز جانب صديقه « الخليل » فيقول له :

قل « للخليل » يتيه ُ فى فَيْحائه | ويروضُ كلَّ كريمة ويسوسها
ويرودُ «مرجتها» عشيَّةسبتها[٣] | وله بكل محطَّة جاسُوسُها
أظننتَ شطر الحبّ خصَّك مفرداً | وسواك فى أقسامه مَبْخُوسُها
أو إنْ قطعتُ الأربعين أيَنْبَغى | أن تستوى غزلانُها وتيوسُها ؟

وهذا يدل على ما كان بين شكيب وأصحابه الشعراء من مجاراة ومناظرة وترسل ، كما كان لعادة الشعراء فى العصور السالفة ، حين يرتجلون فى موضوعات مختلفة تقوم مقام النثر اليوم بين الأدباء المتجارين ، فيها دعابة جميلة بريئة عفيفة ، تهدف أكثر ما تهدف إلى اللعب باللفظ وإظهار البلاغة والبيان .

---

(١) قضى الرئيس الشاعر نحبه حين صدور هذه الطبعة فرحمة الله عليه وقد نشر ديوانه بعد وفاته .

(٢) ديوان الأمير شكيب ص ٢٣ — ديوان خليل مردم ٣٢٣ — ٣٢٦

(٣) فى دمشق عادة قديمة كانت فى الخروج للنزهة إلى « المرجة » عصارى السبت ، وكانت المرجة متنزهاً للبلد .

وفى الديوان كذلك مداعبة للأستاذ المرحوم الرئيس الأسبق محمد كرد على [١] ، حين فر من ظلم العثمانيين واختفى فى قريته ، وسعى شكيب عند الولاة وانتصر فى الإفراج عنه ، وجاء إليه لشكره على يده فداعبه بشعر لطيف ، جعل فيه شكيب مجازات وكنايات عبث بها بالرئيس وصور هربه وخوفه من النفى [٢] إلى رودس ، وهجوم العسس على بيته وغارتهم على كتبه وسؤالهم عنه كل يوم أين تولى وأين انهزم ! ؟

وهذا كله شعر يطوف به المرح والفرح ، والحنين إلى الحياة الباسمة والضحك البهيج ، يستبد به الأسلوب اللين والنظم السريع المرتجل ، يدل على شباب فى النظم ، وترخص فى القريض لا يظهر معه شعر الأمير فى ثوبه الفخم الجزل ، كما يبدو فى المراثى والمدائح .

الرثاء :

ولقد شغلت المراثى من ديوانه الصغير مكاناً رحباً ، بكى فيه أحمد فارس الشدياق ، وكان يحبه ويعجب به ، وبين الأرسلانيين من أهله وآل الشدياق صداقة قديمة ، فلما جلبت بيروت تجاليده وصلى عليه فى الجامع العمرى رثاه بشعر متين ، امتدح فيه براعته فى حلبة البيان ، وخدمته للفصحى ، فكان فارساً فى كل ميدان يصول ويجول ويقول ، وشيد قصوراً شواهق من طروس ، وله آيات فضل باهرة . وبكى عبد الله فكرى بقصيدة نشرها فى جريدة (المؤيد) بمصر ، رسم فيها بطش الليالى وشدة الخطوب وعظم الرزء ، فالدنيا مولعة بنكب العلى من عهدها المتقادم . رأية نكبة أشد من هذه فى فقد أمير النظم والنثر ، من حوى رقة ألفاظ صحاح أعارب ، وكساها بتفويف طراز منمقة ،

---

(١) انظر الكتاب الذى أنشأناه فى حياة « محمد كرد على » وآثاره ، فى مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ١٩٥٥ .

(٢) قص شكيب حكاية الهرب ، فى ديوانه ص ٢٨ ، وقد كانا صديقين حميمين .

(٣) انظر إلى القصيدة فى ديوان شكيب ، ص ٤٨ .

ومن خلقه كمثل الرياض يتضوع منه عرف الزهر إلى أن قال(١) :

وكنتُ مللتُ الشعرَ حتَّى كرهتـهُ   وأصبحَ عِـندى فى عِـداد المَحَـارمِ
إلى أن قضْت أوصافـُه برثائـهِ   فأصبحَ عندى اليوم ضربةَ لازمِ

فأعاد علينا كرهه للشعر وتحريمه على نفسه حتى قضى الوفاء بالعود إليه والإنشاد فيه . وهذا سبب فى رأينا من الأسباب التى وقفت بشكيب عند مرحلة الشعر التى وصل إليها فى العشرين من سنيه أو بعيدها بقليل . فقد بلغ الشاب من قبل مرتبة فى المتانة الشعرية قمينة بأن تجعل منه شاعراً كبيراً وسيداً فى حلبة النظم ، ولكن نفسه كانت تميل عنه إلى النثر ، متأثرة بقول الإمام محمد عبده ، الذى كان يرى فيه إماماً فى الإصلاح الاجتماعى والدينى ، يعده له ويجهزه لخطوبه ، ويريده أن يحلق فى ميدانه لئلا يصرفه الشعر عنه ويجعله يهيم فى أودية الخيال والجمال والجلال ، والأمة الإسلامية فى خطب دونه كل خطب . ولعلنا حين نتحدث عن الشاعرية نأسف لهذه الخسارة ونأسى لخلو الميدان فى سورية من فارسه الشاعر المعلم الذى كان يستطيع أن يقود جحافل الشعر إلى حيث النصر والظفر .

ولذلك عاش الأمير شكيب يسترجع صوره القديمة فى الشعر على معان جديدة توحيها ثقافته وسنه ، فكأنه كان يحيا على أمجاد ماضيه وما كان الماضى طويلا . فإذا قرأنا رثاءه رأينا معانى الرثاء وألفاظه فى « الباكورة » تعود ثانية على فحولة أشد ومتانة أقوى وفخامة أعظم ، تتناسب مع الأعلام الذين رثاهم . فقد بكى الشيخ إبراهيم اليازجى علامة عصره ، وأرسل الدمع فيه كالبحر يغسل ما بالقلب من وضر فيزيله كما يزيل المطر غبار الأرض ، وقال فيه إنه أكتب أهل الوقت من بدو وحضر ، لذلك كان للفصحى أن تبكى سيدها وناصرها ، فهو كالشمس لا ينكر ضياءها إلا فاقد البصر(٢) :

---

(١) المصدر المذكور ص ٥٥ ، توفى عبد الله فكرى سنة ١٩٠٧ ، يوم عيد الأضحى وكان شكيب فى مصر .

(٢) ديوان شكيب ، ص ٦٠ .

نهجتَ فى بلغــاء العصر واردة ... بالحقّ لولاك لم تسفر ولم تُنرِ
إليكَ حقك لا ظلمٌ ولا سَرَف ... لا يُنكر الشمسَ إلاَّ فاقدُ البَصَرِ
وإن يؤاخذك نقــادٌ ببــادرة ... فليس يُرْجَم إلاّ مُثمر الشَّجَرِ
وقد يُعَابُ الَّذى فى البدر من كَلَف ... وليس يُسْلَبُ معنى الحُسن فى القَمَرِ

وهو يشير بهذا إلى ما كان بينهما من مساجلة ونقد ومباراة فى اللغة ظهرت فى صحف العصر ، بسبب ديوان شوقى حين انتصر له شكيب — كما نرى بعد قليل — فاستوغرت صدور وسرت إليها الأحقاد ومشت الضغائن وغلا فيها الناس . ولكن الأمير شكيب كان على خلق رفيع فى هذا ، يتراجع ويأسف لما يقع حين يخيم الموت ويسود حكمه ، فيندب الراحل ويعظم أثره ، ويعطيه الحكم الحق بغير ظلم ولا إسراف ، فيجد كل نقد فيه لحياته كالكلام الذى يقال فى كلف البدر لا ينزع منه الحسن ولا يمحو منه معالم الجمال . وكذلك تكون العظمة فى النفوس والخلق الكريم فى الأدب .

وبكى شكيب صديقه البارودى[١] ، بعد أن فرق بينهما الموت وزرع الحسرة فى القلب وأسال الدمع مدراراً ليطفئ اللهيب بفقده . فقد كان البارودى يسعى لخير الأمة فى حقل الوطنية ، وأجزل لها النعمى فى ميدان الشعر ، فراح كل نابغة فى الشعر يلتمس من كأسه رشفات يبل بها الظمأ ، لأن فصاحته فوق كل فصاحة ، وحكمته فوق كل حكمة[٢] :

مَنْ للبدائع أو مَنْ للصَّنَائع أو ... من للوقائع إمَّا دَاهِمٌ دَهَمــا
من للصَّوَارم أو مَنْ للمَكَارم أو ... مَنْ للمَغَارم يَقْضيها عن الغُرمَا
من للكتائب من للكُتْب تشبهها ؟ ... تلك المحاسنُ أضحى عقدُها انفصَما
يا يوم « محمود » ما أبقيتَ محمدةً ... الا وأوردتها فى نحبــه العــدما
تلك الخــلالُ فهل آت يجدّدُها ... أو هلْ ترى أملَ العليا بها حُلُما

---

(١) توفى البارودى ١٩٠٤ .
(٢) ديوان شكيب ، ص ٦٣ .

وهو فى هذا الشعر العباسى راث يبكى أميراً من صدور الدولة العباسية ، جمع البطولة والسخاء والكرم والشجاعة والندى والقلم والبيان والفصاحة ، يقع فى القرن الثالث أو الرابع الهجريين موقع القبول والرضا ويحتل مكاناً فى تلك الدواوين ، إما أغفل من نسبته أو عنوانه . ذلك لأن الشاعر يحمل بين جنبيه إكباراً للبارودى وحباً يفوق كل حب فأرسل الرثاء صادقاً عميقاً وحلق فارتفع إلى مستوى الرثاء التقليدى المعروف فى مديح الميت وبيان أياديه وفضائله ، وما نرى غيره باباً فى الأدب العربى للرثاء حتى اليوم ، ولكن صاحبه مقل عزوف متبرم لا يؤمن بانصرافه إلى الشعر ولو كان ذلك سلماً إلى إمارة الشعراء .

وبكى شكيب أخاه الأبر الشيخ عبد العزيز جاويش [١] ، فأرسل فيه قصيدة عامرة ما نراها بعيدة عن شعر الفحول العباسيين كذلك قال فى مدح خلاله [٢] :

تغدو أرق من النسيم فإن عـرا … خطبٌ غدوتَ الصارم المَسْلولا
فى نعمة الحمل الوديع فإن عـدا … عاد ترى أسداً يفارق غيـلا
أسد متى يـزأر لأمة أحمد … ملأ الفراتَ زئيرُه والنيـلا

فكأنه استعار المتنبى فى لفظه ومعناه ، وجاراه فى اللفظ والقافية لينهض بالرثاء كما نهض المتنبى بالمديح ، فليس يبدو على الأبيات أنها قيلت فى بكاء صديق وفقد رفيق ، اللهم إلا حين تتلى الأبيات بعدها :

إنى أحن إلى اجتماع الشمل فى الـ … أخرى كأنا فى الحياة الأولى
ربَّ الوفاء وصفوة الخلان قُلْ … أتركتَ بعدك من أعدُّ خليلا
يا صاحبَ القِدح المعلَّى فى العُلى … أتركتَ مثلك ياسراً فيُجيلا ؟
أبقت عليك الحادثات كلومها … والسيف يكسب بالجلاد فلولا
شَفَّتْ وجودَك همةٌ جبارةٌ … تجدُ الصُّعود إلى السِماك نزولا
أتظنُّ أن تَمضى وأبقى وافـراً … هيهات قد صار البقاءُ قليلا

---

(١) عاش عبد العزيز جاويش ١٨٦٧ — ١٩٢٩ .

(٢) ديوان شكيب ، ص ٧٢ .

وإننا لنجد فيها ريح حافظ حين يرثى فيستخرط بالدمع ، ويستدر المــآقى ، ويرسل الزفرة حرى ، ثم يتمنى اللقاء ، ويحس بدنو الأجل ، وقد سبقه شكيب إلى هذا النصر وحمل قبله علم الرثاء فى لغة متينة جزلة فخمة ترفع شكيباً إلى مواقع المجيدين فى الرثاء المعاصر ، وذلك حين يحس الشاعر باللوعة الصادقة والنكبة العميقة ، سواء فى البارودى أو فى عبد العزيز جاويش أو أو غيرهما ، فما كان عبد العزيز بأقل من البارودى فى نظر شكيب عملا فى الجهاد الوطنى والبعث الإسلامى وعداوة الإنكليز ، ومناهضة الاستعمار والذود عن الوطن العربى ، فقد كان رحمه الله كاتباً أديباً وصحفيًّا قديراً وخطيباً ساحراً ، جمع فى ثقافته بين الغرب والشرق ، وفى بيانه بين القديم والحديث ، وجعلهما فى خدمة الثورة الفكرية والعلمية والأدبية ، لذلك شق نعيه على صديقه الشاعر فكان هذا التوفيق وهذا البيان .

وبكى أحمد تيمور[1] وهو فى الطليعة من علو الخلق وسمو الروح وعظمة النفس ورفعة العلم والوجاهة ، فازداد شكيب عزوفاً عن الحياة ومغانيها ومفاتنها ، وقد بلغ الستين من العمر ، فلم ير فيها خيراً وأرباً لعاقل ، فأحكم عقله ورآها تسلسل آلام وترداد محنة وخيبة آمال فقال فى تيمور[2] :

ليهنكَ يا تيمورُ أنكَ جُزْتَها ... إلى ملأ لا يعرفُ الموتَ زَائِرُه
وفارقتَ داراً لا يزال قطينُها ... يفكر فى الهول الذى هو غامره

فهو يهنئه بأنه اجتاز هذه الدار الفانية إلى دار باقية خالدة لا هول فيها ولا قلق ، فأحرى بالرثاء هم هؤلاء الباقون لا الذاهبون. ثم يقول فى مقدار المصاب :

ينوحون نَوْحَ الثاكلات فكلهم ... تَدَفَّقُ عن مثل السيُول مَحاجرُه
على سَيِّدٍ : فى جنبه كلُّ سيد ... يظلُّ ضئيلاً باديات مفاقرُهْ

(١) أحمد تيمور من أعلام البحث العلمى ١٨٧١ — ١٩٣٠ .

(٢) ديوان شكيب ، ص ٧٩ .

على مَلَكٍ فى صورة بشرية ... تعدَّتْه من هذا الوجود صَغائرُهْ
إذا ما جرَى فى أىِّ ناد حديثُه ... تقولُ: فتيتُ المسكِ شُبَّتْ مَجامِرُهْ

وهو يذكرنا برثاء البحترى وبكائه على قصر الجعفرى وقتل المتوكل فى القافية والأسلوب والتراكيب ، ولكنه فى معانيه جديد يرسم ما بين جنبيه من لوعة وإحساس وما فى صدره من شعور كريم للفقد والأسى صادق سام ليس فيه إلا ما عرفنا من مبالغة الشعراء فى وصف الخطب .

فلما قضى أحمد شوقى[١] بكاه شكيب أحر بكاء وارتفع فى مرثيته وفنه إلى أجمل الرثاء، فقد عرفه أربعين عاماً ، منذ تفتحت براعم شبابه فى الحى اللاتينى بباريس ، وفى مقهى « داركور » وتساقيا خمراً شريفاً من كؤوس الشعر العربى ، وتناوحا كالحمام على ما كان فيه الإسلام والعرب ، وتلاقيا فى ذرى الإخلاص والود وسمو العاطفة ورقة الإحساس ، وعلو الثقافة وارتفاع المعرفة . فلا عليه أن يسفح الدمع سخيًّا ، وأن يرثى فيه أخاً مخلصاً وخدناً وفيًّا ، وأن يجمع الإكبار إلى الوفاء ، وأن يبايعه بالإمارة حيا وميتاً ، وأن يعترف له فى تواضع جم بما كان لوحيه وبيانه ، فقال فيه[٢] :

هذا أميرُ الشعر غيرَ مُدافعِ ... فى الشرق أجمعَ منذ فُتِّقَ لَهاتِه
لو كانَ وحىٌ بعد وحى «محمد» ... لانشقَّ ذاكَ الوحىُ عن آياتِهِ
السحرُ فى نَفَثاته والزهرُ فى ... نَفَحاته والدَّهْرُ بعضُ رُواتِه
رقتْ لنغمتِه القلوبُ فكيفما ... غنَّى بها رَقَصَتْ على نَبَراته
تغدو المَعانى العُصْمُ شُمْسٌ مقادة ... فيقودُها قودَ الغُلامِ لِشاتِه
ما رامَ شاردَ حكمةٍ فى نَظْمِه ... إلاَّ أصابَ صميمَها بحَصاتِه

---

(١) توفى أحمد شوقى سنة ١٩٣٢ .

(٢) ديوان الأمير شكيب ، ص ٨٢ .

ثم قال (١) :

قَدْ بَذَّ آلهةَ القريض بأسْرهِمْ ... ومحا عبادةَ لاَتِه ومَنَاتِه
وَلَكَمْ مررتُ بِحاسِدِين لفَضْلِه ... رغمَ القلى يَروُون مِنْ أبياته
لا نِدَّ يَعْدِلهُ وكَم مِن مَجْلس ... أشعارُ شوقى النَّد فى سَمَرَاته
يتمثَّلُ العصرُ الحديثُ بشعره ... حقَّ التمثل من جميع جهاته
ولربَّ بيت يستقل بجملة ... تُغنى عن التاريخ فى صَفَحَاته

إلى أن قال فيه :

يبكى بك الإسلامُ خيرَ جنوده ... أبداً ويرثى الشرقُ خيرَ حُمَاته
وكأنَّ وادى النيل من أحزانه ... يُلقى على الشطيْن مِن زَفَرَاته
ونوادب العربية الفصحى لها ... ندبٌ عليك يذيب فى رنَّاته
انظر إلى الإخْوَانِ كيف تَركتَهم ... من كل مضطَّجع على جَمَرَاته
انظر لحال أخ فَدَاك برُوحه ... لو كانَ يحيي الميتَ عزم فُدَاته
قد كنتَ طولَ العمر قرةَ عَيْنه ... والآن يُجرى السخنَ من عَبَرَاته

ويختم بقوله (٢) :

قد كنتُ أطمع أن تَرى لى راثياً ... يا من غدوتُ اليوم بين رثاته

ولعلنا أسرفنا فى عدد الأبيات التى رويناها من هذه القصيدة ، وذلك لأننا نعتقد أنها من قلائد شعره ومن خير ما قيل فى رثاء شوقى ، مدح الشاعر وأثنى على معانيه وأحله مكانه فى المعاصرين ، ووصف أثره فى عصره وإعجاب الناس به وافتتانهم بأدبه . ثم رسم مبلغ الخسارة فى فقده ، وتمنى أن يموت قبله كما تمنى شوقى فى رثاء حافظ سواء بسواء . وهذا شعر مطبوع جميل لا يكاد الناقد يستخف بكثير من أبياته ، وإنما يحار فى اختيار جيده وعرضه ، وقد

(١) ص ٨٤ .
(٢) المصدر المذكور ، ص ٨٦ .

شبه شوقى بالمتنبى فجعل الدهر بعض رواته بل فضله على آلهة القريض بأسرهم ، لأن عصره يتمثل بشعره ، والتاريخ يستعرض ببيت من أبياته . فقده الإسلام ورثاه الشرق ، وحزن النيل وبكته نوادب الفصحى ، وبقى شكيب بعده يرثى للفجيعة فيه ، ويطمع بأن يكون قبله وأن يفتديه . وهذارثاء صادق صادر من قلب شكيب أجراه فى قصيدة واحدة ، ثم فصله فى كتاب كبير قص فيه لوعته الأدبية لخسارته وأبان عن فضله ونبوغه وعبقريته ، فدلل على وفاء وأمانة للصداقة ، وتواضع لشعراء عصره ، شهدناه فى كل أديب بكاه أو شاعر رثاه . كأنهم المقدمون فى حلبة الشعر وكأنه يأتى فى المؤخرة يغطونه بغبارهم .

* * *

التاريخ والوصف :

ونحب أن نعرض للتاريخ الإسلامى والأمجاد فى شعره فنقف عند قصيدتين ، كتب إحداهما فى قرية « حطين » حين زارها سنة ١٩٠٢ ، ونظم الثانية فى « قرطبة » . والموقفان أثارا فى الشاعر العربى حنيناً إلى الأمجاد وبعثا فى نفسه روعة لا تشبهها روعة. ذلك أنه حين وقف أمامَ ذكرى زملائه الشعراء أكبرهم وأجلهم وافتخر بهم فهم بناة النهضة الأدبية وسادة البيان ، يرفعون صرح الفصحى والضاد . فلما وقف أمام « حطين » رقصت أمام عينيه مشاهد البطولة العربية الرائعة ، وتسابقت أمام خياله أشباح الغزاة المغيرين من أرض الفرنجة ، جاءوا باسم الدين ليستعمروا الشرق العربى ، ويحتلوا أرضه ، ويذيقوا أهله ألوان العذاب والاضطهاد ، ويسلبوه عزة سامقة وكرامة عريقة وأمجاداً ومفاخر ومآثر كانت فى نظر شكيب ثروة لا تغيب وذخراً لا يفنى ومعيناً لا ينضب . وتخيل السلطان المسلم بعد الظفر ولديه ملك الصليبيين ورفاقه وسائر الجيش الأفرنجى أسرى فثارت ثائرة الشعر فى صدره وغلى مرجل البيان فى قلبه ، والتمعت عيناه ببريق المواقع الهائلة والانتصارات المبينة ، فتدفق لسانه بقصيدة طويلة تبلغ ، مئة وخمسين بيتاً ، أرادها كملحمة من الملاحم .

فسرح نظره فى « وادى الأردن » الحبيب ، ونظر إلى « الغور » تخفره

النجود من جانبيه ، ثم تلفت إلى « البحر الميت » ينصب فيه النهر فيموت فى شطئانه ويغيب فى لجحه . ورسم النبات وتخيل الصيد فى أطرافه . ثم تنقل إلى « بحيرة طبرية » ، وتذكر الأنبياء وخص عيسى المسيح — عليه السلام — والأراضى التى عرفت أيامه بالإجلال والخشوع ، وقال فى البحيرة[1] :

مرآة نُور من السفوح لهـا إطارنَوْر لم تحكه الأطرُ[2]
كأنهـا فى صفائها فَلَكٌ وفلكها فيه أنجمٌ زُهُـرُ

فأبدع حين شبهها بالمرآة تنعكس على صفحتها السفوح وقد أحاط بها الزهر كإطار وإكليل ، بل إنها فى صفائها كفلك السماء زرعت فيها الأنجم الزهر . وهذا الوصف ينظر لما قال المتنبي من قديم فى هذه البحيرة إن لم يضف إليه جديداً .

ثم شرع فى وصف الحرب التى وقعت هناك ، وقد هب الغرب كالجراد المنتشر ، فافتتحوا « القدس » والبلاد وهددوا المسجد الحرام ، وكاد يبكى الميزاب دماً مما أصاب الحجر وحل بالمسلمين :

فـكلّ كفّ أصابها شلل وكل عزم أصابه خـور

وحوصرت دمشق ، وحف ببلاد العرب خطر ماحق ، فنهض عماد الدين زنكى ، وأسد الدين شيركوه ونور الدين ، وصلاح الدين يطلبون الثأر ، فتلاقى الجمعان جمع المسلمين والصليبيين وكان ما كان من قتلى وأسرى وجرحى . ويوم ثار « يوسف صلاح الدين » بالمعركة فقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر مليكهم ، أزلفوا إليه خضعاً ينكسون أبصارهم أذلة :

ترهقُهم ذلـةٌ وتحسبُهم قومًا سُكارى كأنهم حُشِرُوا

---

(١) ديوان شكيب ، ص ١١٧ .

(٢) النور فى الشطر الأول لصفاء الماء ، والنور فى الشطر الثانى هو الزهر .

ولكن صلاح الدين وقف منهم موقف العفيف الأبى والبطل الكمى :

أبى عليـــه الإباءُ مصرعَـهم وعفّ إذ عفَّ وهو مُقْتَـدرُ

ورثى « صلاح الدين » وذكر موقف الملوك الأوربيين أمام قبره بدمشق :

تغدو عظـــامُ الملوك واقفةً ببابه وهو أعْظُمٌ نَخِـــرُ

وينحنى حاسراً بتربتـــه رأسٌ بأعلى التيجان مُعْتَجِرُ (١)

فأشار إلى زيارة القيصر ويلهلم الثانى عاهل ألمانيا لدمشق ، ووقوفه أمام قبر صلاح الدين حاسر الرأس حرمة وتعظيماً . وهو فى هذه القصيدة بالغ إلى الاجادة فى الوصف للأرض والطبيعة وما هناك من نهر وبحر وجبل ونبت ، وتمثل المعارك فرسمها رسماً حيًّا يثير الإعجاب والإكبار .

ولما شاهد « مسجد قرطبة » سنة ١٩٣٠ حين ساح فى الأندلس ، ثارت حميته كذلك واستعاد ذكر الجدود من قومه بنى لخم وقد نزلوا فيها وعمروها عدلا وعمراناً . فسرد ما كان للقواد والأبطال من عز ومجد وشمم ، وأسف لخروج العرب منها ، وبكى لما أخنى عليهم من خلاف ذهب بملكهم وأمجادهم بعد أن كانت عريضة واسعة ، وصلوا إلى نهر الرون وبلغوا أقاصى الجزيرة ، وشادوا ملكاً عريضاً ومدناً زاهرة رسمها وعدها وبسط حكمها وأعمالها . فلما بلغ جامع قرطبة ورأى أعمدته تلوح للناظر كحبال تصل الأرض بالسقوف ، وتلتمع بينها أعمدة تغطى فرجات ما بينها ، فكأنها غابة مزروعة بالحجر السامق المستقيم، طار بخياله إلى الماضى فقال (٢) :

تخيلته والذكر يتـــلى خلاله نظير دوى النحل من كل مصدر

تأملْ خليلى كم هنا من مُهَلِّل إلى ربّه صلى وكم من مكبرِ

وكم أزهرتْ فيـــه ألوف مصابح وكم أوقدَت أرطال عود وعنـــبرِ

وكم قارىء بالسبع فى وسط حلقـــة وكم خاطب بالسجع من فوق منبر

وكم عالم يلقى على الجمع درسَه وكم واعظ يمرى مدامع محجر (٣)

(١) أصل الاعتجار للعمامة ، وأجراها هنا مجرى آخر .

(٢) ديوان الأمير شكيب ، ص ١٢٦ .

(٣) يمرى : يدر .

وكم ملك ضخم وكم من خليفة ... هنا كان يجثو عن جبين معفر
تسد فجاجَ المغربين جيوشُه ... ويبدو هنا فى ثوبِ أشعثَ أغبرِ
خليلى تأملْ كالعرائس تنجلى ... أساطين قد تُحصى بألف وأكثرِ
أساطين من صُم الجماد مواثلٌ ... يذوبُ لها قلب الحنيف المفكرَ
تراها صفوفًا قائمات كأنَّها ... حدائقُ نُصَّتْ من جماد مُشَجرَ
من العمد الأسنى فكلٌ يتيمة ... لها نسبٌ من مَقطع متخيَّرِ

وهو فى هذا الوصف البديع يحملنا إلى مسجد قرطبة أنفس مساجد الإسلام فى العالم كله وأجملها وأعظمها ، لا يستطيع السامع أن يؤمن بوصفه وأن يؤخذ بروعته إلا حين يرى هذا الجامع وقد احتلّت قلبه كنيسة تبدو كأنها حجيرة فى قلب هذا العالم الواسع الجامع تخشع فيه النفس ، ويضطرب فيه القلب ، وتفتن فيه العين ، ويذهل اللب ، فيتصور الأئمة يتكلمون فيه على المنابر والمسلمون قد سمرت أعينهم بمقامه ، وتوجهت رءوسهم إلى مكانه ، كأن على رءوسهم الطير يتحدث فيميلون يمنة ويسرة ، ويدعو فترتفع آلاف الأيدى بالدعاء . ويدوى القرآن فيملأ الأسماع رنيناً ما عرفه مسجد إسلامى فى الأرض . والمصابيح العظيمة تختلج فوق الرءوس وترسل النور فوق العمائم ، والبخور يندفع من كل زاوية ومكان ، وعطر الذكر والآى الحكيم يعبق فى كل قلب فيحس المشاهد أنه فى قلب الإيمان العميق وقد أسلمت الجموع قلوبها إلى بارئها ، ترجو الخير فى دنياها والسعادة فى أخراها . فليس غريباً أن يسترسل التراجمة الإسبان فى شاعريتهم حين يأخذون بأيدى الغرباء اليوم لزيارتها ، ويكشفون عن النقوش فى المنبر وفى المحراب ، والآيات أحاطت بالمرمر الملون ، كما تحيط الأنوار بهالة قدسية ، فيشكون لوقوع الكنيسة فى قلب المسجد وقد حطت فيه كصخرة نافرة فى بستان من زمرد ووشى منمنم ، لا تتناسب مع الأبهة ولا تتفاعل مع العظمة . وقد أحب شكيب هذا المسجد وسكر بجماله كما يسكر الألوف من الزوار اليوم ، وزاد عليهم حنين إلى الماضى يفهمه

الأمير كأحسن من يفهم . فيعدد الأوصاف ويعرض للسرادق ، والزاهرة والقصور كأنه يعدد ملكاً حواه يمين أبيه وأجداده ، فافتقده وراح يتلمس مكانه من أرض اسبانيا وملك الغرب ، وهو يختم بقوله(١) :

وأشعرُ أنى فى بلادى كأنَّمـــا ... تخاطبنى الأرواح من كل مقبر
وأنى أرى بالعين ما لم أكن أرى ... حقيقتَه فى وصف طرس ومزبر

وهذا شعور العالم المؤرخ الوطنى ، تناجيه الأرواح ويرى بالعين ما لا يراه فى طرس أو كتاب . وقد استهواه المنظر فاتخذ فى قلبه صورة فوتوغرافية نشرها فى كتبه ، واستهوته أرض الأندلس فألف فيها مجلدات غلبته المنون على إكمالها . تتجاور فيها الحسرة والنظرة والزفرة والعلم .

ويعيينا أن نبسط أوصاف الشاعر وما كان له من صور ، وأن نعدها ونلمها ونعرضها فى هذا المكان ، لأن الأمير كان شاعراً حقًّا فى الوصف وفى الرثاء .

الشاعر العثمانى :

رأينا فى وصف العصر أنه عرف مخلصين للخلافة العثمانية يجدون الخير عندها ، ولا يجدون خلاص المسلمين ورفعتهم إلا بدوامها . وعرف كذلك آخرين يسعون إلى الاستقلال الوطنى ، ويعملون فى رفعة أقطارهم على أن تكون بعيدة عن النير العثمانى ، تدين بالعروبة لتتخلص من الجور والمركزية وتتعلم العربية فى مدارسها وتكتبها فى دوائرها . وقلنا إن الأمير كان فى المعظمين للخلافة ، وأنه مشى نحو الإصلاح وحب الإسلام والنهضة بالمسلمين والدفاع عن حماهم ، ودفع الغربيين عن أراضيهم ، فنظر إلى الوطن نظرة خاصة ، فلم يقف عند حدود لبنان وسوريا ومصر ، وإنما تعلق بالوطن الإسلامى ، بل بالوطن العثمانى ،

---

(١) ديوان شكيب ، ص ١٢٨ .

مركزه الآستانة ، ومليكه السلطان ، وقبلته تلك العاصمة التركية .

ومن هذه الزاوية طفق الشاب شكيب يرسل قصائده فى الدعوة للخليفة ، وفى التلفت إلى العاصمة العثمانية منذ صباه ، فملأ شعره فى « الباكورة » بهذه الصيحات وهو قبل العشرين ، مقلداً غيره .

ولما جاوز العشرين وامتدت آفاقه ، دخل فى رحاب الإسلام والعثمانية منافحاً ومناضلا ، رافعاً لواءه كما كان كثير من شعراء عصره يرفعون هذا اللواء ، فقد رأى أن شعراء مصر ساروا فى هذا السبيل — كما قلنا —[1] وسمع زملاءه يتلفتون إلى الخلافة ، ويرون فى سلطان تركيا ممثلها الأكبر . فقال الشاعر الليثى وهو شاعر الخديوى فى السلطان إنه ملك الملوك ، وقال غيره مثله كعبد الله فكرى وعبد الله نديم ، ومصطفى كامل ، ممن تقدموه فى الشعر وفى الشهرة . ثم رأى معاصريه كشوقى وحافظ وإسماعيل صبرى ، وأحمد نسيم ، ومصطفى صادق الرافعى يشيدون بالخلافة العثمانية ويتوجهون إلى سدتها فى شعر كله إكبار وتقديس ومديح .

وقد ظل هؤلاء الكتاب والشعراء ينشدون محامد الخلافة العثمانية ويمدحون رجالاتها حتى انقلبت الدولة العثمانية إلى دولة تركية وقلبت ظهر المجن للإسلام والدين ، فانصرفوا عنها بعد أن آمنوا بزوال الرابطة بينهم وبينها .

ولقد استباح شكيب لنفسه أن يسير فى هذه الفئة العثمانية ، وأن يقول فى محامد السلطان ، وأن يتغنى بكل حادث عثمانى ، من غير أن ينتظر أجراً أو إنعاماً أو شكوراً ، فما عرفناه مرتزقاً وما سمعنا به فى الواقفين على الأبواب ينتظر المال من الحجاب . ولهذا كان فى ديوانه قسم خصه « بالمدائح السلطانية وشئون السياسة العثمانية » . وقد قال فى صدره : « لى عدة قصائد سلطانية كنت أمدح

---

(١) انظر ص ٥٤ السابقة .

بها السلطان عبد الحميد ، ولم أكن أقدمها للحضرة السلطانية ، وإنما كنت أنشرها فى الجرائد تعظيماً لمقام الخلافة ، وتأييداً لوحدة الأمة[١] » .

فهو يؤمن بالخلافة إيمان أجداده بها يرى فيها غاية الحكم وحماية الوطن ، ولا يؤمن بأشخاصها أو بالسلاطين أنفسهم ، فمدحه فيها يعلو على المال والشخص ، وقد صارحنا بذلك حين دافع عن شوقى فى مديحه لذوى السلطة والسلطان ، فقال[٢] :

« جرت عادة الملوك والأمراء سواء فى الشرق أو فى الغرب من قديم الزمان أن ينتدبوا لأنفسهم رهطاً من الفصحاء من شاعر مفلق وكاتب مبرز ، وخطيب مفوه ، ونديم مطرب ، وأمثال هذا الضرب من ذوى المواهب العقلية الوافرة والحظوظ الأدبية الراجحة يشيدون بذكرهم فى المحافل بالقصائد الشوارد أو بالخطب الأوابد أو بالمناشير الصادرة » .

إلى أن يقول : « فالشاعر الذى يتصل بملك من الملوك أو أمير من الأمراء فى شرق أو غرب ، لم يكن يجد من الغضاضة فى شىء التغنى فى مدح سيده حتى لو لم يكن أهلا لكل هذا الإطراء ، لأن الكلام إنما هو للمقام لا للمقيم . وأن المقام إنما هو رمز الأمة وعنوان الملة » .

وهو يرى أن الشعراء يزدادون إكباراً للملك والأمير ، كلما غلظت شوكة الأجانب وهجمت هممهم على تقليص النفوذ الوطنى والحكم العربى وبذلك يزدادون مبالغة فى إجلال الرمز . فالمديح للخليفة فى الحقيقة دعاء أو كالصلاة يكون استنزالا من عند الله لنصر السلاطين والخلفاء والوقوف إلى جانبهم ضد الغزاة المستعمرين العادين . فليس فى المديح تزلف ولكنه صارخة قومية ونزعة دينية ونضح عن حوض الخلافة وذود عن بنيان السلطنة .

ولعل الأمير شكيب حين يدافع عن شوقى كان يدافع عن شعره الذى قاله فى السلطان ، ونظر إليه النقاد على أنه تزلف وتقرب طمعاً فى نوال أو حبًّا

---

(١) ديوان الأمير شكيب ، ص ٩٠ ولعل هذه القصائد هى التى جمعها ونشرها سنة ١٨٩٥ .
(٢) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢٤ .

بالمراتب . وما كان شكيب ليسعى إلى ذلك فى شعره ونثره . وما كان يطمح إلى راتب أو معاش أو مكافأة فيما نعلم ، ولو سعى إلى ذلك لتهافت ملوك العرب على كسب صداقته وربح جانبه . وقد حدثنا هو نفسه عن إكرام الخديو له حين مر بمصر ، فأراده على البقاء فيها وصرف النظر عن الذهاب إلى برقة ، ولكنه رفض المال من الخديو وودعه ، وركب السكة إلى مريوط ، وذهب إلى الجهاد ، وأنفق من صلب ماله[1] ، ثم عاد من الجهاد ، وقد نفد ما معه من النقود ، فلم يراجع الجناب الخديو وإنما أرسل يسأل أهله فى إنفاذ المال إليه .

ونحن قد سقنا هـــذا الخبر عنه لننفى عن مديحه صفة السؤال والنوال ، ولنبرهن أن مبعثه الإعجاب بالخلافة والإيمان بالجامعة العثمانية — كما بينا فى رسم حياته .

وشعره فى هذه المدائح السلطانية لا يتعدى عمود المديح المعروف ، من نداء أمير المؤمنين فى دولة عثمانية غراء ، يصفه بدار سلطنة الدنيا ، هى مرجع الأرض ، فرق البرين ومرج البحرين ، وهو ثغر الثغور ، ولواء من الإسلام قد عز نصره ، بل من آل عثمان هم الأزه ولوأنهم لم يدركوا زمن الصحابة ، فنصروا النبي ودينه بعد كر الأحقاب إلى أن يقول فى الخليفة :

فحبك ذا شرعى وعرفى ومذهبى ومدحك ذا فرضى ووترى وواجبى

وهو فى هذا الحب شبيه بشوقى وغيره — كما أسلفنا القول — ، يرى الغرب متجهم الوجه مسدد السلاح إلى صدر الأمة الإسلامية ، يريد أن يفعل فيها ما فعل من قبل بالأندلس ، فيصبح العرب أعاجم فى ديارهم . وشكيب يرى أن الشرق كله فى حمى الخليفة ، وأن له هبة بعد نوم تزعج الأحلام .

وفى المناسبات المختلفة الكثيرة مَجَّدَ شكيب أعمال العثمانيين لأنها أعمال المسلمين ، وافتخر بجيشهم لأنه امتداد لجيش الخلافة الإسلامية يدافعون عن الثغور والحصون ، فيهاجم البلغار فى حربهم ضد العثمانيين ، ويفرح لإعلان

(١) كتاب شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٣٦ .

الدستور العثمانى ، ويثنى على الخليفة ، فيرى فيه إماماً له عوارف على الشرق والإسلام لا تقبل الحصر والتعديد . وينظم فى ساحة الجهاد بطرابلس حين هجوم إيطاليا على طرابلس الغرب ، ويدعو السيوف إلى الفتك ، فالقرآن ما زال فى روعته وسطوته (١) :

لئن جردتها « رومة » لحصارنا لقد أودعتها عندنا بسجونها
وفى كلّ يوم وقعةٌ لجيـوشها تضيقُ بها بطحاؤها بدفينها

فهو ينادى العرب بالثأر والهجمة والدفاع ، ويتحمس فى شعر وطنى طابعه الإسلام ولحمته العروبة والذود عن أوطانها ، يتظلل بعلم الهلال ويسّير فى نصرة العرب .

وفى سنة ١٩١٣ ، أنشد فى الآستانة قصيدة حين تمثيل رواية صلاح الدين ، حذر فيها من كيد الغرب وشروره ، وافتخر بأعمال الشرق وآثاره ، وكان لتحذيره صدى بعيد رد به على من يكيد للعثمانيين فقال (٢) :

فيا وطنى لا تترك الحزم لحظةً بعصر أحيطت بالزحام مناهلهْ
وكنْ يقظًا لا تستنم لمكيدة ولا لكلام يشبه الحقَّ باطلُهْ
وكيد على الأتراك قيل مصوّب ولكن لصيد الأمتين حبائلُهْ
فليستْ بغـير الاتحادِ وسيلة لمن عاف أن تغشى عليه منازلُه
وليسَ لنا غير الهلال مظلّةٌ ينال لديها العزَّ من هو آملُه
سيعلمُ قومى أنّنى لا أغشُّهم ومهما استطال َالليلُ فالصبحواصلُه

وهذا الشعر فى مديح الخلافة هو شعر يتناول المبدأ والمثل الأعلى الذى رسمه لنفسه ، لا يشبه مديح الخلفاء فى نوال الأموال والعطايا ، وإنما هو مديح لمبادئه وغاياته التى ملأت نفسه وفكره على هدى السادة المصلحين ، والزعماء المسلمين لعصره . ولا يعاب الأمير فى المديح كما يعاب غيره ، وليس للناقد

---

(١) ديوان الأمير شكيب ص ١٠٥ .
(٢) ديوان الأمير شكيب ، ص ١١١ .

إلا أن يأخذ عليه فى شعره أنه لم يتناول العثمانيين بنقد أو تجريح أو دعوة إلى إصلاح ما بينهم وبين العرب . فكان يدعو من جانب واحد أمته العربية فى الاتحاد مع العثمانيين ، ولم يدع العثمانيين فى تخفيف غلوائهم وظلمهم للعرب وانتقاصهم لحقوقهم ، على كثرة ما نقل إلينا من تقريعه لهم شفاهاً ومراسلة ، ولكن شعره خلا من هذا ، ولو كان له فيه نقد لفاق نظراءه ، وارتفع بشعره القومى إلى ذروة الإخلاص الذى لا يدخله نقد .

ولعلنا حين سقنا باب المديح الرسمى عنده ، استطعنا أن نبعده عن المداح المتكسبين ، وأن نظهر عبقريته فى الشعر ، وسلاسته فى النظم . وتوفيقه فى الهدف ، فانتهينا إلى أنه فى ذلك شاعر مطبوع كما كان غيره من الشعراء ممن بلغوا سدة التوفيق فى الشعر لعصره .

وهذه الأبواب التى عرضنا ، من وصف وتاريخ وترسل ومساجلة ومديح ، أعجبت النقاد والأدباء ، حين وضعوه فى إطار عصره ومستلزمات الشعر فى زمانه ، ووازنوه بغيره ، فقال فيه خليل مطران حين صدر لديوانه قولا نحب أن نرجع إليه هنا ، لأنه يشير إلى ما كنا بسبيله فى أول حديثنا . وذلك أن شكيباً بدأ بالباكورة فى المرحلة الأولى : « فتوسم[١] مطالعوه أن ناظمه يرقى حثيثاً إلى مقام لا يرام بين شعراء العربية . ولو ظل الأمير معنياً بذاك الفن الرفيع ، لصدق فيه ما ظنوه كل الصدق . » غير أن شأناً آخر من الشئون الضخام التى هى أشد إغراء للرجل البعيد المطمح فى مطالب العلياء صرفه وشيكاً عن الهيام فى مسابح الخيال والضرب فى آفاقه الأنيقة إلى منازلة الحوادث والأيام فى معترك الحقيقة » .

ثم يقول : « على أن الذين تتبعوا كما تتبعت آثار الأمير شكيب قد تبينوا منذ الساعة الأولى سر المزية التى امتاز بها شعره ونثره جميعاً فأحلاه الذروة المنيعة الرفيعة التى حلها بين الأفذاذ المبرزين من متقدمين ومتأخرين » .

---

(١) كلام مطران فى صدر ديوان الأمير شكيب .

ويرى خليل مطران أن سر ذلك ومرده إلى أن الأمير شكيب ملك اللغة وجمع معجمها فى صدره ، فوق ما استظهره من أساليب البلغاء وما رواه من روائع فحول الشعراء . فلما ازدادت خبرته بالعربية « عدل غير مبطئ عن تشبثه الأول بالمحض الخالص من الأساليب المأخوذة عن الصميم من القديم ، ولم ير له بعد ذلك مكتوب إلا وهو مطبوع بطابع السلاسة والانسجام والغزارة مع الحرص على شرف المفردات ورصانة التراكيب » .

وهذا كلام ذكى بليغ لناقد عظيم فهم الأمير شكيب فى مرحلتيه ، فقال فى الأولى إنها من صميم القديم . وقال فى الثانية إنها مطبوعة بطابع السلاسة والانسجام والغزارة . وهذا ما رأيناه حين تحدثنا عن شعر « الباكورة » وأوائل اتصاله بالبارودى وشوقى وفكرى . فلما تقدمت به السن كان يحلق فى الأجواء الشعرية السليمة ، منفلتاً من كثير من التقليد الذى كان يسيطر على قالبه ورأيه، فوفق فى أكثر الذى قاله فى المرحلة الثانية وقد جاوز الثلاثين ، وخاصة فى المراثى والوصف . وقد قال خليل مطران فى ذلك[1] :

« على أنه قد يدعوه داع من النفس أو من الطوارئ فينظم ، ينظم كما ينثر ، فياض الفكر غير تعب . لكن نظمه يحمل فى عهده الآخر أثراً من نثره » .

ولما مات شكيب رثاه المطران بقوله :

ولّى أخو الأفذاذ من شعرائها ... فى جاهليتها وفى الإسلامِ
جارى الفحولَ فلم يقصر عنهم ... فى حَلبة الإفصاح والإفهامِ
شتانَ بين الشّاعر المطبوع فى ... أحكامه واللاقط النّظّامِ

فلم يبدل رأيه فيه ، وإنما وجد أنه كان يجارى الفحول وأنه لم يكن يقصر عنهم فى حلبة الفصاحة والفهم ، فهو شاعر مطبوع لا أديب نظام ، وهى شهادة من شاعر القطرين لها قيمتها فى النقد الأدبى المعاصر .

وقديماً قال المنفلوطى فى شعر شكيب : « لو لم يكن أكتب كاتب لكان

(١) ديوان الأمير شكيب ، ص ٤ .

أشعر شاعر ، ولكنهما كفتان كلما رجحت الواحدة أشالت الأخرى » .

ولعل سر النبوغ فى شاعرية شكيب أنه عكف على الأدب القديم دراسة ونقداً ، فاستقرأ أساليب العرب البيانية القديمة ، ثم تابع التطورات الشعرية لعصره ، وقد قرأ للشعراء المجاورين المعاصرين ، وحفظ من القديم والحديث صوراً كثيرة وتراكيب وفيرة ، فسال الشعر على لسانه وفاض على قلبه وانساب كالشلال . فهو منذ صباه واسع النفس ينشئ القصائد الطوال ، فلا يدركه تعب أو ونى ولا يلحق به عوز أو حاجة ، يوشى شعره بما عنده ، وما عنده كثير .

فقد وهبه الله لساناً لافظاً جريئاً ، وقلباً حافظاً عجيباً ، ما نظن أن كثيرين أوتوا هذه الموهبة الغالية ، فذكر لنا فى تضاعيف كتبه ، وفى ديوانه خاصة أنه استذكر شعراً منذ خمس وأربعين سنة ، وأنه ما يزال يحفظه ، فيملى منه على الورق ما بقى من حفظه فإذا هو يتجاوز القدرة التى نظنها لأديب معاصر . فإذا قلبنا ديوانه رأينا أكثر القصائد قد ضاعت أوراقها فاستخرجها من خزانة حفظه ورواها من جعبة ذاكرته فجاءت فى روايتها تختلف عما تروى الدواوين المطبوعة اليوم . وقد روى فى كتابه عن شوقى[1] ، للشيخ الزرقانى بيتين من الشعر استذكرهما بعد خمس وأربعين سنة . والزرقانى من نعرف فى جيل الشعر عند موقع لا يحفظ فيه من شعره شاعر أو يتذكر أديب ، ومع ذلك قال فيه شكيب « إن فى شعره رقة يشعر بها كل سامع » وذلك بصدد كلمة « واه » التى وردت فى شعر شوقى ، فأراد أن يعود بها إلى الزرقانى لما سمع وحفظ .

ونستطيع هنا أن نأسف لانقطاع شكيب عن الشعر فقد كان فى سبيله إلى ذروة الشاعرية لتمكنه من القوالب الفخمة والمعانى الواسعة والثقافة العربية الشامخة ، ولكنه وقف دون ذلك فكان شاعراً مطبوعاً مقلا ، لأنه انصرف إلى النثر والترسل بكل موهبته وقدرته وعبقريته حتى أصبح كما يقول مطران « إمام المترسلين » ولقب بأمير البيان ، وسنرى ذلك فى الصفحات القادمة .

---

(١) عن شوقى ، ص ٢٢٨ .

الفصل السابع

النثر الفنى أو المنمّق

النشأة – النثر قبله – أساليب الفحول لزمانه – أسلوبه – نقد هذا الأسلوب

اشتهر الأمير شكيب أرسلان بمتانة وفخامة وجزالة فى كتبه ومقالاته ، حتى لقد تشبه باللغة العربية القديمة فى قوة أسرها وجمال أسلوبها ، على جدة المعانى وسعة الآفاق .

فكيف كان له هذا الأسلوب وكيف استطاع أن يصبح كاتباً يلز بالقدماء فى كتاباته .

النشأة والأثر :

يجب أن نعود هنا ثانية إلى نشأة الرجل ، وأن ننظر إلى العصر وأسلوبه فى النثر الأدبى ، وتأثر شكيب بمن قبله ومن حوله ، فلا شك فى أن اللغة التى سمعها من « مدرسة الحكمة » فى صباه ، والأساليب التى ساقها الشيخ محمد عبده فى المدرسة السلطانية ببيروت قد أثرت فى ذوق الفتى ، ودفعته إلى أن يحتذى أستاذه الإمام ، فعكف عليه وراح يقلده ويستقى منه على الأيام . ولا شك فى أن لقاءه للإمام محمد عبده هو الذى صرفه عن الشعر إلى النثر ، بعد أن أصبح للفتى أسلوب فخم فى القريض ، ولكنه رأى أن الشعر لا يقوم بالمهام التى قام بها أستاذاه جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، ولا يستطيع أن يعبّر عن الآراء التى كان يتغذى بها فى نصرة الإسلام ويقظة المسلمين .

فقد حاول شكيب أن يقول فى قصائده كثيراً من هذه الآراء وتناول فى

شعره أغراضاً قريبة منها ، وتطرق إلى رسمها كما كان يسمعها من الإمام . ولكنه لم يكن يستطيع أن يطلق لسانه فى النظم كما يطلقه فى النثر ، وليست همّته فى أن يكون شاعراً فحسب ، وإنما همّه فى أن يصبح سيداً وزعيماً ومصلحاً كبيراً . لهذا صرح أكثر من مرة عن كرهه فى أن يكون شاعراً ، وأبان عن رغبته فى أن يكون كاتباً ، واعترف لإبراهيم المويلحى بمثل ذلك فى الآستانة ، فانصرف عن الشعر إلى النثر ، وعقد عليه الخناصر وعض عليه بالنواجذ ، وسار فى هذه السبيل .

وقد وصف خليل مطران ما كان من شكيب وانصرافه عن الشعر بقوله : « غير أن شأناً آخر من الشئون الضخام التى هى أشد إغراء للرجل البعيد المطمح فى مطالب العلياء ، صرفه وشيكاً عن الهيام فى مسابح الخيال والضرب فى آفاقه الأنيقة إلى منازلة الحوادث والأيام فى معترك الحقيقة » .

« ففى هذا المفترق الأول من السبل التى يواجه بها المرء مستقبله ، آثر الأمير الترسل ومضى متدفقاً تدفق الينبوع الصافى مجلجلا أحياناً جلجلة السيل الكثير الشعاب . وما زال حفظه الله منذ خمس وأربعين سنة يتحف قراء العربية فى مشارق الأرض ومغاربها بكتب قيمة يقتبسون من أنوارها هدى أو يفيدون من مختلف الآراء المنبثة فيها ، ما يهيئ لهم من أمرهم رشداً ، إلى رسائل متنوعة يجتلون محاسن أغراسها وأزهارها ويجنون ما يغذى العقول ويفكه القلوب من أطايب ثمارها ، إلى فصول ومقالات تنشرها المجلات الدورية والصحف اليومية فى كل قطر ، فما ينقضى يوم من أيام تلك البرهة الاولى فى كل منها قلائد تزهى بها صفحاتها أو خرائد تزخر بها أنهارها . ولو تفرغت طائفة من حملة الأقلام جم عديدها ، فياضة قرائحها فيما يشاء الله من مسائل السياسة والاجتماع ، والأدب ، ومباحث التاريخ والأخلاق لكتابة ما كتب من تلك الفصول والمقالات ، لتعذر عليها أن تأتى مجتمعة بما أتى به ذلك العلم الفرد » .

ولقد صدق خليل مطران فى حكمه على الأمير سنة ١٩٣٥ ، ورأى له هذا السيل المتدفق من مقالات وكتب ورسائل تتعذر على طائفة من حملة

الأقلام حين تجمع أمرها للقيام بما قام به مفرداً ، والمهم فى ذلك كله أنه على كثرة ما كتب قلّما انخفض عن مستوى الأدب الرفيع والبيان البديع ، وهذا سر إعجازه . وسنصف أسلوبه فى النثر التقليدى فنعرض نماذج من عصره ونوازن بينه وبين أقرانه من الكتاب فى هذا الباب .

أسلوب النثر فى عصره :

أحب شكيب الفحول من الكتاب كما عشق الفحول من الشعراء ، وسعى إلى أن يسابق هؤلاء وهؤلاء وأن يجرى معهم فى سنن واحد وأن يكون له ما كان منهم من متانة وقوة ، وقد أرسل الشعر مبكراً كما أرسل النثر مبكراً . فكتب أول مقال له فى جريدة « الصفاء » وهو فى السادسة عشرة من عمره . وراح يراسل الجرائد ويكتب فيها كذلك ، حتى أصبح معروفاً عند قراء « الأهرام » وهو لما يتجاوز الحادية والعشرين من سنيه . وقد حكى شكيب عن زيارته لمصر سنة ١٨٩٠ ، وهو فى هذه السن قال : «وكنت أوانئذ أراسل جريدة الأهرام ، وكان صاحب الأهرام يكاتبنى كثيراً ، ويبنى كثيراً من الآراء على ملاحظاتى ، وإذا أرسلت إليه بمقالة جعل عنوانها « لأحد الأفاضل السياسيين » فإذا راجع القارئ الأهرام سنة ١٨٩٠ والتى بعدها وجد بقلم أحد الأفاضل السياسيين فصولاً سياسية كثيرة[١] » .

وذلك أن الأمير شكيب كان يختلف — كما قلنا من قبل — إلى كبار الرجال فى لبنان وفى مصر ويستمع إلى أئمة البيان ، ويصغى إلى إنشائهم ويسعى إلى التبريز عليهم ، فاجتمع فى مصر بحلقة الإمام محمد عبده ، إلى رجال كلهم من أعلام العصر فى النثر والخطابة والكتابة ، قال فيها[٢] : « سنة ١٨٩٠ كانت أول قدمة لى إلى مصر ، وكنت بين العشرين والواحدة والعشرين من العمر ، فمكثت شَيْع[٣] شهر فى الإسكندرية ، ثم جئت إلى مصر ، وكان أكثر اجتماعنا ذلك الوقت ، بأستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده ، وبرهطه المعهودين سعد أفندى زغلول ، وأخيه فتحى ، والشيخ على الليثى ، والشيخ عبد الكريم سلمان ،

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤ . (٣) شيع : مقدار .

وإبراهيم أفندى اللقانى ، وحفنى أفندى ناصف ، والسيد أحمد محمود من الرحمانية ، والسيد إبراهيم الوكيل من دمنهور ، والشيخ على يوسف لأول ظهور المؤيد ، وأحمد زكى باشا الذى هو خاتمة من أتذكره من رجال تلك الحلقة رحمهم الله أجمع . »

ولسنا فى حاجة إلى تعريف هؤلاء الأعلام وما كان لهم من آثار فى نهضة النثر والكتابة لعصرهم ، فالكتب التى ألفت عن ذلك الزمان وعن أعلامه تقوم عنا مقام التنويه .

وقد كانت له مع كثير منهم مراسلات نحب أن نورد بعضها هنا لننتهى إلى موازنة أسلوبه بأسلوبهم . دافع شكيب عن شوقى ورد اليازجى إلى الصواب . فكتب شوقى يشكره من جملة رسالة قال فيها [١] : « دفعت اليازجى عنى بيد هدمت كيانه وألغت بيانه ، وتحامل علىّ المويلحىّ فرددت عنى الردّ الذى قطع حجته ، فبعد أن كانوا يرمونه بالحسد والتحامل ، جعلوا يرمونه بالجهل والتطاول ، فسبحان من جعلك جلاداً لأعدائى ، وروبرتسا لحسادى [٢] . . »

وكتب شوقى إلى صديقه شكيب سنة ١٩٠٧ يقول [٣] :

« أميرى الحبيب الكريم !

سلام الله العلى العظيم ، على ذلك الجناب الكريم . وبعد ، فإن أخى « بيومى بك » الذى يتقدم إليك برسالتى هذه هو رجل كله أدب وإن لم يكن من رجال الأدب . وقد عزم على أن يقيم ببيروت أياماً معدودة ، وأبى إلا أن أدله على علمها ومنارها والأثر الفخم الجليل من آثارها وهو أنت ، وها قد دللته وإليك أرسلته ، وأنا أغبطه بهذه الوفادة ، وأحسده على تلك السعادة » .

وكتب محمود سامى البارودى إلى صديقه شكيب سنة ١٨٩٧ من منفاه قال :

سيدى الأمير !

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٣٣ .

(٢) روبرتس : القائد الإنكليزى الذى دوخ الترانسفال .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

لولا حنين النفس وهو علاقة الحب لصبرت على المكاتبة هنيهة مخافة الإملال ، ولكنى راجعت النفس فأبت على زاعمة أن الإغباب يكون فى الزيارة لا فى الكتابة. وبعد ، فقد تلقيت اليوم ما تفضلتم به علىَّ بيد ترعد فرحاً ، وفؤاد يهتز مرحـًا. وما عساى أن أقول فى نظم لو وصفته لقلت سحراً ، ونثر لو وردت شرعته لكان بحراً . إنها وايم الله منة لا يقوم بها الشكر ، ولا يتدرج إلى معروفها النكر . كيف لا وقد أضاءت على غيابة الوحشة ، وسرت عنى ضبابة الحسرة . فالحمد لله الذى صدق ظنى وحقق أملى . فإنى منذ طالعت آثار قلمكم فى جريدة الأهرام ، شعرت بميل فى النفس إليكم ، ونزاع منها إلى التعارف بكم . ثم لم ألبث أن رأيت بها تعريضاً خفيًّا ، سمعت منه هاتفاً روحانيًّا ، يدعونى إليكم، فحدثت نفسى بمد أسلاك المراسلة ، لتبادل كهرباءة المودة معكم . ولكنى راعيت الحال فأمسكت على مضض ، حتى سمعت هاتفاً آخر ، يدعونى باسمى صراحة ، فلم أتمالك أن لبيت دعوته ، فتم الأمل بتعارف الأرواح قبل تعارف الأشباح .

هذا ما كنت أجده فى نفسى أذكره لكم على سبيل الغرابة ، وسأكتب بعد هذا ، إن شاء الله فاقبلوا تحية فؤادى وخالص ودادى ودمتم[١] .

الداعى محمود سامى

هذه ثلاث رسائل من الشاعرين أحمد شوقى ومحمود سامى البارودى أوردناها ، للنظر فى أسلوبها وطريقة كتابتها ، فالأمير شكيب عاصر شوقى وكاتب البارودى ، وكان عليه أن يحذو حذوهما فى البيان وأن يدلى بدلوه معهما فى الفصاحة . فقد كان من هم أدباء العصر أن يلحقوا بأساطين الكتابة وبلغاء المترسلين ، وأن يتشبهوا بهم فى المزاوجة بين الجمل ، وفى السجع ، وفى اختيار الألفاظ والتراكيب العريقة ، وقبلتهم ابن المقفع وعبدالحميد الكاتب وابن العميد وسهل بن هارون والصابى ، ومن اهتدى بنجمهم وأخذ بأدبهم . وكانت الفحولة

(١) عن شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ١٠٦ .

فى أن تكون الجملة قصيرة جامعة شاملة ، من جوامع الكلم كما كانت من قبل فى القرون السالفة . فتكلف كثير منهم فى هذا الباب فى الوصف والخطابة ولكننا استشهدنا بالرسائل الخاصة التى أرسلت من صديق إلى صديق فرأينا أنها تبعت ذلك السبيل ، وانضوت تحت ذلك اللواء ، لأنها من شاعر إلى شاعر . والشاعر فيما نرى تأتيه السجعات عفو الخاطر ، غالب الأحيان ، فهو يرى فيها صورة للقافية ، والقوافى ملك يديه وطوع بنانه ، يستطيع أن يمد يده إليها فيصطادها فى يسر وسهولة .

لذلك رأينا شوقى يقول بالسجع حين كتب لشكيب ، فجعل الكلمات متقابلة مسجعة : كيانه وبيانه ، التحامل والتطاول ، ثم جعل الكريم والعظيم ، أدب وأدب ، منار وآثار ، وفادة وسعادة .

ورأينا البارودى يعمد إلى مثل ذلك فيقول فى سجعاته فرحاً ومرحاً ، سحراً وبحراً ، الشكر والنكر ، الأرواح والأشباح ، فؤادى ووادى . ولعل الناقد يرى أنها كانت قليلة بالنسبة إلى ما نريد الدلالة عليه ، فنحن نبسط فيما يلى من أساليب هؤلاء الشعراء المترسلين ما جعلوه للناس ، وكتبوه ليكون شاهداً على بيانهم وفصاحتهم ، لنرى أثر ذلك فى شكيب ، ونوازن بعد ذلك بين أسلوبهم وأسلوبه .

كتب أحمد فارس الشدياق فى صدر كتابه عن مالطة فقال :

« أما بعد ، فإن الأسفار طالما ذكرها الذاكرون ، وبالغ فى وصفها الواصفون . فمدحها من علت مروءته . وسمت همته . وذمها من قصر عنها ولم يجن منها . فمنهم من شبه صاحبها ببدر إن لم ينقل لم يكن فى التيجان منضوداً . وبهلال إن لم يسر لم يصر بدراً مشهوداً . ومنهم من زعم أنها الحاملة على الذل . المضيعة لحسب المرء والموقعة له فى الضل . والخمول وعدم الشكل . وإن الشىء إنما يرزن إذا كان فى مستقره ، حتى عرفوا الظلم أنه وضع الشىء فى غير مقره . ومعلوم

(١) الواسطة فى معرفة أحوال مالطة ، طبعه الأستانة ١٢٩٩هـ ، ص ٢ .

أن محل العرب مباين لمحل العجم . فكأن أحد الفريقين إذا جاوز محله فقد ظلم » .

وكتب الشيخ محمد عبده يصف نهج البلاغة : « أوفى لى حكم القدر بالاطلاع على كتاب نهج البلاغة صدفة بلا تعمل ، أصبته على تغير حال . وتبلبل بال . وتزاحم أشغال . وعطلة من أعمال . فحسبته تسلية وحيلة للتخلية . فتصفحت بعض صفحاته . وتأملت جملا من عباراته . من مواضع مختلفات . ومواضيع متفرقات وكان يخيل لى فى كل مقام أن حروباً شبت . وغارات شنت . وأن للبلاغة دولة . وللفصاحة صولة » .

وكتب محمود سامى البارودى يصف طريقه إلى منفاه وما عاناه من البحر وآلام الفرقة والغربة :

« إنى لما أفضت بى غوائل الزمن إلى مفارقة الأهل والوطن . وحقت كلمة الوداع . وأنصت كل مجيب وداع ، سارت بأشباحنا الفلك . بتقدير من له الملك . فلما توسطنا لجة اليم . وغشيتنا ضبابة الهم . أخذ البحر يهدر ويموج . والريح تعصف وتروج . والدجن يبرق ويرعد . والموت يقرب ويبعد . والفلك بين صعود وهبوط . والناس بين رجاء وقنوط . فشخصت الأبصار وغابت الأنصار . وأقبل الفزع واستولى الجزع . وشغلت الدموع المحاجر . وبلغت القلوب الحناجر . هنالك دعا ربهم الغافلون . وكفت أذيالهم الرافلون[1] » .

* * *

هذه أساليب الكتابة قبل شكيب ، أوردنا نماذج منها لثلاثة من أعلام العصر . أما الأول فقد ملك ناصية اللغة العربية مفرداتها وتراكيبها ، وعجم عود القدماء ، وسلك سبل البلغاء ، وسافر وارتحل فتنقل الشدياق فى أرجاء الغرب وسكن باريس برهة غير قليلة ، وتبصر بآداب الأوربيين ، وسافر إلى مالطة والآستانة وتونس ، ومكث معززاً مكرماً بين الملوك والأمراء ، يجتمع بالفحول

---

(١) أى خفف المتكبرون من غلوائهم ممن كانوا يجرون الأذيال كبرا .

والأعلام ، وعاد مع ذلك بهذا النثر الذى قرأنا والأسلوب الذى رأينا .

وأما الثانى وهو محمد عبده ، فيقول أحمد حسن الزيات فى أسلوبه[1] : « للأستاذ فى الترسل أسلوب خاص كأنه قطع الرياض ، تقرؤه فى الردود والمقالات . وقد ينحو فى رسائله نحو ابن العميد ، فيتكلف السجع ويكلف بالصنعة ، ويقصد قصد الجاحظ فى تأليفه ، فتتساوق أغراضه ، وتتراصف فقره » .

وأما الثالث وهو البارودى فقد عرف المناصب العالية واتصل بأعلام السياسة والوطنية والأدب ، ودخل فى ميادين كثيرة من سعة ومعرفة ، ورزئ بالنفى والإبعاد ، وظل وفياً للغته صادقاً فى حب القدماء ، فكان منه البيان الذى قرأنا ، والمقدمة لديوانه التى لم نقرأ مما يقع فى أيدى الناس .

* * *

أسلوبه فى النثر الفنى :

فلا على الأمير شكيب بعد هذا أن يسلك طريق هؤلاء وأن يسير فى السبيل التى رسمها قبله الكتاب ، والناثرون من جملة قصيرة متينة ، وسجع متكلف فى أول الأمر وغير متكلف حين يتمرس بالبيان والبلاغة ، ومزاوجة بين العبارات وتحليق فى النثر كما كان يحلق فى الشعر ، وصور تزدحم فى الكلمات وتغص بها حتى لتضيق أحياناً . لا على الأمير أن يتبع قومه من الفحول وقد لاحظ بعض الناقدين أنه مقلد للقدماء ، وأن سجعه قريب من سجع الكهان وأساوب المقامات ، فقد كان الرجل يسعى إلى النثر الفنى ؛ يقلد أربابه وخاصة فى مواضيع معينة من كتبه . ونحن سنعرض فى إيجاز لمقدمات كتبها الأمير شكيب فى فواتح كتبه التى أصدرها منذ ١٨٩٨—١٩٣٦ ، خلال أربعين عاماً ، منذ كانت سنه فى الثلاثين إلى أن بلغ حدود السبعين من سنيه ، فلم يهن قلمه ، ولم يفتر بيانه ، ولم يضعف لسانه ، وإنما ازداد على الأيام تعلقاً بالنثر الفنى ، للعصر الرابع الهجرى وما بعده ، يزين به صفحات

(١) تاريخ الأدب العربى ، ص ٣٨٢ .

من كتبه ، يفتتح بها أو يصدر بعض مقالاته حين يشتد به الحنين إلى هذا الأسلوب الجزل . فقد كان شكيب يريد أن ينافس الكتاب الفحول ، وأن يبذ أساليبهم ، وأن يلحق بالمشهورين فى الأدب العربى الماضى ، لئلا يقال إنه قصر عنهم ، أو قعد دون اللحاق بفصاحتهم وقوتهم ومتانتهم كأنه أبداً فى امتحان مع الأيام والأدباء ، فقد كان يقرأ لمن حوله ومن سبقه فيرى هذا النثر القديم ، وتتوق نفسه إلى أن يذكر فى السابقين وفى المحلقين ، فجرى معهم فى الميدان ووفق فيه إلى حد بعيد . فتسنم ذرى الفصاحة ، واستوى على عرش البيان .

ونحن قبل أن نعرض لهذه النماذج ، نحب أن نشير هنا إلى أننا وقفنا عند مقدماته فحسب ، وأننا اخترنا النثر الأدبى منه مما تشبه فيه بالأعلام من زمانه ، كالبارودى وشوقى ومحمد عبده وغيرهم . لأننا نعرف أن له أسلوبين جرى فيهما جرى الكتاب السباقين، أحدهما هذا الذى نعرض له ، وهو فنى من غير شك ، وثانيهما الأسلوب المرسل الحر الطليق الذى كتب به أكثر مقالاته وكتبه مما نعرض له فى مكان آخر .

افتتح شكيب « رسائل الصابى » وقد طبعه سنة ١٨٩٨ وهو لما يبلغ الثلاثين من العمر فقال :

« وبعد ، فإن من أطرف ما تطرف به أندية الأدب . وينثل من كنائن البلاغة فى خزائن العرب . وينشر من بين صفائح الصحائف بعد أن طال ما طوى واحتجب . المختار من رسائل الصابى المشهور المكنى بأبى إسحاق ، رئيس كتاب الديوان ببغداد . والذاهب صيته إلى برك الغماد فى الآفاق . إذ كان كلامه من أجل ما ألحقته أصلاب الأقلام وحملت به بطون الأوراق . وإن كل من أصاب من الأدب ذرواً ، وعرف للقلم برياً وللمداد جرياً ، ليصبو إلى بيان الصابى وينتشى بإنشائه العالى . فهو ينظر فيه من خطط البلاغة ومراسمها . ويشهد من محافل الفصاحة ومواسمها . ما يعز الإتيان بمثل بدائعه على رائمها . وتتخفر عذارى خطبه دون خاطب كرائمها . ويتلو من آيات كتاب

الدواوين وخطباء النوادى . ما تنسخ به جمل حداة المهارىّ ورعاة البوادى» .

ويسترسل الأمير فى إنشائه حتى يتشبه بالثعالبى أبى منصور صاحب اليتيمة ، أو بالباخرزى صاحب الخريدة . حين يقدمان لمن يترجمان فى جمل تذهب بالسمع قبل اللب ، وتستهوى القارئ فى صياغتها الفنية ، ولعلها لا تنى بالغرض دائماً ، وتقيد صاحبها بقيود السجع والمزاوجة ، وتحرمه من التعمق فى كثير من الأحكام . وليس هذا يعنى أنها سهلة على كل من سعى وراءها ، فهى تحوج إلى بصر وإلى فهم ومقدرة فى اللغة .

وفى هذه السن نفسها قدم شكيب لكتاب الدرة اليتيمة لابن المقفع وقد طبعه أول مرة سنة ١٨٩٧[١] فقال :

« وبعد ، فقد رأينا إخواننا طلاب العربية أعظم ما كانوا عليها منذ أمد إقبالا . وأشد ما عانوا فى تحرى فوائدها إيجافاً وإيغالا . وأحث مما وجدناهم فى سبيلها اجتهاداً . وأبصر ما عهدناه فى مظان تحصيلها ارتياداً . رأينا الجم الغفير منهم والحق يقال دائباً فى إصلاح لغته . وتثقيف ملكته . حريصاً على تقويم لسانه . وإحكام بيانه . متوخياً طرق الانطباع على بليغ الكلام . منتهجاً خطط الوصول إلى الطبقة العالية من القول . مما يجب أن يلتمس فى كتب السلف وينشد فى منشآت الأولين من أهل هذا اللسان السابقين فى حلبة البيان ، بالاستكثار من حفظ تراكيبهم . وتحدى أساليبهم . ومحاكاة نغمتهم والاحتذاء على أمثلتهم . حتى تتحصل للمعانى منهم ملة راسخة يصدر عنها فى إنشائه . فلا يكون من شأنه أن يعلو ويسفل . ويغلو ويبذل . ولكنه يجرى على نمط متناسب ويفرغ فى قالب واحد . وكانت هذه الغاية وتلك العناية بصناعة الإنشاء عموماً ، وبهذا النوع المرسل منه خصوصاً أجدر ما تصرف نحوه الهمة . وأفضل ما تثنى إليه الأزمة . لا سيما فى هذا العصر الذى ازدحمت فيه المعانى . وتعددت المناحى وتضاعفت المقاصد واختلفت المواضيع » .

فهو يأخذ من الأسلوب القديم فى أكثر جمله ، يتقيد فى كثير منه

---

(١) صدرت الطبعة الثانية سنة ١٩١٠ ، كما نرى بعد قليل .

بالسجعات . ويلتزم فيه المزاوجة بين الجمل ، ويتحرى – كما قال – خطط الوصول إلى الطبقة العالية من القول . وهو يلتمس ذلك أبداً فى كتب السلف ومنشئات الأولين . ولعله تأثر هنا بأسلوب ابن المقفع فأطال الجملة أكثر مما كان يفعل وابتعد عن التقعر فى مفرداته . وهذه مرحلة جميلة خطا إليها الأمير شكيب فى إنشائه ونثره فى هذه الفترة فحسب . ولكنه عاد عنها ، وحن إلى لقاء أسلوبه الأول ، وخاصة فى مقدمات كتبه التالية ، يرجو عندها أن يكون فى الفحول القدماء دائماً ، وفى البلغاء من الكتاب أبداً ، وذلك لأنه كان يعتقد فيما نرى أن هذا الأسلوب هو وحده أسلوب البيان الحق ، ينمق به كتبه ويوشى به مؤلفاته ، كما يفعل الرسامون والفنانون .

وقد لقى على ذلك نقداً وإنكاراً من زملائه وإخوانه فدافع عن أسلوبه فى المقدمات ، وكتب إلى الأستاذ محمد كرد على حين رأى أن رئيس المجمع السابق استعمل السجع فى مقدمة مجلته المقتبس فقال له[1] : « وطالما نقمت علينا التسجيع ، وأقمت علينا من النكير بعدد أنواع البديع ، وعددت سجع الحمام من قبل فجع الحمام . واعتبرت نفائس الجناس من وساوس الخناس »... ثم يقول له : « أو لعلك حصرت السجع والجناس بفاتحة المجلة ، لأنها من المجلة كقاعة الاستقبال من البيت فلابد فيها من مراعاة الأمور الرسمية . والسجع رسمى فى المقدمات » .

ونريد أن نلاحظ أنه كان يوشى كتبه ويزخرفها بهذا التكلف ليس غير ، فهو يعرف أنها لا تستعمل فى كل مكان .

وكتب فى مقدمة ترجمته « لآخر بنى سراج » عن شاتوبريان يقول معرفاً بالرواية ، فى هذه السن نفسها ، سنة ١٨٩٧[2] :

« وأدارها على سياحة شاب تام الرجولية ، باهر الفروسية ، من بقايا آل سراج الغرناطيين ، من أكرم بيوتات العرب الباقين . كانوا بالأندلس لعهد

---

(١) مجلة المقتبس ، سنة ١٣٢٤ هـ ، ص ١٦٨ .

(٢) طبعها أول مرة بالإسكندرية سنة ١٨٩٧ ، وفى القاهرة ثانى مرة سنة ١٩٢٥ .

خلوها من الإسلام . ونبوِّها عن حمر الأعلام . هب من تونس حيث كان جالية الأندلس قد نزل أكثرهم سائحاً إلى وطنه القديم . متعللا بالعظام الرميم . طائعاً هوى النفس فى الذهاب أين ساقه التذكار والحنين . هائماً على وجهه فى تلك الأرض التى عمرها آباؤه مئين من السنين . وبينما هو يجول فى شوارع غرناطة مسكن أهله قبل الجلاء الأخير . وثمالة ما كان بقى فى يد الإسلام من ذلك النعيم والملك الكبير . كانت منه لفتة وقع فيها بصره على فتاة من سريات الأسبانيول فعلقت بقلبه . ووقع نظره منها على مثله فتعاشقا وتوزعت القصة بين حبها وحبه وحال دون اقترانهما إعجاب كل بدينه وإخلاصه لربه » .

ونحن لا نعرض هنا لأسلوبه فى الترجمة وطريقته فى التعريب وجمعه بين الفرنسية والعربية فى رداء واحد من الجلال والجمال ، حتى ليصنع من القصة الفرنسية شعراً بالعربية ، يظن القارئ معها أن شاتوبريان أنشدها ونظمها ودفعها إلى شكيب لينشرها ، فى عبارته المتينة وجملته المزدوجة ، وسجعه غير المتكلف فى كثير من الصفحات — مما سنراه فى غير هذا المكان — .

وكتب فى مقدمة ترجمته « لأناتول فرانس فى مباذله » وقد نشرها سنة **١٩٢٥** كذلك فقال ، بعد أن بلغ السادسة والخمسين من عمره :

« وسترى مما سيأتيك من قصص هذا الكتاب وترجمة صاحبه أناتول فرانس ، آية فرنسا الحديثة فى فن الإنشاء أن أدباء الأوربيين أنفسهم يخافون من تطرق الفساد إلى ألسنتهم خوف الجبان من المنون . ويحافظون على نقاوة لغاتهم محافظة الناس على أناسي العيون[١] . وحسبك أنه لم يوجد فى كتاب أوربة كاتب أشد شغفاً بالمحدثات العصرية . وذهاباً مع النظريات المادية . وأقل اعتباراً للعقائد الدينية من صاحب هذه النوادر الذى كان معدوداً فى آخر أمره من الاشتراكيين . لا بل من البلاشفة الملحدين . الذين نصبوا العداوة للدين وعدوا أهله من المفسدين . ومع هذا فلما جاءت المسئلة إلى اللغة رأيته أعض الكتاب بالنواجذ على النسق الفرنسى القديم والأسلوب التدريسى المتين . حتى كان الأدباء لا يميزون بين

---

(١) أناسى : جمع إنسان ، وإنسان العين ناظرها أو سوادها .

كلامه وكلام راسين . الذى عاش قبله بنحو من مائتين وخمسين من السنين . وأن ما قلته فى الفرنسيس من جملة المحافظة على لغتهم فلك أن تقوله فى الإنكليز عشاق لغة شكسبير . والألمان المتوهين بحب غوته عماد لغتهم الكبير . فلا يوجد فى الشرق ولا فى الغرب أمة ترضى بأن تكون آدابها فوضى لانصاب ترجع إليه ، ولسانها خلّيطى يضم كل ما وقع عليه » .

ولعلنا أطلنا هنا فى الاستشهاد من هذا الكتاب ، وذلك لغاية أردناها ، وهى أن يدلى الأمير نفسه بدلوه فى الأسلوب الفنى وفيما يجب أن يكون عليه النثر الأدبى رجوعاً إلى القديم وتعلقاً بالمدرسى المتين ، رداً على من تسول له نفسه[1] بانتقاد شكيب لأسلوبه فى البيان ، وعكوفه على القديم ، ودفاعاً عن طريقته باتخاذ أساليب الغرب حججاً قائمة تدعم كتابته ونثره . وهو هام فى نظرنا لأنه يشير إلى خطة الرجل ومعرفته بما يصنع عن تصميم وإرادة ، لا عن محض تقليد ، يدفعه إليه حب التراث والحفاظ عليه والاعتصام به وحمايته من عبث العابثين وفوضى المتطفلين الذين ظهروا فى زمانه فكتبوا فى الصحافة على أسلوب هزيل وكتابة ضعيفة دفعت الكاتب إلى هذا الذى قال .

وكتب سنة ١٩٣٣ ، وقد جاوز الستين من عمره ، يقدم لكتابه « تاريخ غزوات العرب » قال :

« ولعمرى إن هذا التاريخ المجيد وإن سقته سيول المحابر . واخضرت له أعواد المنابر . وسبقت فيه تآليف استولى أصحابها على الأمد إخراجاً . ولمعت فيه كتب لو لاحت لكانت بروجاً ولو نضدت لكانت أبراجاً . لا تزال فيه نواقص بادية العوار . ومعالم طامسة الآثار . ومظان متوارية غامضة . ومعلومات قاعدة غير ناهضة . تحتاج إلى همم بعيدة من الأفواج الآتية ليثيروا من دفائنها . وإلى معارف واسعة عند السلائل المقبلة لينتثلوا من كنائنها . »

ذلك فى الأسلوب الأدبى بمقدمة الكتاب فحسب ، ولكنه حين يبحث

(١) انظر فيما يلى من الصفحات ، نقد السكاكينى لأسلوبه ، ورده عليه بمثل هذه الحجة عن الأدب الفرنسى .

فى التاريخ ويغوص مع العلماء فى مناقشة ومحاورة ونقد ، يختلف أسلوبه ، ويبتعد عن السجع مضطراً ، وقد لا ينفك مع ذلك يورد الجمل المترادفة والعبارات المتناظرة حين يستريح من عناء العلم ، ويذهب به الخيال إلى مطارف القديم ومغانى العرب ، فيهتز قلمه وتعود إليه شاعريته ، فينثر ما يقوم بباله نثراً أقرب إلى الشعر المنثور ، لغلبة الخيال عليه وذهابه مع أجواء الأدب كل مذهب .

وفى كتابه « الارتسامات اللطاف » الذى نشره خلال هذه الحقبة عمد فى مقدمته إلى مثل ذلك السجع والازدواج فى الجمل ، ولكنه كان فى صلب كتابه كثيراً ما يعمد إلى هذا السجع غير متكلف لأنه فى حديث الربوع العربية ، وفى قلب الحجاز ، وعلى مقربة من بيان القدماء ، يجاور أصحاب المعلقات ، ويمر فى الدروب التى مروا ، فلا أقل من أن يأخذ بأساليبهم القديمة . ونحن نروى من قلب الكتاب جملة لم نخترها ، وإنما قلبنا الصفحات فوقعنا عليها فرأينا فيها متانة وفخامة[١] :

« وأما الحجاز فالغيث فيه قلما يعم وأكثر ما ينزل نفضاً[٢] . فإذا أصابت النفضة أرضاً ، زهت تلك السنة وأثمرت وعاش أهلها . وإذا أخطأتها أو جاءت بها رذاذاً يبس كل ما هناك من زرع . وعطش كل ما هناك من ضرع » .

وفى سنة ١٩٣٦ ، نشر كتابه « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » وقد جاوز السابعة والستين من عمره فقال فى جملة وصفه لفتح الأندلس بالمقدمة (ص ٨) :

« وكان من أنفس ما سددهم الله إلى فتحه ، وقيض لهم بالجهاد الطويل وسائل ربحه . هذه الجزيرة الأندلسية الخضراء . الخطة العذراء . والدرة الدهماء . والبقعة الجامعة بين الشموس والأفياء . الرافلة فى حلل موشية من حوك الأرض وطراز السماء . فأتوها من كل فج ، بين محتسب ومكتسب . وراغب فى الدنيا

---

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ٣٤ .

(٢) جمع نفضة (بضم أوله) وهى المطرة تصيب القطعة من الأرض وتخطىء القطعة .

وماهد للآخرة . وساموا ولايتها بالنفقات الوجيعة ، والبطشات الذريعة . والنفوس السائلة أنهاراً . والجماجم الطائرة أسراباً . والجيش يتلو الجيش . والبعث يردف البعث. وما زالوا يغاورونها بخيل لا تنحط لبودها . وفوارس لا تفارقها زرودها . ويريغونها من بين أيديها ومن خلفها ، وعن أيمانها وشمائلها . إلى أن ذللوا أعرافها . وألانوا أعطافها . فخيم الإسلام بعقوتها تخييم من أجمع الاعتمار . وسكن إليها سكنى من ألقى عصا التسيار » .

وفى هذه السطور استوى الشاعر والناثر ، واختلط المنشئ المترسل بالعاطفى المبدع ، فارتسمت لوحة جميلة من الأدب ما نظن أن كثيرين يلحقون بوشيها ، وهى قريبة فى إنشائها من السطور التى أوردنا والنماذج التى سقنا من فواتح كتبه ، لا فرق بينها وبينها إلا فى نضج الكاتب على تقدم السنين وتطور الموضوع على تغير الأهداف . وهى كلها من أروع الأساليب وأجمل ما كتب لمطلع القرن العشرين فى النثر الفنى ، يبذ أقرانه ، ويرتفع إلى مستوى السبق بينهم حتى نال بحق لقب « أمير البيان » .

وغريب أن يلبث الأمير شكيب فى الميدان على مثل هذه القوة والبراعة والمتانة خلال أربعين عاماً ، وهو غريب الدار عن وطنه ، بعيد عن ينابيع العربية الثرة ، يعيش بين الأتراك أو الفرنسيين والألمان ، يستمع إلى الهجنة واللكنة فلا تؤثر فى لسانه ولا تتغلب على بيانه ، ويظل مع ذلك يرتقى ويرتقى حتى يكون ذلك النسرالسورىّ ، بل الصقر العربى محلقاً فى الذرى ، يكتب ويكتب فلا يضع القلم إلا ليستأنف التأليف ويخرج هذه الكتب الجمة بأسلوب قديم متين . شأنه فى ذلك شأن أحمد فارس الشدياق رحل وجاب وطوف فى الآفاق مشرقاً ومغرباً ، وفى قلبه حب العربية ، وعلى لسانه أمجادها وبديع أساليبها ، حتى غدت كتبه محجة الأدب الرفيع يرجع إليها الأدباء اليوم فلا يقعون على ضعف أو ركاكة أو سقوط فى التعبير . فإذا لمسوا جانباً من هذا فجواب الأمير عليه واضح حين يقول[1] :

---

(١) شوق أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢٢ .

« فإن الأفكار من جملة حظوظ الدنيا تهب أحياناً وتركد أحياناً . فإذا هبت مرة وجب اغتنامها ، ولم يجز إهمالها على نية أن يعاد إليها مرة أخرى . وإن الأفكار نظير الأقدار ليس فى مقدور الكاتب أو الشاعر أن يجيدها كل حين . وقد تفيض على الرءوس أشعة إذا ولت تعذر استردادها . فاللبيب هو الذى يقنص الشاردة لأول سنوحها ولا يدعها تذهب على أمل أنه يصطادها فيما بعد ، فإنها إذا شردت قد تفوت ، والفلاة طويلة عريضة فلا يحيط بها الصائد ولا تطوى له كيف يشاء » .

وهذا الأسلوب فى الذروة من جمال الإنشاء والتعبير ، حتى قال المنفلوطى فيه قولته المشهورة . فقد روى شكيب نفسه قال [١] :

« وقد كان السيد المنفلوطى — رحمه الله — يوم ترجم شعراء العصر وكتابه المعدودين حكم لشوقى بالسبق فى ميدان الشعر ، وجعل لكل واحد من هؤلاء تعريفاً كان آية فى الإيجاز . ولما وصل إلى كاتب هذه السطور قال : لو لم يكن أكتب كاتب لكان أشعر شاعر . ولكنهما كفتان كلما رجحت الواحدة أشالت الأخرى . ويظهر أنه راجع نفسه فيما بعد ، أو أن بعض الناس اعترضوا عليه فى قوله عن هذا العاجز لو لم يكن أكتب كاتب لكان أشعر شاعر ، فعاد إلى نفس العبارة وأنزلها قوله : لو لم يكن كاتباً فريداً لكان شاعراً مجيداً . فهما كفتان كلما رجحت الواحدة أشالت الأخرى » .

وقال فيه خليل مطران [٢] : « وانصرف إلى الترسل ، فحبس فيه ما أوتيه من العبقرية ، فهو الآن فى مذهبى إمام المترسلين » .

* * *

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

(٢) ديوان الأمير شكيب ، ص ٤ .

نقد هذا الأسلوب :

إن الواجب يقتضينا أن ننظر فى أسلوب الأمير شكيب نظرة موضوعية ، فنقول ماله وما عليه . وقد أوردنا فى الصفحات السالفة آراء المعجبين بالرجل فى شعره كالبارودى وشوقى وفكرى ومحمد عبده وخليل مطران ، وسقنا كذلك آراء المعجبين بالكاتب فى نثره ، كالمنفلوطى ومطران . وهنا يجب أن نقف قليلا عند آراء المدرسة المجددة التى لا تحب هذا الأسلوب ولا تراه سائغاً فى القرن العشرين ، وفى أصحابها كان الأستاذ خليل السكاكينى الأديب العربى من فلسطين . فقد نشر فى جريدة « السياسة » المصرية ، سلسلة من المقالات ناظر بها الأمير شكيب ، ونشرها بعد ذلك فى كتاب عنوانه : « مطالعات فى اللغة والأدب[١] » وأورد فيها مقالاته وردود الأمير عليها . بدأها فى ٢٦ سبتمبر ١٩٢٣ ، وقال فى جملتها[٢] : « مما أولع به أصحاب المذهب القديم إلى يومنا هذا تكرار الكلام فى غير مواطن التكرار ، والإسراف فى استعمال المترادفات على غير حاجة إليها ولا فائدة منها . فهم لا يأتون بكلمة إلا أتبعوها بمرادفاتها فإذا قالوا تمادى الرجل فى ضلاله ، قالوا ولج فى غوايته ، وعمه فى طغيانه ، ومضى على غلوائه . وإذا قالوا أحزننى هذا الأمر ، قالوا وشجانى وأمضنى وأرمضنى وأقلقنى وأقض مضجعى . وإذا قالوا سرنى أمر كذا قالوا : وأفرحنى وحبرنى وأبهجنى وأبلجنى وأثلج صدرى .

وهنا أستأذن القارئ الكريم بتقديم مثل على ذلك من رسالة أمامى لكاتب كبير قال : يا إخواننا إن الصارخة القومية والنعرة الجنسية قد بدأت فى الأقوام ونشأت مع الأمم منذ بدء الكيان ، ومنذ وجد الاجتماع البشرى وتساكن الإنسان مع الإنسان » .

---

(١) نشر فى القدس ، سنة ١٩٢٥ ، فى ١٧٦ صفحة .

(٢) فى المصدر نفسه ، ص ٩٧ .

وتابع الناقد السكاكيني أمثلته من أسلوب الأمير شكيب معرضاً به من غير أن يذكر اسمه قال : « وسبب ذلك إما قلة البضاعة ونزارة المادة الفكرية ، وأصحاب هذا المذهب يحسبون أن اللغة هى كل شىء . فإذا حمل أحدهم على ظهر قلبه مقامات الحريرى وديوان الحماسة والمعلقات والمفضليات فقد صار كاتباً نحريراً ، أو أن يكون ذلك متابعة لما ورد فى بعض أقوال العرب من الترادف لضرورة ، كقول الشاعر : فألفى قولها كذباً وميناً ، أو تقليداً لأحمد فارس الشدياق فى كتابه « الساق على الساق » إلى أن يقول : « ومهما يكن السبب فإن هذا النوع من الكتابة غير طبيعى أو غير عربى أو على الأقل لا يستمرئه ذوق هذا العصر » . وراح الأديب السكاكينى يعرف الكلام فى أنواعه ، فهو مساو للمعنى أو ناقص عنه أو زائد عليه ، ولكل فى العربية موقع ، ولكن العرب يميلون إلى الإيجاز ويكرهون التطويل الممل ، فنحن فى عصر تغلبت فيه روح الاقتصاد ، « بل نحن فى عصر المعنى فيه الأول واللفظ المحل الثانى ، وبعبارة أخرى إذا لم يرتكز الأدب فيه على العلم فلا قيمة له » . وقد صدر هذا المقال بعد أن اشتهر الأمير شكيب وعلا صيته وذاع اسمه ، وظهرت له كتب كثيرة ، وبلغ من العمر فوق الخمسين .

فلما قرأه شكيب أجاب عليه فى « السياسة » بعد أيام ، فرد على الناحية اللغوية فيه — مما نبسطه فى غير هذا المكان — ثم تطرق إلى الأساليب ، فعرض للمثل الذى ساقه السكاكينى من كتابة الأمير شكيب ، فأشار إلى أنه استله من نداء وجهه الوفد السورى إلى الأمة العربية قاصيها ودانيها ، فاضطر إلى تحريك عواطف حميتهم ، وكرر وأكد لأنه فى مقام الإطناب . ثم قال[1] : « ولكننى قبل الشروع فى موضوعى أحب أن أسأله عن قوله : (وأما الأساليب فهناك مذهبان ، مذهب قديم ومذهب جديد فإننى لا أعلم مذاهب جديدة إلا فى العلم والفن . وأما فى الأدب واللغة فلا أعرف إلا مذهباً واحداً هو مذهب العرب ، وهو الذى يريد أن يسميه بالمذهب القديم ، وهو الذى يجتهد كل

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

كاتب فى العربية أن يحتذى مثاله ويقرب منه ما استطاع ، لأنه هو المثل الأعلى والغاية القصوى . وإذا أراد الكاتب العصرى أن يجول فى المواضيع الحديثة والمعانى المستجدة استنفد جميع فنه فى الباس هذه المعانى الجديدة حلل الأساليب العربية القديمة التى هى أصل اللغة والطراز المنسوج على منواله . وقصارى الأديب العربى اليوم أن يتمكن من إفراغ الموضوع العصرى فى قالب عربى بحت لا يخرج باللغة عن أسلوبها ، ولا يهجن لهجتها ولا يجعلها لغة ثانية ، إذ كان التباعد عن الفصاحة والحرمان من حظها هما على مقدار التجانف عن أسلوب العرب عندما كانوا عرباً لم تخامر لغتهم العجمة ، ولم تفسد منهم السليقة .

وإن القمة العليا من ذلك هى لغة الجاهلية وصدر الإسلام ثم ما يليه نوعاً عندما كانت العربية فى عنجهيتها والفصاحة فى إبان سورتها . فأما المذهب الجديدالذى أشار إليه فى الأدب والإنشاء العربى فلا نعلمه فى المذاهب ، ولا وصل إلينا خبره » .

ويضرب الأمير الأمثال من الأدب الفرنسى حين بلغ ذروته فى عصر لويس الرابع عشر ، فكل أديب يخالف الأسلوب الذى اصطلح عليه أدباء الفرنسيس يقولون له : هذا ليس بفرنساوى .

ثم شرع الأمير فى الكلام عن الإطناب والمساواة نقلا عن « صبح الأعشى » ، وفيه يدعم رأيه من أن النداء كان من باب الإطناب . وأتبعه بالرجوع إلى خطب العرب وكتابات فحول البلاغة كالجاحظ والزمخشرى وبديع الزمان والخوارزمى والصاحب بن عباد وابن خلدون والصابى وابن العميد وابن الخطيب ، وأورد كلاماً لأبى هلال العسكرى وغيره ، وسرد أمثلة من بيان على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وزياد بن أبيه وعبد الملك بن مروان والحجاج ، وأبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ودعاه إلى تصفح نهج البلاغة والخطب فيها ، وروى للجاحظ والخوارزمى وابن خلدون والصابى .

ورد السكاكينى فى « السياسة » فانتقد ثانية المترادفات وكثرتها فى جمل الأمير شكيب ، وفى رده الأخير خاصة ، وأخذ عليه أنه يريد أن يظهر كل

مفرداته ، فقال [١] : « وليس هذا أسلوب الأمير ، ولكنه أسلوب قديم أكل عليه الدهر وشرب ، ولعله يتصل بعصر الكهان ، وليس الأمير فيه إلا مقلداً . وإنى أعرف كثيرين من أدباء عصر الأمير وخريجى مدرسته ينحون نحوه فى الإكثار من المترادفات يكيلونها كيلا على غير حاجة إليها ولا فائدة منها . . . ولولا خوفى أن يغضبوا كما غضب الأمير لاستشهدت فى هذا المقام بأقوالهم كما استشهدت فى رسالتى تلك بأقواله » ، ثم يقول السكاكينى إنه مستطيع أن يورد أضعاف ما أورد الأمير من شواهد ليس فيها ترادف ولا تكرار من كلام من يوثق بعربيته .

ولم يسكت الأمير شكيب على رد السكاكينى ، ولم يقنع بجوابه وإنما كتب كذلك ، ليتساءل من جديد عن هذا المذهب الجديد ، وأعاد ذكر الفحول من الكتاب والخطباء ، وقال : إن المترادف ليس أصلا من أصول البلاغة لا غنى عنه جاء فى محله أو فى غير محله ، وكل الذى يريد أن يقول إن للمترادف مواضع وقد جاء فى كلام أهل البيان « ولا ينشأ من ذلك كما يفهم بالبديهة أننى أنكر بدائع الإيجاز ، أو أوجب الإطناب فى كل مكان حتى تورد لى شواهد على ما لم تسبق لى دعوى بإنكاره ، وتتكثر هذا التكثر بدون سائق له [٢] » ثم قال عن صاحبه وهو يناقشه : « ونسى أن الطبيعة البشرية فى هذا العصر وفى كل عصر ، واحدة تميل إلى الإيجاز فى محل الإيجاز ، وتهتف بالمترادف فى محل التأكيد . وأن الذى قدره من ذلك علماء الأدب هو المنطق المعقول الملازم للبشرية الذى ليس فيه قديم وجديد . لأن العقل ليس فيه قديم وجديد » . وقال بعد ذلك : « بل ، والله ما غضبت لنفسى مثلما غضبت لأساطين اللغة وسلاطين البلاغة أن يقوم اليوم واحد مثلى أو أعجز منى ، فيقول إن بلاغتهم صارت قديمة بالية وأنه هو سيغنينا عنهم بأسلوب جديد » . ثم استشهد بكتاب معاصرين .

(١) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٣ .

ويقول السكاكينى فى رده الثانى عليه(١) : « إن الأمير يكثر من المترادفات اقتضاها المقام أم لم يقتضها » . ولاحظ أن الأمير شكيب فى رده الماضى لم يأت فيه بالمترادفات يكيلها كيلا بغير حساب ، وإنما تنكب عن ذلك الطريق واعترف أنه بال ٍ ليس طبيعياً ، « ولا يستمرئه ذوق هذا العصر ، ولاشك أن أصحاب المذهب الجديد يرحبون به بل يعتزون به ، وأنا الضمين لهم ألا تحدثه نفسه بالعودة إليه » . وافتخر بأنه من دعاة هذا المذهب .

ويجيب الأمير شكيب بقوله(٢) : « لى ماض يشهد لى بذلك ، و ٣٨ سنة فى عالم المطبوعات من أهرام ومؤيد ومقتطف ومقتبس وجرائد ومجلات عديدة عشت فيها مع الجيل الذى أنا فيه ، واجتهدت أن أفهم الناس وأن يفهمنى الناس ، وجلت فى أكثر المواضيع العصرية ، وطالما ألبست يدى عند الكتابة قفازاً . ولكننى حرصت على أن يبقى أسلوبى عربياً ، وأن أقتدى بنغمة السلف فى دولة فصاحتهم . ألا أقطع علاقتى مع الأجيال الماضية كما يوحى الأديب الذى يكتب فى السياسة ولو أردت أن أعيد نشر ما سبق لى فى معنى حضارة المعانى فى بداوة الألفاظ ، لظهرت لكل قارئ صحة دعواى هذه . »

ثم يقول : « وإن للنزوع إلى الجديد حداً ينبغى أن يقف عنده وهو الحد الذى لا يخرج به عن روح العربية ولا عن طريقة القوم أفصح وأبلغ ما كانوا » .

ورد السكاكينى على ذلك ، فاعترف بأن أكثر أهل عصره يميلون إلى الأساليب الطبيعية ، فعزفوا عن لغة الوعظ وخطباء المساجد ، وابتعدوا عن التكلف « فالأسلوب الطبيعى للكتابة أن يكتب الإنسان كما يفكر وكما يتحدث » . ورأى أن أصحاب المذهب القديم لا يستوحون عقلهم أو قلبهم ، ولكنهم يستوحون القدماء ويستعيرون ألفاظهم ومعانيهم ، ولا يضمنون أقوالهم شيئاً من الماضى . « ومن أحب أن يرى كيف تكون الكتابة حديثاً على سوقه الطبيعى فليقرأ ما يكتبه الدكتور منصور فهمى ، والدكتور طه حسين ،

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥١ .

والأستاذ مصطفى عبد الرازق ، والأستاذ سلامه موسى ، فإذا قرأهم فكأنه سمعهم يتحدثون[١] » . ونعى على أصحاب القديم مبالغتهم فى التأنق وتخير الألفاظ ، ولو خرجوا إلى الكلفة بل إلى السخافة . فهم يستعملون جملا مبتذلة لاكتها الأفواه .

* * *

بين القديم والجديد :

ولعلنا استطعنا أن نلخص زبدة ما دار بين الرجلين من جدل ، يمثل رأى مدرستين فى هذا العصر ، ما زالتا فى نقاش حول القديم والجديد ، غالت كل منهما كل المغالاة فى رأيها على عادة الجدل عندنا ، فأنكرت كل ما للأخرى من حجج ، وسعت إلى الانتصار والظفر . فالنثر الذى ظهر فى أوائل هذا القرن رجع إلى الأساليب المتأخرة على أيدى كثيرين من أرباب المدرسة التقليدية ، نظروا إليها نظرتهم إلى الحفاظ على النثر القديم ، كأنه يوشك أن يزول لهجوم المثقفين على اللغات الغربية ، فخافوا وارتعدوا ، وبالغوا وأسرفوا ، وعقدوا العزم على أن يستعيدوه كما كان لعصوره الأولى من غير أن يمسوه بتغيير أو تبديل ، فكتبوا أحياناً بصور القدماء ومعانيهم وتراكيبهم وعباراتهم ، وكتبوا أحياناً أخرى فى معان مستحدثة وأغراض جديدة بعبارات الأقدمين وألفاظهم . ووقف لهم أرباب المدرسة الجديدة يريدون أن يجاروا روح العصر فى الكتابة العربية بأساليب عربية بعيدة عن التكلف والسجع لعلها تتسع للأغراض الفكرية الجديدة وتسير مع المعانى الواسعة ، من غير قيد أو حد . ولكن أكثرهم خرج على الجمال فى الكتابة ، ونحر اللفظ على مذبح المعنى ، فخانته اللغة ووقفت دون عونه وانحط الأسلوب حتى بلغ الركاكة ، واضطرب النحو حتى ارتفع ما كان حقه الخفض ، وأصبح كل دعى أديباً ، وكل محرر كاتباً ، وسادت الفوضى . وهنا توسع الشق بين الفريقين ، ورمى كل منهما صاحبه بنعوت خرجت عن النقد الرصين الهادئ فى غالب الأحيان ، وظلمت

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٧٢ .

الأدباء الناشئين فحاروا أى السبيلين يتبعون .

وليست مشكلة القدماء والمحدثين جديدة للقرن العشرين عند العرب ، وإنما هى قديمة جدّاً ، نشأت مع أقدم الآداب وترعرعت مع تقدم الإنسان ، فالناشئ يرى من قوته وطموحه وعزمه ما يصغر فى عينيه أساليب من قبله ، ويظن أنه إما سار أشواطاً فى الأدب يستطيع أن يقول فوق كل من قال وما قيل ، وذلك فى طبيعة النشوء والارتقاء . فاليونان عرفوا مثل هذا الخلاف ، والعرب عرفوه لأدوار أدبهم ، ونظر الجديد إلى القديم نظرة المتحضر للبادى وساكن الحضر لقاطن المدر . كان ذلك فى عصر الأمويين والعباسيين وفى العصور التى تلتّها ، حتى جاء العصر الحاضر ، فأثير الموضوع كما أثير فى كل زمان ، ورسمت صحف مصر ما كان من خلاف فى النظر بين أنصار القدماء وأنصار المحدثين ، وسجل الدكتور طه حسين فى « حديث الأربعاء » بعض هذه المناظرات ، فآمن الذى آمن وأنكر الذى أنكر ، وما تزال مدارس النثر كما كانت ، فيها القديم وفيها الحديث . يكتب الكتاب على غرار النثر الفنى الذى اشتهر فى القرن الخامس والسادس ، ويكتب آخرون فى نثر لا التزام فيه ولا قيود . وهؤلاء وهؤلاء يقرؤهم الأدباء ويعجبون ببعضهم وينصرفون عن بعض . وقد تناول الدكتور طه حسين مدرسة مصطفى صادق الرافعى فرأى « أن هذا الأسلوب الذى ربما راق أهل القرن الخامس والسادس للهجرة ، لا يستطيع أن يروقنا فى هذا العصر الحديث الذى تغير فيه الذوق الأدبى ولا سيما فى مصر تغيراً شديداً[١] » . وأجابه الرافعى بقوله : « لقد علم الكاتب أننا لا نزعم أن هذا الأسلوب هو الوجه فى كل فنون الإنشاء ، ومناحى التعبير . بل قلنا إنه شيء من الزخرف وفن التنسيق . ونقول الآن إن أكثر كتاب العصر ، ومنهم الأستاذ طه لا يجيدونه ولا يستطيعونه مهما تكلفوا له ، وبالغوا فى هذا التكلف وتحروا فى هذه المبالغة . وهذا عندنا وجه من وجوه التأويل فى معنى تغيير الذوق الأدبى . وهب أن الذوق تغير ، وأتى على كل شيء فى اللغة وأساليبها ، فأين معنى

---

(١) حديث الأربعاء ، ج ٣ ، ص ٨ — ١٠ .

الطرفة والنادرة والملحة فى مثل هذه الآثار الدقيقة ، وقد قامت الدنيا وركعت وسجدت . . . لدقائق توت عنخ آمون ، مع أن الذوق الفنى مات وبعث ، ثم مات وبعث ، ثم مات وبعث فى أكثر من ثلاثة آلاف سنة . وننبه الأستاذ إلى أننا نشترط فى هذا الأسلوب أن يصيب موضعه وألا يجاوز مقداره ، وأن ينزل كمنزلة الزخرف لا منزلة البناء . »

ونحن حين استعدنا الجدل الذى ثار بين طه حسين والرافعى لا نريد أن نضيف إلى الأمر تعقيداً ، وإنما نريد أن نزيد الأمر وضوحاً ، فالرافعى سار على غرار شكيب وغلا فى خطته ، وطه حسين ذكره السكاكينى فيمن يجب أن يقلدهم الأدباء ، ونظر إليه كمثال للكتابة المعاصرة الجيدة . وشكيب والرافعى حين دافعا عن أسلوبهما الفنى بلغا إلى شيء يحسن الوقوف عنده ، فصرح الرافعى بأن هذا الأسلوب يجب ألا يجاوز مقداره ، وأن ينزل منزلة الزخرف لا منزلة البناء . واعترف شكيب بأن السجع والجناس فى الفاتحة والمقدمة كقاعة الاستقبال وأن السجع رسمى فى المقدمات .

ولعل شكيب والرافعى أرادا أن يقولا إنهما يسلكان هذا الأسلوب زخرفة وتزيينا فحسب ، فلا يصح أن يقع فى كل غرض ، وأن يجرى فى كل باب ، فكأنهما يريدان من ذلك أن هذا النثر نثر فنى يقع للأوصاف والمراسلات والصفحات النقدية الرفيعة والحديث عن الجمال والعاطفة والذوق والإنشاء . فهو يحتاج لذلك إلى التخير فى اللفظ والتأنق فى العبارة فالخيال عامل كبير فى هذا الأسلوب ، شأنه فى ذلك شأن الشعر حين خص بموضوعات الأدب والخيال فلن يصلح للتعليم والتربية والقواعد المنطقية ، والأسلوب الذى لحمته الخيال وسداه العاطفة يتجاوب مع الروح والنفس والقلب ، ويصلح للترنم والغناء ، وهذان يتطلبان ألفاظاً مختارة موسيقية لابد فيها من حلو الكلام وجميل العبارة وغناء القافية . فهو شعر نثرى إن صح التعبير ، بل هو أقرب إلى الشعر منه إلى النثر ، والأدباء الشعراء يحسونه أكثر من غيرهم ، لأنهم يعيشون مع

القوافى ، يمدون إليها أيديهم فى النظم على يسر وسهولة ، ويمدونها لذلك مع النثر على يسر وسهولة فإذا وقع هذا فليس ذلك من التصنع ، وليس من الأدب القديم فحسب لأن هذا الشعر النثرى يصلح لكل زمان إذا توفرت فيه أسباب القول ولم يخرج عن الأغراض التى يقال فيها ، والجمال فى الفن لا عصر له ، ولا زمان يقف عنده ، يصلح للقرن الرابع والخامس والسادس والقرن الرابع عشر ، ويبقى جمالا موفور التقدير .

والسكاكينى وطه حسين يريدان لكلامهما غير هذا الأسلوب ، لأنهما يكتبان فى النقد وتأريخ الأدب ، فالأسلوب الذى يسلكان هو أسلوب العقل والمنطق والحجة ، يدخله التاريخ وعلم النفس ويختلف إليه أحكام النظر والروية والمناقشة فلا يصلح له بحال أن يكون فى نثر فنى له السجع والقافية والتزيين والتزويق والزخرفة . وهما لا يطلبان أن يكون النثر على طريقة واحدة فى كل الأغراض والأهداف ، فيما نرى . ولعلهما لا يرفضان أن يكون كتاب هذه المدرسة القديمة كبعض الشعراء المعاصرين الذين لا يحدد شعرهم إلا بعض القوافى والسجعات .

والمهم فى هذا الموضوع كله أننا وجدنا عند الأمير شكيب أسلوباً آخر غير هذا الأسلوب التقليدى ، هو نثره فى كتبه ومقالاته لا يتقيد فيها بسجع ولا ترادف ، وإنما يجرى مجرى الطبع ويستوى مع غيره من كتاب المدرسة الجديدة ، فى كثير من كتاباته ، وقد بسطنا بعضها خلال حديثنا عنه ، وروينا له عبارات متسقة مع البساطة والجمال ، فهى من السهل الذى يمتنع على الناس حيناً ولا يمتنع أحياناً ، يختلف فيه وفاق موضوعاته وأغراضه ، حتى لكأنه يكتب فى أسلوب الحديث العادى والكلام الموصول حين يحكى عن نفسه ووقائع أيامه وما حدث له فى عمره فى سلاسة جميلة . ومن الظلم أن نجعله فى المدرسة التقليدية لكل كتاباته ، وإنما تحدثنا عنه من هذه الزاوية لننتهى إلى أنه دخل هذا الباب من النثر الفنى وخرج منه منتصراً مظفراً كما انتصر الفحول القدماء سواء بسواء . فهو فى نثره كما كان فى شعره ، يقلد حيناً ، ويتحرر

حيناً ، ويأتى فى كليهما بما يرفعه إلى مستوى البيان الرفيع . وقد حددنا فى نقولنا عنه أن كل ما أوردناه من الأمثلة كان من مقدمات كتبه ، وأن المقدمة وحدها فى الغالب تيسر للقارئ سبيل البحث وترغب فيه ، فهى كدعوة جميلة إلى معرض الألوان والفنون أو إلى متحف التاريخ والآداب ، يزين المؤلف المدخل إليها بضروب الزهر والرياحين ويفرش أرضه بالعطر والطيب . حتى إذا دخل المؤلف مع القارئ معرضه أو متحفه راح يحدثه عن موضوعه فى كلام صريح يتوجه فيه إلى عقله أو إلى لبه ، من غير تزويق أو تزيين ، كمحدث من الطراز الرفيع .

الفصل الثامن

الكاتب الأديب

بسطنا فى الفصول السابقة ما كان للأمير من شعر محافظ جارى فيه الفحول القدماء ، ومن شعر مطبوع سابق به معاصريه وطرق فيه موضوعات الوصف والتاريخ والوطنية حلق بها ، ولكنه لم يتم سبيله الشاعرية ، فوقف عند النثر ، وسلك سبيل النثر المحافظ حيناً فى فواتح كتبه ، ومشى أحياناً فى سبيل الكتاب المترسلين ، فبلغ أوج البيان فى مقالاته ، وفى ترجماته ، وفى رحلاته ، فكان أميراً للبيان حقاً ، يتدفق تدفقاً صخاباً ، فى يسر وسهولة كأنه يغرف من بحر البيان ويستقى من ينبوع الأدب الصافى .

ونحن حين نحاول أن ندلل على أدبه وبيانه لا تعيينا الأمثلة فهى منثورة فى كتبه ومقالاته ، نستطيع أن نجدها فى وصف رحلاته وفى ردوده على المستشرقين والأدباء لأنه يهدر بها هدراً كالسيل لا يقف عند حد ، ولا ينضب معينه فى موضوعاته ، فكأنه حين يكتب ينقل من صفحة خياله أو ذاكرته كما ينقل من الكتب التى يترجم عنها أو يأخذ منها فى أسلوب رفيع وبيان عظيم .

ومن أعظم كتاباته ما سطره فى رحلاته بالغرب والشرق حين يشتد به الحنين أو يستبد به السرور والألم . ورحلته إلى البلاد المقدسة تحوى أوصافاً بديعة نحب أن نروى بعضها مثالا على الأديب الفنان قال حين وصل إلى ميناء « جدة » :

« ولم يقع بصرى على شىء يشبه مياه بحر جدة فى البهاء واللمعان . كنت كيفما نظرت يمنة أو يسرة أشاهد خطوطاً طويلة عريضة فى البحر ، أشبه بقوس قزح فى تعدد الألوان ، وتألق الأنوار من أحمر وأزرق وبنفسجى وعنابى وبرتقالى وأخضر . . . إلخ ، ولا فرق بين هذه الخطوط وبين قوس قزح سوى أن هذه الخطوط مستقيمة وأن قسى قزح مقوسة ، وأن هذه فى السماء وهاتيك

فى الماء ، وقد تشبه هذه الخطوط ذيول الطواويس ، لا فرق بينهما إلا فى كون هذه الذيول المنسحبة على وجه البحر عظيمة جدّاً تمتد مئات من الأمتار وبعرض عشرات منها[١] » .

فهو يقف عند هذه الخطوط على وجه الماء فيرسمها بريشة بارعة ويغمسها بالألوان المختلفة ويشبهها بقوس قزح أو ذيل الطواويس . فلما سأل عن سبب ذلك نقل حديث الربان بلغته وأسلوبه فقال[٢] :

« وقلت له إنى جلت كثيراً فى الدنيا ، ورأيت أبحراً وبحيرات وأنهاراً لا تحصى ، ولم أعهد مسرح لمحة على سطح ماء يحاكى فى البهاء هذا الميناء فما قولك أنت ؟ قال لى : مهما يكن من سيرك فى الأرض ومعرفتك للبحار فلا تعرف جزءاً مما أعرف ، وأنا أقول لك إنى لا أعهد هذه المناظر البديعة إلا لهذا الميناء وحده . فسألته عن السبب فى تشكل هذه الألوان . فقال : إن قعر البحر هنا ليس ببعيد ، وإن فيه أضلاعاً مكسوة نباتاً بحرياً متنوع الألوان والأشكال ، وإن هذه الأضلاع ناتئة قريبة من سطح الماء فتنعكس مناظرها إلى الخارج ، ويزيد ها نور الشمس رونقاً وإشعاعاً » .

وهذا أسلوب سهل ممتنع فيه جمال السياق وحسن البادرة ولذة الموسيقا وسحر الألوان لا يقع إلالأديب وصاف وكاتب كبير . وهو فى وصف الجمال مبدع كوصفه لغيره ، فقد رسم « مكة » وقال :

« مكة هذه البلدة المقدسة التى هى فردوس العبادة فى الأرض وجنة الدنيا المعنوية ، عبارة عن واد ضيق ذى شعاب متعرجة ، تحيط بذلك الوادى جبال جرداء صخرية صماء ، لا عشب ولا ماء ، قاتمة اللون كأنها بقايا البراكين ، إذا مر عليها الإنسان فى يوم من أيام الصيف فى هاجرة ، ظن نفسه يدوس بلاط فرن أو يضجع فى حمام . وإن ترك على تلك الصخور لحماً كاد يشتوى بلا نار ، أو ماء كاد يغلى بلا وقود ، وليس فى تلك الشعاب

---

(١) ، (٢) الارتسامات اللطاف ، ص ٧ .

أشجار ولا أنهار ، ولا عيون تلطف من حرارة تلك الحجارة السود فى حمارة القيظ [١] » .

وكثير من كتابنا زاروا تلك البلاد فما بلغوا من رسمها ما بلغ أديبنا وكاتبنا ، إذ وقع على صور تقرب البعيد وتصور الأرض كأننا نراها ، وقد وصف موقف عرفات فقال [٢] :

« فقد أقبلنا عليها غلساً آتين من منى ، فكانت أشبه بسماء فى كواكبها وطرائقها منها بسهول وهضاب فى خيامها وقبابها المضروبة ومصابيحها المعلقة ونيرانها المشبوبة ، فكان منظراً قيد النواظر ، لا يشبع منه الرائى تطلعاً ، ولا يزداد به إلا ابتهاجاً . وليست عرفات فى النهار بأقل حسناً وجلالا فى تموج جموعها وتراص قبابها ، ولا سيما فى مناظر الخشوع التى تأخذ بالألباب ، ومسامع الأدعية التى ليس بينها وبين الله حجاب » .

وإذا نحن وضعنا هذا الكلام إلى جانب ما نقل إلينا عن ابن جبير وغيره من الأقدمين والمعاصرين وجدنا الكاتب يعلو فى الإلهام والوحى ، وينزل منازل الكتاب العباقرة فى أدبه وأسلوبه . والأمير إذا وصف صحبه الذين عرفهم حلق كذلك فقال فى « أنور » ؛ القائد التركى :

« وكان يعجب جميع من عرفه من جمعه بين البطولة والغشمشمية من جهة ، والحياء والرقة والتواضع من جهة أخرى ، جمعاً مستولياً على الأمد ، يتمثل الإنسان فيه وداعة الحمام فى شكاسة الأسد . وقلما عرف أحد أنور حتى من أشد الناس عداوة لمشربه إلا أحبه ، وهفا قلبه عليه . وكثيراً ما صرح لنا أناس أنهم قبل أن يشاهدوه كانت صدورهم تتأجج عليه بغضاً وشنآناً ، فلما شاهدوه وجالسوه عادت تلك النار فى صدورهم برداً وسلاماً . وكان أنور يؤثر الفعل على القول ، ويكره التبجح والبأو [٣] ، وكان يقول لى : أكره الكلام

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ١٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

(٣) البأو : الفخر .

الكبير . وأكثر ما نقم الناس على أنور كونه من أعظم أسباب دخول العثمانية فى الحرب العامة[١] » .

وهذا أسلوب فى رسم الشخصيات لا يستطيعه إلا أديب حاذق فنان ، وكاتب أريب ، فهو أسلوب سلس مطبوع تنهال فيه الألفاظ وتنحدر فى موسيقا ويسر وسهولة ، قلما نجدها لمعاصر دخل فى دنيا السياسة ، وطرق بابها من أوسع الأبواب فخرج منها بهذا الأدب العجاب . والأمير حين يروى الأحداث يتعلق كذلك بالفن والبراعة فى خطابه وكتابته فيقول بعد أن يروى أخطاء « جمال السفاح » وغيره[٢] : « وقد علمت الخلق التجارب ، أنه كلما تطاولت الأيام ، وتراخت الآماد على الحوادث زيد فى الأخبار ، ونقص منها ، وما زالت تعتورها التصورات بالقلب والإبدال إلى أن تصبح الأخبار فى واد ، والحوادث الحقيقية فى واد ، ويعود التاريخ قصصاً موضوعاً ، فالخبر أمانة فى ذمة المعاصر للحادث ، ولا سيما المطالع والمشاهد » . وهو بهذا يصف المؤرخ ويرسم مهمته أجمل وصف حين يبصره بما يلقى من تغير الروايات وتقلب الآراء واختلاف النصوص .

فإذا وقف موقف المؤرخين وصف المشاهد والشخصيات التاريخية بقلم كاتب أديب يطغى الجمال على أسلوبه ، وتستبد العذوبة ببيانه ، فكأنه خزانة ألفاظ وصور وتراكيب وأخيلة يستل منها حين يريد ما يريد ، ويسوقها إلى قرائه وأصدقائه فى ترجماته ومقالاته ، وكتبه ورسائله ، يستوى عنده الأسلوب الأدبى والأسلوب العلمى فى موضوعات غريبة أو فى موضوعات إسلامية ، فهو يقول فى رثاء رشيد رضا معدداً مناقب محمد عبده وجمال الدين الأفغانى[٣] :

« وهؤلاء المصلحون الثلاثة هم لات هذا الرأى وعزاه ومناته ، والذين بهم سطعت براهينه وبيناته . وقد لقوا فى سبيله الأهوال ، وتعرضوا لكيد الرجال ، وقيل فيهم ما قيل فى غيرهم من قبلهم ممن أرادوا الإصلاح ما استطاعوا ،

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ٤/٣٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ٤/٣٩٣ .

(٣) السيد رشيد رضا ، أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢٥٣ .

فتناولوا أهل عصرهم بقوارص الانتقاد ، وسلقوهم بألسنة حداد ، حتى إذا تعاقبت الأعصار أقرت الأمة بفضلهم ورجعت إلى رأيهم وحصل لهم من الإقبال والحظ بعد الممات ما لم يحصل فى هذه الحياة . وسيرى الناس أن السيد رشيد رضا كأستاذه الشيخ محمد عبده كأستاذه جمال الدين الأفغانى سيكون من الأقطاب الذين هم أعظم جداً مما كانوا فى دورهم وممن سيلقون من الإقبال من دهرهم ما لم يلقوه فى عصرهم . فهؤلاء هم من الفريق الذى يزداد حياة بعد الممات ، وقياماً وهم رفات وإقبالا بعد الذهاب وعلواً بعد المواراة فى التراب » .

ثم قال فيه بمكان آخر (١) :

« وكما كانت أخلاق الشيخ رشيد العالية هى هى فى النجوى كما فى العلن وكانت بلاغته قوته البيانية هى هى أيضاً فيهما ، فلا تجد إنشاءه فى هذه الكتب الخاصة ينزل درجة واحدة عن إنشائه فى المنار وفى كتبه العامة ، لأن ملكة الفصاحة لا تفارق قلمه فى عام ولا خاص ، ولا بد للبحر أن يقذف الدرر كيفما تحرك » .

وكاتبنا الأمير وفى صديقه حقه ، ووصفه أبلغ وصف فى القطعتين ، فجعله فى الأولى ثالث ثلاثة هم رسل الإصلاح وأقطاب العلم ، وصور كيد الناس لهم خلال حياتهم ، وما يكون لهم من خلود بعد مماتهم . ووصف بلاغته وبيانه فى الثانية فجعله فى درجة واحدة بكتبه ورسائله لأن الفصاحة لم تفارق قلم السيد فى عام ولا خاص . وكذلك كان شكيب يصح فيه ما صح فى صفيه بل إنه فى هؤلاء الرسل والأقطاب ناله ما نالهم من مكايد معاصريه ووقع فى البيان موقعاً فريداً مستوياً فى خصوصياته وعمومياته — كما نقول اليوم —

ولقد أوتى شكيب موهبة فى فهم الأدب القديم والحديث عنه ، فكتب فى شوقى على أسلوب الكتب المعروفة للقرن الرابع بجمع النوادر ، يتلفت إلى الحوادث ، ويدلى برأيه فى الأدب ، فيوازن بين البحترى وشوقى ويقول (٢) :

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٧٠٣ .

(٢) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ١٤٣ .

« ومن قرأ القصيدتين البحترية والشوقية لم يتردد فى أن يقول إن القديم طبع والجديد تطبع ، وإن الأول توليد وإن الآخر تقليد . ولكن لو تأمل المتأمل وكان بصيراً بشعر الجاهلية والمخضرمين والمولدين لعلم أن البحترى والمتنبى وأبا تمام وأولئك الفحول لم ينطبعوا إلا على غرار من تقدمهم ، فإن القراءة تستقر فى الذهن وإن القوالب ترسخ فى الطبع ، فتهتف بمثلها سليقة الشاعر ، وقد يكون لا يتذكرها ولا يتعمد محاكاتها ولا يحسب أنها من محفوظه ، فيظن من لا بصيرة له أن هذا الشاعر قد سرق من ذلك الشاعر الذى تقدمه . وهو فى هذا الحكم ظالم متعسف أو جاهل لا يعرف ، لأنه ليس كل من جاء فى كلامه شىء متوارد مع كلام آخر يجب أن نعده سارقاً » .

ولا يقول مثل هذا الكلام إلا أديب وكاتب متين ، يعرف كيف يوازن وكيف يفرق بين المطبوع والمقلد ، ويسبك أحكامه فى سلاسة وسهولة وبيان غير متكلف ، يضع الرجل بين نقاد الأدب وأحسن كتابه . وهو حين يتحدث عن صنعة الشعر يقع فى الكتاب النقاد الذين صنعوا الموازنة والوساطة وطبقات الشعراء ، حسن بيان وجمال سبك فيقول(١) :

« ومن المعلوم أن صاحب الصنعة إنما يتقدم فيها إذا كان راغباً لا متكلفاً ، ومغرماً لا متبرماً ، وكان مجتهداً أن يبدع فيها لأجل الإبداع ولأجل سبق غيره من الصناع . فأما شوقى فكان كله شعراً ، قد وقف نفسه على هذه الصنعة لا يهمه أن يتقن غيرها ، وصارت له غراماً ، فهو آناء ليله يفكر فى الشعر ، وأطراف نهاره يستنبط المعانى الغريبة ، وكلما عنّ له معنى قيده وكلما انفتق فى ذهنه مرمى أحرزه ، وهيأ له قالباً رائعاً ، حتى إذا جاءت أول فرصة أودعه إياها .

ومن أهم ما يغفل عنه الناس وهو من أحق الحقائق : أن الأدباء لها أوقات صفو وأوقات كدر ، وأنها فى أوقات الصفاء قد تبرم قوانين وتخلق

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢١ .

معانى لا تتأتى لها فى جميع الأحايين . وربما لاح فى فكر الأديب خاطر فى إحدى السويعات لو استرسل فيه لأتى بالعجائب ، على حين أنه إذا نشده فى وقت آخر ، وحاول أن يستأنف ما كان يلوح له فى ساعة الصفاء لوجد زنده فيه صلداً ورأى أنه يهيب بتلك الخواطر السابقة فلا تجيبه ، ويطمع أن يقتنص تلك الشوارد التى كانت بين يديه ، فإذا هى الآن لا تطيعه . ومنها ما ذهب غير معاود ، ومنها ما عصى غير مقرن . ولذلك كان يجب على الأديب شفاف الطبع أنه إذا عن له فى سويعات الصفاء معنى مبتكر أو خاطر شريف ، ووجد هذا الموضوع منثالا عليه أن يسرع إلى قيد أوابده ، ويأخذ القلم فيحرره ، وإذا كان شعراً نظمه ، وإذا كان نثراً دبجه ، حتى لا يفوته فيما بعد » .

على هذا وصف مؤلفنا كيف يرد الخاطر وترود الفكرة ، ويطوف الخيال ويقبل الإلهام ، عاناه فيما عانى ، فنظم ونثر واصطاد الأفكار وقيد الخواطر فعرف صنعة الأديب لأنه عاش أديباً ، وفهم مهمة الناقد الذى يرقب الأدباء وهم فى تفاعل يلدون الصور والآراء والأخيلة . ورسم هذه الصنعة أجمل رسم فى أسلوب بديع يحسبه السامع قريب اللحاق فى متناول يده ، يستطيع أن يمد قلمه ليقلده ، فإذا به بعيد لأنه بيان الأديب الحق والكاتب الفحل . ولهذا انتصر فى البيان لأنه رسم خواطر نفسه وغيره ، وصور ما كان منه حين الوحى والإلهام وما يكون من غيره فى هذه السويعات التى يتجلى فيها الشاعر والأديب على قمة فوق القمم ، ويرتفع إلى حيث لا يلحق به إلا العباقرة الملهمون .

ونحن بسطنا نماذج وألواحاً من بيان الرجل ، لنعرض الكاتب الوصاف فى الرحلة ، والمفكر الذى يرسم طريق الإصلاح والمصلحين ، والأديب الذى يصف رحلة الأفكار والإلهام ويبين الشعر والوحى ، وصنعة الشاعر والنقاد ، فرأينا أنه فى هذه جميعاً يستوى على مرابع الجمال فى التعبير والحسن فى التصوير ، والقوة فى السبك ، لا يكاد ينزل عن مستواه الرفيع الذى أقعده بين الفحول ونظمه فى سلك المجيدين . ونحب أن نروى ما كان منه فى علم النفس والاجتماع ، لأنها آلات للكاتب فى جملة آلاته ، ومواضيع يستوفيها فيما يسطر ويحبر ،

فهى إلى العلم أقرب ، ولكن كاتبنا يسلط عليها أسلوبه الأدبى الجميل فيتحدث عن وصايا أفلاطون ويقول(١) :

« ومن وصاياه تنظيم أعمال الوطنيين ، بحيث يقلد كل منهم ما هو أهل له فيجوده ويحصر حركته فى هذا العمل ولا يتجاوزه إلى غيره . وإذا تأمل القارئ فى عقلية أفلاطون الاجتماعية وجدها داخلة فى علم النفس وفى علم الأخلاق . فهو يذكر الأحوال لا على ما تكون عليه فى الغالب ، بل على ما يجب أن تكون عليه .

فالأساس عند أفلاطون هو أدبى محض ، وهو قائم بتطبيق وظائف الاجتماع على القابليات الطبيعية فى البشر حتى يأتى العمل أجود ما يمكن . إلا أن أفلاطون يعتقد بأنه لابد من اختلال النظام شيئاً فشيئاً ، وعند ذلك فلا مفر من التردى » .

وهذا كلام يشبه ترجمة القدماء لآراء الفلاسفة اليونانيين بل إنه أشد وضوحاً وأقرب إلى السلاسة الأدبية منه إلى عمق الفلسفة ، ساقه كاتبنا ليمهد إلى الشبه بين الحكماء الذين سبقوا ابن خلدون وبينه فى المباحث الاجتماعية . وهو يفسر الديمقراطية فى رأى أرسطو فيقول(٢) :

« وتعريف أرسطو للديمقراطية هو هذا : إنها توجد حيث يكون الرجالات الأحرار الفقراء هم القابضين على أزمة الأمور ، وأنها حيث توجد توأمين الحرية والمساواة . قال : وعكسها حكم الأصلاء والأغنياء . وقال : إن الفروق الكبيرة فى الثروة تؤدى إلى الحكم المطلق المنحصر فى بعض البيوتات ، وأن الغاية المقصودة من بناء المدنية هى تأمين سعادة السكان وتمكينهم من ممارسة الفضائل ، والتحلى بمكارم الأخلاق ، وذلك لا يكون إلا بخضوع الجميع للقوانين . وهذه القوانين لا تنفذ جيداً إلا ببعض شروط اقتصادية لا مناص منها مما يعود بترفيه الطبقات الوسطى التى لا تقدر أن تعيش إلا من كسب أيديها ، فهى بطبيعة الحال تحافظ على حسن سير القوانين ولا تقصلم

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، التعليقات ، ص (ى) .

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ص (ل) .

الاجتماعات الشعبية إلا عند الضرورة » .

ويخيل إلينا أن الأمير كان يستطيع أن يكون فيلسوفاً كاتباً ، وعالماً من علماء هذا الفن ، ومؤرخاً فى الاجتماع لأنه ما أوغل فى بحث إلا انتصر فيه غالباً ولا دخل فى باب إلا فاز بالقدح المعلى فى أكثر الأحيان ، وذلك لسليقته وفطرته ، وواسع فهمه وتمكنه من البيان ، يجرى قلمه فى الموضوعات المختلفة من أدب وتاريخ وفلسفة واجتماع ، فيبلغ من كل منها ما يريد كأنه متخصص فى كل على حدة ، وقف نفسه على ذلك ، والواقع أنه ألم بها كلها ، وكتب فيها جميعها فكان الكاتب الأديب حقاً .

وأسلوبه فى السياسة كأسلوبه فى غيره يمضى فى سهولة وسلاسة فلا تقع له على تعقيد أو اضطراب ، وإنما يرتفع إلى شأوه من التعبير والتصوير ، فهو حين يتحدث عن زمن عبد الحميد يقول [١] :

« وفى زمن السلطان عبد الحميد ساءت الأحوال فى مكدونية ، لأن السلطان كان أكثر همه فى المحافظة على شخصه ، وكان شديد التخيل إلى درجة الوسواس فاستكثر من الجواسيس ، وصار بأيديهم تقريباً الحل والعقد . وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع ، بل كان يرمى أكثرها ولا يصدق ما فيها . ولكن اهتمامه بقضية أخبار الجواسيس ألقى الخوف فى قلوب الرعية وصارت فى قلق دائم ، وأصبحت الناس تبالغ فى الروايات عن الجواسيس ، فساءت سمعة الحكومة ، وسخط الرأى العام على هذه الحالة . وبرغم ما كان السلطان يعفو ويصفح ، ويجود ويمنح ، كانت سمعته بعكس ما كان يفعل . وذلك بسبب كثرة الجواسيس وحصولهم على الحظوة عنده ، فصار الناس يعللون جميع خطوب المملكة بسوء الإدارة ، ويعللون سوء الإدارة بانتشار الجواسيس وفقد الحرية » .

وهكذا يصور العصر تصويراً كاملا على بساطة ويسر ، كأنه يتحدث ولا يكتب ، ويقص ولا ينشئ ، بغير تكلف أو تعمل ، وبذلك استطاع

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، تعليقات على الترك ، ٣٣٤ .

أن يكتب آلاف الصفحات من كتبه ويرسلها إلى المطبعة من غير أن يعيد النظر لما قد يقع فيها من تنافر وتناقض أو اختلال أو غموض ، لأنه تمرس بالكتابة عصراً طويلا ، دخل فى الصحافة منذ نشأته يكتب فى الموضوعات كلها ، وظل حياته كلها يكتب وينشر حتى غدت له ملكة مطبوعة على الترسل والإنشاء ، كما كانت لكبار الكتاب فى العالم كله . ونحن نحب قبل أن نختم هذه النماذج من بيانه ، أن نروى صورة لمقالاته فى الصحف ، نتخذ إحداها صورة لمئات نشرها فى مصر والشام وغيرهما . فقد كتبت مجلة « الفتح » أن الأمير منذ عاد من الحجاز اشتدت الرقابة عليه فأجاب بمقالة نشرها فى هذه المجلة قال[١] :

« إن تضييقات الاستعمار أمكنت دول الاستعمار فى حق مع الأسف فى الشرق لا فى أوربة : لا أقدر أن أطأ أرض سورية ، ولا أقدر أن أطأ أرض فلسطين برغم كل المراجعات الرسمية وغير الرسمية ، بل برغم البرقيات إلى القدس من نظارة الخارجية البريطانية . ونظارة المستعمرات . لا أقدر أن أطأ أرض مصر فى ذهابى إلى الحجاز ولا فى إيابى منه إلا بشق الأنفس . . . »

وقال فى مكان آخر يصف فيه حال سورية لعهده[٢] :

« وسورية نفسها منطوية أحناؤها على كثير من سل اللادينية السارى بسرعة ، ولو كان الله ألهم إنكلترة وفرنسة أن تفيا بالوعود التى أكدتاها للعرب والعهود التى حررتاها فى قضية استقلالهم لكان انهار الدين الإسلامى انهياراً مدهشاً فى سورية .

ولكن نكث الحلفاء فى عهودهم ووعودهم وإساءتهم معاملة الشرقيين وبخاصة المسلمين وانقلابهم من نعاج قبل الانتصار على ألمانية إلى ذئاب من بعده ، وغير ذلك من سياستهم الجائرة ، أحدث عند المسلمين حتى الشبان منهم حركة إسلامية منشؤها كره الأجنبى الغادر الناكث الماكر الذى لو كان وفى معهم

---

(١) « الفتح » العدد ١٨٢ ، فى ١٦ يناير ١٩٣٠ .

(٢) مجلة الفتح العدد ١٩٥ ، ١٧ أبريل ١٩٣٠ .

لكانوا أحبوه وكرهوا الإسلام لأجله ، ولكنه من حيث إنه نكث كرهوه وعادوا إلى الإسلام » .

ولم نرو هذا لنناقش الأمير صواب رأيه أو بعده عن الواقع ، وإنما لنكمل الصورة التى أردناها لبيان أدبه وأسلوبه وكتابته ، تحرينا عنها فى كتبه وفى مقالاته لنعرضها نماذج تمثله فى الميادين كلها والنواحى جميعها ، ولننتهى إلى أن الرجل كاتب أديب موثق ، يجلى فى الحلبات كلها ويستوى فى أدبه وبيانه مع كبار الأدباء بل إنه يصح فيه أنه « أمير البيان » غير مدافع .

الفصل التاسع

ثقافة شكيب

فى اللغة العربية — واللغات الأجنبية

فى اللغة العربية :

رأينا ما كان من شعر لشكيب جارى فى كثير منه فحول الشعراء وقرأنا ما كان له من نثر سابق فى كثير منه كبار الناثرين والمنشئين المترسلين ، وعرفنا الموضوعات التى طرقها فى مقالاته وكتبه ، فوجدنا فيه رجلا واسع الاطلاع بعيد الثقافة ، يلم بأطراف المجد الأدبى ، فى أسلوبه وفى لغته وفى أفكاره . ولعل ذلك راجع إلى النشأة التى كانت له والتربة التى عاش فيها والظروف التى أحاطت به ، فقد عرف أعلام العصر فى بلده وغير بلده ، منذ ترعرع وشب — كما قلنا — ، وتتبع آثار العلماء والمفكرين والأدباء من العرب وغير العرب ، وكانت له حافظة باهرة ، وذاكرة مدهشة ، ودأب على التعلم والاستفادة ، وكانت له يراعة ساحرة واتته فى تسجيل أفكاره فكان ناجحاً فى أكثر الميادين التى خاضها والمراحل التى قطعها .

وقد رأينا أن نشأته لم تكن أقل من أية نشأة جامعية موفقة لهذا الزمان ، فقد تتلمذ على رجال العصر ، وحاول أن يفيد من الكتب والآثار والمجلات ، وأن يشارك فى الكتابة محتذياً أحسن المراتب وأرفع الدرجات ، وكسب الخلود بما أنتج وما خلف . وهذه الدراسة الجامعية لم تكن وقفاً على فرع الأدب العربى ، أو التاريخ الإسلامى ، أو الجغرافية العربية ، أو الفلسفة والاجتماع ، وإنما

كانت تتعدى ذلك كله إلى فروع المعرفة المختلفة ، فدخل فى علوم اللغة العربية ، وفى الآداب الفرنسية والألمانية والتركية ، وبرهن على أنه كان يجيد كل منها غالباً

ولقد رأينا أنه نشأ أول الأمر كاتباً صحفياً يرسل مقالاته فى صحف بيروت ثم فى صحف القاهرة ، فيكتب فى كبريات جرائدها وعلى رأسها « الأهرام » بتوقيع متستر ، ثم بتوقيع ظاهر ، وطفق بعد ذلك ينشر فى كثير من الصحف المصرية والسورية فيمطرها بوابل مقالاته ، ويملؤها بنتاج عقله النير الخصب وقلمه السيال ، حتى ليخيل للإنسان أن الرجل صحافى ، بلغ الذروة فى المقالة الاجتماعية والسياسية والأدبية ، ولو جمعت مقالاته لكانت مجلدات فى فنون الآداب جميعاً ترفع له ذكراً .

ونشأ كذلك فى ظل اللغويين الفحول أصحاب المعاجم ، فكان أستاذه الشيخ عبد الله البستانى ، مؤلف المعجم الكبير « البستان » وهذا المعجم دليل على تضلع الشيخ ومعرفته الواسعة ، وشغفه الكبير بمفردات اللغة . وكان صديقه الأستاذ سعيد الخورى الشرتونى وهو كذلك مؤلف لمعجم كبير هو « أقرب الموارد » ما يزال مرجعاً لكثير من اللغويين ، يقع فى ثلاثة أجزاء كبيرة[1] تعقب فيها معاجم القدماء وأضاف إلى كتبهم . وكان إمامه أحمد فارس الشدياق[2] صاحب الآثار العظيمة والكتب اللغوية الضخمة ، فتبعه شكيب كذلك وأحب كتبه وهو لم يلقه أبداً ، وإنما كان أستاذه الروحى وعدته وقبلته فى اللغة . وعن هؤلاء الثلاثة أخذ شكيب وإلى هؤلاء وغيرهم كان يرنو ، فأصبح قوياً فى اللغة ، يحب أن يكتب فى بحوثها وموضوعاتها ، كلما أتاحت له الفرصة . فراح منذ الثامنة والعشرين من عمره يكتب فى الرد على إبراهيم اليازجى ، ولم يكن يقف له إلا عالم كبير ، فكتب مقالة فى الدفاع عن أحمد شوقى سنة ١٨٩٨ ،

---

(١) صدر فى بيروت سنة ١٨٨٩ ، على ألفى صفحة من الحرف الدقيق ، مرتب على الحروف ترتيباً حديثاً .

(٢) عاش أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ — ١٨٨٧) .

يدحض فيها آراء اليازجي ، وهو نفسه يعترف له بالقدرة فيقول : «وقد كان اليازجي فى عصرنا من أبصر جهابذة اللغة ، وأفرس فرسان الإنشاء ، ولم يكن يؤتى من جهة كهذه . وكان من أمتن من عرفنا تركيباً وأجودهم سبكاً . ولكنه كان مولعاً بالتعنت ، متهافتاً على التنقص ضيق العطن ، لا يتردد عن تحجير الواسع مهما اتسع . وكان إذا لم يطلع على مسألة من المسائل نفاها عن العربية ، وإن لم يجد فى المعاجم المعروفة بين أيدينا لفظاً من الألفاظ سجل بأنه ليس بعربى [1]» .

وحكاية الأمر أن إبراهيم اليازجى[2] اطلع على رسالة شوقى المسماة « عذراء الهند » فكتب عنها فصلا فى مجلته « البيان » وأنحى بنقد شديد على شوقى ، وتعقبه فى جمل وألفاظ ، زعم أنها مما لا تجيزه قواعد اللغة العربية « وكأنه أراد أن يسقط منزلة شوقى بين الأدباء لأن الأديب لا يصح أن يسمى أديباً إلا إذا استكمل أداته من اللغة والنحو والصرف والبيان [3]» .

وكان شكيب معجباً بشوقى ، فتصدى لليازجي وكتب رداً عليه ، وكان اليازجى فى الخمسين ، وشكيب فى مطلع الشباب ، فخطأ اليازجى ، وناقشه فى استعمال بعض الكلمات ومنها (احتمى ، نوال ، النواقيس) ، فقد قال اليازجى ببعدها عن العربية فى المواضع التى استعملها شوقى . وأورد شكيب من أشعار العرب فى البرهنة على ذلك . فروى من شعر عون بن أيوب الأنصارى فى كلمة احتمى ، قوله :

حمت كل داء من تهامة واحتمت
بصمّ القنا والمرهفات البواتر

ثم روى من شعر الحماسة فى صحة كلمة (نوال) :

أرى الناس يرجون الربيع وإنما ربيعى الذى أرجو نوال وصالك

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٥٦ .

(٢) عاش الشيخ إبراهيم اليازجى ١٨٤٧ — ١٩٠٦ ، عمل فى بيروت ، ثم انتقل إلى مصر وأنشأ مجلتى البيان والضياء ، وأدى خدمات جلى للعربية ، وقد جرى فى آثاره مجرى الثعالبى والهمذانى ، فجمع المفردات وتنخلها ، وأتم شرح ديوان المتنبى وقد بدأه أبوه قبله .

(٣) شوقى أو صداقة . . . ص ٥٥ .

ثم قال بجواز استعمال الناقوس فى المعنى الذى قصده شوقى ، فالناقوس كان خشبة فى أيام الجاهلية ثم صار فى أيام المدنية نحاساً ، ونطق به الفصحاء[١]

وتطرق شكيب فى رده هذا إلى كتاب إبراهيم اليازجى وعنوانه (لغة الجرائد) فناقشه على طريقته فى عدم استعمال القديم إلا لما وضع له عند القدماء . وقال له إن الجريدة من مواضعات المولدين وهى فى اللغة سعفة النخل اليابسة ، والخيل لا رجالة فيها . فهل يقف اليازجى عند هذه المعانى ، أم يولد فيها وينقلها إلى حاجة العصر ؟ وكان شكيب يدعو دائماً إلى وجوب الوضع قضاء لحاجة العصر ، ووفاء بالمعانى الحديثة التى لم تكن عند العرب .

وثار اليازجى العالم على الشاب الناشئ ، وسخر منه ، وعجب الناس لدخول شكيب فى هذه المعمعة وجرأته فى هذا النقد ، فدل منذ شبابه على تعلق باللغة وتمكن منها ، وعكوف على مفرداتها والصحيح فيها .

ويبدو أن أوار المساجلة اللغوية لم يخمد بين شكيب واليازجى ، فقد قرأنا فى محاضرة الأستاذ أمين نخلة « الحركة اللغوية فى لبنان » ما يلى[٢] :

« وقد نشر الأمير شكيب فى سنة ١٩٠٥ (الضياء وابن سراج) ساق فيه ما عنده من الجواب على انتقاد الشيخ اليازجى (لآخر بنى سراج) وخلص إلى القول إن العربية يقع فيها النقل لأدنى ملابسة . وهى نكتة الكلام فى الكتاب .

« أما هذا الذى شجر بين الشيخ اليازجى والأمير شكيب بسبب (آخر بنى سراج) فإن فيه صدى مما كان بينهما من مناظرات لغوية ، طال فيها النفس حتى تصرم المئة الماضية ، ولا يزال الحديث ، فى حلقات أهل العربية يفضى إلى ذكرها ، فى الأحايين ويدور على طرفها ، وطلاوتها . وذلك أن الشيخ اليازجى

---

(١) عاد شكيب إلى الحديث عن هذا بعد ثلاثين سنة ، فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٢٩ ، ٩/ ١٨١ ، وأثبت صحة رأيه .

(٢) الحركة اللغوية فى لبنان ، لأمين نخلة – الطبعة الثانية – بيروت ١٩٥٨ ، ص ٥١ –

انتقد مواضع من (الدرة اليتيمة) تأليف ابن المقفع ، وقد صححه ونشره بالطبع الأمير شكيب ، فرد الأمير على الشيخ لما رأى من تبعة يطالب هو بها ، عند الاعتراض على كلام طبع تحت ملاحظته وجاوبه الشيخ[١] » .

ولعلنا بالغنا فى وصف المساجلة ، فهى فى عبارات لطيفة لا تعدو حدود الحشمة والاحترام بين الرجلين ، فقد قال اليازجى فى رده : « قلنا إنا ليعز علينا أن نرى ما نشرناه من النقد على هذه الرسالة قد ساء أكرم صديق علينا ، وأعظمهم حرمة عندنا . . . » وفى هذا من التجلة والإكبار والأدب ما يحسن أن يتلى على شباب اليوم وناقدى الكتب ، كدرس ومثال وأنموذج ، وجواب شكيب عليه مثله فى الأدب والاحترام عرضنا له فى حديثنا عن كتاب شكيب فى شوقى [٢] ، وألمعنا إلى دموع شكيب فى رثاء اليازجى . فقد كان الرجلان يعملان للغة فحسب ، لا يحملان حقداً ولا ضغينة .

وظل شكيب يكتب ويساجل ويناقش ، وينشر فى مجلات بغداد ودمشق والقاهرة . وفى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق صفحات لشكيب علق فيها على آراء العلماء واستعمالاتهم ، فكتب ملاحظات على مقالات سليم الجندى ، وعبد القادر المغربى ، وإبراهيم المنذر ، وغيرهم . ومما ناقشه مقالة[١] رد بها على المغربى اللغوى فى تخطئته كلمة « وقاد لنا النور » و « المفترجات » ، كما أنكر على الأستاذ سليم الجندى تخطئة جمع « مشهور » على « مشاهير » ، كما أنكر على الأستاذ الكبير الشنقيطى منع كلمة « مصلحة » .

ودخل مرة فى مناقشة أثارها الأستاذ إبراهيم منذر وأحمد رضا وهما من كبار اللغويين ، فأرسل من لوزان[٤] يقول بصحة كلمة « راتب » بمعنى رزق مرتب لإنسان ، وأنه عثر فى ابن جبير وابن خلكان على أمثال لها ، كما أدلى برأيه

---

(١) انظر مجلة البيان ١٣٢/١ – ١٣٩ ، ورد الأمير عليه ص ٢١٩ ، ثم رد الشيخ اليازجى على شكيب ص ٢٢٧ .

(٢) انظر شوقى أو صداقة . . . ص ٥٨ .

(٣) مجلة المجمع العلمى بدمشق ، سنة ١٩٢٧ ، ٥٥٠/٧ .

(٤) المصدر المذكور سنة ١٩٢٩ ، ١٧٨/٩ .

فى ألفاظ (المصادرات ، المناداة ، الخوان) .

وكان شكيب يعرف رشيد رضا منذ زمن بعيد ، وتوثقت بينهما الصلات فيما بعد ، فأصبح الرشيد يطبع كتب صديقه ويقف على تصحيحها ، ويبيح لنفسه تقويم بعض ألفاظها كما كان يفعل فى كل ما يتلقاه للنشر والطبع ، وهنا كانت تثور بين الرجلين مناقشات لغوية جديرة بالنظر والمراجعة ، وكان شكيب يقول(١) : « كنت دائماً إذا وجدت فى كلام السيد لفظة لا أجد لها أصلا فى اللغة أعترض عليه فيها ، وأسأله عن الوجهة عنده فى هذه اللفظة ، وكان هو يفعل معى كذلك » .

وقد جمعت مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق بعض هذه الطرائف بين الرجلين فى مقال(٢) أخذته عن كتاب شكيب فى رشيد رضا ، وقد ظهر فيها أن الأمير شكيب أخذ على صديقه الرشيد استعماله كلمة الدعاية فردّ عليه الرشيد بالأحاديث والشواهد .

وأخذ رشيد رضا على صديقه شكيب استعماله بعض الألفاظ ، فى رواية آخر بنى سراج مثل : « الخطر المحيق ، وأن هذا لنبأ عظيم ، وارتياد التعاشيب ، وسرت الفلك بريح طيبة . . . وغيرها » ورد شكيب على بعض التصويبات ، معتمداً على « لسان العرب » ، ومغنى اللبيب لابن هشام ، فناقشه فى النواحى اللغوية والنحوية ، ودفع عنه كثيراً مما أنكره الرشيد ، فى باب العدد ، أو العلة وغيرها ، فدلل على أنه يستطيع أن يقف لفحول اللغويين ، على بعده عن المراجع الكثيرة ، وحاله فى المغترب . وقد ختم شكيب هذه الاعتراضات بقوله :

« لو نفضنا كلام المؤلفين من بعد الإسلام إلى اليوم لوجدنا فيه ما لا يحصى من الاستعمالات التى لم يكن يعرفها العرب ، ليس فى الأمور العلمية والفنية والمواضيع الفلسفية فحسب ، بل فى الأمور المعتادة الاجتماعية أيضاً ، فقد استعمل العرب بعد الإسلام جملا وألفاظاً لا يأخذها الإحصاء ، لو نشر

---

(١) السيد رشيد رضا . . . ص ٣٤٦ .

(٢) مجلة المجمع بدمشق ، سنة ١٩٣٧ ، ١٥/٢٦٩ — ٢٨٤ .

عرب الجاهلية وألقيت على أسماعهم لم يفهموها ، ولا عرفوا المراد منها ، حتى إنهم قالوا إن بدوياً سئل عن القلم فلم يفهم معناه ، فقيل له ماذا تتصور من كلمة القلم ؟ فقال : أتصور أنه شيء يقطع أو يقلم ولا أقدر أن أفهم شيئاً من وراء ذلك . . . »

وهكذا كان شكيب واسع النظرة إلى اللغة ، يحبب النحت والتوليد ، ويكره أن يضيق الناس باب الاجتهاد المعقول ، بعد النظر فى أساليب العرب وقواعدهم وطريقتهم فى فهم اللغة . وكان مشغوفاً بالمفردات المتينة يدخلها فى إنشائه ، ولا يشعر بغرابتها فى الاستعمال فهو يرى أنها قد تصقل على الزمان وتصبح قريبة من الآذان . وكان يتصيد فى كثير من جمله المفردات الموسيقية وخاصة ما يجانس اللفظ والمرادف والسجع ، مما كان يؤخذ عليه فى كتاباته المؤلفة أو المترجمة . وكان عبقرياً فى نحته الألفاظ العربية للكلمات الأوربية ، يصيب فى كثير منها كبد الصواب ، سواء فى ذلك الكلمات اللغوية أو الأعلام الأعجمية ، وهو فى هذا كأنه يصنع معجماً للعربية والفرنسية ، لو جمع ما كان منه فيها لكان كتاباً نافعاً جديراً بالحفظ والاحتذاء .

وحب الأمير للغة دفعه إلى البحث فى اللهجات العربية وعلاقتها بالتاريخ ، فكتب دراسة جعلها بالفرنسية ، وتلاها فى مؤتمر المستشرقين المنعقد بليدن سنة ١٩٣١ ، ونشرها بعد ذلك بالعربية ، وتمنى أن يطبعها على حدة[١] . وهذه الدراسة هامة مفيدة ، تنبه إليها قبله صديقه حفنى ناصف ، فألقى فى الموضوع نفسه رسالة فى مؤتمر المستشرقين بفينة ، سنة ١٨٨٦ ، وعنوانها « مميزات لغات العرب » ، واعترف شكيب بها وذكر فضل السبق لزميله فيها ، ولكنه أحب أن يستأنف البحث بعد خمس وأربعين سنة ، ليضيف إليه آراء جديدة

---

(١) نشر المقال فى مجلة المقتطف ، يناير ١٩٣٢ ، وقد صرح فى كتابه الحلل السندسية ١ / ٤٦٤ : « وربما أطبعها على حدة إن شاء الله » .

(٢) نشرت هذه الرسالة أخيراً على يد ابنه الأستاذ مجد الدين حفنى ناصف ، وطبعت فى مطبعة جامعة القاهرة ، سنة ١٩٥٧ ، فى ٤٩ صفحة .

ومشاهدات نافعة وإحصاءات شاملة .

وقد قال شكيب فى رسالته هذه إن البلدان قد تتباعد ولكنها تتشابه فى لهجتها ، وذلك لوحدة مشتركة فى نسب ساكنيها ، ورابطة بينهم وبين أقربائهم فى بلد بعيد ، وضرب مثلا على ذلك الإمالة ، فقد كانت لغة قيس وتميم وأسد ونجد ، قرئ بها كثير من آيات القرآن الكريم . وعدد شكيب البلاد التى فيها الإمالة والأقاليم التى لا تعرف الإمالة فى المشرق والمغرب . وذكر مفردات الأندلسيين وطرائق لفظهم ولهجاتهم ، وما يعتمده الأسبانيول اليوم من النطق بهذه الأشياء والأعلام . ثم سرد قائمة طويلة للكلمات التى لا تقع عليها الإمالة فى ألفاظ السوريين . وعرض للهجات العرب ، ولفظ القاف فى مصر وأقسام اللفظ . كما بسط لهجات لبنان ومناطقها ، وفلسطين ، وختم بالتشابه بين لهجة الشاميين والأندلسيين .

ونحب أن نورد فيما يلى مثلا من أسلوبه فى هذه المقالة : « ولما كان لنجد من العلاقة مع الشام ما ليست لها مع غيرها كانت لغة نجد بدون نزاع هى التى كان لها التأثير الأعظم فى لغات القبائل العربية التى انتجعت الشام . وقد طالما فكرت فى هذه المسئلة ، فلم أجد سبباً لفشو الإمالة فى لغة الشام غير التأثير النجدى وطى الإمالة الأصلى . ولا نقول إن جميع قبائل العرب التى نزلت الشام صدر الملة كانت من نجد بل كان منها قبائل حجازية ويمانية تقل فى ألفاظها الإمالة إلا أن هذا لم يكن سبباً لعدم غلبة لفظ الإمالة عليها ، فإنه من سنة الاجتماع اقتداء الأقل بالأكثر ، وعليه اتبعت هذه القبائل لهجة الأكثرية ، فالدروز فى لبنان والشيعة فى جبل عاملة هم جميعاً يمانيون كما هو ثابت تاريخياً ، ومع هذا فإن الإمالة اليوم غالبة على لفظ الفريقين » .

وقد أثبت شكيب فى هذه الدراسة نتيجة خبرته وما سمعه من لهجات فى البلاد العربية وخاصة فى سورية ، ثم أضاف إليها ما قرأه فى الكتب عن ألفاظ الأندلسيين ، وما سمعه بنفسه حين زيارته الأندلس وذكر تشابه النطق عند الأندلسيين وعند أهل الشام ، وذلك لأن السواد الأعظم من عرب الأندلس

كان من القطر الشامى . ثم أورد مجموعة من الألفاظ غير خاضعة لقاعدة الإمالة ومجموعة منها فيها الإمالة . وتطرق إلى لفظ القاف فى مصر ، فروى كذلك ما سمعته أذناه من ألفاظها فى مختلف نواحى مصر ، وقد بلغ شكيب فى بحثه هذا منزلة من منازل العلماء يغبط عليها ، وهى قريبة مما يصنع فقهاء اللغة عند المستشرقين اليوم فى رسم جغرافية اللهجات ووضع مصورات لها مفصلة .

وهذا بحث ممتع نحسب أن مثله كثير فى جعبة الأمير لم نقع عليه منشوراً فى كتبه . ولكننا عرفنا أنه خلف كتاباً مخطوطاً عنوانه « اللهجات العربية » لم ينشره ، ولا نعرف من بحوثه شيئاً ، فإذا طبع فيما بعد دلنا على باع الرجل فى المباحث اللغوية التاريخية ، ووفرة تسقطه لمراجعها .

وقد أنبأنا أحد أصدقاء الأمير أنه قبيل موته[١] أودع كتاباً مخطوطاً عند أحد الناشرين فى بيروت ليطبعه له ، وكان فى دفاتر ، وعرفنا أن عنوان هذا المخطوط هو : « القول الفصل فى رد العامى إلى الأصل » فلعله يشبه ما كتب « الشدياق » فى الموضوع أو ما ألفه العلماء قبله فهو شبيه بما ألف اليازجى فى « لغة الجرائد » ، وما نشر المغربى فى مجلة المجمع بدمشق ، وما صنعه سليم الجندى حول هذا الباب .

ونحن حين نتصفح الكتب المترجمة التى أرسلها شكيب ونشرها نجد فيها مفردات لغوية نحتها ، واشتقها ، وأوجدها أو وضعها ، تشهد له بطول الباع فى اللغة ومعرفة معاجمها ، فقد سالت على قلمه كلمات جميلة كترجمة للمفردات الفرنسية ، نذكر منها (فيلا : مغنى) (بار : زراج) (السكرتير : الناموس) (المجمجمة : حين لا يمسك الشيخ ريقه من الكبر) . وكثير غيرها لا نستطيع أن نحصيها فى هذه الصفحات ، فهى تحتاج إلى دراسة أوسع وتتبع أكثر .

* * *

(١) انظر مجلة الأديب البيروتية سنة ١٩٤٧ ص ٧٩

فى اللغات الأجنبية :

وهذه الجمل والكلمات المترجمة تسوقنا إلى بيان ثقافة الرجل فى اللغات الأجنبية وسعة اطلاعه عليها . فقد رأينا له صفحات مترجمة عن التركية ، والألمانية والفرنسية . وعرفنا أنه تعلم التركية منذ نعومة أظفاره ، وأفاد منها فى رحلاته إلى الآستانة وصلاته برجالات الأتراك فى لبنان وسورية وغيرهما . فقد علمنا أنه صحبهم فى كثير من الأسفار واجتمع إليهم ، وتداول معهم ، وناقش أدباءهم ومؤرخيهم ، وترجم لنا من أشعارهم إلى العربية ، وبسط من آدابهم فى ثنايا كتبه ومقالاته ، حتى عده كثير منهم أديباً باللغة التركية .

وقد حدثنا شكيب أنه قامت بينه[1] وبين أديب الترك عبد الحق حامد مودة أكيدة ، وأنه تساجل معه فى الشعر التركى . وأحرز فى ذلك قصب السبق . ولكننا لم نجد له كتاباً مترجماً عن التركية ، لأنه كان يرد الينابيع الأصيلة التى وردها الأتراك ، فعاف السواقى .

وتعلم الأمير كذلك اللغة الألمانية ، ورحل إلى ألمانية مراراً ، واتصل برجالاتها كذلك ، ورافق الإمبراطور غليوم الثانى كرائد له فى زيارته للشام بأمر السلطان عبد الحميد[2] ، وترجم له مديح شوقى فيه [3] كما ترجم له أشعاراً من العربية إلى الألمانية . وقد أقام الرجل فى ألمانية زمناً ، واتخذ منها سكناً ، واشترى فيها بيتاً ، ونقل كتاب « كيللر عن غزوات العرب فى سويسرة » من الألمانية . ولكن صديقه « تقى الدين الهلالى » قال فيه : « وحاول إتقان الألمانية فلم يبلغ فيها مراده[4] » . فما هو مراد شكيب ، وما مبلغ طموحه ، وهل كان يريد أن يتقن الألمانية كالتركية والفرنسية ؟

أما اللغة الفرنسية فقد تعلمها كذلك منذ صباه فى مدارس بيروت ،

---

(١) شوقى أو صداقة . . . ص ١٨٠ .
(٢) ذكرى شكيب ، ص ٥٥ .
(٣) شوقى أو صداقة . . . ص ٢٠٢ .
(٤) ذكرى شكيب ، ص ٣٤٨ .

وسافر فى مطلع شبابه إلى فرنسة ، وأقام فيها مراراً ، ثم استقر فى سويسرة يتكلم الفرنسية سحابة يومه ، وعاش فى قوم يتحدثون بها ، وأقام ربع قرن يقرأ صحفها ويطالع كتبها حتى كان له فيها قلم سيال وأسلوب متين . وتعلق بأساليب الفحول من كتاب الفرنسيين ومؤرخيهم ، فترجم لشاتوبريان ، وأناتول فرانس ، وفهم الأدب الفرنسى ، وعرف سير أعلامه ، فأحسن النقل والتعليق والموازنة ، وكان كتاباه يدلان على سعة إطلاعه ووفرة تمكنه من هذا الأدب ، حتى لكأنه يؤلف فى تاريخه كتاباً شاملا .

وهذه الثقافة الفرنسية مكنته من الرجوع إلى مصادر المستشرقين وتعريب كتبهم ، وتلخيص أقوالهم ومناقشتها والرد عليها ، فكثرت أسماء أعلامهم فى بحوثه حتى نافست أعلام العرب ، نجد فيها دوزى ورينو وليفى بروفنسال وبديكر وكونده ودرمنغم ورينان . فكان يفتح نافذة على الأدب الغربى وأخرى على الأدب العربى ، ويجرى التيار على تفكيره وآرائه ، فيخرج بالمعلومات النادرة عن الأدبين جميعاً ، وخاصة عن الأدب الفرنسى .

وهذه الثقافة الفرنسية نفسها مكنته من الكتابة بالفرنسية ، فكان يحرر مقالات فى الصحف بسويسرة عن الثورة السورية ، وطبعها فى جنيف وكان لها أثر كبير ، قال فى وصفه[1] : « ووزعتها فى الآفاق واستحسنها الناس ، وجاءنى من المستر ماكدونالد نفسه استنكاره لتدمير دمشق ، وقد كان ذلك بعد رئاسته الأولى لنظار إنكلترة ، ولكن ماكدونالد هذا لم يكن بأقل ظلماً فى عمله لتهويد فلسطين التى فجيعتها فيه لا تقاسس بها فجيعة » .

وفى سنة ١٩٣٠ أنشأ الأمير شكيب أرسلان فى جنيف مجلة « الأمة العربية » وراح يحررها بالفرنسية مع زميله السيد إحسان الجابرى ويرسل فيها مقالاته الدامغة فى نصرة العرب والمسلمين . وظلت المجلة سنوات تطوف أرجاء العالم الغربى ، وتحمل بينات شكيب إلى قلوب الغربيين .

ولم تكن هذه المقالات عن بلاد المشرق أو المغرب فحسب ، بل كانت

---

(١) شوقى أو صداقة . . . ص ، ٢٥٥ .

تطوف الماضى فتتحدث فى التاريخ الإسلامى ، وتتحدث عن الحاضر فى إسبانيا وطرابلس الغرب ، وتهاجم المستعمرين من الإنكليز والفرنسيين والطليان . ومقالاته عن طريقة الدوتشى فى استعماره والعدوان على العرب مشهورة ذائعة . ومقالاته فى أكثرها عنيفة سافرة مندفعة ، تتساءل غالباً عن الاستعمار فى القرن العشرين حين يتشدق الغرب بالرقى والحضارة والإنسانية . وهى تسأل الدوتشى هل تلتقى تعاليم الفاشيست مع الإنجيل فى شىء ؟ ، وهل تقف مؤامرت الغرب ضد آسيا وأفريقيا فتكف عن القتل والتعذيب فى سوريا وغيرها من البلاد العربية والإسلامية . وهى تتساءل كذلك عن فرنسة العلمانية وأعمالها التبشرية فى الجزائر وغيره من أقطار العرب .

وكانت مجلة « الأمة العربية » كغيرها من الصحف العربية الحرة ، شبيهة « بالعروة الوثقى » لجمال الدين الأفغانى ، وصحف « الفتح » و « الجهاد » و « الشورى » و « المؤيد » . وكانت منبراً من منابر الأحرار تهدد الاستعمار وتفضح التبشير ، وتثير قضايا الحق والعدالة . فكأن صفحاتها الخمسين مجلدات تحوى ملفات الدفاع عن العرب ، وتشع نوراً هادياً للخير والمساواة ، بل كأنها نار تحرق أباطيل المستعمرين وحججهم ، بلغتهم وأسلوبهم وبيانهم ، فلم يكن بيان شكيب ليقل عن بيانهم ولم تكن ثقافته لتقل عن ثقافتهم فى الفرنسية ومن علم لغة قوم أمن مكرهم .

ويبدو أن الأمير نشأ صحفياً منذ كان فى بيروت يكتب إلى الصحف العربية ، فلما رحل إلى الغرب عاد إلى الصحافة ، فأصبح كاتباً صحفياً بالفرنسية كذلك شأنه شأن الدعاة المصلحين والزعماء المخلصين كمحمد عبده وجمال الدين والكواكبى ورشيد رضا وعلى اليوسف ، يجعل منبره أنى رحل وأنى أقام فى جنيف أو فى غيرها ، كما جعل جمال الدين منبره فى باريس ، فهو يعتقد أنه يحمل رسالة أمته وقومه ، وأن من مهامه أن يدافع عن قضايا ها فما وقف قلمه وما جف مداده . والذين يحبون أن يعرفوا قوة البيان الفرنسى عند شكيب عليهم أن يعودوا إلى أعداد هذه المجلة ، فيستعرضوا مقالاته فيها فهى

مجموعة مطبوعة ، يستطيع الدارس أن يوازن بينها وبين مقالاته الصحفية بالعربية ، ليجد أن النفس واحد وأن الموضوع متشابه ، ذلك هو الدفاع عن العرب والإيمان برسالتهم والدعاية لحضارتهم ، والتفاخر بأمجادهم وتراثهم . وعسى أن يقوم الدارسون بهذه الموازنة فيجمعوا مقالاته الصحفية العربية فى مجلدات ميسرة ، ليقف العالم العربى على ما كان من جهاد شكيب فى العربية والفرنسية .

وقد كتب رشيد رضا إلى صفيه شكيب يقول فى صدد هذه المجلة[1] :

« أنتقد كذلك أشد الانتقاد هذه النفقات على مجلتكم الافرنسية (لاناسيون آراب) وهى فوق طاقتكم والأمة التى تخدمونها » ، فقد كان الأمير ينفق عليها من جيبه ويتحمل الحسائر فى سبيلها « بعد أن منعت الحكومة الفرنسية دخولها إلى شمالى أفريقية وإلى سورية ومنعت الحكومة الإنكليزية دخولها إلى فلسطين » وما نريد هنا أن نشيد بجهاد الأمير وإخلاصه للعرب[2] ، وإنما نريد أن نبين حماسته للصحافة ، ومتابعته الكتابة بالفرنسية ، وشدة تمكنه من ثقافتها .

وسبب نجاح الأمير فى الكتابة والصحافة هو سعة ثقافته العامة وعظيم اطلاعه على ميادين المعرفة كلها ، فقد دخل فى الشعر ، وفى النثر الفنى ، وفى الترجمة ، وفى التحقيق ، وفى التأليف الأدبى ، والكتابة التاريخية ، ودخل فى معارك السياسة منذ شبابه مع الأتراك ، ثم فى الدفاع عن العرب . ولم يثنه ذلك عن مطالعة بعض الكتب العربية الصادرة فى بلاد العرب ، بل كان يشارك فى المناقشة والمجادلة والمساجلة ، ويتناول الأدباء والنقاد ، فكأنه يعيش فى بلاد العرب نفسها لا فى البلاد الغربية ، يراسل إخوانه ، ويكتب إليهم ، ويصنع المقدمات لكتبهم ، ويتولى النقد والتقريظ . وكان أن دخل فى مناقشة إبراهيم اليازجى ، والمويلحى ، وخليل السكاكينى ، والدكتور طه حسين . وقد كانت نظرية طه حسين فى الشعر الجاهلى قد أثارت الأقلام والصحف ، ووقف لطه

---

(١) رشيد رضا أو . . . ص ٥٧٦ .

(٢) لقد عقدنا فصلا خاصاً بذلك فى دفاع شكيب عن العرب والإسلام .

حسين بعض المؤلفين ، وكان فيهم الأستاذ محمد أحمد الغمراوى[١] فى رده على « الأدب الجاهلى » ، فكتب شكيب مقدمة الكتاب ورد على الدكتور طه حسين ، وعالج نظريته ، وناقش حجته ، وضرب له الأمثال وعدد له المسائل على طريقته الخاصة .

ودخل كذلك فى كتب الحديث فقدم لكتاب « التحديث[٢] » تأليف الشيخ جمال الدين القاسمى حجة عصره ، وأدلى بدلوه فى هذا البحث الممتع ، وشارك فى البحوث الدينية والإسلامية ، وكتب فى القراءات واللهجات مما رأينا ، كما كتب فى التاريخ والأدب والأعلام ، مما نبسط أمره فى فصول مستفيضة ، نعرض فيها لأبحاثه وكتبه ، وآثاره ومؤلفاته .

ولعلنا بعد هذا كله كشفنا عن جوانب الثقافة اللغوية عند شكيب وأشرنا إلى مناحى عبقريته فى اللغة العربية واللغات الأجنبية ، وفى مشاركته الثقافة العامة فى التأليف والنقد ، وبرهنا على أن الرجل كان متعدد الألوان فى كتاباته جدير بأن نخص كتبه وآثاره بالتحليل والعرض والنقد — فى الفصول التالية — .

---

(١) « النقد التحليلى لكتاب الأدب الجاهلى » تأليف محمد أحمد الغمراوى ، مصر ١٩٢٩ ، مقدمة الأمير شكيب أرسلان .

(٢) قواعد التحديث فى فنون الحديث ، تأليف جمال الدين القاسمى ، دمشق ١٩٢٥ ، مقدمة الأمير شكيب أرسلان .

القسم الثالث

آثاره ومؤلفاته

في خدمة التراث — في الترجمة والتعريب — في التاريخ
في خدمة الوحدة العربية — في الدفاع عن العرب والإسلام
مع الأعلام : أحمد شوقي ورشيد رضا

الفصل العاشر

خدمة التراث الأدبى

ابن المقفع ــ الصابى

۱۸۹۷ ــ ۱۸۹۹

حب التراث :

بسطنا فى الصفحات السابقة نشأة الأمير ، وتحدثنا فى عكوفه على الشعر منذ صباه ، وقلنا إنه نشر أول ديوان له « الباكورة » سنة ۱۸۸۷ ، وهو فى سن السابعة عشرة من عمره . وقد رأينا هذا الشعر الجزل يسير فيه وراء القدماء فى الفحولة والمتانة والقوة ، فعرفنا إعجاب الأمير بهؤلاء الأجداد ، واعتزازه بماضيهم الضخم ، ومكانهم من الدنيا ، إعجاباً لا يقف عند حد ، بلغ به الهيام والعشق ، فتعلق بكل ما تواتر عنهم من دين وتاريخ وأدب وثقافة عامة ونظر إلى تراثهم نظرة الإكبار والتقديس ، وآمن بأن العرب لا ينهضون إلا إذا تعلقوا بهذا الماضى ، وقلدوا هؤلاء الجبابرة الذين خطوا فى تاريخ الحضارة أجمل صفحاتها ، وملأوا الدنيا دوياً ، وشغلوها قديماً بنتاجهم وآثارهم .

ومرد هذا الشعور العميق فى نظرنا إلى وضع لبنان آنذاك ، فقد كان كثير من سكان الجبل والوادى والبلد يتسلقون قمم الحضارة الغربية ويزحفون إلى اللغات الأعجمية ، وأنظارهم ترنو إلى ما وراء البحار ، يرى بعضهم أن النجدة يجب أن تأتى من الغرب أو من العالم الجديد لإنقاذهم من براثن الأتراك ، فهم ينظرون إليهم كمستعمرين جاءوا يسلبون العرب أمجادهم ليبنوا عليها مجداً تركيا ، وهم لا يتصلون فى غالبيتهم بالأتراك بعاطفة دينية أو لغوية . لذلك فكر بعضهم بالهجرة إلى أمريكا ، والهرب من لبنان ليكون كل شىء ما عدا أن

يكون تركيا . وكانت فئة أخرى فى هذه البلاد تؤمن باللغة العربية ، وترى عندها الحصن الحصين الذى يجمع المسلمين والنصارى فى جامعة واحدة ، لينادوا بعروبتهم وليحتفظوا بقوميتهم ، فأنشأت هذه الفئة العظيمة معاجم وكتباً وعكفت على اللسان العربى القديم تلوذ بأكنافه ، وتتعلق بتراثه ، فتنظم الشعر على غرار الجاهلية قبل الإسلام ، وتكتب النثر على أسلوب فيه السجع والتزام الجمل المتزاوجة ، والصور النثرية القديمة ، وبذلك كانت تنظر إلى القديم وتعيش مع العرب كقطعة منهم على عكس الفئة الأولى التى كانت تعيش مع الغرب كقطعة من الغرب ، تصل مستقبلها بعونهم وغوثهم

وكان من حال الأمير أن وقف مع الفئة المحافظة ، وأخذ بأساليبها فى الشعر وفى النثر ، كما قلنا ، وأحب الكتب العربية القديمة ، وخص نظره بالفحول من الشعراء والكتاب ، فعكف على العناية بهم ومدارستهم ، فلن تجد له مقالا أو كتاباً إلا فى القوم الذين رفعوا علم اللغة عالياً ، وأمسكوا بتلابيبها على حرص وعناية وحب وتقديس . ولذلك كانت حياته الأدبية كلها تدور على الفحول ومن ركب سبيل الفحول ، فعنى فى النثر بابن المقفع ، وأبى إسحق الصابى فى القدماء ، وعنى بشوقى فى المحدثين . كأنه يريد أن يقول هذا عمود الأدب العربى فلا تحيدوا عنه ، وخذوا به ، يتصل ماضيكم بحاضركم ، لتستطيعوا أن تبنوا فى الأدب العربى أمجاداً كأمجادهم فى القديم .

وأراد أن يبدأ خدمة هذا التراث الأدبى القديم ، فعنى به عناية فائقة ، وأخذ نفسه بدراسته وقراءته ، فلما زار استانبول نهض للمخطوطات العربية فى خزائنها ، وراح يعيش معها ساعات فراغه ، بل لعلها كانت تملأ أكثر ساعاته . ولبث يحاورها وتحاوره ، يقرأ ويقرأ فما يمل صحبتها ولا يكاد ينصرف عنها . فإذا وقع على كتاب قديم التهمه التهاماً ، وأشار إلى نفاسته وعظمته ، يعرفه إلى أبناء قومه ، ويبصرهم بمكانه من التراث القديم النفيس . ثم يميل عليه فينسخه بيده كله ، ويعلق عليه تعليقات ثمينة ، ثم يتقدم به إلى المطبعة .

ولحسن حظ العربية وتراثها ، وقع الأمير خلال هذه الزيارة على مخطوطتين نفيستين فى خزانة « بنى جامع » أولاهما لابن المقفع وثانيتهما للصابى ، فتناولهما بالتحقيق والتعليق ونشرهما .

١ ـ أما الأولى فهى « الدرة اليتيمة من حكم عبد الله بن المقفع » أو « الأدب الكبير » نشرها أول مرة بمطبعة الجامعة فى بيروت ١٨٩٧[١] ، وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، وقدم بين يديها بكلمة بارعة[٢] ، وصف بها طلاب العربية فى إقبالهم على إصلاح لغتهم وتثقيف ملكتهم ، ليطبعوا كتابتهم على بليغ الكلام وانتهاج الخطط العالية من القول : « مما يجب أن يلتمس فى كتب السلف ، وينشد فى منشئات الأولين من أهل هذا اللسان السابقين فى حلبة البيان ، بالاستكثار من حفظ تراكيبهم وتحدى أساليبهم ، ومحاكاة نغمتهم ، والاحتذاء على أمثلتهم »[٣]. وهذا الكلام يشير إلى عناية الأمير بالإنشاء والترسل ، وهمته فى احتذاء أمثلة العرب والأخذ بتراكيبهم وتحدى أساليبهم ومحاكاة نغماتهم ، فكان منه الذى رأينا فى النماذج المبسوطة لبيانه ، وكان أن ارتفع بالتقليد والقوة والاحتذاء إلى مراتب البلغاء الفصحاء ، فدعى بعدها بأمير البيان ، وما بالقليل هذا اللقب .

والأمير فى هذه السن أديب بارع يفهم الأدب على أجمل وجوهه حين يفرق بين المعنى والمبنى ، فينظر إليهما نظرة الراسخين فى هذا العلم ، ويقول فى المقدمة : « فإن المعانى إذا كثرت على الألفاظ ضاق دونها ذرع الكتبة ، فذهبوا فى إبرازها إلى الحلق ، وعرضها على الأذهان مذاهب الضعف ومسالك

---

(١) انظر فى المقتطف مقالا عنها ٥/٣٨٠ سنة ١٨٩٧ ، وكذلك ما ساقه ابراهيم اليازجى فى مجلة البيان فى السنة الأولى ، وردود الأمير عليه .

(٢) لم نقع على الطبعة الأولى البيروتية ، وإنما جعلنا بين أيدينا الطبعة المصرية على نفقة محمود على صبيح وهى سقيمة ، فى ٧٠ صفحة من القطع الصغير ، كتب على غلافها « ومعها مقدمة بقلم سعادة الأمير شكيب أرسلان ، ولعلها طبعت ثانية سنة ١٩١٠ للميلاد . ــ وقد طبعت فى رسائل البلغاء للمرحوم محمد كرد على ص ٤٠ ــ ١١١ .

(٣) من مقدمة هذه الطبعة ص ، ٣ .

السخف فأفسدوا لغتهم[١] ، وأعجموا منطقهم . وإذا كثرت الألفاظ على المعانى بين قوم سادت بينهم الصناعة اللفظية ، ولها المشتغلون بنوع من الحفظ لم يقصد لذاته ، فكان العى والحصر أحسن منه ، فكانت البغية كل البغية فى تناسب القوتين وتعادل المتنين وتضارع المادتين حتى يتوفر لكل معنى نديده من اللفظ ، ويتسنى بإزاء كل مغزى ضريبه من السبك ، ويودع كل خاطر قالبه الأليق ، ويلبس كل فكر ثوبه الألبق ، وهى غاية من أبعد البعيد ، وعقبة عنود لدى التصعيد ، ولكنها رأس النصح فى خدمة اللغة ، وأول الواجب فى حق اللسان . وإنما يتذرع إلى تسهيلها وتمهيد طريق تحصيلها بإدمان النظر وإدامة السهر فى التطبع على بلاغة الأولين ، وتقليد مناهج السالفين » . وهكذا يرسم الأمير طريق الكتابة والإجادة فيها لغيره ، ويتبعها هو بنفسه ، فيبلغ أمد التوفيق والتحليق ، ويقتعد من قومه مكان الأستاذ المحاضر فى الأدب ، والعلامة المؤدب فى سبل البلاغة والكتابة .

وهو يتلفت إلى التحقيق ونشر كنوز اللغة والأدب فيتابع قوله : « وكذلك كان أسنى ما تخدم به هذه اللغة الشريفة لهذا العهد إثارة دفائن كنوزها ، ونفض كنائن رموزها ، واستخراج جواهرها التى أحرز منها النزر اليسير ، وبقى الجم الكثير » فدل على عمق نظره وبعد رأيه ، وعظيم عبقريته ، فقد فهم أن العربية لا تنهض فى أساليبها إلا إذا جليت كنوزها ووضعت بين أيدى الناشئين صوى فى الطريق البعيد ، ومنارة فى السبل المظلمة ، لتكون مرشداً وهادياً إلى خير النماذج وأجمل الصور . وذلك قبل أن يتصل بالمستشرقين ، وقبل أن يلم بما طبعوه من آثارنا الأدبية وحققوه خلال فترة طويلة ، ونشروه فى قومهم للتعريف بها ، والوصول إلى ما كنا عليه ، لغايات شريفة أو غير شريفة ، وهذه إحدى عبقريات الرجل .

وقد أشار الأمير إلى ندرة الكتب المجلوة وقلتها فى أيدى الناس ، فهى فى

---

(١) فى المطبوع ص ٥ : « فاقسووا لغتهم » وهو دليل على سقم الطبعة المصرية ، وشاهد من ألف شاهد ودليل .

نظره بكر لم تفترع وسر لم يخترع ، والخطّاب كثيرون، والعرائس متوفرة لكنها محجوبة . فأكثر الكتاب من العصور الأولى ما تزال آثارهم متفرقة فى الخزائن منثورة فى البلدان ، والناس يحبون أن يلتقطوا منها وأن يجمعوا من فضلاتها وأن يترشفوا من مشاربها،ولذلك نصب نفسه لخدمة هذه الآثار فقال[١] : « ولذلك جعلت من بعض همى مع عدم اتساع البال ، ونصب النفس لهذه الأشغال ، التنقيب عن بعض آثار القوم أهل هذا الشأو البعيد ، والشأن الخطير ، حتى ظفرت وأنا فى هذه الأيام بدار الخلافة العظمى بجملة من الكتب منها هذه الدرة اليتيمة لعبد الله ابن المقفع المنشئ المشهور معرب كتاب كليلة ودمنة ، فاخترت عموم الفائدة بطبعها لأنها مع صغر حجمها قد جمعت بين أعلى طبقات البلاغة وأسمى درجات الحكمة ، وتضمنت من الحكم البوالغ والحجج الدوامغ ما لم يتضمنه كتاب قبلها ولا بعدها ، فكانت حرية بأن يتخذها الكاتب منتجع لبه ، وحماطة قلبه ، وأن يجعلها دستور إنشائه ومثال احتذائه » . ولا شك فى أن الأمير أطال النظر إليها ، وعقد كتابته على كتابتها ، فسار على مثالها فى هذه العبارات التى قدمنا ، وفى غيرها مما بسطنا من أسلو به ، فتأثر بما نشر وحقق ، وكان منذ شبابه يتعلق بدراسة الأدباء ، ونشر نصوصهم .

والدرة اليتيمة أو « الأدب الكبير » لابن المقفع ، فى النصائح والحكم ، تعد من درر الأدب الثمينة ، ليس فيها سجع ولا تكلف ، لأنها لإمام البلاغة على العصور العربية كلها . وقد قال الأستاذ أحمد حسن الزيات فى وصف طريقته فأبدع : « وطريقته تنويع العبارة ، وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخي السهولة ، والعناية بالمعنى ، والزهد فى السجع[٢] » . وقد وصفها الأمير فوقع فى الذروة من صدق الحكم وجمال التعبير ، ونحن ننقل عبارة منها ، ترضى الأمير فى سياسته ، يقول ابن المقفع[٣] :

« إذا كنت لا تضبط أمرك ، ولا تصول على عدوك إلا بقوم لست منهم

(١) المقدمة ، ص ٧ .
(٢) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ١٦٢ .
(٣) طبعة شكيب ، ص ٢٣ — ورسائل البلغاء ص ٥٠ .

على ثقة من رأى، ولا حفاظ من نية، فلا تنفعك نافعة حتى تحولهم إن استطعت إلى الرأى والأدب الذى بمثله تكون الثقة ، أو تستبدل بهم إن لم تستطع نقلهم إلى ما تريد . ولا تغرنك قوتك بهم على غيرهم ، وإنما أنت فى ذلك كراكب الأسد الذى يهابه من نظر إليه وهو لمركبه أهيب » .

ولعل هذا القول ينطبق على ما كان يرى الأمير طوال حياته فى البعد عن عون الأجانب الغربيين وعدم الاعتماد على أقوالهم والثقة بوعودهم ، فهو قد تدثر بشعار ابن المقفع كما تدثر بأسلوبه ، وكان فى عمله لكتابه ونشره لرسالته من أعظم المخلصين لتراث الأدب العربى ، ومن السابقين فى خدمة الفحول .

٢ ــ وأما المخطوطة الثانية فهى « المختار من رسائل أبى إسحق الصابى » نسخها الأمير بيده، وعلق عليها ، ونشرها فى لبنان سنة ١٨٩٨[١] ، وقدم لها بأسلوبه الجميل ، فبين أهمية الرسائل ، ورسم قلم أبى إسحق وبراعته ، وأرسل حكمه فيها فقال بالمقدمة :

« جامعة بين متانة التعبير ورصانة الكلام ، وبين نبالة الموضوع وفخامة المقام ، مما تلتف على قراءته الجحافل والفيالق ، ويصات به فى أبهاء القصور الشواهق ، ما بين العمد والأساطين فى حضرة الخلائف والسلاطين ، يدور عليه ترتيب الولايات والممالك ، وترتبط به مرابطة الثغور وسيطرة المسالك . وإن من أقرح جياد هذا المضمار، وأنبل رماة هذا المرام صاحب هذه الرسائل البديعة ، الذى بذ فى الإنشاء خوارزميه وبديعه ، فما زالت الكتاب تضرب ببراعته الأمثال ، وتحتذى من براعته على مثال . »

فرسم فى ذلك أسلوب الرسائل فى المتانة والرصانة والفخامة والنبالة ، ووصف موضوعاتها فى الترسل بين الخلفاء والسلاطين ، لترتيب أمور الولايات والممالك وأحوال الثغور ، فلخص بذلك ما فى هذه الرسائل التى تنعقد حول رقاع الخلافة ، والشفاعات والمعاتبات ، والعهود وكتب الأمان ، وما يكون من غير ديوان الخلافة ، وما يرسل الكاتب من إخوانيات ، أو رسائل فى التعزية والرثاء

(١) نشر الأمير الجزء الأول من المختار ، فى ٢٨٦ صفحة ، والجزء الثانى ما يزال مخطوطاً بقلمه وتعليقاته .

والتهنئة . وفضل الأمير رسائل الصابى على الخوارزمى وعلى بديع الزمان فأصاب كبد الحقيقة .

ثم ذكر الأمير بعد هذا قصة لقائه بالمخطوطة وصحبته لها وعمله فيها فقال : « فحيث كنت من المنقبين عن هذه الطبقة حباً بنشر آثارها ، ورغبة فى بروز تلك العرائس من أخدارها ، أظفرنى الجد وأنا فى دار الخلافة بهذه النسخة النفيسة فى إحدى المكاتب ، مشتملة على أحسن ما دون من فصول هذا الكاتب ، فاجتهدت فى إبراز ذلك الأثر للعين ، وقسمته لكثرة ورقه جزءين ، بعد أن علقت عليه ما يناسب ، من شرح الوقائع ، وذيلته بما يلزم من تفسير الغريب تتميماً للفائدة ، وإجزالا للعائدة ، ووقوفاً بالقارئ على أسرار الكلام وأنحائه ، وما يطوى من الحكم والنكت فى أثنائه » .

والأمير حين تصدى لهذه الرسائل وقف عليها وقته ، وعلق فى الحواشى تعليقات تاريخية للحوادث التى يشير إليها الكلام ، فأسهب حتى كانت كلماته كتاباً برأسه ، وشرح الغوامض شرحاً جلياً هو أبو عذرته ، ثم أبان عن رأيه فى تلك السجعات التى اعترضته وروى رأى الكتاب فيها . ونقل عن أساس البلاغة ولسان العرب وغيرهما من المظان اللغوية ، ما أراد أن ينقل ، وأشفع ذلك بآيات القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والأمثال ، والشعر العربى ، والتاريخ القديم فدلل على قدم راسخة فى العربية وأشار إلى مكانه من فهم النصوص القديمة وتصحيحها . وليست « رسائل الصابى » بالهينة أو اليسيرة لأن فيها ما يحتاج إلى تدقيق وعناية وعمق ، بل إن فيها ما يتطلب فهماً للعصر والظروف التى أحاطت بالصابى حين كتب هذه الرسائل ، فقد كتب عن الأمراء والخلفاء والملوك ، إلى أقارب لهم وإلى أنداد ، ولكنه كان يتخذ الحيطة والحذر فيما يكتب ، لأن القريب كان ينقلب عدواً فى أسرع مما يتصور الأدباء ، وحينئذ تقع النكبة على كاتب السطور . وهذا ما وقع فعلا للصابى ، فقد أهين وسجن وعذب فى سبيل سطور أنشأها على لسان مولاه ، ساق فيها الجملة على غير ما كان يجب أن يسوق لو كان يرجم فى الغيب أو يعلم بما يخبئ القدر له ،

فالبيان وحده لم يكن يكفى فى نجاح الكاتب ، وإنما يجب أن يتسلح بشئ آخر هو فهم ما حوله ومن يكتب له وأن يكون « دبلوماسياً » كما نقول اليوم .

والأمير فى شروحه — هنا — أديب قارئ محقق ، يرجع إلى ابن الأثير فى المثل السائر ، فيوازن بآرائه عبارات الصابى ، ويعود إلى كلام العرب فيستفتيه فى لغة الرجل ، فهو فى هذا أديب ومؤرخ ولغوى جمع بين يديه آلات التحقيق التى نتطلبها لعهدنا عند من يتصدون لمثل هذه الرسائل وهذه المصادر . فكم أورد من رأى الحريرى واستعمالات مشاهير البلغاء ، كالزمخشرى وابن خلدون وابن خلكان ، فوقف للصابى وقفة العالم المعاصر يتحرى وينقد ، ويستوى معه فى قرن واحد عند الفهم والمناقشة ، كأن يورد عبارات ابن الأثير فى تاريخه ليوازن بين ما كان فى التاريخ وما أورده الصابى .

وهذا الجزء من الرسائل ما يزال وحده هو المطبوع السائر فى الناس ، انقضى على نشره ستون سنة ، لم يظهر جزءه الثانى ، ولم يلتفت إليه محقق أو عالم ، وقد شغل عنه الأمير فلم يطبعه وبقى الكتاب مبتوراً ، وأسفاه .

وليست رسائل الصابى فى حاجة إلى تعريف أو تقدير لعصرنا ، فقد كانت صوب البلاغة والحلاوة والحجى ، وذوب البراعة وسلوة العشاق ، شهدت الأقلام لصاحبها بحسن الصناعة ، وهى مصدق لما فى التاريخ ، عضد لأحداثه ، وخاصة تاريخ بنى بويه ، وقد قيل : الصاحب كان يكتب كما يريد ، والصابئ يكتب كما يراد منه ، وبين الحالين بون بعيد — كما قال الثعالبى فيه — وقد ضرب بكتابته المثل ، وجعل رسائله للتعليل ككأس المدامة وشعر كشاجم ، فوضعها بين الشعر والنثر لجمال خيالها وعظيم إتقانها وروعة سبكها وقال : « وكان المهلبى لا يرى الدنيا إلا به ويعجب جداً ببراعته » .

والأمير حين تلفت إليها وعكف على تحقيقها وإرسالها فى الناس لزمن قل فيه نشر الكتب بلبنان وندر رواجها فى هذا القطر ، إنما صنع خيراً وقدم خدمة بارعة لا يشبهها ما نصنع اليوم فى إخراج ذخائرنا(١) ، لأن المطابع توفرت

(١) ومع ذلك جاء مقال عنها ، نشر فى المشرق ١٨٩٩ ، ٢ / ٥٢٤ ، وفى المقتطف ١٨٩٩ ، ٢٣ / ٧٨٢ .

والمخطوطات قدمت على أشرطة وصور ، وأنشئت لهذه المهنة دوائر ومكاتب ، ووقف عليها علماء ومحققون ، ورسمت خطط لها وقواعد . وليس يعيب الأمير أنها طبعت على نسخة واحدة ، لم يذكر الرجل مكانها من الخزانة أو رقمها أو وصفها أو صورة منها ، ولم يعلق على ما صح من تصحيفاتها ، وصوب من أخطائها ، فلم يكن ذلك لعصره ، وقد سبق زمانه ، وما يزال المحققون ينظرون إلى هذه الطبعة النادرة بإكبار ، فهى وحدها فى الميدان ، شاكرين للرجل صنيعه وجميل يده .

والمهم فى نشر هذه الرسائل وفى نشر ابن المقفع قبلها وقوف الأمير على اللباب من أدبنا ، وفهمه للفحول من أدبائنا ، وعمله لدراسة هذا البيان وهذه البلاغة ، يحقق وينشر ويؤلف ، منذ مطلع شبابه وهو لما يبلغ الثلاثين من عمره .

وهذا الأمر يدفعنا إلى التفكير فى أدب الرجل وفى التكهن بأعماله الأدبية ، لو أنه رزق حياة مستقرة فى بلاده ، هادئة ناعمة بين أهله ، يضطرب بين مصر التى أحبها وسوريا التى عشقها ، مختلفاً إلى كبار الفحول والكتاب من هذا القطر وهذا القطر .

ولكننا رأينا أن ظروف الحياة ساقته إلى درب آخر ، وقذفت به إلى أوربة ، ليعيش زمناً طويلا ، فحرمته من خزائن الشرق ، وصرفته عن تحقيق الكتب ونشرها ، وكان منه مع ذلك كتب فى أثر العرب بالأندلس وفى أوربة ، وكانت منه كتب فى التراجم تلز بالدراسات الأدبية سنعرض لها فى الفصول التالية .

الفصل الحادى عشر

فى خدمة التراث العربى

انقضاء دولة بنى نصر – مناقب الأوزاعى ، ديوان نسيب أرسلان

١٩٢٥ – ١٩٣٢

تعلق شكيب بأمجاد العرب ومفاخرهم ، وعشق تاريخهم وحضارتهم ، وأنشأ يكتب عنهم ويشيد بمآثرهم ، لعله ينبه معاصريه من العرب إلى ما هم فيه من تأخر وتخلف ، فيبصرهم بما كان عليه أجدادهم من عظمة وقوة . فكان يؤلف فى فتوحهم وغزواتهم ، ويرسم مقامهم بالأندلس ويصف ما وقع من تنافرهم وتصدع وحدتهم آخر الأمر مما أدى إلى خسارة الأندلس تلك الخسارة الفاجعة التى أقضت مضجع شكيب وذهبت بلبه وأورثته حسرات كان يرسمها فى كتبه المؤلفة والمترجمة ليستعيد صفحات التاريخ القديم كما استعاد صفحات الأدب البين العريق . فقد رأينا أنه نشر ذخائر العرب وعنى بالتراث القديم فنشر كتاب ابن المقفع ورسائل الصابى . وعكف على ترجمة « آخر ملوك بنى سراج » عن شاتوبريان ، وختم كتابه بخلاصة عن « نكبة الأندلس » وألحق به كتاباً قديماً عن النكبة نفسها فى العربية وقد حقق هذا الكتاب قبله المستشرق الألمانى « موللر » ، ونشره فى مدينة مونيخ سنة ١٨٦٣ ، عن مخطوطة بالأسكوريال وحيدة فى العالم، ليس عليها اسم مؤلفها؛ وعنوان المخطوطة : « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » تصف سقوط غرناطة وآخر عهود العرب فى الأندلس بقلم مؤرخ كان معاصراً للنكبة سجل دقائقها وروى أحداثها ، فقد جاء فى آخر المخطوطة : « نجز يوم الثلاثاء ٢٤ من جمادى الثانية من عام ٩٤٧هـ » .

وأعجب الأمير شكيب بهذا الكتاب الذى نشره المستشرق الألمانى منذ

ستين سنة ، ورأى فيه ضالة ينشدها كل مؤرخ للأندلس ، فهى تصف حقبة من الزمن قلت فيها المصادر ونذرت الينابيع ، « والمقرى » مؤرخ الأندلس نفسه قصر فى التفصيل عن حوادثها . والكتاب موجز مختصر لكنه قيم ثمين يصف الحوادث كشاهد عيان ، ويروى فيها أخبار بنى جلدته ، وسياسة الخيانة والغدر التى سار عليها ملوك الإسبان رواية متأثر حزين بما وقع ، فهو وثيقة تاريخية فذة .

لهذا عكف الأمير على قراءته ، وأراد أن ينتفع به العرب فنشره ذيلا لترجمته « رواية آخر بنى سراج » ، سنة ١٩٢٥ واستغرق ذلك من كتابه هذا ستاً وثلاثين صفحة (١) . ثم ألحق هذا الكتاب بأربعة مراسيم سلطانية صادرة عن « أبى الحسن على بن أبى النصر بن أبى الأحمر » إلى بعض فرسان الاسبانيول وزعمائهم ، محررة بين سنتى ١٤٧٠ — ١٤٧٥ م ، وقد عثر على هذه المراسيم المستشرق الفرنسى « هارتويغ ديرنبورغ » فنشرها بباريس سنة ١٨٨٣ م . والكتاب مع المراسيم يبلغ قرابة أربعين صفحة خدم بها الأمير شكيب مؤرخى العرب ، فقرب إليهم النصوص ووفرها ، وجعلها بين أيديهم على يسر وسهولة ، لعلهم يكملون بها تاريخ العرب فى الأندلس ، فالأمير وصف تاريخ الأندلس حتى سقوط غرناطة بقلمه ، ثم أكملها بهذا النص الذى يصور سقوط غرناطة .

والواقع أن جهد الأمير فى هذه الصفحات لم يتجاوز حدود النقل والتحبير ، فلم يعلق عليها إلا فى الندرة ، ولكنه برهن بتصيدها على حرصه الشديد فى تسقط آثار العرب الدفينة وفى العناية بتراثنا الزاخر . وهى عاطفة جميلة لم تكن لغيره فى زمانه على شدة حاجته إلى الوقت والمال ، وإلحاف السياسة عليه ، فهو يدافع عن قومه ، ويذب عن حياضهم ويرد الشر عنهم ، ويشهر بالمستعمرين الذين كانوا يذلون قومه وبلاده ويفتكون بالأحرار من إخوته وبنى جلدته . وهو إلى ذلك يقوم بجهد العلماء المحققين فيجمع النصوص بعضها إلى بعض ، ويرسلها

(١) رواية آخر بنى سراج ، مطبعة المنار بمصر ١٩٢٥ ص ٣٦٩ — ٤٠٦ .

إلى القاهرة لتصدر فى بلاده ، فيصنع بذلك صنيع المستشرقين مع شدة إخلاص وعمق وفاء وجميل إيمان .

والذين يرجعون إلى هذه الصفحات القليلة يجدون فيها وصفاً رائعاً لآخر ملوك غرناطة، رسمه المؤرخ العربى القديم عن كثب ، فعرض لحال القصر والأسرة بأسلوب حى ، وتحدث عن إقبال هذا المليك على اللذات وانشغاله بالنساء والمطربات والشهوات ، فضيع الجند وأسقط كثيراً من نجدة الفرسان ، وثقل المغارم ومكس الأسواق ، ونهب الأموال . وكان للمليك وزير يوافقه على ذلك كله ، فشجعه على ما كان فيه . واختار المليك زوجة أخرى رومية وهجر ابنة عمه وأولادها ، فأدرك هذه من الغيرة ما يدرك النساء ، ووقع نزاع طويل وغلظت العداوة ، وانحاز الأولاد إلى أمهم ، وانقسمت الأسرة إلى حزبين متحاربين ، والأعداء على الأبواب يرقبون ويرصدون .

فاغتنم الإسبان غفلة الملك والجيش ودخلوا مدينة « الحمة » واستولوا عليها سنة ٨٨٧ هـ . وأعملوا السيف فى رقاب الرجال والنساء والأطفال فهاجمهم المسلمون وأخرجوهم . ولكنهم عادوا غير مرة للقتال فى نواح أخرى انتصروا فيها وأسروا فاستولوا على مواقع المسلمين حيناً وخسروها أحياناً . ثم دخلوا « مالقة » سنة ٨٩٢ هـ ، ودخلوا غيرها حتى لم يبق للمسلمين غير مدينة غرناطة وما حولها من القرى تحت طاعتهم سنة ٨٩٧ هـ فاشتد الجوع على أهلها ، وانقطع الطعام ، ولم ينجدهم أحد من أهل عدوة المغرب ، ولم يغثهم مغيث ، حتى قر رأى الأعيان على مكالمة ملك الروم فى أمرهم والتسليم له بشروط ذليلة منها الهرب من الأندلس إلى إفريقية وتسليم أملاكهم للأسبان . ودخل الجيش الإسبانى قصور الحمراء ، « ولم يبق للمسلمين موضع بالأندلس » وراح ملك الإسبان يتنزه فى القصور العربية ، ويخطر فى تلك الأرض التى عرفت عز العرب وأمجادهم وحضارتهم الرفيعة .

ووقفت المراكب على الساحل تنقل من يريد الجواز من المسلمين إلى العدوة . فكان يبيع الواحد منهم الدار الكبيرة المعتبرة بالثمن القليل « ويبيع

جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التى كانت فيه » . وأما الأمير محمد بن على فارتحل بعياله وحشمه وأمواله على ظهر المراكب حتى بلغ ومن معه مدينة « مليلة » ثم ارتحل إلى فاس .

ونقض الإسبان بعد ذلك ما كان من شروط التنازل ، وفرضوا على المسلمين مغارم ، وطردوهم من غرناطة إلى القرى فخرجوا أذلة صاغرين . ثم دعاهم إلى التنصر وأكرههم عليه ، وذلك سنة ٩٠٤ هـ ، فدخلوا فى الدين كرهاً ، « وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، إلا من يقولها فى قلبه وفى خفية من الناس وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الأذان وفى مساجدها الصور والصلبان » . وذكر هذا المؤرخ أن بعض القرى التى رفضت التنصر جمع عليها ملك الإسبان ، فقتل رجالها وسبى نساءها ، وصادر أموالها وعم بعد ذلك الكفر جميع القرى والبلدان « وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلى ذلك فليبك الباكون وينتحب المنتحبون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وهكذا ختم الكتاب بأسلوب غلبه الدمع والأسى ، فى عبارات تصور فاجعة من أكبر فواجع العرب ، عنى به الأمير شكيب فجعله فى جملة الذخائر التى نشرها من تراثنا فأضافها إلى جملة التواريخ القديمة التى تحدثت عن نكبة الأندلس ، وخاصة فى سنواتها الأخيرة . وأسدى بذلك يداً كبيرة إلى المؤرخين ، ودلل بذلك على حبه للخير والعلم والثقافة ، وسعيه الدائم فى نشر العرفان ، كلما سنحت له فرصة أو أتاح له الزمان فرجة ينفذ منها إلى طبع كتاب أو ترجمة أثر أو تأليف مصنف .

* * *

والكتاب الثانى الذى نشره الأمير شكيب خلال هذه الحقبة هو « محاسن المساعى فى مناقب الإمام أبى عمرو الأوزاعى » وقع على نسخته مخطوطة فى خزانة برلين ، فعكف على نشرها ، كما عكف من قبل على نشر مخطوطتين وقع عليهما فى خزائن إستانبول ، فكأنه موكل بالتراث العربى يرجع إليه ويقرؤه

ويعجب به ، فيريد أن يمتع به قراء العرب سواء أكان فى الأدب أم فى التاريخ . وهذا الكتاب صغير الحجم[١] ، يتحدث عن الأوزاعى ويترجم له ، ولكنه على صغر حجمه فذ نافع يكاد يكون من الكتب القلائل التى بقيت لنا فى سيرة هذا الإمام . بل هو وحده الذى صدر خلال هذه الفترة عن الأوزاعى ، فهو بذلك يسد ثغرة ويضيف فضلا فى هذا الباب .

والإمام الأوزاعى ، إمام أهل الشام ، ومفخرة من مفاخرها ، دفن فيها خارج مدينة بيروت فهو بلدى شكيب ، وهو من الطبقة الأولى فى مجتهدى الإسلام ، لا يتأخر مكانه عن مكان الأئمة الأربعة أبى حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، انتشر مذهبه فى الأندلس زمناً غير يسير . وكان عالماً يطبق العلم بالعمل ولا يكتفى بالحفظ والنظر ، وكان ممن يهمه أمر الأمة بأجمعها ، يسعى فى توزيع العدالة بينها ، فيعمل بالحديث الشريف « عدل ساعة خير من عبادة ألف شهر » . ولذلك كان يتعرض للسياسة العامة وينصح للملوك والخلفاء ، ويغلظ لهم القول إذا رأى من أعمالهم ما يضر بالأمة . وكان على ما يوجبه الإسلام من إيتاء كل إنسان حقه بدون تمييز بين الأديان والمذاهب ، فكان « من أحسن الأمثلة المجسمة البارزة عن معانى الإسلام الدالة على أنه دين العدل والإحسان ودين المحافظة على حقوق الأنام » . ويقول شكيب فى تقديمه لهذا الكتاب[٢] : « ولعمرى لو كان العلماء الذين من نمط الأوزاعى عدداً كبيراً فى الإسلام لما كان قد أسرع الفساد إلى المجتمع الإسلامى ، ولا كانت انحطت دول الإسلام بعد ذلك العلو فى الأرض ، وإنما كانت آفة هذه الأمة فساد أمرائها وجبن علمائها . وقل فى الإسلام من كان يصادم الخلفاء فى مآربهم ويوبخهم فى وجوههم » فغاية الأمير شكيب دائماً غاية اجتماعية قبل كل شىء ، لا يرى من كتبه إلا صلاح العرب والمسلمين وصلاح أمرائهم وحكامهم ، فهو زعيم مصلح فى كل ما كتب .

(١) محاسن المساعى فى مناقب الإمام أبى عمرو الأوزاعى ، تحقيق الأمير شكيب أرسلان القاهرة ١٩٣٣ ، ١٦٦ صفحة من القطع الصغير .

(٢) المقدمة ص ١٥ .

ينظر إلى مصلحة قومه وبلده ، وخاصة سورية ، فهو يذكر أحد الأسباب التى قادته إلى العناية بالأوزاعى ، فيقول إنه : « مفخرة مسلمى بيروت ولبنان بنوع خاص ، ومشهده بظاهر بيروت على شاطئ البحر إلى الجنوب ، مشهد مضى عليه ألف ومائة وخمس وتسعون سنة ، وهو محل حرمة وكرامة يتبرك به الجميع ، ولعائلتنا الأرسلانية محبة خاصة لهذا الإمام الجليل ، فبناء على اجتماع هذه الأسباب كلها عزمت على نشر هذا الكتاب ، متوخياً بنشره خدمة الدين والأخلاق والعلم والتاريخ والآداب » .

وقد قام شكيب بالعمل خير قيام ، فترجم للأعلام الواردة فيه معتمداً على أمهات الكتب فى التراجم ، مما استطاع الوصول إليه فى مكانه بالغربة . واضطر إلى الاستنجاد بإخوانه لتذليل ما استعصى عليه ، فكتب إلى صديقه الشيخ عبد القادر المغربى بدمشق ، وأرسل إلى صديقيه الأديبين علال الفاسى والحاج حسن بو عياد « من فضلاء دمشق المغرب حاضرة فاس » فأمدوه جميعاً بطائفة صالحة من التراجم بعد أن غاص كل منهم فى خزانة دمشق المشرق أو دمشق المغرب .

ولم يقف هذا الحائل وحده أمام تحقيق الكتاب ، وإنما وقف الأمير أمام نسبة الكتاب إلى مؤلفه ، فالمخطوطة غفل من هذا ، والتحقيقات بعيدة عن التيسير فيه . لذلك أتمه شكيب فى جنيف « ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٥٢ » من غير أن يوفق إلى معرفة مؤلفه . وفى سنة ١٩٤٧ كتب الأستاذ العالم الشيخ راغب الطباخ مقالا فى مجلة المجمع[١] العلمى العربى ، ذكر فيه أنه وقع فى « الضوء اللامع » للسخاوى ٢ — ٧٢ على ترجمة مؤلفه فإذا هو « أحمد بن محمد الموصلى الدمشقى المتوفى سنة ٨٧٠ هـ » . وأرسل إليه الأمير رسالة رقيقة يشكره فيها أتم الشكر على هدايته إلى هذا الخير ، ووعده أن يثبت ذلك إذا ما أعاد طبعه . ولكن الأجل حال دون هذه الأمنية .

---

(١) انظر كلمة الشيخ راغب الطباخ فى مجلة المجمع العلمى بدمشق ١٩٤٧ ص ٢٨٢ ورد الأمير عليها .

ومهما يكن من أمر ، فقد أثبت شكيب ترجمة الأوزاعى فى مقدمته نقلها من المصادر وبسط فيها أقوال المؤرخين ، وذكر أنه ولد ببعلبك سنة ٨٨ هـ ، ونقلته أمه إلى بيروت ، وتوفى بها سنة ١٥٧ هـ . والأوزاعى نسبة إلى أوزاع وهى بطن من ذى الكلاع من اليمن ، وقيل الأوزاع قرية بدمشق على طريق باب الفراديس . واتفق المؤرخون على أنه فقيه زمانه ، وأنه أجاب فى سبعين ألف مسألة ، وأنه كان يحيى الليل صلاة وقرآناً وبكاء ، وذكر بعضهم أن صناعته كانت الكتابة والترسل ، وأن رسائله تؤثر . ويبدو أن المصادر متشابهة ، لا يكاد يزيد واحد فيها على آخر أمراً كبيراً ، فهى منقولة بعضها عن بعض فى ترجمته ، لذلك كانت حياته تختصر فى سطور عند كل الذين ترجموا له .

والكتاب نفسه فى تعداد مناقب الأوزاعى ، يتحدث عن الإمام ، فيرسم حلمه ووقاره وصمته وعبادته وورعه ونسكه ، وخشوعه وسخاءه وكرمه ، ويثبت أقواله فى الصلاة وغير الصلاة ويروى إلى ذلك كتبه التى أرسلها ومنها إلى أبى جعفر المنصور يوصيه فى خفض الجناح والرأفة ويذكره بأقوال الرسول الأعظم وآيات الله الكريمة . وكان أبو جعفر يعترف بالأخذ عنه والاقتباس منه والانتفاع بعلمه ورأيه ، كثير التقريب له يجتمع به ويجالسه ويناقشه ويسمع منه ، ويرغبه الأوزاعى بالجنة ويحبب إليه العدل والمساواة وعمل الخير ، فقد كان يرى ذلك من همه وواجبه .

فالكتاب يحوى المناقب الدينية لهذا الإمام ، عمل له شكيب لأنه دفين بيروت ولأنه صديق الأرسلانيين القدماء — كما قال قبل قليل — فأبرز به صورة لإمام دينى كتبت على طريقة قديمة ، تنتقل من الحديث إلى الآية ومن الآية إلى التفسير والوعظ ، والحكمة ، أشبه ما تكون بكتب الطبقات لأئمة المذاهب فى أسلوبه وعباراته واستطراداته ، فلا نكاد نجد فيه تنظيما أو تبويباً ، أو سيرة مروية أو حياة مرسومة . وإنما هو مجموعة أقوال رويت عن الأوزاعى وذكر الراوون لها ، لتبرهن على تدين الرجل وورعه وشدة تمسكه بالدين والأخلاق القويمة .

وقد وشاه الأمير بحواشيه الطويلة وتعليقاته المفيدة فوقف له خير وقوف

على طريقة عصره ، فلم يتطرق لوصف المخطوطة على عادة محققينا اليوم ، لأنه لم يكن من هم العلماء آنذاك . ولكنه على ذلك لم يقصر فى بذل الجهد والرجوع إلى المصادر والمعاجم وكتب التاريخ ، فاستحق الثناء الجزيل لهمته وسعيه .

* * *

أما الكتاب الثالث الذى خرج على يدى الأمير شكيب محققاً وموشى بتعليقاته فهو ديوان أخيه الأمير نسيب أرسلان ، جمعه ، وقدم له وذيله ، وجعل عنوانه : « روض الشقيق فى الجزل الرقيق » ونشره سنة ١٩٢٥ بدمشق[١] .

أما المقدمة فهى فى الكلام على شعر نسيب ، وبيان جماله ، كتبها شكيب بأسلوبه المزخرف وجمله المسجعة ، ونبه على ما فى الديوان من قصائد ندر النظم فيها وأبيات شردت قوافيها ، ومنها فى إعلان الدستور العثمانى ، والحرب الطرابلسية ، وفى الخلافة الإسلامية ، وهى موضوعات راقت لشكيب كما راقت لأخيه نسيب ، فتشابهت أغراضهما وتناسبت معانيهما ، فقد ارتويا من نبع واحد ، واستقيا من ماء واحد فعكفا على أساليب القدماء وتمسكا ببيان الفحول ، فهو حين يقول فى نسيب أمراً يصف به شعره هو نفسه . فوصفه بأنه يتصرف بالكلام والمعانى كالغيث فى الانسجام وقال فيه : « قد طلع فيه باللفظ العربى الجزل ، المطبوع على غرار الجاهلية ، المقتطع من معادن اللغة الصافية النقية ، اقترنت فيه الرقة بالفخامة ، والدقة بالجلالة ، وخيط اللفظ على قدر المعنى حتى تقول إنه لا يصلح إلا له[٢] » .

وأنحى شكيب باللائمة على الأسلوب الشعرى الجديد لزمانه ، الذى كان يترنم بعضهم بجماله ، فقال إنه مباين لأساليب العرب التى تألفت منها لغتهم وانطبعت عليها بلاغتهم ، فأخوه نسيب أرسلان لم يكن يعرف شيئاً من هذا الشعر « بل ربما كان إذا قرأه لم يكد يفهمه وإذا تأمل فيه لم ينحل لديه معجمه » . ثم قال : « وهؤلاء الغربيون وهم مقتدى الشرقيين فى كل شىء لم نسمع أنهم نبذوا هومير لتقادم مدته ، ولا حقروا فرجيل لعدم جدته ..ولا عدلوا

---

(١) مطبعة ابن زيدون بدمشق — فى ٢٧٦ صفحة .

(٢) المقدمة ، ص ٤ .

عن غوته وشكسبير لأنهما ليسا من أهل القرن الأخير . بل هؤلاء وأمثالهم ممن غبروا هم إلى اليوم عندهم أحياء ، تتجاوب بصدى أقوالهم الأحياء ، وهم فى أوربة أوتاد الأدب الذين بهم علت سرداقاته ، وأعلام البيان الذين منهم ظهرت آياته ، وعنهم روت رواته . فالأدب الأوربى إلى هذه الساعة أدب أثينة ورومة . وجميع ما بسق من فروعه وشماريخه هو مشتق من تلك الأرومة ، فأين إذن الأدب الجديد الذى يدعون وجوده ، وأين الأسلوب الأدبى الطريف الذى قد أجادوا توليده ، إن الجواب على هذا لمعجز وأن الخوض فيه لمحرج[1] »

وإن الأمير شكيب يدافع فى هذا الكلام عن ميدانه وخطته فى الشعر ، ويشرك نفسه مع أخيه فى وصف شعرهما بالمتين الجزل ، بعد أن نقده بعض المجددين فقالوا إنه تقليدى وإنه صورة للقدماء ، كما بينا فى الحديث عن شعره . وقد أعاد فى هذه المقدمة ما كتبه فى بعض كتبه عن الموضوع نفسه من حيث الجديد والقديم ، فأشاد بأناتول فرانس وعكوفه على القديم ، وتعلقه بالأسلوب المدرسى المتين .

وأما ترجمة نسيب فهى ترجمة كذلك لشكيب لأنهما ترعرعا معاً ، وتعلما معاً كتوأمين ، فقص علينا ما كان منهما جميعاً فى النشأة والأدب والحياة . وعرفنا من حديثه أن أخاه نسيب ولد قبل أخيه شكيب بسنة ونصف سنة فى الشويفات ، وتعلم القراءة والكتابة ، فى القرية ثم دخل مدرسة للأمريكيين فى القرية نفسها ، وتعلم فى «مدرسة الحكمة ببيروت بعدها ، وقرأ على الشيخ عبد الله البستانى ، وأولع منذ صغره بلغة الجاهلية ، وكان لا يكاد يقرأ شيئاً إلا حفظه ، وكان يديم مطالعة المعلقات السبع والدواوين الخمسة وما أشبه ذلك من الشعر الجاهلى وشعر المخضرمين . فما مضت مدة حتى تكونت له لغة عريقة فى العروبة تشابه لهجة الأولين ، ثم بلغ الأمد فى متانة اللغة ونقاوتها فلم يكن يقرأ شعر المولدين إلا فى الندرى .

ويقول شكيب إن أخاه نظم وهو فى « مدرسة الحكمة » رواية ذات أدوار

---

(١) روض الشقيق ، المقدمة ص ٥ .

على واقعة « سيف بن ذى يزن الحميرى » فى قيامه على الحبشة وطرده إياهم من اليمن . وذكر أنه تعلم على الشيخ محمد عبده فى بيروت . ثم عين الأمير نسيب مديراً لناحية الشويفات فأقام بها عشر سنوات استعفى بعدها ونزل إلى بيروت ، وأبى بعدها أن يدخل الوظيفة . وبعد إعلان الدستور العثمانى ، أسس ناد لجمعية الاتحاد والترقى ودخله كثير من أعيان بيروت وأدبائها فانتخب رئيساً لهذا النادى إكراماً له ، وتقديراً لحسن أخلاقه . ولما حصلت الحركة العربية فى وجه الدولة العثمانية تطالب باللامركزية ، انفصل نسيب عن هذه الجمعية ، وكانت له بعد ذلك مواقف فى نصرة قومه العرب ومقالات مشهوورة فى جريدة المفيد لعبد الغنى العريسى وكاد جمال باشا يبطش به بعد نشوب الحرب العامة ، بوشاية الدساسين ، ولكنه كان معروفاً بكره السيطرة الأجنبية فنجا ، وعاد إلى منزله بالشويفات وأقام هناك من سنة ١٩١٥ إلى آخر أيامه . لم يتصل خلالها بأحد من رجال الحكومة التركية ، وسأل عنه جمال باشا فأبى أن يزوره كما أنه لم يتصل بأحد من رجال الاحتلال الفرنسى ، بل كان يقضى أوقاته فى المطالعة والنظم ، ينشر بعضه فى الصحف ، ويأنس بالعزلة والانزواء ، ويعمل للزراعة والتوفر على شغل الأراضى والقيام على أملاك إخوته وأهله ، حتى أصابته علة ألحت عليه وألزمته الفراش طويلا ثم قضى سنة ١٩٢٧ ، وأخوه شكيب فى أوربة . فنعى إلى العالم العربى ، وأجمع العلماء والأدباء على الحزن والحداد ، ورثاه الشعراء والكتاب ودفن فى « الشويفات » . وفى صدر هؤلاء الشعراء الذين رثوه أخواه الأمير شكيب والأمير عادل فقد نظم كل منهما فى « نسيب » قصيدة من الرثاء أثبتهما شكيب فى صدر الديوان ، وهما من الأدب البارع والدمع المنظوم ، ولعلها أول مرة فى الأدب العربى يبكى شاعران أخوان أخاهما الشاعر ، فما وقعنا على إخوة ثلاثة كهولاء ، يتساوى قريضهم فى الفحولة ، وينسجم فى القوة ويرتفع إلى سامى البيان . فقد قال شكيب فيها يصف حاله وهو يرثيه :

أبكيك فى غربتى مضنى نوى ونوى بالبعد والموت رام الدهر إذلالى

وقال الأمير عادل فى رثائه :

أخى إن يطل للدمع ليلى فإننى أرى بعدك الأيام صارت لياليا

وهما شاهدان على ما قلنا من شاعرية الأخوين ، وعكوفهما على صور الأدب المتين الجزل ، حتى لكأنهما من شعراء العباسيين نغمة وأسلوباً وبياناً . وأما الشاعر نسيب الذى جمع ديوانه هنا ، فهو شاهد كذلك على صدق ما قال فيه أخوه من عكوف كذلك على المتانة والجزالة وشدة الأسر ، طرق فيه الشاعر ألوان الرثاء والمديح والغزل والوصف وأكثره نظم لمناسبات سياسية أو اجتماعية كالتهنئة والتبريك والوداع والاستقبال والتكريم ، وجهه إلى الأفراد أو إلى الأمة كلها ، على عادة زمانه . وفى هذا الديوان ألوان من الوصف نحا فيها الشاعر إلى شىء من التجديد فى العناوين كوصف السيارة الكهربائية ، والقلم والكتاب والفواكه والباخرة والمستشفى . وفيه أسماء الأعلام لعصره كسعد زغلول وأحمد شوقى وسامى البارودى وأحمد عزة العابد ، ومصطفى أرسلان ، ومحمود بيهم ، وسعيد شقير ، ومحمود شوكة . . . ولكنه شبيه بالشعر الحمدانى على لسان كشاجم والصنوبرى والخالديين ، رغم تقدم الزمان وتقلب الحدثان . فالتشبيهات فيه منتزعة من القدماء ، والصور مطبوعة على غرار العباسيين ، والألفاظ والتراكيب مقتبسة من معاجم الشعر فى الأعصر الإسلامية الأولى ، وبناء القصيدة يفتتح غالباً بالغزل ، والأبيات تتعاقب فى غير تماسك وترابط ، فلا وحدة ولا بناء . وهو شعر القرن التاسع عشر المقلد المتين الموفق فى تقليده وسبكه .

والشعر كله لا يتجاوز فى هذا الكتاب مئة صفحة بين قصائد ومقطعات قصيرة ، كلها متين السبك جزل العبارة يقع من جمال الموسيقا وفخامة التعبير موقعاً يجعل للشاعر مكانة فى آداب سورية لذلك الزمان ، لا نستطيع أن نضرب الأمثال فى روايته أو تحليله ، فليس هذا من شأن هذه الصفحات ، لأننا نتحدث عن شكيب وتحقيقاته . وإنما رسمنا الديوان لنصل إلى القول بأن شكيب قدم له ، وعقب عليه بمائة وثلاثين صفحة تقريباً جعلها فى نسب الأسرة

الأرسلانية منذ أيامه حتى العصر الجاهلى بسط فيها القول والتعليق والنقل بإسهاب حتى كأنها تاريخ لأيام العرب ، أو كأنها صفحات الفخر فى النسب ، جمعت من كل المصادر ما ألم بالأرسلانيين أجداده منذ اللخميين فى الحيرة حتى بيروت فى القرن التاسع عشر . وهى تشد بجهد شكيب وسعيه فى التأريخ والتسجيل ، نصر بها عشيرته وقومه ، فكتب فى تسلسل أعلامهم على مر السنين والوفيات مما يسجل له بالشكر والثناء . وهو فى هذا يلحق بالمؤرخين القدماء ، من حيث الجمع والاستيعاب ، ولكنه لم يحلل الديوان ولم يعرض الشعر على موازين النقد وإنما اكتفى بالمديح كما كانت تفعل كتب التراجم فى القرن الرابع والخامس كاليتيمة والذخيرة والدمية . وإذا استثنينا المقدمة القصيرة فالأمير شكيب غلبت عليه صفة المؤرخ فى هذا الكتاب ، بل هو فيه محقق ينشر النص ويقدم له ويعلق عليه كما كان يفعل بالكتب المحققة سواء بسواء[1] .

---

(١) تحدث الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى عن روض الشقيق فى مجلة المجمع العلمى ٣٨٢/١٣ فقال فى ختام كلمته : « هذه هى الطرفة التى أطرفنا بها الأمير شكيب فى هذه السنة ، وستتلوها من آثاره طرف أخرى ، ديوان الأمير شكيب نفسه ، وكتابه عن صديقه أحمد شوقى ، وكتابه عن البلاشفة ورحلته إلى ألمانيا أيام الحرب . وهذه الكتب الأربعة تطبع اليوم فى مطبعة المنار بمصر ، وستصدر فى هذه السنة . أما كتاباه عن البلاشفة وعن رحلته إلى ألمانيا فلم نقع عليهما ، ولعل المرحوم المغربى عرف ذلك من رسالة خاصة وصلته من الأمير شكيب ، فقد كانا على اتصال وتراسل دائم .

الفصل الثانى عشر

فى الترجمة والتعريب

آخر بنى سراج ــ حاضر العالم الإسلامى ــ أناتول فرانس
١٨٩٧ ــ ١٩٢٦

أدرك شكيب بثاقب نظره أن النهضة العربية يجب أن تعتمد فى مطلع وثوبها على عاملين اثنين ، أولهما إحياء التراث العربى القديم ، وثانيهما نقل روائع الأدب العالمى إلى لغتنا العربية . ورأى أن عصور النهضة فى الأمم كانت تستند إلى هذين العاملين فتأخذ بأسباب التراث ثم تفتح للجيل نوافذ على الآداب الأخرى . كما فعل العرب فى صدر الدولة العباسية حين نقلوا عن اليونان والفرس والسريان ، ومهدوا لامتزاج الحضارات والثقافات ، وبلغوا بذلك أوج الفهم والإدراك .

وقد قام شكيب نفسه بهذه المهمة ، فراح ينشر النصوص الثمينة من تراثنا المجيد ، وطفق يحقق المخطوطات القديمة كما أتيح لعصره أن يفهم التحقيق فأخرج كتباً جليلة تعد من ذخائر الأدب العربى ، فى النثر والتاريخ والأدب ، بدأ أولها سنة ١٨٩٩ قبل أن يموت القرن التاسع عشر وظل على ذلك خلال الربع الأول من القرن العشرين .

ثم شرع بعد ذلك يترجم الآثار الغربية فى الأدب والتاريخ والحضارة فصرف همه إلى اللغة الفرنسية وروائعها ، فقد تعلق بها منذ نعومة أظفاره كما تعلق بالعربية ، وأتقنها قراءة وكتابة ، فاستطاع أن ينقل إليها ، وبلغ من ذلك مبلغاً لم يصل إليه كثيرون من معاصريه ، وذلك لأن المترجم يجب أن يقف من اللغتين على حد سواء فى القوة ، فيفهم أوسع الفهم ما يقرأ وينشئ أجمل الإنشاء ما يكتب فيه ، فيهضم العبارة الفرنسية ويسيغها ثم يصرفها إلى عبارة عربية

جميلة ، فكأنه ينقل الأفكار الغربية إلى ذهنه ثم يكسوها ثياباً عربية ببيانه فتخرج كأنها من بنات أفكاره مسبوكة بلسانه .

وشكيب حين يترجم الفرنسية إلى العربية كان يقرأ بعينيه الحروف الأعجمية ، وينسال على لسانه بيانها بالعربية لغلبة البيانين على لسانه ، فهو قد اتصل بالأدب الفرنسى اتصالا وثيقاً وقرأ منه ما قرأ حتى هان عليه النقل السريع الأمين ، فتدفق فى الكتابة مترجماً كما تدفق فيها مترسلا مستوحياً من خياله ، فى جمال أسلوب ، ورقة ديباجة ، وحسن رصف ، تترابط جمله بعضها ببعض كأنها سلك منضود أو خيط منظوم تزينه الجواهر والأعلاق .

وسبب هذا النجاح فى الترجمة أن الأمير كان يكتب عن إحساس بالحاجة إلى الكتابة ويترجم عن إحساس كذلك بالحاجة إلى الترجمة ، فقد عرض عليه فى هذه السن كتاب « حاضر العالم الإسلامى » ليعلق عليه ، فأغراه بالدفاع عن الإسلام ودحض نظريات المستشرقين والمبشرين والمستعمرين . فرأى الفرصة سانحة ليرد الهجوم ويبطل الحجج ، ويرجع إلى النصوص الغربية ، فيقرأ منها ما يقرأ ، ويترجم منها ما يترجم فكانت نفثات بارعة ، ولفتات جميلة ، وترجمات حسنة . وقد وضع الأمير فى صدر الكتاب عبارة تدل على هذا الاندفاع والإيمان فى كتابته وترجماته ، قال[١] : « وإنه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أميركا بأسرها ، فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسية بغروتها و زرها ، وأنه لا تمضى الثمانون سنة الباقية لتمام هذا القرن حتى يلى الإسلام بلاده ، ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده ، ليس هناك كهانة ولا عرافة ، ولا هى مقاصد تدرك بالرقى أو العيافة ، ولكن يعرف المستقبل من الحاضر ، ويدل الأول على الآخرة» .

وهذا الاندفاع والإيمان أمليا عليه سطوراً كريمة ألف بعضها من حنايا صدره ، ونقل بعضها عن الفرنسية نقلا بارعاً ، كان يسميه تعريباً على عادة زمانه . والتعريب فى نظره تحويل الجملة الأعجمية إلى سلاسة عربية ، كما

---

(١) مقدمة الطبعة الأولى ، ص (ك) .

كان العرب يعربون الأعلام والألفاظ فيخضعونها لقوالب اللغة وقواعدها ، وكذلك كان الأمير شكيب يخضع الجملة الأوربية فتتحول إلى عربية سليمة لا عجمة فيها ولا رطانة ، فينقل براهينه وحججه وتعليقاته عن كتب الغربيين ، وهى تكاد تعد بالعشرات ، لا نستطيع أن نضرب كثيراً من الأمثال فيها ، ولكنها لكتاب كبار فى التاريخ والأدب والاجتماع والفلسفة والاستشراق . منهم غروسيه فى كتابه « مدنيات الشرق » ومنهم غودوفروا دومومبين فى كتابه « تاريخ العالم » وكاترمار ، ودوبرسفال ، ودسلان ، ودوزى ونولدكه وفيلهاوزن ودوخويه وغولد سيهر وغيرهم فى كتبهم ومقالاتهم .

ولعلنا نستطيع أن نروى سطوراً من ترجمته لكتاب « مختصر التاريخ العام » تأليف الفيلسوف الإنكليزى ولز ، كدليل غير مقصود على ما أشرنا إليه من براعة الجملة العربية فى ثنايا تعليقاته المترجمة؛ قال ولز (١) :

« إذا كان القارئ يتخيل أن موجة الإسلام قد غمرت بهذا الفيض الذى فاضته بعض مدنيات شريفة فارسية أو رومانية أو يونانية أو مصرية ، فيجب أن يرجع عن خياله هذا حالا . فإن الإسلام قد ساد لأنه كان أفضل نظام اجتماعى وسياسى تمخضت به الأعصر . وإن الإسلام قد ساد لأنه فى كل مكان وجد أمماً استولى عليها الخمول ، وكان فاشياً فيها الظلم والنهب والعسف، وكانت بدون تهذيب ولا ترتيب ، فلما جاءها الإسلام لم يجد إلا حكومات مستبدة مستأثرة ، منقطعة الرابطة بينها وبين رعاياها . فأدخل الإسلام فى أعمال الخلق أوسع فكرة سياسية وأحيى فكرة سياسية عرفها البشر ، ومد إلى البشرية يد المعونة . وقد كان لدن ظهور الإسلام نظام رأس المال فى السلطنة الرومانية مبنياً على الاسترقاق ، وكانت الآداب والثقافة والأوابد الاجتماعية آخذة بالانحلال » .

وهذه العبارة لا تدل بحال على نص مترجم أو عبارة قلقة فليست فيها ركاكة العجمة فى النقل ، ولا يلوح عليها إعياء الفهم أو التعبير كما يلوح على أكثر ما نرى من كتب ترجمت بعد شكيب وقبل شكيب . وكأنها كتبت رأساً

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ١ / ٣٠ .

بالعربية فى فصاحة وسلاسة وجمال ، وانسياق فكر وتتابع رأى على ما بين « ولز » والعربية من ـ بون فى الفكر والتعبير . وهذا هو التوفيق فى الترجمة . ونحب أن يقف القارئ معنا عند العبارات التى أسالها شكيب فى جداول هذه السطور ، وأن ينظر إلى الكلمات التى اختارها فى الترجمة ، فهى يسيرة سهلة لا تكلف القارئ عناء ولا تضطره إلى الوقوف طويلا عند فهم مغزاها .

وأسلوبه فى هذه العبارة كأسلوبه فى كل ما ترجم عن الغربيين وما استعرض من كتبهم ، وهى كثيرة لا تحصى فى هذا الكتاب . فالأمير واسع الاطلاع على آثار الأوربيين فى الحديث عن ديننا وشعبنا وتاريخنا ، فهو حين يتكلم عن البعثة المحمدية مثلا ، يورد نتفاً من آراء خمسة عشر مستشرقاً وكاتباً أوربياً فيهم الإنكليزى والألمانى والفرنسى والهولندى يترجمها كلها فتنسجم معاً كأنها من كتاب واحد ، وذلك لأن الأمير لشدة مقدرته فى الترجمة يتحكم فى سبك العبارة ، فتجرى على قلمه كأنها ولدت عربية ، فتتساوى العبارات المترجمة فى القوة والجودة والمتانة .

ولعل هذه القدرة فى الترجمة جاءته من كثرة تمرسه فى هذا الباب وعكوفه عليه منذ ثلاث وأربعين سنة ، قبل مباشرته التعليقات على حاضر العالم الإسلامى . فقد ذكر فى هذه التعليقات أنه اطلع على كتاب « اختلاف العلم والدين » للعلامة درابر الأمريكى ، فترجمه إلى العربية فى الثامنة عشرة من عمره ، عن النسخة الإفرنسية فقد كانت آنذاك أسهل من النسخة الإنكليزية . ونقل إلينا نموذجاً من هذه الترجمة فى صدر شبابه كما قال فى تقديمها : « مترجماً بقلمى القاصر منذ ثلاث وأربعين سنة مصححاً بقلم الدكتور العلامة الأشهر فانديك الأميركانى عفا الله عنه وجزاه خيراً » ، ونحب أن نروى هنا ما كان من أسلوبه فى الترجمة بهذه السن المبكرة لنوازن بينه وبين أسلوبه بعد أن جاوز الخمسين من عمره . فقد ترجم الفصل الرابع من الكتاب الأمريكى كما يلى[١] :

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ١/١٤٢ « الفصل الرابع : فى تجدد العلوم فى الجنوب » .

« قال الإمام على : لاحظت كثيراً فى مدة حياتى الطويلة أن الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . ولعمرى أن هذه الملاحظة الفلسفية البعيدة المرمى التى أتى بها صهر محمد ، لهى عين الصواب . فإنه مهما كانت ملامح المرء وتقاطيعه دالة على نسبه ، فإن البيئة التى يوجد بها لهى منشأ طبيعته الفكرية وحد وجهته العقلية . ولما فتح عمرو بن العاص نائب الخليفة عمر ، أرض مصر ، وضمها إلى المملكة العربية وجد فى الإسكندرية نحوياً يونانياً اسمه يوحنا فليوبونوس ، ومعناه (محب الشغل) فحصلت بينهما مودة ، ورغب هذا الرجل إلى عمرو أن يتخلى له عن بقية المكتبة الكبرى ، مما لم يكن أخنى عليه الدهر ، ولا ذهب به التعصب ولا أفنته الحروب » . ونحن لا نروى حكاية إحراق الكتب أو ندافع عن العرب ، وإنما نروى نصاً مترجماً نرى فيه سلاسة وصحة ودقة وبساطة يجب أن تتحلى به كل ترجمة ، وقد صنعها شاب فى مطلع شبابه ، فلاعجب أن يبلغ الذروة بعد أربعين سنة أو خمسين .

ولن نذهب مع شكيب فى نقد الصفحات التى ترجمها عن القدماء من الأوربيين وعن معاصريه ، فهى كثيرة ، تكاد تشغل ثلثى هذا الكتاب الضخم « حاضر العالم الإسلامى » . فهو ينقل عن لوتر وكالفين كما ينقل عن هتلر ، وعن وزير المعارف الهولندى ، يترجم عن هؤلاء وهؤلاء فى أمانة ودقة وقوة ، فتخرج الترجمة على قلمه كأنها من نبع واحد ؛ أو كأنه ينقل من كتاب عربى واحد — كما قلنا — فهو يروى الحكمة أنى وجدها فى كتاب عربى أو كتاب أوربى فى سهولة متساوية وفهم متشابه . وذلك ليعلق على كتاب هذا المستشرق الأمريكى ، ويرد على أقوال المستشرقين بأقوال زملائهم المستشرقين ، لغة بلغة ، وبياناً ببيان . وقد عشق شكيب هذا الأسلوب ، فهو يجمع الأقوال ويعلق عليها فيسعى إلى المتون يقرؤها ويحللها ، ثم يسعى إلى الشروح ينقلها ويناقش بها ، حتى لقد سار على ذلك فى أكثر كتبه ، يروى النصوص العربية عن أجداده ، ويروى النصوص الفرنجية عن الغربيين ، ويستوى بيان وبيان ، فيجعل النص الأوربى ببلاغته فى مستوى الفصاحة العربية ويكسوه بثياب

جميلة مشرقة . نرى ذلك فى تعليقاته على كتاب « العبر » لابن خلدون ، وفى كتابه « غزوات العرب فى أوربة » كما نراه فى كتابيه اللذين عربهما عن عن شاتوبريان وأناتول فرانس .

* * *

ونحن نحب أن نقف عند هذين الكتابين الفرنسيين لنرى كيف كان ينقل كتاباً كاملا برمته ، ترجم أولهما سنة ١٨٩٧[١] وهو فى الثامنة عشرة من عمره وترجم ثانيهماسنة ١٩٢٦ هو فى السادسة والخمسين من عمره وبينهما جيل كامل. فهما من الكتب الأدبية الخالصة التى وجه إليها اهتمامه وهواه ، وبرع فيها كل البراعة.

١ ــ أما رواية « آخر بنى سراج » فقد ألفها الفيكونت ده شاتوبريان الكاتب الفرنسى المشهور وأدارها على سياحة فارس عربى من بقايا آل سراج الغرناطيين ، هب من تونس حيث كانت جالية الأندلس قد خيمت بعد البلاء الأخير ، فهام الفارس فى الأندلس ، يستذكر ما كان لآبائه ، وبينما كان يجول فى شوارع غرناطة مسكن أهله قبل الجلاء ، وقع بصره على فتاة من سريات الإسبانيول فعلقت بقلبه ، ووقع نظره منها على مثله ، فتعاشقا : « وتوزعت القصة بين حبها وحبه ، وحال دون اقترانهما إعجاب كل بدينه وإخلاصه لربه ، ثم ما تبين لابن سراج بعد طول العشرة من كون معشوقته من آل بيفار الفاتكين لدن الجلاء بآبائه ، فرأى اختلاط دم القاتل بدم المقتول غير خليق بإبائه ، ولا ممتزج بشيمة وفائه ، بل مضى كل من المتعاشقين بحبيبه صباً ، قد اختلطت مهجتاهما حباً ، ولم يفرق بينهما إلا الدين وإلا المودة فى القربى[٢] » . وقد أحببنا أن نستعير أسلوب شكيب فى تقديمها لنندلل على

---

(١) رواية آخر بنى سراج ، طبع بمطبعة الأهرام ١٨٩٧ ، ثم طبع ثانية بمطبعة المنار سنة ١٩٢٥ والرواية وحدها فى ٥٨ صفحة ، وعلى الغلاف : « مترجم الرواية ومؤلف الكتاب أشهر كتاب العرب فى التاريخ والسياسة والأدب الأمير شكيب أرسلان » وقد ظهرت مقالات فى نقد الكتاب ، فنشرت فى المقتطف ١٩٢٦ ، العدد ٦٨ ، وفى العرفان ١١/٨٨٧ ، ومجلة الشرق ١٩٣٣ ، ٦/٩٩ ايوسف البعينى ، بعنوان هل وفق الأمير شكيب بنقله إلى العربية .

(٢) فى مقدمة شكيب للرواية ، ص ٢ .

طريقته فى الكتابة آنذاك ، ولنوازن بين إنشائه وتعريبه بعد ذلك .

ذلك موجز القصة ، أما بيان شاتوبريان فقد أحالها إلى رواية فريدة تعد من حسنات الأدب الفرنسى ، استقاها الكاتب من خياله ، ونسج خيوطها من قصص التاريخ ، فطار بخياله إلى تونس ، حيال دمن قرطاجنة حيث حل الأندلسيون بعد الهجرة والنكبة ، فصور المسلمين وعيشهم ، ورسم من قلوبهم جنة غرناطة وأحلامها وأيامها العذبة ، والأمهات يلقن اسمها مع الرضاع لأطفالهن ، ويهزن الأسرة بقصص بنى الزغرى وبنى سراج ، والرجال يدعون فى كل جمعة ويضرعون إلى الله أن يعيد عباده إلى أرض السعادة وفردوس الدنيا . فهم يعيشون بعيدين عن ظهور الخيل ، ودروع الحرب وعوالى المران ، يقضون بقية العمر فى درس العقاقير وارتياد الرزق ، ينكأون الجراح ويفرجون الهموم ، يأوون بعد القصور إلى أكواخ فى القرى وسط الأطلال ، خلال الذكريات الماضية والمستقبل العابس وأما تفصيل القصة فهو كما يلى :

لقد هلك من فتيان بنى سراج بعد خروجهم من الأندلس أربعة عشر سرياً ، ولم يبق من أمل للأسرة إلا شاب وسيم هو (ابن حامد) لم يكن له من العمر عند وفاة أبيه سوى اثنين وعشرين ربيعاً ، فنوى السفر لزيارة بلاد آبائه ، وكتم الأمر عن أمه ، فأبحر من جون تونس حتى بلغ الأندلس ، وشمر قاصداً غرناطة ، وكان يعرف نفسه بأنه نباتى مغربى جاء لانتجاع مساقط الغيث وارتياد التعاشيب فى جبال الأندلس فجاز الغابات حتى بلغ غرناطة الحمراء . فراح يتطلع إلى أبراجها وقصورها وفى قلبه حنين وأنين ، فلما هام فى شوارعها ازدحمت فى مخيلته أشباح أهله يطرقون سمعه و بصره وهم فى نعيم الأمس ، ولكن الصمت خيم على المدينة .

وبعد أن هام الشاب فى شوارعها طويلا سمع حركة باب ينفتح وإذا بغادة حسناء ، رائعة الشباب ، رشيقة القوام ، ومعها مهذبتها ، وتابع يحمل بين يديها كتاباً دينياً ، ووراءها اثنان من الوصفاء يتبعانها عن بعد ، وهى ذاهبة إلى صلاة الصبح فى دير قريب ابتدأ قرع ناقوسه ، فلما وقعت عين ابن حامد

عليها خيل إليه أنها حوراء من قاصرات الطرف فرت من الجنان ، وقد حركها منه ما حركه منها وأخذت ترنو إليه وإلى عمامته وطيلسانه ، فأشارت إلى ذلك الغريب أن يدنو منها ، وقالت له بلطافة : أيها السيد المغربى يظهر لى أنك قادم جديداً إلى غرناطة ، وربما كنت أضعت الطريق . فأجابها فى لطف يؤكد لها أنه ضل ، فسارت به تهديه السبيل ، ثم توارت عن عينيه .

وكم جد الشاب بعد ذلك فى البحث عنها ومعرفة قصرها ، فطوف فى الشوارع والكنائس للظفر بها عبثاً . وبينما كان يهيم بين الغياض سمع صوت غناء فكأنه صوت حسنائه دله عليها قلبه فألقى السمع والقلب فإذا بها تغنى زجلا قشتاليا فى تاريخ بنى سراج ، فوثب فوق السياج ووقع على سرب من ظباء الأنس راعهن بدخوله ، فنفرن من كل جهة إلا تلك الغادة التى كانت تنشد وفى يدها آلة الطرب فعرفته ، ودعت صواحبها ، وسكنت من روعهن .

واقترب الشاب يناجيها ويبثها لوعة الفراق ، وراحت تناجيه كذلك ، وكانت « أدماء » من سلالة بيت كريم أوسع له بعد النصر ، وهى فى الثامنة عشرة من عمرها ، على سحر فى الجمال ، وروعة فى الحديث ، وصراحة فى القول ، فلما قدم أبوها عرفت الشاب المغربى إليه وذكرت له من أمرها معه فى الدلالة وفى التلطف . فدعاه للجلوس بين الغيد ، يحدثهن ويحدثنه ، وأدماء ترقص وتغنى حتى انتهى العيد ، وعاد الجمع إلى البيت عند الأصيل .

وتكررت زيارات ابن حامد ، وأعجب به أبو الفتاة (الدون لذريق) وارتاح لمجالسته (أدماء) ومسامرته لها فى أحوال المشرق ، حتى كان الهوى قد أنشب فى قلبيهما مخالبه فاستسلما ، وراحا يتنزهان فى بساتين الحمراء على صهوة جواديهما ، ثم انتهى بهما الجرى إلى غابة من ملتف الشجر وقفا عندها ، ومد ساعده إلى أدماء يعينها على النزول . ثم راحا يطوفان معا قاعات الحمراء ، ليرى آثار آبائه شبراً شبراً ، ويبثها فى تلك الخلوات حبه ، فتردد الجدران حباً جديداً لمغربى مسلم من نسل ابن سراج فى مسيحية إسبانية ، وقد تغير السكان وبقى المكان

وعادت خفقات القلوب إليه : « وكانت أساليبه الشرقية ومناهجه العربية تتآخى فى غرابة المنحى ولطافة الذوق مع المكان الذى كانا يدوران فيه ، إذ المصدر واحد ، فاجتمع عندها الشرق كله بياناً وبنياناً ، واتسقت لديها القريحة العربية مقاماً ومقالا » .

وهنا وصلت مشكلة الهوى إلى ذروتها ، فإما أن يتنصّر فتكون حليلة له ، وإما أن تسلم فهو بعل لها ، وفى انتظار المعجزة أقسم كل منهما الأيمان فى الوفاء حتى الموت ، وعاد ابن حامد إلى أمه المريضة بتونس ليغمض عينيها إلى الأبد ، وركب البحر فإذا بأمه قد قضت نحبها ، فبقى وحيداً يفكر فى العودة إلى (أدماء) الإسبانية .

ويعود الفتى ليقضى أياماً أخرى جميلة بقربها ، تتخللها ألوان من العبث والسرور والجد والفروسية والحزم ، ويعترف فى آخرها بنسبه وأسرته ، وأنه حفيد ذلك الرجل الذى قتله جد (أدماء) وأنه جاء أول مرة إلى هذه البلاد وفى عزمه أن يناقش الحساب عن دم آبائه وأن ينتقم لهم . وكانت قطيعة بعدها عاد الفتى إلى بلاده . وانفصلت عنه الفتاة بالجسد ، ولبثت كل عام تفد إلى جبال مالقة فى الفصل الذى كان يفد فيه الأمير على الأندلس ، فتجلس على الصخور تنظر إلى البحر والفلك لعل الريح تحمله إليها ، ولكن هيهات فقد قضى الفتى ووسد التراب خارج تونس تظله شجرة نخيل ، وتمطره السماء برحمتها ، لتروى قلباً ظل ظامئاً للحب ، وجسداً عاش طاهراً وروحاً خالدة بالعشق البرىء .

* * *

هذه خطوط القصة التى ساقها شاتوبريان ، استوحى أكثر سطورها من تاريخ الأندلس ، وأضاف إليها ما عرف عن العرب من فروسية وعن الإسبان من تقاليد ، وأدخل فيها تفصيلات عجيبة ، من غناء وطرب وثياب وسلاح على عادة المؤلفين فى مثل هذا اللون من القصص التاريخى ، ولكنه جعل عقدة العقد اختلاف الدين بين الفتى والفتاة ، وتشاجر العرقين وذهاب كل منهما فى الفخر ، فالعربى يفخر بماضيه والإسبانية تفخر بانتصار أهلها على العرب ،

ولذلك جعل النفسين العاشقتين ضحية الهوى والتفرقة والتاريخ . ولن نعالج هنا ارتفاع القصة إلى مستوى الأدب العالمي أو انخفاضها إلى مستوى القصة العادية ، فنحن فى سبيل الحكم على ترجمة شكيب لها . فقد أحسن الرجل الاختيار ، وأحسن فهم الرواية ولكنه فى تلك السن ، عالج الترجمة معالجة عجيبة ، فجعل كلام شاتوبريان سجعاً ، وجعلها شعراً منظوماً فى كثير من المواقع ، ودس أمثالا عربية ، فخرج عن حدود الحرفية والالتزام فى المتن إلى حدود ما سموه لتلك الأيام بالتعريب . وقد كان المترجمون يلخصون لأيامه عن الفرنسية ، ومنهم من يترجم عنها شعراً ، ومنهم من يبنى على ما ترجم قصة عربية . ولكن شكيب كان وسطاً بين هؤلاء ، فأخذ يزين الأصل الفرنسى برائع أسلوبه ويوشيه ببارع إنشائه ، وسنضرب الأمثال لذلك ، لنحكم على طريقته فى الترجمة من غير أن نتحرى جملة معينة ، وإنما سنتخذ أية جملة تصادفنا منذ بدء الرواية ، فقد وصف شاتوبريان الأمير ابن حامد ، فقال شكيب يترجم « كان جامعاً فى نفسه الجمال الزاهر والإقدام الباهر والأدب الغض ، إلى كرم العنصر ، وشرف المنزع مع الرقة فى الأبهة ، والتواضع فى الجلال ، تلوح على معارفه ملامح الحزن اللائحة على من تجمل واعتزم فى احتمال غدرات الزمان » .

فإذا عدنا إلى النص الفرنسى فإن شاتوبريان يقول حرفياً : « كان يجمع فى نفسه الجمال والجلال ، والأدب ، وكرم الأجداد ، إلى أبهة لطيفه ومسحة من الحزن خفيفة يخلفها الشقاء الذى يتحمله الفتى فى شمم » . وهنا يبدو أن الأمير شكيب أضاف إلى كل كلمة من شاتوبريان صفة تزينها ، وجملة ترصعها ، فزاد فى النص كلمات : « الزاهر ، الباهر ، الغض ، شرف المنزع ، التواضع فى الجلال ، اعتزم فى احتمال غدرات الزمان » . وليس فى هذا الأسلوب ترجمة ، وإنما فيه تعريب على حد تعريفه لنقل النصوص الفرنجية — كما قلنا — . والتعريب هنا أن يفضح الجمال وأن يكسو النص بما يكسبه روعة وجلاء وحسناً ، وليس فيه تناقض مع الأصل ، وإنما فيه توضيح وشرح وتعليق ، لا يقل روعة عن البيان الغربى .

ومن الظلم أن نقول أن شكيباً فعل هذا فى كل الرواية ، فهو أحياناً يسير وفاق النص حرفاً حرفاً ، وأحياناً ينطلق إلى ساحة العربية يستنجدها لجلاء النص وجماله ، فالجملة التى تلى هذه تماماً تسير على قد الجملة الفرنسية فلا تضيف ولا تزيد . ونحن لا نحب أن نتهم المترجم بشىء من التقصير ، وإنما نتهمه بكثير من الزخرفة والتجميل ، ولعل فى ذلك من الخير للعربية ، فقد أدى العبارة الفرنسية ، وعرضها عرضاً جميلا . ولعل الحرفية التى صنعناها قبل قليل ترجمة للنص الفرنسى تبدو قليلة الجمال بعيدة عن الفتنة والإغراء ، فهى لا ترضى كثيراً من القراء القدماء ، وربما زهدتهم فى النص المترجم لتلك الأيام فى مطلع القرن العشرين ، لبعد الأسلوب عن أساليب الفصحاء ، ولجفاف العبارة ولهذا أثر كبير فى المتقفين على كتب البيان العربى وأمهات الذخائر من تراثنا القديم ، فهم يريدون للكاتب كما يريدون للمترجم أن يكون متين العبارة ، جزل السبك ، ولهذا سلك المترجمون الأقوياء هذا المسلك ، برهاناً على تمكنهم من العربية وتمكنهم من الفرنسية معاً ، بل إن اللغة التى ينقلون إليها كانت أهم فى نظرهم ، فكانوا يعنون بالسبك العربى والفصاحة والجزالة فى الجملة . وعلى هذا ساق شكيب صفحات هذه الرواية المترجمة ، فحافظ على الموسيقا ، وجمال التعبير ، وارتفع إلى مصاف المحسنين فى بيانه .

ونحن نحب أن نورد سطوراً أخرى من هذا البيان فى ترجمته لعبارات شاتوبريان ، لنشير إلى مدى توفيقه فى الأسلوب العربى ، ولنعطى صورة كاملة عن جهده فيها ليقف القارئ على الترجمة بنفسه ، ويدلى بالحكم عليها ، للأمير أو عليه . قال شاتوبريان يصف غرناطة على لسان شكيب :

« وغرناطة الحمراء مبنية فى سفح جبل (سيارنيفاده) الشارات على رابيتين مسترسلتين صعداً يفصل بينهما واد عميق ، والأبنية ممتدة على الصبب من الجانبين ، وآخذة برقاب السفوح إلى قعر الوادى على شكل يعطى البلدة للناظر هيئة الرمانة . ومنها اشتق اسمها ، إذ معنى لفظة غرناطة رمانة[1] » .

---

(١) الرواية ص ٩ .

وقال شاتوبريان كذلك يصف لقاء العاشقين أول مرة :

« وقد حركها منه ما حركه منها ، ورأى بعينها ورأت بعينه ، وأخذت ترنو إلى ابن سراج وعمامته وطيلسانه ، وأسلحته تزيد صباحة وجهه وبهاء طلعته رونقاً وجلالا ، ثم ثابت من دهشها الذى أصابها لأول وهلة، فأشارت إلى ذلك الغريب الديار أن يدنو منها، وقالت بلطافة وهشاشة تمتاز بها نساء تلك الأحياء : أيها السيد المغربى ، يظهر لى أنك قادم جديداً إلى غرناطة ، وربما كنت أضعت الطريق(١) » .

وقال شاتوبريان يصف المرج حول غرناطة :

« وهذا المرج الذى تشرف عليه غرناطة كاس من ملتف الدوح وفينان السرح ، وأشجار الكرم والرمان ، والتين والتوت والليمون ، حلة خضراء سندسية وقد حفت به جبال مدهشة المنظر ، شائقة الملمح . فإذا مر السائح من هناك ، وقلب طرفه فى صحو تلك السماء ، وصفاء ذلك الماء ، وتبسم ذلك الأفق ، واعتلال ذلك الهواء ، لم يتمالك أن يستشعر قلبه الانحلال ونفسه الالتياث ، بل يحس أن عواطف الرقة فى هذه البلاد تتغلب على حفائظ الشجاعة ، وأن مناخها يحل عقود العزائم ، وينكث مفتول الشكائم(٢) » .

هذه السطور تعبر عن أكثر ما فى هذه الرواية من جمال التعبير ، وحلاوة اللفظ وقوة السبك ، حتى لكأن الرواية من بيان شكيب لا من ترجمته ، فقد خلع عليها الأمير ثيابه العربية الموشاة بأزهى الألوان وأبهى الحلى ، فأحالها إلى قصة عربية ، بلغة يتمناها أبرع كتاب القصة عندنا . فليس فيها عجمة أو تفكك كما نحس فى كثير مما نرى من آثار الترجمة فى هذا العصر . فكثيرون من المترجمين يدافعون عن ركاكة العبارة بأن صعوبة النقل من لغة إلى لغة ساقتهم إلى الاضطراب والعجمة ، وكدرت ينابيعهم ، فأصبح أسلوبهم بعيداً عن العربية حتى ليفضل القارئ العربى أن يرجع إلى الكاتب الغربى حين يتقن اللغة الغربية . وقد نظر فيها العالم الأديب محمد رشيد رضا فكتب إلى صديقه الأمير

(١) الرواية ص ١٤ .

(٢) الرواية ص ١٠ .

يصف الترجمة فى رسالة إليه حين الطبعة الثانية سنة ١٩٢٥ قال [١] :

«وذلك أن عبارتها دون ما يعرفه العلماء والأدباء من كتابتك ، بأنها ترجمة ، وبأنها أول العهد بتمرنك على الترجمة ، على أن أسلوبها الفتى هو أسلوبك الكهل ، فى روعته وجماله وبلاغته وإيداعه كثيراً من فرائد اللغة وطرائفها » .

فهو يرى أن أسلوب شكيب فى الترجمة هو دون بلاغة شكيب فى غيرها . وأن الترجمة كانت لأول عهده ، ولكنها على ذلك رائعة جميلة بليغة ، لما تحوى من طرائف اللغة وفرائدها . وهذا كلام صحيح صادق يكتبه أخ إلى أخيه فلا يخفى عليه من الأمر شيئاً ، كأنه يقول له : إنه يتبع القدماء فى زخرفة اللفظ وفى تسقط مفردات اللغة الطريفة .

ولعل الأمير شكيب أخذ بطريقة ابن المقفع وأشياعها فى الترجمة فزين له أن ينقل إلى لغة العرب أسلوباً عربياً فى بيانه ، غربياً فى صوره وحواره وتفكيره . ولكنه أسرف فى تصرفه حتى كلف النص الغربى أحياناً ما لا يحمل ، وأبعده عن أصله ، فأضاف إليه ما ليس فيه ، سعياً فى تجميله وتنميقه . وحافظ أحياناً أخرى على الأصل محافظة كريمة بارعة ، فوفق أشد التوفيق ، ونحب أن نروى له فى هذا الباب ختام الرواية ، مما لا نجد فيه سجعاً ولا تكلفاً ، قال شاتوبريان :

« عند خروجك من تونس من الباب المؤدى إلى أطلال قرطاجنة ، تجد مقبرة ، وتجد فى زاوية من تلك المقبرة شجرة نخل ، تحتها ضريح قد أرشدت إليه ، يقال له هناك قبر آخر بنى سراج ، ليس فيه شىء يستحق الصفة ، سوى أن فى وسط حجر الضريح الأملس نقرة صغيرة محفورة ، حسب عادة مدافن المسلمين ، وماء المطر يجتمع فى هذا الجرن الصغير ، فترتوى منه تحت السماء المحرقة طير السماء [٢] » .

وهذه الجملة جعلها المترجم المعرب على مثل العبارة الفرنسية لم يزد فيها ولم

---

(١) رشيد رضا لشكيب ، ص ٣٥١ .

(٢) الرواية ص ٥٧ .

ينقص منها ، وإنما نقلها فى بساطة وجمال ولغة صحيحة متينة . ولعله لو فعل ذلك فى الرواية كلها لكان أنموذجاً سويا للتعريب. ولكنه آثر وهو فى سن الشباب أن يحلى الترجمة بحلى البيان العربى ، وأن يصطنع الشعر فى ترجمة العبارة الفرنسية فجاء الشعر متكلفاً منظوماً لا يرتفع إلى مستوى النثر . واستشهد فيه بأشعار العرب فخرج عن قصد الترجمة الأمينة الموفقة . ولكن سن الشباب تشفع له بهذا الذى فعل ، فظلم شاتوبريان الفرنسى وأقام مقامه آخر يتحدث ببيان عربى . ولكنه عدل عن هذا فيما بعد ، وخاصة حين ترجم كتاباً فى الحديث عن أناتول فرانس بعد أربعين سنة برع فيه كل البراعة .

* * *

هذا الكتاب عنى به شكيب أرسلان حين كان فى مرسين وبدأه منذ مات أناتول فرانس (١٣) أكتوبر ١٩٢٤ ، ونشره سنة ١٩٢٥[١] ، فاستغرق من وقته ثلاثة أشهر ، جعل عنوانه « أناتول فرانس فى مباذله » وهو ترجمة لكتاب ألفه « جان جاك بروسون » عن هذا الكاتب ، ضم إليه خلاصة لكتاب آخر ألفه « نقولا سيغور » وعنوانه « محادثات مع أناتول فرانس » قدم بين يديهما بخلاصة ما قالته الصحف الفرنسية يوم وفاة فرانس ، وهى فى قرابة أربعين صفحة .

والكتاب كله بقسميه يرتفع إلى ذروة التوفيق فى الترجمة ، قوة وبراعة وجمالا وموسيقا ، لا نحسب أن شكيباً أدرك فى كتبه من الروعة ما أدركه فى هذا الكتاب . فقد بلغ السادسة والخمسين من العمر ، وتنقل فى الأمصار وأتقن العربية حتى غدا لقبه آنذاك — كما نجد على غلاف هذا الكتاب — « كاتب الشرق الأكبر صاحب العطوفة الأمير شكيب أرسلان من أعضاء المجمع العلمى العربى » ولقبه آخرون بأمير البيان . فاستوى على قمة النثر كما استطاع أن يمتلك ناصية الشعر من قبل ، ووقف على الفرنسية فى أحاديثه

---

(١) نشر سنة ١٩٢٥ فى ٣١٠ صفحات على طباعة مصورة جميلة وقد عاش أناتول فرانس ثمانين سنة ، فكان فى ذلك شبيهاً بفكتور هوغو .

وقراءاته وكتاباته وقوفاً مدهشاً ، فاستطاع أن يفهم أعمق الفهم وأن يترجم بعد ذلك أجمل الترجمة . ولعل شكيباً وجد فيه مثالا من أمثلة البيان الفرنسى ، فأحبه وعكف عليه ، وكان بينهما من الشبه ما نكشفه بعد قليل على شدة البعد فى كثير من خصالهما ، وحياتهما .

* * *

شذرات عن أناتول :

أما الصحف الفرنسية التى تحدثت عن أناتول فرانس ، فقد أحصاها شكيب ونقل منها ، فاختصر حيناً ، وتصرف حيناً ، وترجم بحرفية أحياناً ، وكان الذى سال على قلمه جميلا حسناً ، لولا حنينه فى الفينة بعد الفينة إلى ألفاظ صعبة ومفردات نادرة ، أصابت جمال الصفحات كما يصيب الكلف صفحة القمر .

جمع شكيب فى هذه الصفحات التى تحدثت عن نكبة الأدب بوفاة فرانس ما قالت كبار الصحف ونشر أعاظم الكتاب ، فنقل عن جريدة الطان ، والأوفر ، وبارى سوار ، والأيكودى بارى ، والبتى باريزيان ، وخطب باش ، وليون بلوم ، وبول بانلفه ، وفرانسوا ألبير ، وجبريل هانوتو ، وجورج لكونت ، وفيهم الوزير والأكاديمى والمؤرخ ، والسياسى . وصرح شكيب بخطته فى ذلك فقال[1] : « وكما أننا لا ننقل هنا إلا رواميز مما قالته أمهات الجرائد التى يحررها فحول الكتاب ليرى فيها القارئ الشرقى خلاصة أفكار الفرنسيس فى أديبهم العصرى الكبير ، فإننا سننقل أيضاً بعض شذرات من خطب عظماء تلك الأمة وجهابذتها يوم مأتمه العظيم » .

وقد جعل هذه الشذرات سبيلا للتعريف بأناتول فرانس ، وسنعرض نماذج من تعريبه لها ، لنرى إلى أسلوبه الأدبى ، قال عن بول سوادى[2] :

« اندرأ القضاء دفعة واحدة على الآداب الفرنسية فأصابها فى أعلى قنها ،

---

(١) أناتول فرانس ، ص ٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢ .

فى أقل من حول ونصف حول ، فقدنا بيير لوتى ، وبارس ، واليوم أناتول فرانس : ثلاث مصائب مؤلمات وثلاث رزايا لا تعوض . فقد كان هؤلاء الثلاثة خيرة كتابنا ونخبة الناثرين عندنا ، وربما كان سبقهم فى حلبة النثر ناشئاً عن أنهم الثلاثة كانوا شعراء » ثم قال :

« ومما لا شبهة فيه أن توالى مناظر رصفات السين أيام كانت ناضرة ساكنة ، لم تذهب بهجتها بازدحام وسائل النقل الحديثة قد رسخ تأثيرها فى ذهن ذلك الشاب الذى أوجد فيه طول التأمل فى اللوفر وفى كنيسة نوتردام حب الآثار والحنين إلى الماضى » .

وهذه السطور قريبة من أن تكون مكتوبة بالعربية لا منقولة عن الفرنسية فليس عليها طابع المقالة الأجنبية ، لسلاستها وقربها من أساليب العرب الجميلة فى البيان ، وهذا نجاح لكاتبنا .

ولعل هذا الشبه بين أناتول فرانس وشكيب يشرح سبب عكوف الأمير على هذا الكاتب . فأناتول فرانس انطبع بأسلوب القدماء من الفرنسيين فأخذ بالأسلوب اليونانى واللاتينى وبآراء فولتير ، وكان شاعراً نظاماً ذا سليقة شعرية ملأها حب الجمال الصورى ، وكانت تتألق على كلامه ديباجة الأولين ، فلذا يقال عنه إنه كان أعظم المجددين والمقلدين فى فرنسا : « ولم يختلف اثنان فى استيلائه على الأمد الأقصى من حسن الإنشاء[١] » . وفى أنه حافظ على اللغة . وأناتول فرانس لم يستمر بإنشاد الشعر ، وإنما تجرد من بعد نشر قصائده لكتابة القصص « فمنذ صدرت أوائل كتبه عرفت بنقاوة اللغة ورشاقة الأسلوب ، وأقبل الناس على قراءة تأليف هذا الشاب وسماع صوته الذى عليه جلالة القدماء . وإنما كان فنه فن من اكتفى بقراءة الأوائل ، وتصويره تصوير من انقطع فى غرفته لا يفتح نافذة ولا يطل منها ليرى المارين فى الشوارع فإذا كان فرانس أبرع كتاب عصره فلم يكن أدقهم شعوراً ولا أعلمهم بمواقع أهواء النفوس[٢] » .

---

(١) الكتاب نفسه ، ص ١٤ .

(٢) المصدر المذكور ، ص ٢٣ .

وقصائده نفسها قال فيها النقاد : « ولم تكن من ذلك الشعر المرقص أو المسكر الذى ينسى به المرء نفسه أو يخلع له جلبابه ، ولكنها كانت آية فى سلاسة النظام ولطف الانسجام[١] » .

فإذا سحبنا هذا الكلام على شعر الأمير شكيب ونثره وطريقة حفاظه على اللغة ، رأيناه ينطبق فى أكثره على أدبه حتى لكأنه قيل فيه . وهذا سر التلاقى والحب والصحبة بين الأديب الفرنسى والأديب العربى ، فقد كانا على ديباجة الأولين فى النثر والشعر ، وطلقا النظم إلى النثر ، وحافظا فيه على الأسلوب القديم ، وكثيراً ما استشهد شكيب بشاتوبريان وأناتول فرانس فى عكوفهما على النثر القديم وأدب العصور الزاهية .

ومهما يكن من أمر فإن التوفيق الذى أصابه شكيب فى أدبه مبعثه الحب والإعجاب لما يصنع ، فلا بدع أن يسمو فى ترجمته لهذا الكاتب الفرنسى بعد الذى عرفنا من إعجابه به وشبهه بطريقته . وقد وصف أناتول فرانس « السهل الممتنع » فى كتابه جنة أبيقور ، وترجم قوله شكيب فقال[٢] :

« أقول إنه إن لم يكن فى الدنيا سهل ممتنع فإنه توجد كتابات ظاهر عليها أنها من الأساليب السهلة الممتنعة ، وأن مثل هذه الأساليب مقضى لها بالشباب والبقاء . . . فالإنشاء الحسن أشبه بهذا النور الذى يدخل من نافذة غرفتى فى أثناء ما أنا أكتب ويتولد تلألؤه الصافى من شدة امتزاج الألوان السبعة التى هو مركب منها . والسهل الممتنع يحكى البياض الناصع الذى هو فى الواقع مركب تركيباً ، لكن تركيبه غير ظاهر ، فلا يبدو منه إلا صورة مرئية وبعبارة أخرى السهولة المطلوبة فى الكلام ليست إلا مظهراً من مظاهر الانسجام والاقتصاد التام فى الأقسام » .

وهذا الوصف إنما هو وصف أناتول فرانس لقلم أناتول فرانس وإنشائه وكأنه وصف لإنشاء شكيب ، امتزج المترجم بالمؤلف ، واندمج فيه ،

(١) المصدر المذكور ، بالصفحة نفسها .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

فكان هذا اللقاء الروحى فى قمة الأدب أليس شكيب صاحب أسلوب هو السهل الممتنع فى التأليف والترجمة ، ينسجم مع نفسه فى هذا وهذا ، ولا يكاد يختلف بيانه فى كليهما ، لأنه مطبوع صاحب سليقة عظيمة . وعجيب أن ينقل عن القدماء العرب فيستوى معهم فى أسلوبه حين يفسر ويناقش ، أو يستوى فى تعريبه وتعليقه فلا يكاد يشذ ولا يند وتلك قوة عظيمة فى الأديب .

وما أحسن ترجمته لخطاب بلوم فى أناتول فرانس حين قال(١) : « وما كان فرانس يقول إلا بسلطان العقل المبين ، وما كان يقاتل إلا السوادين سواد الجهل وسواد الظلم . وذلك ليقيم مكانهما صورة العدل البيضاء الناصعة التى كان يرجو لها الظفر الأخير » ، وقد عاش شكيب يقاتل هذين السوادين سواد الجهل وسواد الظلم فى المستعمرين الغربيين وكل كتاباته تتلخص تقريباً فى هذا النضال ، فهو فى ذلك من الكتاب الخالدين .

وأما تعريف البيان وسحره فقد ترجمه شكيب عن وزير معارف فرانسا فرانسوا ألبير راثياً لأناتول فرانس إذ يقول(٢) :

« كان يقال إن أناتول فرانس يملك سحر البيان وهو صحيح إذا أريد بسحر البيان استرقاق الآذان بخلابة النطق وعذوبة الإنشاء ، والأخذ بمجامع القلوب بالصور الجاذبة المستطرفة بدون أن يصادم ذلك شيئاً من أحكام العقل الذى مع طلاوة الكلام وتناسب النظام يمج كل ما ليس من الإمكانات البشرية . وعلى كل حال فقد أدار أناتول فرانس بكأس فصاحته هذه من سلافة عصره على معاصريه شراب الحقائق الأبدية التى أخذ يبشر بها منذ ثلاثين سنة . ملأ أناتول فرانس دماغه اطلاعاً ، وقتل أدوار المدنية المختلفة علماً ، وتعقبها من العصر اليونانى القديم إلى العصر الإسكندرى إلى القرون الوسطى إلى دور التجدد إلى الدور الفولتيرى بشغف متساو فى استقصاء الأخبار وتبطن الأسرار مقيماً لكل حالة وزناً ومؤدياً لكل فضل حقاً ، وقد ذاق لذة الاستمتاع بكل

(١) الكتاب نفسه ، ص ٣١ .
(٢) المصدر المذكور ، ص ٣٥ .

حسن والتأمل فى كل سر ، والتفهم لكل ما تكوّن منه هذا التاريخ البشرى العابس المتجلى فى مظهر الجلال » .

وهذه الترجمة جديرة بالنظر فى أسلوبها المنسجم وسياقها البديع المنتظم كأنها فقرات متتابعة كتبت بالعربية فى نقد كاتب عربى لا عبارات فرنسية قيلت فى رثاء كاتب غربى . وهى جديرة بالنظر فى معناها لأنها تنطبق كذلك على أدب شكيب وحياته وتصف ما كان منه . فهل شعر الأمير بأن القول فى صاحبه ينطبق عليه أو يصفه أو يقال بعد مماته فيه ؟ . . .

وهلا يقول شكيب كما قال أناتول[١] : « فقدت كل أمل بأن أتعلم من أحد شيئاً جديداً . ولست أعثر على شئ جديد إلا فى كتاب قديم » . إن الشبه فى آراء الأديبين عظيم ، حتى فى رسم حياتهما .

* * *

نيقولا سيغور :

وبعد أن أتم شكيب ترجمة « الشذرات » عن أناتول فرانس فى حياته وأدبه ، بدأ بكتاب « نيقولا سيغور » عن أناتول فرانس ، وهو فى أربعين صفحة تقريباً[٢] ، فلخصه عن الفرنسية أجمل تلخيص ، للتعريف به . وقال إنه : « محادثات مع أناتول فرانس » ، جعل فيها سيغور ما عرفه من حقيقة أمره وما سمعه من آرائه فى الحياة والخلق والعلم والسعادة والشقاء ، وغير ذلك من المواضيع الاجتماعية والفلسفية . وكان « سيغور » شاهد عيان ، عرف من أناتول فرانس ما لم يعرف غيره فبسط هذه الأسرار ويسرها للجمهور . ورسم شخصية فرانس ورقة قلبه وشدة طاعته لعادته ، وقال : إنه كان حديد الذكاء شفاف البصيرة ، فهم أن الناس عبيد القدر ، يعيشون بدون عقل منطقى ، جهلاء متهورين ، سذجاً فخورين ، قساة مفترسين لا يبرحون جياعاً أو مترفين .

---

(١) المصدر المذكور ، ص ٤٨ .

(٢) أقوال الصحف والخطب من صفحة ٨–٤٦ ، وكتاب نيقولاسيغور على أناتول فرانس ٤٧ – ٨٧ ، وكتاب جان جاك بروسون من صفحة ٩٥ – ٣١٠ .

لم يذق فرانس من السرور إلا فى أيام صباه . ولما رأى نفسه منفصلا عن الحاضر حاول أن يخدع نفسه بمراجعة الماضى ، وكانت تآليف البشر تبدو له حقيرة ملأى بالغلط والهوى والأمانى . « ولم يكن تعاطيه حرفة الأدب إلا نتيجة انقطاع أمله من كل شيء ، فصار القلم عنده أداة لهو ومعزف تطريب يلتمس به الرويحة مما هو فيه من الألم وينشد السلوى عما يلح به من السأم وكأنه من قبيل الأفيون[١] ». ومن يسمعه يظن نفسه مسحوراً « ويشعر من تأثير خطابه أكثر مما يشعر من تأثير كتابه ، فكان ساحراً عليماً ينثر الأنوار على الكائنات ويفسر الحوادث والرجال بتفاسير مبتكرة لا عهد للناس بها ، ويسخر لإرادته الفكر والصور ويلعب بالأشياء لعب الرقاة والمشعوذين . وفى مثل تلك السويعات فقط كانت تتجلى لك روح أناتول فرانس[٢] » .

قال سيغور إن أناتول فرانس كان يدعو كل أربعاء إلى مأدبته نفراً من أصحابه يسمعون فيها منه أحاديث وحكايات قلما يحسن مثلها أحد ، فيلبث سامعه مبهوتاً مأخوذاً بسحر كلامه . « فكان ينفق من خزانة فكر ملأى من الصور الشعرية بعبارة لا يدنوا وصفها لقلم واصف مهما أجاد وأبدع فى لطف النسج ودقة الحيط[٣] » . هذا وكان أناتول فرانس يستقبل فى بيته عدداً من السيدات العقائل الرصينات ومن الغوانى النواعم ، إلى جانب الصحفيين والأدباء والمرشحين للأكاديمى والشواعر والفلاسفة ، وكان يفد إليه فى الفينة بعد الفينة زعماء السياسة المشهورون مثل كليمنصو وبريان ، فيجول فرانس فى أحاديثه بدون انقطاع ، ويحشو محاضراته بالنكات والنوادر ، وكثيراً ما يتدفق كالبحر .

وراح سيغور يروى ما دار فى هذه المجالس من نوادر فرانس وآرائه فى الجمال والحياة والسياسة والدين والكنيسة والتاريخ ، ويبسط من اشتراكية الرجل ومبادئه ودفاعه عنها ما يجعله زعيماً من زعماء الفكر فيها ، كما ينقل إلينا شيئاً من جمله المأثورة وفيها : « المجد ! العبقرية ! لا تثق بهذه الأشياء يا صاحبى ،

(١ ، ٢) الكتاب نفسه ، ص ٥٠ .

(٣) أناتول فرانس ، ص ٥٣ .

فلو اطلعت عليها لوليت منها فراراً ، وملئت منها رعباً . فى هذه الدنيا لا شىء أقل ثباتاً ولا أكثر اضطراباً من صيت أعاظم الرجال . فكم من رجل عظيم نسيه قومه لسوء بخته لا لقلة فضله[١] » .

فكتاب « سيغور » عن أناتول فرانس ممتع حقاً ولكن شكيباً لم يترجمه كله ، وإنما اختار صفحات منه ، تصرف فى ترجمتها تصرفاً بعيداً أحياناً ، والتزم الأصل أحياناً أخرى ، فجاء فى كليهما متين العبارة ، حسن السبك ، قال سيغور يصف أناتول فرانس[٢] :

« فالعبقرية التى أوتيها فرانس هى التى هدمت كيانه ، فقد أعطته من بعد النظر ولطف الشعور ما صيرت الحياة له عذاباً . ولكنه كما أن الطير إذا حبس فى القفص ازداد حنينه وشجنه وبذلك ازداد تغريده فإن هذا الرجل فى قفص عزلته الروحية أتى بأشجى الأنغام التى يتصورها البشر ، عرف أن معاشرته للناس لن تكون إلا سطحية ، فالتجأ فى أكثر الأحايين إلى الأشباح جاعلا حياته نوعاً من السياحة فى القرون الماضية ، ناثراً قوة بيانه الساحر وطبعه الشاعر على العلم والتاريخ ، مؤثراً من المواضيع أغمضها ، متبطناً من العقليات البشرية أبعدها وأقدمها ، عائشاً مع الآباء الأولين يبغى فى الاختلاط بهم تتبع سير الحركة الفكرية فى العالم » .

وهذا الأسلوب يقبله العرب ويسيغونه ويفهمونه كما يفهمون كتابهم ، وذلك لأن شكيباً أحال عبارة سيغور إلى عبارة صحيحة عربية صرفة لا أثر للعجمة فيها ، ولا موضع للضعف فى تركيبها ، فمضى فى الكتاب يترجم على هذا اللون فى وصف فرانس أو فى نقل حديثه أو فى ترجمة حواره . فنقل من كلام فرانس كما رواه سيغور قال[٣] :

« إن الصين هى فى دور انتقال . وما دام الصينيون يحكون أنوفهم عند

---

(١) أناتول فرانس ، ص ٧٤ .
(٢) الكتاب نفسه ، ص ٥٠ .
(١) الكتاب نفسه ص ٦٠ .

السلام ويلبسون الأبيض للحداد ، ويؤدون إلى الطبيب الأجرة عن السنين التى لا يكونون فيها مرضى . ويأكلون أعشاش الطيور من دون الطيور . ويعملون كل الأمور بالعكس ، فنحن فى أمان . ولكن متى ارتفع استعمال الحصير من الصين فقد دنا أجل أوربة . »

وترجم كذلك رأى فرانس فى رنان قال[١] :

« إن رنان كاتب سيعيش ذكره بحسن إنشائه وسحر بيانه ، وطور معيشته الفلسفية . أما متانة بنائه التاريخى فلا أعتقد بها . فالتاريخ هو كما وصفه رنان مجموع افتراضات ، والافتراضات تتجدد دائماً . فكتاب (حياة يسوع) يشيخ من يوم إلى يوم ويفنى من جهة موضوعه . ولكنى واثق بأن الناس سيقرأون أبداً حياة يسوع كما يقرأون خطبة بوسويه فى التاريخ العام ، وكلاهما مقصود من أجل البلاغة لا من أجل التاريخ » .

وهذه الآراء هنا تنطبق على آراء شكيب ، فيتشابه الرجلان فى كثير من المبادئ الأدبية ، والعكوف على القديم وحب البلاغة ، كما رأينا قبل صفحات . والمهم هنا هو هذا الأسلوب المتين الذى ترجم به شكيب أو عرب ما قرأه فى الفرنسية ، فهو أسلوب كاتب أديب يفهم ما يقرأ ويحسن تلخيص وعرضه ونقله . ولعله فى متانته وأصالته يريد أن ينحو نحو ابن المقفع فى ترجمة « كليلة ودمنة » أو نحو القدماء فى ترجمة الحكم الهندية والفارسية ، واليونانية . فقد تشبع الرجل بأسلوب عبد الحميد الكاتب وأخذ بعبارات الصابى وتعلم من ابن خلدون ، ثم أراد أن يكون كل هؤلاء فى كتبه المؤلفة وفى كتبه المترجمة ، فوفق فى كثير حين سار فى عبارته إلى السهل الممتنع ، وإلى العبارة البسيطة غير المتكلفة . وحلق فى صفحات الترجمة على بيان متسق وانسجام بديع .

* * *

وينتهى شكيب من تلخيص « سيغور » إلى ترجمة « جان جاك بروسون » فى كتابه « أناتول فرانس فى مباذله » وهو العنوان الذى جعله لهذا « المجموع »

---

(١) الكتاب نفسه ص ٦٩ .

كله كما يسميه ، فقد أراد أن يجمع حياة فرانس ، وخلاصة سيغور وترجمة بروسون ، حباً بأناتول فرانس نفسه ، فهو فى نظره أديب كبير غربى نسج على منوال السلف فيقول فيه إنه : « عصرى الأفكار على منوال الأعصر السالفة ، وعد له الفرنسيس ذلك أعظم فضيلة » ويقول : « إن أناتول فرانس وغيره ممن مر ذكرهم فى هذا الكتاب قد عرفوا أن يجمعوا الطريف إلى الشريف ، ويودعوا الحديث فى القديم[١] » .

وهذا الكلف بأناتول فرانس جعله يهم بترجمة كل ما قيل فيه ، خدمة للمتأدبين الشرقيين الذين لم يحسنوا اللغة الفرنسية أو لم يتضلعوا فى آدابها ، فقام بهذا العمل ، وقدم له بعد أن انتهى من كتاب سيغور واعترف بأنه لم يحافظ على الترجمة الحرفية فى جميع المظان . وأشار إلى الأماكن والصفحات التى حذفها من كتاب سيغور أو من كتاب « بروسون » خوفاً مما وقع فى الأصل من فجور واستهتار وحرصاً على الأحداث والعذارى من ترجمة ذلك . واتهم « بروسون » بخبث النية والعمل فى فضح مباذل أستاذه ، ولكن هذا لا يبعد الكتاب عن الأدب ، ولا يبعده عن القراء ، فالقراء محتاجون إلى أن يقرأوا أخبار العشق وقصص المجون وآراء رجال الدين فى فرنسة لا تختلف فى هذا عن آراء كثير من رجالنا الفقهاء ، ومع هذا قال شكيب : « فاضطررت فيها إلى استعمال الألفاظ التى تلطف عن الصغير ولا تجفو عن الكبير ، وصنعت بكتاب سيغور ما صنعته بكتاب بروسون ، فحذفت منه بعض ما تثقل وطأته على مسامع رجال الأديان » ثم قال[٢] : « وقد وافقت هذه الترجمة أياماً عدتنى فيها عداوء الأشغال عن إيتاء التنقيح حقه وإبلاغ التمحيص شأوه ، بل كنت أنقله من النص الإفرنسى رأساً إلى المسودة المعدة للطبع بدون تبييض حتى أخرجته كله فى ثلاثة أشهر لا غير . وأنا أتمنى لو كان فى الوقت متدح أوسع فأبذل فيه أكثر مما بذلت من الجهد ، وأراجع عليه النظر كرة بعد كرة حتى لا يلتوى

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

(٢) الكتاب نفسه ، ص ٩٤ .

فيه شيء عن القصد » ، ولكن أمله هذا خاب هنا كما خاب فى أكثر كتبه فلم يتح له أن يرجع إلى واحد منها أو أن ينقح فيها لضيق وقته وكثرة مشاغله[١] . ولذلك كانت ترجمته لكتاب بروسون كترجمته لكتاب سيغور ، بالأسلوب نفسه والمتعة عينها فى أسلوب جميل وبساطة غالبة ركب إليها السهل الممتنع فى الترجمة كما ركبها فى التأليف ، فى أكثر الصفحات .

وما نحب أن نطيل فى رواية نصوص روسون كما أطلنا فى سيغور ، وإنما نحب أن نثبت منه ما يصور الكتاب ويشير إلى فائدته ومتعته . وكتاب « بروسون » مجالس كذلك قضاها الكاتب مع فرانس فقص من أطرافها أحاديث وطرائف ، كما قص زميله سيغور . فهو يروى لقاء فرانس للناس وكلامهم وكلامه وينقل الحوار كما وقع . والذين طرقوا أبواب فرانس فى بيته « مغنى سعيد » ، « كثر مختلفون فى الطبقة والعقلية والثقافة . وبيته هذا فى قلب الريف على مقربة من باريس ، عاش فيه الكاتب وتوفى ، وكان يجمع أكثر وسائل الفن والترفيه . ولن نستطيع هنا تلخيص هذا الحوار ، فهو بعيد المنال لا تسمح به دراسة كهذه ، وللقارئ أن يعود إلى الكتاب المترجم ليجد فيه لذة عقلية عجيبة ، فهو يتحدث عن ذهن الكاتب فرانس وتصرفاته وأجوبته ، وهو حافل بالصور الأدبية الرائعة التى لا تقل عن كتب فرانس نفسها ، بل إنها متممة لكتبه ترسم ما خفى على القراء من حياة فرانس وخاصة فى مجالسه البيتية .

وسننقل هنا صورة من لقاء أناتول فرانس لزواره رواه بروسون ونقله شكيب فقال : « ثم إن عناقه كعناق الممثلين فى المرازح لم يبق من نمط هذا العناق اليوم . فإنه أولا يضم الزائر بأذرعه التليعة ثم يلزه إلى صدره، وهو فى أثناء ذلك ينحط[٢] شوقاً ووجداً . ويحك له عوارضه بلحيته الفضية ، ثم يغمض عينيه

---

(١) كتب هذه المقدمة فى مرسين ١٠ يوليو ١٩٢٥ ، وهو فى الأناضول ، بعيداً عن وطنه ، حائر اللب مشرد الفؤاد .

(٢) ينحط : يزفر .

كأنه يريد أن يرقأ دمعهما المؤذن بالانبجاس ، ثم يقوق كالدجاجة . . . يقول الناظر إليه إنه سيرنح عليه . وتراه يتمايح رقة وحنواً فيعيد القبلة ، ويجد صعباً عليه أن يرخى معانقه ، وهكذا إلى أن يأتى آخر فيعانقه أيضاً ، وهلم جرا[١] » .

وعلى هذا النحو من المتانة والإغراب ينقل شكيب عبارة بروسون الفرنسية ، ونلاحظ أنه قد تعمل هنا وتكلف ، فأثقل عبارته بالألفاظ الغريبة والكلمات البعيدة كأنه كان ينقلها عن قدماء العرب أو عن المعاجم . وهى من خزانة صدره ومن محفوظاته منذ الصبا حتى تلك السن ، فقد أكثر من معالجة الكتب العربية القديمة . والعجيب أن أناتول فرانس نفسه يحب الصقل فى العبارة ويسعى إلى البلاغة فى التعبير فيقول فيما يروى بروسون ويترجم شكيب :

« يصير الإنسان كاتباً بارعاً كما يصير نجاراً حاذقاً وذلك بالصقل ، هذا يصقل الخشب وذاك يصقل العبارة . فالبلاغة اليوم سوقها كاسدة مع أنها تعلم الذوق وتنور الذهن وتهز القلب . والخواطر تذهب والبلاغة خالدة . كانوا فى القرون الوسطى يقولون : (سيدتى البلاغة) نعم ، والإنشاء أنواع : الإنشاء السهل ، والإنشاء العالى ، والإنشاء المعتدل . وقد يضحك هذا القول ناشئتنا الأغرار مع أنه من البديهيات ، إذ لا يعقل أن تكتب إلى محبوبتك كما تكتب إلى رئيس أساقفة باريز[٢] » .

وهذه الترجمة كما نرى تعلو حيناً فتصبح بسيطة سهلة ، لا إغرب فيها ولا بعد عن المألوف ، وقد تنخفض فتذهب غير هذا المذهب ، وذلك لأن شكيباً ترجم الكتاب فى ساعات مختلفة وظروف متباينة . ولكنه فى الغالب كان يحرص على القوة والبراعة فى صوغ العبارة العربية . وكان أجمل ما فى ترجمته هذه القصص التى يرويها على لسان فرانس مما وقع له مع أعضاء الأكاديمية الفرنسية أو من ذكريات صباه على ضفاف السين أو عن كلام والديه ،

---

(١) الكتاب ص ١٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ .

أو عن لطائفه ونكاته ، أو عن آرائه فى الأدباء كديدرو وفينى ، وغيرهما من المشهورين الذين عرفهم أو اجتمع إليهم .

ولا نستطيع أن نحصى هنا ، الجمل الموفقة والمواضع الجميلة فى ترجمته ، فأكثر ما فى كتابه جميل موفق بارع ، وخاصة حين يستسلم للبساطة ، ويرخى العنان لقلمه من غير تكلف . ولعل أجمل ما فيها حديث فرانس عن نابليون وروايته النكات اللاذعة عنه ، فقد ترجمها شكيب ترجمة مزخرفة ، ننقل من سطورها بعض ما يصور أسلوب المؤلف وأسلوب المترجم[١] :

« وكان نابليون يلقى الرعب فى قلوب النساء فيحذرن غضبه ورضاه ، وكان يعاملهن جمعاء معاملة جوار فى القصر . وإذا ذهب إلى ليلة الزفن المتنكر صدر الأمر إلى كل نساء الحاشية بأن يذهبن كما يصدر الأمر إلى الجنود بالذهاب إلى العرض . وكان يأتى متنكراً من قدمه إلى رأسه ، ولكن كا نيكفى أن يلحظ الناس ذلك الرجل وإحدى يديه على حجره والأخرى من وراء ظهره حتى يفهموا أنه هو الغول . فكانوا يرعدون إذا مر من جانبهم . وفى إحدى المرار وضع يديه على عينى إحدى الراقصات الشابات فصاحت : (آه ما أقبح هذه الأيدى) فنفر واحتج قائلا : كلا ، ما بهن من قبح ، انظرى إليهن تريهن بيضاً لطافاً . فإن نابليون كان معجباً بيديه وقدميه » .

ويتابع بروسون فى رواية ما سمع من فرانس ، ويتابع شكيب فى ترجمة ذلك ، فيحس القارئ العربى أنه يقرأ لكتاب ألفه بروسون رأساً فى العربية لبعد النص عن العجمة والركاكة كما قلنا . ولو أردنا أن نصور جمال الترجمة لأحوجنا الأمر إلى رواية الكتاب أو نقل أكثر صفحاته مع التعليقات الثمينة والشروح الأدبية الممتعة ، لذلك نحيل إلى هذه الطبعة الجميلة ، فهى موسوعة جميلة فى الأدب الفرنسى ، لم نقع على مثلها فيما ترجم زملاء شكيب ومعاصروه ، وهى على عناية واسعة ، وخدمة وافرة ، وبيان ظاهر ، تكاد تقع فى مقدمة الكتب المترجمة فى النصف الأول من هذا القرن ، لجمال أسلوبها ، وطرافة

---

(٢) الكتاب ، ص ٢٤٦ .

عرضها ، وعظيم فائدتها . وبذلك ترفع لشكيب منارة فى الترجمة ، وتخلد ذكره فى طليعة الأدباء لهذا الجيل ، فهماً لما ينقل ، وإجادة لما يكتب ، وحرصاً على ما يصنع ، ولو كتب لشكيب أن يستمر فى هذا السبيل وأن يقوم على الترجمة بقية حياته أو شطراً كبيراً من عمره لكانت منه كتب كثيرة موفقة ، ولكن الرجل دخل فى كل باب من أبواب العمل الأدبى . فشارك فى التحقيق ، كما شارك فى التأليف ، وعمل للترجمة كما عمل للتعليق الأدبى والتاريخى ، وانتصر فى كل منها على قدر ما بذل من جهد وما أنفق من وقت . وكان فيما لاحظنا يسرع فى التأليف والإنتاج فيخرج كتبه فى شهور قليلة ، ويرسل بها إلى مطابع مصر ، فتتولى إصدارها ، ويتلقف العالم العربى طبعاتها ، ويعكف عليها قراءة ودراسة .

ولاشك فى أن كتابه هذا عن أناتول فرانس كان له صداه البعيد فى نفوس القراء ، وقع منهم موقعاً حسناً ، فأذاع صيته وأكسبه شهرة كبيرة ، وما يزال الناس إلى اليوم ينظرون إلى هذا الكتاب على أنه يحتل موقع الصدارة بين كتبه وآثاره ومؤلفاته لطرافة موضوعه ، وجلاء أسلوبه ، ووقوعه من صميم الأدب العالمى . وبذلك جمع شكيب أطراف النصر من كل ناحية من نواحى الثقافة العربية والغربية .

الفصل الثالث عشر

شكيب المؤرخ

خاتمة تاريخ العرب فى الأندلس

١٨٩٧

أحب شكيب ربوع الأندلس حباً خالط لحمه ودمه ، فتلقف كل ما صدر عنها وقرأه فى نهم وشغف ، لأنه كان يرى فيها رأياً جميلا ، إذ يقول عنها : « هذه البلاد التى لا نزال نحسبها عربية لكون أحسن أيامها ما كان من أيام العرب فيها[١] » فالحديث عنها حبيب حلو ، والكلام فيها كلام عن بلاد عربية ما تزال أشخاصها قائمة فى ذهنه ماثلة فى خياله ، وأمجادها تقرع سمعه ، وتدوى فى صدره ، وتخفق فى جنانه . فعكف على جمع ما قيل فى الأندلس من كتب العرب والغرب ، منذ مطلع شبابه . فلما بلغ السابعة والعشرين ترجم رواية شاتوبريان عن غرام « آخر بنى سراج » بأميرة أسبانية —مما فصلناه فى الفصل السابق — ثم رأى أن الرواية موجزة وأن عهد الرحيل عن الأندلس جدير بالوصف ، فهو عهد الجلاء والخروج « من بلاد كانت مدة الضيافة فيها ثمانمائة سنة ، لأن هذا الحادث الكبير الذى هو من أضخم الحوادث فى الإسلام وقع على حين خمول من القرائح العربية ، وبعد مرور زمن العلم والفلسفة . عند معشر الناطقين بالضاد ، ولدى إقحاط البلاد بالأدمغة المتوقدة وعقم الأمة عن الرؤوس المولدة ، بحيث فاته من التأليف والكتابة فيه ما لم يكن ليفوته لو وقع قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة ، فإنه لا عطر بعد عروس[٢] » .

---

(١) ، (٢) آخر بنى سراج ، ص ٦١ .

لذلك شمر فى التذييل على الرواية الفرنسية ، فألف كتاباً فى قصة هذه النكبة استغرق ثلاثمائة صفحة[١] ، وعنوانه « خاتمة تاريخ العرب فى الأندلس» ، فخرج من يده على أسلوب جميل ، ألفه وختمه فى ٢٦ يونيو ١٨٩٧ فوفق فيه ، مع ما كان عليه من سن مبتدئة لا تقوى غالباً على الكتابة فى بحث بكر لزمانه منذ ثلاثين سنة .

وبلغ إلى التوفيق ، فساق قصص الأمراء فى الأقاليم العربية بالأندلس ورسم ما كانوا عليه من حروب وتباغض ، ثم وصل إلى سنة ٧٤٠ ، حين اشتدت وطأة الأسبان على المسلمين ، وحين طمعوا فى التهام بقية الأندلس ، وجهزوا الأساطيل . وقال شكيب : « وتلاقت الأساطيل الإسلامية والنصرانية ، فقضى بهزيمة المسلمين . وملك أسطول الطاغية بحر الزقاق ، وسما له شوق إلى استخلاص الأندلس ، فبعث بالنفير ، ووافته النجدات وحضرت الأوامر من البابا ، بوجوب القيام يداً واحدة لطرد مسلمى الأندلس ، وانضم إلى ألفونس ملك قشتالة كثير من الملوك . ووافاه من أنسباء ملك إنكلترة الكونت دربى ، والكونت سالسبرى ، وغاستون ، وكونت ده فوا ، وكونت دوبيارن ، وغيرهم . وزحف الجميع فنازلوا الجزيزة الخضراء » .

ونفهم العالم العربى من هذه السطور المحزنة تكالب الغرب فى كل مناسبة على العرب ، واتحادهم لضربهم فقد قاموا فى الشرق لعون البزنطيين ، من كل حدب وصوب ، ونهضوا لعون الفرنجة تحت ستار مموه سموه الصليبية ، وزحفوا على الأندلس من كل فج عميق بملوكهم وأمرائهم وأعيانهم لطرد العرب وقتلهم وإذلالهم ، كما زحفوا بعد ذلك فى القرن العشرين على سورية ومصر والمغرب كله ، تحت ستار الانتداب والديمقراطية . وهجموا على فلسطين بقناع إسرائيلى وستار صهيونى ، وقذفوا بجنودهم على بور سعيد باسم القناة . وهم هم ذئاب جياع تريد العرب فريسة ، فى كل زمان ، والعرب يمتنعون عليهم حيناً ويسقطون أحياناً ، ويردونهم غالباً خائبين بعد أن يشربوا من أكاذيبهم وألاعيبهم

(١) آخر بنى سراج ، مصر ١٩٢٠ ، ١٩٢٥ من ص (٦٠ — ٣٦٨) .

ما يشربون . وليست الأندلس إلا صورة من الصور ، وصفحة من الصفحات تثبت خزى الغرب وعاره ، والنكبة التى يرسمها « شكيب » قطعة من نكبات لم نكتبها حاقدين ، ولو فعلنا لكتبنا المجلدات الملطخة بقذارة الاستعمار .

والمهم فى هذه الواقعة أن العرب استنجدوا حينذاك بإخوانهم فى المشرق ، فكتب السلطان أبو الحسن ابن مرين من فاس إلى الملك الصالح ابن الملك الناصر صاحب مصر ، يصف حصار الغرب للعرب فيقول : « إلا أن المطاولة بحصرها فى البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ومنازلتها فى البر نحو عامين ، معقوداً عليها الصف بالصف ، أدى إلى فناء الأقوات فى البلد حتى لم يبق لأهله قوت شهر مع انقطاع المدد ، وبه من الخلق ما يربى على عشرة آلاف دون الحرم والولد ، فكتب إلينا سلطان الأندلس يرغب فى الإذن له فى عقد الصلح . »

وأجاب سلطان مصر بقلم الصلاح الصفدى يقول : « ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا إليكم عقبان الجياد المسومة ، وسالت على عدوكم بقسينا المعوجة وسهامنا المقومة ، وكحلنا عيون النجوم بمراود الرماح ، وجعلنا ليل العجاج ممزقاً ببروق الصفاح . . . ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول ، وأين الثريا من يد المتناول » .

وهكذا قام الكلام المسجع محل النجدة السريعة . أما ابن مرين نفسه فقد أرسل من فاس إلى نجدة إخوانه بالأندلس ، ولكن الهزائم توالت بعدها ، والتهم كثرت ، وسعت الكارثة لتبتلع الأمجاد وتخلى العرب عن ديار أقاموا فيها ثمانية قرون ، جلبوا خلالها النعيم والمفاخر فزينوا رأس أسبانية بغار تفخر به على الزمان إلى يوم الناس هذا . وقبل إن نصف الهزائم نحب أن نرسم الحال التى كانت عليها مملكة غرناطة قبل سقوطها ، فقد قال شكيب إنها كانت مشتملة على أربع عشرة مدينة عظيمة وسبع وتسعين قلعة ، عدا الأبراج والحصون والقرى العامرة ، وقدر عدد بقية المسلمين فى الأندلس بأربعة ملايين نسمة . وروى عن سلطان هؤلاء المسلمين « أبى الحسن » أنه استرسل فى اللذات ، وركن إلى الراحات ، وأضاع الأجناد ، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه ، واحتجب عن الناس ،

ورفض الجهاد ، وكثرت المظالم ، وقتل كبار القواد وهو يظن أن الأسبان لا يغزون البلاد . وكان لهذا السلطان زوجتان إحداهما حرة اسمها عائشة[١] ، والثانية اسبانيولية واسمها ثريا . وله من الأولى « أبو عبد الله » ويسميه الفرنج « بو عبديل » ومن الثانية ولدان ، فانقسمت غرناطة إلى شطرين ، شطر مع ابن الحرة وشطر مع ولدى الأسبانية .

وثارت الفتن ومصدرها النساء ، وعلم ملك الأسبان بهذا ، فجمع المقاتلة ، وبث الرهبان يستنفرون الفرسان لقتال المسلمين ، فهاجم الفرسان قلعة «الحمة» ونهبوا البلدة ، وتسلموا القلعة ، وذلك سنة ٨٨٧ ﻫ . وقتلوا كثيراً ، فنهض لهم المسلمون وكانت معارك كثيرة فى كل بلد وفى كل شعب ، يحالفها النصر حيناً الإخفاق أحياناً ، حتى تضاءل أمر العرب ، وفتت الفتن فى عضدهم وزاد فيها اختلافهم فى المبايعة لأبى الحسن أو فى المبايعة لابنه أبى عبد الله ، وجرت الدماء فى غرناطة ، والعدو على الأبواب . وأراد أبو عبد الله أن ينصرف عن غرناطة ولكن أمه رأت أن يحتفظ بها نكاية بضرتها الأسبانية ، فعجلت المرأتان بالكارثة ، وجعلتا المسلمين يذوقون ألوان العذاب من قبل حكام الأسبان .

وغضب سلطان مصر حين بلغه أمر التنكيل بإخوانه فى الأندلس ، فأرسل راهبين من القدس بكتاب منه إلى ملوك قشتالة وإلى البابا وإلى ملك نابولى منكراً عليهم ما هو واقع من العذاب على مغاربة غرناطة الذين هم من بنى ملته وجلدته ، على حين نجد عدداً كبيراً من المسيحيين راتعين فى ممالكة فى بحابح الراحة والأمان ، وهم متمتعون بأملاكهم وحقوقهم ، ناعمون بحريتهم الدينية ، فهو يلح فى الإفراج عن مسلمى الأندلس وتمكينهم من الأملاك التى اغتصبوهم إياها وأجلوهم عنها ، وإلا فإنه يمحو بذباب السيف جميع النصارى الذين هم فى ممالكه ، ويخرب معابدهم ، ويجعل كنيسة القيامة فى القدس قاعاً صفصفاً . وكان خبر هذا الإنذار قد ذاع بين مسيحى الشرق فأقض مضاجعهم وروع قلوبهم وصاروا ينتظرون

---

(١) انظر الفصل الحادى عشر ، فى الحديث عن الحالة نفسها بصدد كتاب « انقضاء دولة بنى نصر » ص ٢١٨ وما بعدها.

خلاص مسلمى الغرب لئلا يؤخذوا بجريرة المعتدين عليهم » .

وعاد الرسولان إلى مليك مصر بأعذار واهية سكنت من غضب سلطان مصر ، وأوقعته فى الخديعة ، وكان سكان البلدان الأسبانية من المسلمين يطردون إلى أفريقية بالخديعة كذلك .

وكان حصار غرناطة من أشد البطولات روعة فى تاريخ العرب ، ولكن ما تصنع بلدة واحدة فى حرب مملكة ، فتساقط العرب كأوراق الشجر فى الخريف ، واضطروا إلى التسليم وعقد الصلح . وخرج أبو عبد الله وحاشيته وقد تأهبوا لتسليم الحمراء وغسلوا أبهاءها بالدموع وملأوا نواحيها بالنواح ، وخرجوا من أحد الأبواب وسلكوا الطريق إلى الملكين فرديناند وإيزابيللا ، وسلمهما العربى مفاتيح الحمراء ، وهى آخر ما بقى من سلطان العرب فى أسبانية ، وذلك فى ٢ ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ .

وقفل آخر ملك عربى إلى المغرب ، وسار إلى فاس ذليلا مهيناً ، يذرف الدمع وهو يذكر أول فاتح عربى دخل الأندلس عزيزاً مكيناً ، وخلف فى الأندلس وراءه الشعب الذى تجرع كئوس الذل والهوان ، وفرضت عليه النصرانية ، واللغة الأسبانية ، وتغيرت الأسماء ، وأصبح الناظر إلى أسبانية اليوم يتبين فى الملامح صورة العرب القدماء ، على أسماء غريبة وملابس عجيبة ، ولكن الدم وحده يجرى فينتسب إلى ذلك الدم العربى ، الذى جرى فى كل سفح وانسكب فى كل بقعة فروى الأرض فى المعارك والحروب ، كما روى الحضارة الأوربية كلها حين نشر عليها علم السلم والهدى والعرفان وكاد يكشتف العالم الجديد على يد الإخوة المغرورين الهائمين من الغرب فى بحر الظلمات ، فيجمع فى فضل أياديه العالمين القديم والحديث .

وقد ذكر الرجل مصادره التى استقى منها مواد بحثه ، فقال : « وجعلت أكثر اعتمادى فى متأخر المدة على الكاتب الإنكليزى اللغة واشنطن[٢] أرفن ،

---

(١) انظر : « قصص الحمراء» تأليف واشنطن ارفنج ، وقد نشر بمصر وترجمه الأستاذ إبراهيم الإبيارى ، ١٩٥٥ .

مع المقابلة بينه وبين غيره ، ومزاوجة النقل الإفرنجى دائماً مع الرواية العربية من نفح الطيب التى لم أطلع على سواها فى هذه اللغة عن هذا التاريخ كما لا يخفى[1] » .

وهكذا تجاورت الصفحات المترجمة المعربة والصفحات العربية القديمة للمقرى وكلمات الأمير ، واختلط بعضها ببعض ، فكان الأسلوب متقارباً ، لمتانة الأمير فى التعبير ، وقوته فى التعريب ، وشدة أسره وبيانه ، فلولا إشارته إلى المصدر الذى ينقل عنه لنسب الكتاب فى أكثره إليه . ذلك لأنه مشبوب العاطفة قوى الإلهام ، شديد الحماسة لما يكتب ، خيالى فيما يصور ، كأنه يخط بشعوره وعاطفته وهو مع ذلك يتقيد بالمصادر والأرقام . وهذا نجاح كبير لشاب فى مثل سنه .

---

(١) خاتمة تاريخ العرب فى الأندلس فى كتاب آخر بنى سراج ، ص ٣٦٥ .

الفصل الرابع عشر

شكيب المؤرخ

تاريخ غزوات العرب فى أوربة ــ تعليقات على تاريخ ابن خلدون

١٩٣٣ ــ ١٩٣٦

رحلة شكيب :

كان شكيب أرسلان يعجب بآثار العرب وأمجادهم إعجاباً لا يقف عند حد ، فما ينفك يقرأ فى كتب العرب والغرب عن صفحاتهم اللامعة وأياديهم البيضاء ، وما ينقطع عن جمع ملاحظاته وتعليقاته من هذه الكتب فينقل من مصادر التاريخ ومراجع الأدب فى اللغة العربية ، ويترجم من مصادر التاريخ ومراجع الأدب كذلك فى اللغات الأوربية ، وينظر فى هذه وهذه فيؤلف منها كتاباً يخرجه للناس . وقد رأينا أنه بدأ فى مطلع نشاطه بكتب التراث العربى ، فطبع منها ما تيسر له على أسلوب ذلك الزمان . ثم راح ينقل عن الكتب الفرنسية ويترجم من غرر صحائفها ما استطاع حتى أخرج كتابين لعلمين من أعلام الفرنسيين .

وطفق بعد ذلك يعنى بالتاريخ والاجتماع فيعلق على كتاب « حاضر العالم الإسلامى » ، وينشئ فى الأدب والتاريخ والاجتماع معاً حتى مال إلى التاريخ الإسلامى ميلا كاملا ، فصرف عنايته إلى أمجاد العرب والمسلمين فى ميادين الفتح والقوة والسلطان ، يصف أيامهم المنصورة فى ربوع الشرق ، ويصف غرر أيامهم فى ربوع الغرب . ولما حيل بينه وبين الرجوع إلى وطنه ، وقر رأيه على الإقامة فى أوربة إلى أن تنجلى سحابة المستعمرين عن بلاده ، عزم على أن

يزور هذه الربوع التى فتحها أجداده وصمم على أن يصف المدن والأنهار والجبال التى مر بها العرب فاتحين ، وعمروها خلال السنين ، ثم صرفوا عنها ، وغادروها مضطرين ، فبقيت آثارهم على جدرانها وفى زوايا حدائقها ، وفى أطراف أزقتها وشوارعها ، يفوح العطر العربى من كل جانب إذا ما كشف عنه الغطاء ، وتبدو المفاخر العربية فى كل طريق إذا أزيح عنه الستار ، فقام شكيب بالرحلة خلال هذه الديار الأوربية يسير منقباً عن هذه الأمجاد ليسطر ما ترى عيناه وما تسمع أذناه ، وما يقول المؤرخون العرب من أجداده عنها ، وما يسطر الأجانب المستشرقون عن تاريخها . فكان لشكيب من وراء ذلك كتب عدة عن تاريخ قومه فى أوربة ، خص واحداً منها ببعض ممالك أوربة ، وخص آخر بأسبانية العربية ، وجعل ثالثاً للتاريخ العام . وسنتحدث عن الأول والثالث ، ونرجئ الحديث عن الأندلس إلى فصل آخر من فصول هذه الدراسة .

١ — أما الأول فكان عنوانه : « تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط (١) » .

وقد افتتح الكتاب بمقدمة جميلة بسط فيها الحاجة التى دفعته إلى هذا التأليف فقال (٢) : « وبعد فإنه مما يجب أن يخلد فى الصدور قبل السطور ، وأن يكتب على الحدق قبل الورق ، أن حفظ التاريخ هو الشرط الأول لحفظ الأمم ونموها ، ورقى الأقوام وسموها ، وأنه لا يتصور على وجه الكرة وجود أمة تشعر بذاتها ، وتعرف نفسها قائمة بنفسها إلا إذا كانت حافظة لتاريخها واعية لماضيها ، متذكرة لأولياتها ومبادئها مقيدة لوقائعها ، مسلسلة لأنسابها ، حاشدة لأحسابها ، خازنة لآدابها ، مما لا يقوم به إلا علم التاريخ الذى هو الواصل بين الماضى والمستقبل والرابط بين الآنف والمستأنف » .

ويقول بعد ذلك إن حاضر العرب يخجل أن يقصر عن شأو الغابر ،

---

(١) طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر سنة ١٣٥٢/١٩٣٣ ، فى ٣٠٨ صفحات . وقد كتب عنه رياض رأفت فى المكشوف ١٢٩/٩ .

(٢) الكتاب نفسه ، ص ٤ .

ويستطار العربى أن يعلم أباه سيداً فى الأوائل وهو نفسه اليوم عبد فى الأواخر ، فهو إذاً يحب أن يبسط التاريخ لمعاصريه عظة وعبرة وذكرى لعلهم ينهضون بالأعمال المجيدة كما نهض أجدادهم . وهو يريد أن ينبش تاريخ العرب وفتوحاتهم فى أوربة ليثير عزائم قومه كذلك إلى الإيمان بقوتهم فى الماضى ، وأنهم استولوا على الغرب وكادوا يأتون على ملك أوربة كلها . ولكنه رأى أن العرب الأقدمين أهملوا الكتابة فى الدور الذى كان لهم فى القارة الأوربية خارجاً عن الأندلس ، «وذلك كفتوحاتهم فى ديار فرنسا وإيطالية وسويسرة وما كانوا يقولون له الأرض الكبيرة ، وكفتوحاتهم لجزائر البحر المتوسط التى رفعوا فوقها أعلامهم حقباً طويلة ، وأثروا فيها آثاراً كثيرة أثيرة ، فإن هذا الدور من أدوارهم يكاد يكون عند أبنائهم مجهولا بل إن كثيراً من ناشئتهم لا يعرفون عنه كثيراً ولا قليلا ، والحال أنه من أقعس فتوحاتهم مجداً وأوعر مغازيهم غوراً ونجداً[١] » .

ثم قال بعد سطرين : « فلهذا خصصت بهذا الموضوع كتاباً مستقلا أسميته (الحبيئة المنسية فى مقام العرب بجبال الألب والبلاد الافرنسية وجعلت هذا الكتاب أشبه بجزء من أجزاء كتابى الذى أنا مباشر تأليفه عن الأندلس باسم (الحلة السندسية فى الرحلة الأندلسية) ، وسيكون فيما أحزر أربعة أو خمسة أجزاء إن لم يكن أكثر » .

وهكذا أفهمنا الرجل خطة التأليف عنده ، فنشر هذا الجزء الأول سنة ١٩٣٣ ، وهو يعد كمقدمة ومدخل لكتابه الكبير عن الأندلس ، وهو الحلل السندسية فى الأخبار الأندلسية الذى نشره سنة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ فى ثلاثة أجزاء فقط ، ولكنه لم يتمه كما نرى فيما بعد ، فكان كما حزر فى أجزاء كثيرة . وقد بدأ هذه السلسلة التاريخية عن آثار العرب فى أوربة والأندلس ، بعد الستين ، وظل يعمل لها جاهداً خلال سبع سنين فى دأب مدهش ، وتسقط للكتب والمصادر ، وجمع للمراجع الغربية والعربية ، فأضاف إلى النقل عن العربية الترجمة عن اللغات الأوربية وخاصة الفرنسية والألمانية ، فكان بذلك

---

(١) الكتاب نفسه ، ص ٤ .

من أحسن معاصريه همة فى التأليف ومن أبرعهم فى تأثر الغربيين بطرق التأريخ والتصنيف ، فقد جاور المستشرقين وجاور القدماء من العرب ، وجمع بين هؤلاء وهؤلاء فى صعيد واحد ، لذلك كانت الصفحات فى كتبه التاريخية غير متعادلة أو متكافئة ، ترتفع حيناً فتورد الآراء الغربية النادرة ، وتنخفض فتورد المعلومات القديمة المبتورة أو البعيدة عن التحديد والمشاهدة . ويبدو أن إعجال الأمير شكيب فى تحرير آثاره ، وبعده عن الاستقرار والهدوء فى عيشه ، وتقدمه فى السن ، وفقر الوسائل بين يديه من كاتب له أو معين يعينه هو الذى صرف الرجل إلى تسجيل ما كان يقرأ ، وتسطيره مصدراً بعد مصدر من غير أن تتاح له العودة ثانية إلى تصحيحه أو توضيحه أو ربط أجزائه . وذلك لا يعيب الأمير فى شىء ، فما رأينا معاصراً له بلغ مثل سنه ونقل كما نقل الأمير فى رعاية وعناية وإيغال . وهذه الهمة هى التى تبهرنا فى تتبع آثار الرجل ، فقد صرف شطراً كبيراً من حياته فى السياسة ، فلما جاوز الستين راح يكتب أصعب البحوث ويجمع أبعد المصادر .

وقد كتب الرجل فى المقدمة بعد ذلك يقول [١] : « وقد رأيت أن أتوج هذا الكتاب باسم الملك العربى الصميم منزعاً ونسباً ، ذؤابة بيت الرسول الكريم وحسبك بذلك شرفاً وطهراً وأماً وأباً ، الذى وقف نفسه الأبية على خدمة أمته العربية ، عاملا لنهضتها بعد ربضتها ، ومجاهداً فى ربوتها بعد كبوتها فيصل بن الحسين ملك العراق والرافدين أطال الله أيامه ، ونصر أعلامه ، وسدد آراءه وأحكامه ، وأبلغه من مجد العرب مرامه » ورجا أن يوفقه الله مع أخويه الملكين الإمام يحيي والملك عبد العزيز آل سعود . ويبدو أن الأمير شكيب قد رأى ما رأى من فيصل وغيره . فقوى إيمانه بالعرب المعاصرين ، وتفتحت الآمال فى نفسه بنصر الملوك والأمة العربية ، فأصبح يردد فى هذه السن وفى هذه الكتب فكرة الوحدة العربية[٢] والأمة العربية ، والنصر العربى . فهو ما كاد يتم ترجمة الكتاب حتى يبلغه نبأ وفاة فيصل بن الحسين ، فيبقى الكتاب متوجاً باسمه

(١) الكتاب نفسه ، ص ٥ .

(٢) خصصنا فصلا بشكيب والوحدة العربية ، فلن نبسط الكلام فى ذلك هنا .

ويقول : « بل أبقيناه متوجاً باسمه كما لو كان فى الحياة ، إذ أننا لا نزال نعد فيصلا حياًّ فى القلوب والخواطر . . . وما كان فيصل رحمه الله إلا رمزاً للقضية العربية ، والرمز لا يموت عند قومه » . فهو يكتب فى وضوح عن عظيم أمله فى القضية العربية ، وسعيه لها ، وعمله من أجلها ، ويعيد على ذاكرتنا أنه ألف منذ أربع وثلاثين سنة خلاصة عن جلاء العرب عن الأندلس ، وأن الكتاب حين صدر أسال المآقى والدموع ، فراح العرب كالثكلى التى لا يشفى ما بها سوى لطم خدودها وتلمس آثار مفقودها . ولكنه لم يقنع بالكتابة فكان يحدث نفسه بالرحلة ومشاهدة الأندلس بالعيان . وكانت مهمته فى مراجعة جمعية الأمم بجنيف تقضى عليه بأن لا يفارق سويسرة حتى سنحت له الفرصة التى كان يرقبها منذ ثلاثين سنة ويمنى النفس بتحقيقها وهى زيارة الأندلس .

وقد ذكر شكيب أنه عرف كثيراً من البلاد عدا الأندلس فقال[١] : « وقد عرفنا أكثر البلاد الأوربية ، ولم تبق مدينة فيها إلا دخلناها ، وربما بدل المرة الواحدة مراراً ، وقتلنا أحوالها درساً واختباراً . ولم يبق من أوربة ما لم نعرفه سوى الأصقاع الإسكندنافية فى الشمال والبلاد الأسبانية فى الجنوب . فأما الأولى فإنه يجوز لمثلنا أن يعرفها كما أنه يجوز له أن لا يعرفها إذا عاقته العوائق عن معرفتها ، ولكن الأندلس التى نحنّ إليها منذ نعومة الأظفار ، ونقرأ عنها بل نؤلف الأسفار فإنه لا يجوز لمثلنا أن يتأخر عن السفر إليها ، ونحن لا نزال أنضاء أسفار بين الأقطار . وعليه انتهزنا هذه الفرصة واغتنمنا من وقتنا هذه الخلسة قاصدين إلى الأندلس عن طريق فرنسة التى حصلنا على رخصة المرور بها أياماً معدودات . وذلك أنه لما كان الغرض الأصلى من الرحلة اقتراء آثار العرب كيف حلوا وأنى ارتحلوا من هذه الديار الغربية كان لابد لنا أولا من زيارة فرنسة التى كان للعرب فيها جولة ، بل كانت لهم فى جنوبيها دولة وصولة ، وطالما عصفت ريحهم ببلاد الإفرنجة بعد أن عصفت ببلاد القوط والجلالقة ، والباشكنس وغيرهم من أمم الغرب التى خفضوا دعائمها ونقضوا

(١) غزوات العرب ، ص ٩ .

مرائرها ، وكادوا يلحقون بأولها آخرها » .

وهكذا فصل شكيب من لوزان فى ١٨ يونية سنة ١٩٣٠ قاصداً إلى باريس ، فاستقبله فيها على المحطة شابان مغربيان هما السيد أحمد بلافريج والسيد محمد الفاسى عرفا بقدومه ، وقد أثنى عليهما فتفرس مخايل النجابة فيهما . وقد أصبح الأول فيما بعد وزيراً للخارجية صرف الأمور فى المغرب سنوات على أشد ما عرف الساسة دهاء وذكاء ، وغدا الثانى وزيراً للمعارف ، وهو اليوم مدير الجامعة المغربية فى الرباط ، ومن أكبر علماء المغاربة . وقد اتفق معهما على أن يوافياه إلى مدريد خلال عطلة الدروس القادمة ، وهما يهمان بالعودة إلى وطنهما ، ففعلا .

وبدأ العالم المؤرخ الرحالة رحلته من باريس إلى الجنوب ، وراح يصف كل ما يرى وما يسمع على عادة القدماء من رجالنا ، يستقصى آثار العرب أينما كانوا وحلوا . وأسف أنه بدأ رحلته من الشمال وقال(١) : « فلو كنت زرت الأندلس مبتدئاً من المكان الذى دخل منه العرب أى من الجنوب لكان الترتيب يقضى على بأن أبدأ بجبل طارق فالجزيرة الخضراء ، فشريش ، فأشبيلية ، فقرطبة ، فطليطلة ، وهلم جرا نحو الشمال ، وأن أنتهى بأربونة فقرقشونة ونيم وأفينيون ، إلى جبال الألب بين إيطاليا وفرنسا وسويسرة . وهكذا كان ينبغى أن أفعل لو كنت حراً أن أسكن فى هذه الأيام وطنى سورية ، فكان السفر منها إلى الأندلس على الطريق الذى سلكه أجدادنا عند فتحهم تلك الديار وهى طريق المغرب . ولكن الغربة التى تطوحنا بها بسبب نضالنا عن استقلال وطننا قضت علينا بأن نسكن أوربة وأن نقصد الأندلس من شماليها لا من جنوبيها ، أى من حيث نحن مقيمون الآن ، ومن حيث انتهى العرب فى فتوحاتهم الأوربية لا من حيث ابتدأوا بها » .

والأمير يلح على شعور الغربة عن وطنه سورية ، ويتأسى لفقد حريته ويتمنى أن يجوس خلال هذه الديار مؤرخاً لا مغترباً لاجئاً ، ولعله لو أتيح له

(١) غزوات العرب ، ص ١١ .

أن يفعل حرّاً لكانت منه آثار تاريخية لامعة تنعم بقرار النفس وهدوء البال ونعمة العيش وسعة اليد ، ولكن الله حرمه هذه النعمة فكانت صفحات كتبه تجأر بالشكوى وتضج بوصف البلاء ، ونلمح فيها أثر التعب والغربة والشقاء ، وأثر التقلب فى أحضان القلق والثورة والأسى ، مما قد يأخذه عليه ناقد لم ينظر فى عيشه ولم يتبصر بألمه ، ولم يفهم روح المسافر على طريق لا يعرف فيه أين قراره ، وأين منه موطنه وأين مصيره ومقره .

ومهما يكن من أمر ، فالأمير يقول إن هذا الكتاب هو جزء من « رحلته الأندلسية » ولكنه جعل أولا ما كان يجب أن يجعل آخراً ، مضطراً بحكم الذى وصف وطبيعة سفره ، فرسم آخر مراحل العرب فى أوربة فى أول جزء يكتبه عن مقامهم فيها . وهو أول تأليف عربى فى هذا الموضوع .

ولذلك رحل إلى تولوز (طلوزة[1]) وذكرها كما ذكر غيرها من المدن التى زارها فيما بعد ، فبسط حاراتها وتاريخها منذ أقدم الأزمان إلى يومه . وقال إن غارة العرب على هذه المدينة الفرنسية كانت لمضى إحدى عشرة سنة على دخول العرب إلى إسبانية فى أيام إمارة السمح ابن مالك الخولانى . ثم رحل إلى (قرقشونة) وقد افتتحها العرب سنة ٧١٣ للميلاد وبقيت فى أيديهم إلى سنة ٧٥٩ .

وهنا بدأ شكيب بتفصيل أمر غارات العرب على فرنسة وما اعتمد عليه من الروايات . فذكر أن أهم كتاب ظهر فى هذا الموضوع هو كتاب المستشرق الإفرنسى الشهير المسيو رينو (١٧٩٥ — ١٨٦٧) الذى عاش فى الثلثين الأولين من القرن الماضى ، وكتابه يسمى « غارات العرب على فرنسة ومن فرنسة على سافواى وبيمونت وسويسرة فى القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى بحسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين» وقد اعتمد عليه شكيب لأنه لم يجد فى بابه كتاباً أدق منه : « ولأنه وضع خاصاً بتاريخ هذه الغارات ، ولأن

---

(١) فضل الأمير أن يذكر أسماء المدن الأوربية كما كان العرب يلفظونها ووضع إلى جانبها أسماءها بالإفرنجية ، كما فعل فى كتابه عن الأندلس فيما نرى بعد قليل .

واضعه هو من أشهر المحققين فى المسائل التاريخية والمطلعين حق الاطلاع على اللغة العربية بحيث يمكنه عند كل رواية أن يقابل ما جاء عنها فى الكتب اللاتينية القديمة بما جاء فى الكتب العربية . وإنك لتجده لا يروى رواية ولا خبراً إلا ذكر فى الحاشية مأخذ تلك الرواية أو ذلك الخبر مع تعيين المؤلف والمؤلَّف ، والجزء والصفحة ، وأحياناً خزانة الكتب التى فيها ذلك المؤلف ، وقد يورد النصوص بعينها لا سيما إذا كانت من التواريخ التى وضعت فى عصر تلك الفتوحات . وكما أنه يستعمل هذه الدقة فى الاستشهاد من كتب الافرنجة فإنه يستعمل الدقة نفسها فى الاستشهاد من كتب العرب . ومن أجل ذلك كان أكثر اعتمادنا فى تاريخ هذه الوقائع على المستشرق المشار إليه . كما أننا اعتمدنا فى تاريخ استيلاء العرب على قسم من شمالى إيطالية ومن أهالى سويسرة عليه أيضاً وعلى مؤلف آخر من أهالى سويسرة الألمانية اسمه فرديناند كيللر ، سنأتى بتلخيص تأليفه بعد الانتهاء من تلخيص كتاب المسيو رينو ، وسنقابل جميع رواياتهم بما لدينا من التواريخ العربية الشهيرة[1] » .

وخدمة الأمير شكيب هنا خدمة لا تكاد توازيها خدمة للعرب وللتاريخ الإسلامى ، فقد وقع الرجل على كتاب رينو ، وحظى بنسخة منه ، طبعت منذ قرابة تسعين سنة ، وهى اليوم نادرة لا تقع للعرب فى خزائنهم ، فإذا وقعت فى خزانة واحدة لم يتح للجمهور أن يقرأها فى لغته العربية مترجمة فى أكثرها بقلم مشرق وديباجة بينة كلغة شكيب . فهو قد قرأ الكتاب وأضافه إلى خزائننا العربية ، وقدم له خدمة بارعة بتوضيح جمله وتعريب أعلامه ، وليس هذا بالقليل ، بل هو جليل يستحق ثناء أجيالنا على أيادى الأمير ، لأنه لا يقل خدمة عما ترجم أعضاء بعثة محمد على من كتب نادرة قيمة بأساليب جميلة .

وعمل شكيب للكتاب الألمانى كذلك لا يقل فى جميله عن يده فى ترجمة كتاب المسيو رينو ، فالكتاب الألمانى مطبوع منذ مئة سنة ، نادر كذلك ، والذين يحسنون الألمانية قلة ، وهذه القلة لا تتلفت إلى موضوع كهذا الموضوع .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٦ .

وقد انقضى ربع قرن على كتاب شكيب ولم ينهض فى العرب — على ما نعلم — من يتحدث أو يؤلف فى غارات العرب وفتوحاتهم بأوربة كما نهض هذا الكتاب فى تفصيل وبيان مشرق . وتلك يد الرجل على تاريخنا وأمجادنا لم يقصرها على تحرى المصادر العربية وجمعها وإنما تعداها إلى تقصى المصادر الغربية وترجمتها وجمعها فى صعيد واحد .

ويخيل إلينا أن خطة شكيب هنا هى مثل خطته فى كتابه عن أناتول فرانس أو شاتوبريان ، فقد رأينا أنه جمع كتابين عن أناتول فرانس ولخص منهما وترجم وعلق وهما سيغور وبروسون ، ونشرهما فى كتاب واحد . ورأينا أنه ترجم عن شاتوبريان ، وذيل عليه ، وجعل له لحقاً فى نكبة الأندلس . فهو بعيد النظر فى هذا ، يجمع المصادر والمراجع بعضاً إلى بعض حين تكون فى موضوع واحد ، وقد فعل فى تأليفه هذا كما فعل فى كتبه كلها ، فجمع بين الفرنسى رينو والألمانى كيللر ، وترجم الأول ثم أعقبه بترجمة الثانى ، فكان هذا الكتاب النفيس عن غارات العرب مصدراً فذا من مصادرنا عن هذا الموضوع .

وقد طبق شكيب الخطة التى رسمها فى دقة وصبر ، فراح يترجم الصفحات الهامة من كتاب المستشرقين بدأ أولا بترجمة رينو ، فنقل من المقدمة حكاية الغارات فى مصادر العرب ومصادر الفرنجة ، وأورد تحليلا بارعاً واستعراضاً واسعاً للكتب التى ألفت فى هذا الباب ، وأكثرها بيد الأوربيين منها ما نشر فى القديم ومنها ما نشر فى الحديث . ونقل بعدها الفصول ملخصة مترجمة واحداً بعد واحد ، فذكر حملات العرب الأولى على فرنسة حتى سنة ٧٥٩ ، وبسط فيها أمر موسى بن نصير وطارق بن زياد وقال إن العرب كانوا يطلقون على فرنسة اسم « الأرض الكبيرة » وهى فرنسة فى زمن شارل مارتل . وقال عن طريقتهم فى الفتح : « إذا خضع لهم بلد بدون قتال لم يعتدوا على سكانه فى مالهم ولا فى دينهم وإنما كانوا يحولون جانباً من الكنائس إلى جوامع ويغنمون ما فيها من النفائس ، ويضعون أيديهم على الأراضى التى نزح أهلها وعلى الخيل والأعتدة

التى كانت ضرورية لهم فى تلك الغزوات المتواصلة[١] » .

والمستشرق رينو نقل عن كتب العرب وأورد من صفحات نفح الطيب للمقرى وابن عذارى المراكشى ، والذهبى ، كما نقل عن كوندى الاسبانيولى وغيره ، فعاج شكيب إلى النصوص العربية فى مظانها ، يوردها عن كتبنا وطبعاتنا ، لا كما يفعل بعض المترجمين المعاصرين ، إذ يترجمون النصوص الأصيلة العربية عن لغات الغرب . . . ولعله أسرف فى بعض المواقع حين استطرد فذكر التفاصيل ، وجعل هذه الفصول عارضة تقطع من حديثه عن البلدان المتتابعة ، والسنين التى يصف حروبها . وعادة الاستطراد عند شكيب كعادة القدماء ، فإن صلحت لزمانهم فلن تصلح لزماننا .

ولكن هذا الاستطراد والإيغال فى التفاصيل لا يبعدان الكتاب من أن يكون مصدراً لتأريخ جديد حديث فى الموضوع ، فهو جامع شامل لأخبار تلك البلاد وما قال فيها العرب ، وما تحدث به المؤرخون عن بلاط الشهداء ، وما قاله الغربيون فى استيلاء العرب على بروفانس ، ثم ما كان من غارات العرب على السافوا وبيمونت وسويسرة إلى جلائهم عن فرنسة ، وفى ذلك أحداث وقصص وسير تغرى القارئ العربى على الرجوع إليها ، والتلذذ بمطالعتها ، جمعت من مجلدات كبيرة ومراجع بعيدة تصيدها المستشرق رينو ، والتقطها شكيب ، فاجتمع عملهما على الجد والتوفيق ، حتى ليخيل للقارئ أن جهد المترجم لا يقل فى تسقط الأخبار عن جهد المؤلف الفرنسى .

ونحب أن يرجع القراء إلى الصفحات التى رسمها الكاتب عن حكم المسلمين فى فرنسة ، وعن طراز معاملتهم لرعاياهم وعن سياستهم المدنية والدينية . وكيف كانوا يجبون الخراج ويجمعون الرسوم من السابلة ، وكيف كانوا يتركون للنصارى حريتهم الدينية ، وما كانوا يفعلونه فى سبيل العدالة والتسامح والمساواة ، مما يقف دليلا على عظمة العرب فى الفتح ، ومثالا يحتذى فى حكم الشعوب .

ونحن لا نطمع فى إيراد الأمثلة ، وبسط التاريخ ، فالكتاب بين الأيدى

---

(١) المصدر المذكور ، ص ٣٦ .

يرجع إليه من يريد أن يتثبت من خدمة شكيب للتاريخ العربى وجهوده فى هذا السبيل . ولكننا نريد أن نشهد لهذه الترجمة بالتوفيق فهى مشرقة إلى حد بعيد ، تشبه ترجماته عن أناتول فرانس ، لا تحس فيها هنا تكلفاً أو تعملا ، وإنما تشعر كأنها كتبت باللغة العربية رأساً ، فيختلط فيها أسلوب الترجمة بأسلوب التأليف ، ولعل ذلك راجع إلى أن الأمير كان يلخص غالباً ما يقرأ فى الفرنسية تلخيصاً ، ويترجم فى بعض الأحيان ، ولم يتح لنا أن نقف على كتاب « رينو » للرجوع إليه والحكم عليه ومقابلة الفرنسية بالعربية ، فالأصل الفرنسى نادر مفقود فى بلادنا ، ولكننا نحس مع ذلك حين قراءته ما أحسسنا فى كتابه عن أناتول فرانس ، ونرى ذلك راجعاً إلى قوة شكيب فى اللغتين ، وفهمه لروحيهما وعبقريتيهما .

والواقع أن كتاب « رينو » كما يبدو لنا منصف جداً ، يورد آراء العرب وآراء الفرنجة على حد سواء ، ويوازن بينهما فى غير تعصب لفريق على فريق ، وقد ينتصر للعرب فيروى عن مؤرخيهم جملة أهدافهم فى الفتح العادل ، ولا يغفل طموحهم فيذكر عنهم أن « مقصد موسى بن نصير المعاد إلى دمشق حضرة الخلافة عن طريق ألمانيا ماراً بالقسطنطينية وبآسية الصغرى بحيث يصبح البحر المتوسط كله عبارة عن بحر متوسط للمملكة الإسلامية[١] » .

وآراء شكيب فى الكتاب ثمينة عميقة ، فهو يستخرج من التواريخ عبراً على عادة ابن خلدون ، يرويها فى صراحة مرة لينصح قومه ، فهو يقول إن الذى رد العرب عن هذه الانتصارات هو الفتنة بين الشاميين والبلديين ، فى الجيش الفاتح ، وهذه الفتنة هى التى أوقفت سير الإسلام فى أوربة بعد أن مشى فيها مشى النار فى يابس العرفج ، وكذلك فتنة العرب والبربر ، فانتهز الإفرنج والاسبانيول تلك الغرة لاستئناف صولتهم وطرد المسلمين من شمالى أسبانيا . وهكذا شغل الفاتحون بعضهم ببعض واستأسد العدو يسترجع قلاعه وحصونه وحواضره . واستنصر كل فريق من المسلمين المتخاصمين بالإسبانيول ،

---

(١) غزوات العرب ، ص ٣٦ .

فاشترط هؤلاء لقاء النجدة أن يترك لهم المسلمون مدن كذا وحصون كذا ، فكان لهم ما أرادوا .

وهذه التفرقة أدت إلى انكسار العرب فى حربهم ضد شارل مارتيل بعد أن وصلوا إلى مدينة « تور » على نهر اللوار ، وعسكروا قرب « بواتيه » وهى على بعد ٣٢٢ كيلو متراً ، ولما احتدم القتال ، وقتل عبد الرحمن الغافقى ، تراجع العرب إلى الحدود الأسبانية ، وكان ذلك سنة ٧٣٣ م . ولابد من إيراد جملة من الكتاب كما أنشأها رينو وترجمها شكيب ، فى وصف ما كان عليه الفاتحون من خلاف فيما بينهم ، قال[١] : « ومما يدلك على بعد المدى الذى تصل إليه أهواء النفوس إذا استحكمت العداوة ، أن أمراء قرطبة كانوا فى نزاع دائم مع خلفاء بغداد ، وكان وكد كل من الفريقين النكاية بالآخر أكثر منه فى الفتوحات فى بلاد المسيحيين أنفسهم . وبينما كان ملوك قرطبة يراسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا فى حرب مع مسلمى الشام وفارس ومصر ، كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيس الذين كانوا فى حرب مستمرة مع مسلمى الأندلس » .

وهذا وصف بليغ مؤثر لحقيقة مرة ، تكررت فى الشرق على الأيام ، خلال حروب الفرنجة فى القرون الوسطى ، وخلال القرن العشرين ، وكانت سبباً فى انكسار العرب وفى إذلال أصقاع من بلادهم وفى ذهاب ريحهم .

* * *

أما الجزء الثانى من الكتاب فهو ترجمة عن الألمانية لكتاب عنوانه « غارة العرب على سويسرة فى أواسط القرن العاشر » تأليف الدكتور فرديناند كلر ، نشرته شركة الآثار القديمة فى زوريخ ، سنة ١٨٥٦ ، واطلع عليه شكيب سنة ١٩١٩ ، فلخصه آنذاك ونشر خلاصته فى مجلة المنار بمصر ، ثم رأى أن ينقل الكتاب برمته إلى العربية ، ولم يختصر منه « إلا فى المظان التى ليس

(١) غزوات العرب ، ص ١١٥ .

فيها طائل[١] » — كما قال — ففعل وجعل الصفحات المترجمة عن الألمانية ، تالية للصفحات المترجمة عن الفرنسية ، ونشرهما معاً سنة ١٩٣٣ فى هذا الكتاب وتحت عنوان واحد شامل ، بعد أربعة عشر عاماً تقريباً من نشره على حدة .

وكتاب كلر يتحدث عن العرب فى غاراتهم على أوربة ، فيبدأ بالغارة على بروفانس جنوبى فرنسة ، وقد كان أهلها على شقاق فيما بينهم ، فنزل العرب بسواحلهم . ثم بالحديث عن اجتياز المسلمين جبال الألب وتوغلهم فى إيطاليا واستيلائهم على البقاع بين الأنهار الكبيرة ، وعن الآثار الكتابية التى خلفها العرب هناك وخاصة فى كنيسة القديس بطرس ، وعن الأسماء العربية فى تلك البلاد ، وعن الأسوار والطرق والكهوف ، والمسكوكات والملابس ، وهو يقول فى هذا الصدد[٢] :

« وإننا مضطرون للاعتراف بأن العرب كانوا فى أيام ازدهار الخلافة فى أسبانية أعلى كعباً فى الصناعات والعلوم من الأوربيين ، وأن الثياب التى كانوا ينسجونها للزينة كانت من أفخر ما يوجد . ولقد اتفقت الكلمة على كون الصنائع العربية اليدوية من الحلى والآنية الفضية والأسلحة ، هى من الأشياء التى يتنافس الناس بها ، إلا أننا نقول إن الشئ الذى فاق العرب به الجميع هو صنعة النسيج التى كان أكثر ازدهارها فى القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر. وكان الخلفاء يهدون منها أمراء أوربة وملوكها ، فإنهم كانوا يتحفونهم بنفائس الأسلحة والآنية » .

ويقص الكتاب بعد هذا أمر الغارات على سويسرة ، ويروى أنه « يوجد فى ذلك الوادى قرى أصل أهلها من العرب أو فيها أناس من سلائل العرب اندمجوا مع سائر الأهالى ، وأنهم يعرفون من سحنائهم أنهم عرب[٣] » ، وللتثبت من ذلك ذهب شكيب بنفسه يتقصى هذه الأخبار والآثار ، فزار الأديرة والمكتبات ،

---

(١) والكتاب يحتل الصفحات ٢٤٤ — ٢٩٥ من « غزوات العرب » المذكور .

(٢) غزوات العرب ، ص ٢٧٢ .

(٣) الكتاب نفسه ، ص ٢٧٦ .

وعاد يقص علينا ما رأى وما سمع وما قرأ . وبعد سويسرة نصل إلى غزو المسلمين لجزائر البحر الرومى مثل كورسيكة وسردانية وصقلية والأرض الكبيرة المقابلة لها التى يقال لها كالابرة ، وجزيرة كريت ، ثم جزيرة « مالطة » . وقد وقف عند مالطة ، فذكر استيلاء المسلمين عليها سنة ٢٥٦ هـ ، وبسط أمر اللهجة المالطية وأنها عربية « تشابه فى كثير من الألفاظ لهجات العرب الشرقيين وفى كثير منها العرب المغاربة ، وتكثر فى لغة مالطة الإمالة ، كما يكثر أيضاً قلب الألف ياء فيقولون « يينا » بدلا من أنا ويقلبون القاف همزة ، ويستعملون نون الجمع المتكلم قبل المفرد ، فيقولون مثلا : أنا نقول له ، بدلا من نحن نقول له . وهذا على نسق أهل المغرب(١) » . ويذكر الكتاب أن مالطة خرجت من أيدى المسلمين سنة ١٠٩٠ مسيحية ، فإن النورمانديين استردوها بعد استردادهم لصقلية . وقصد الأتراك الاستيلاء على مالطة سنة ١٥٦٥ ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك . وقد أقام أحمد فارس الشدياق بمالطة أربع عشرة سنة ، وكتب عليها كتاباً أسماه « الواسطة فى معرفة أحوال مالطة » أخذ منه شكيب بعض ما يتعلق بالجغرافية والتاريخ ، ونقل منه إلى كتابه هذا صفحات عدة ، وأعقبه بفصل عن مغازى العرب فى جزائر البحر المتوسط كتبه عبد العزيز الثعالبي رئيس الحزب الوطنى فى تونس آنذاك . ثم ختم شكيب كتابه بفصل عن الكتابات العربية المنقوشة على قبور المسلمين فى مالطة .

وخلاصة القول فى كتاب شكيب عن « غزوات العرب فى فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط » أنه يحوى صفحات هامة عن علاقة العرب بهذه المواقع ، يمكن أن تكون أساساً لكتاب جديد أو بحث مفصل ينطلق منه الكاتب إلى الدراسة والتحليل بأسلوب هذا الزمان ، فقد جمع شكيب المواد الأصلية وبقى علينا أن نرتب وأن نطبق الأصول الحديثة فى التأليف ، وذلك لأن هذا الكتاب يمثل عقلية الزمان الذى نشأ فيه شكيب وتعلم ، ويمثل نشاطاً لا مثيل له فى عصره وبعد عصره .

* * *

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٨٥ .

٢ ـ أما الكتاب الآخر الذى ألفه فى خدمة التاريخ العربى والأمجاد الإسلامية فهو كتاب عارض بدأه على عادته فى شكل فصول مستقلة ، ولكنه ما عتم أن رآه كتاباً كبيراً . وحكاية الأمر أن « الحاج محمد المهدى الحبابى » أحد الكتبيين فى مدينة فاس بالمغرب قرر نشر « العبر وديوان المبتدأ والخبر » تاريخ ابن خلدون ، وأسند الأمر فى تحقيق هذا الكتاب العظيم إلى رجلين يصفهما شكيب بقوله[1] : « مستجيداً لهذا الغرض من أدباء شباب المغرب فرقدين يقصر الشيوخ القرح عن مداهما البعيد ، وتكاد فحول العلماء لا تحشر معهما فى صعيد ، أعنى كلا من المحققين الكاملين والجهبذين الحافلين ، السيدين محمد علال الفاسى الفهرى ، وعبد العزيز بن إدريس زين الله بمثلهما مواسم الأدب وأمطر بغيث أقلامهما مربع العربية إذا جدب » ثم قال : « وبين أنا كذلك إذا بصاحب هذه الفكرة هو نفسه يريدنى أن أعلق أنا أيضاً على هذا التاريخ حواشى بما يعن لى من آراء وأنحاء متصلة بمواضيعه أخالف فيها المؤلف أو أوافقه ، وأفارقه فى وجهة النظر أو أرافقه ، وأبدى من النظريات العصرية فى علم الاجتماع ما تتم به فوائد هذا الكتاب وتتجلى حقائقه » .

وقبل شكيب كتابة هذه التعليقات ، وكان فى شغل شاغل بكتابه « الحلل السندسية » ومع ذلك استطاع أن يتفرغ لكتابة هذه الصفحات كتعليقات على الجزء الأول من ابن خلدون ، فبلغت التعليقات قرابة أربعمائة صفحة ، وكانت كتاباً قائماً بذاته ، نحب أن نضمه إلى كتب التاريخ والاجتماع التى خلفها شكيب . وقد طبع [2] فى القاهرة سنة ١٩٣٦ ، وحوى بحوثاً جميلة مفيدة فى « الصقالبة » ، والأنساب ، والخلافة الإسلامية ، ومذهب الشنوء والارتقاء ، ونوح وولده ، والتوراة وهل وقع فيها تحريف ، وتاريخ العرب الأولين ، ثم ختم بالترك العثمانيين » ، وقد كانت المواد كلها فى ثمان

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، تعليقات على الجزء الأول ص (س) .

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ملحق للجزء الأول يشتمل على ما علق به على غوامض أبحاثه ، كاتب العصر الأكبر الأمير شكيب أرسلان » مصر ١٩٣٦ .

وثمانين صفحة ، والترك وحدهم فى حوالى مئتين وستين صفحة ، فكأن الكتاب كان فى تاريخ الدولة العثمانية ، وقد شغلت باله ووقته وحياته ردحاً كبيراً من زمن ، فخرج تاريخها على يديه عظيماً واسعاً لا يكاد يدانيه فى عصره كتاب بالعربية ، خصه بحياة هذه الدولة حتى الحرب الكبرى . وأرجأ التاريخ المتعلق بالحرب الكبرى إلى فرصة أخرى ، ولكنها لم تتح له إلا فى مذكراته السياسية المخبوءة التى لم تنشر على الناس إلى اليوم — كما قلنا — .

وشكيب اعترف غير مرة بأنه معجب بابن خلدون محب لتاريخه ، وأن هذا الحب كان منذ بلغ الأمير سن الحلم ، فأخذ بقراءة المقدمة لابن خلدون مراراً ، لا يجد أمنيته اللذيذة فى فهم الاجتماع والتاريخ إلا حين قراءتها . فهو ينزله فى الأدباء والمؤرخين منزلة لا تشبهها منزلة ، حتى ليقول فيه (١) : « فلو قرأ المتأدب مقدمة ابن خلدون متوخياً فيها مجرد الانطباع على أسلوبها فى الإنشاء العربى دون أن ينظر إلى ما فيها من فلسفة عالية ، وتحقيقات سنية ، وعلوم جمة ملخصة ، وحقائق ناصعة من أوضاع الوجود مستخلصة ، لكانت مقدمة ابن خلدون تكفيه عمدة فى فن الأدب ، وتغنيه عن غيرها من نفائس ما كتب العرب » . وقد ذكر شكيب أنه عشق ابن خلدون على الزمان وتأثر به على مدى الأيام فقلما كان يفارقه فى التعبير عن أفكاره والإفضاء بجلاجل نفسه ، حتى ليقول(٢) : « إلى أن إماماً مثل السيد رشيد رضا رحمه الله حكم فى المنار منذ خمس عشرة سنة بأن أسلوب كاتب هذه الأسطر كثير الشبه بأسلوب ابن خلدون . . . ولقد أولعت بهذه المقدمة شاباً وكهلا وشيخاً » .

وهكذا عكف شكيب على التعليق مطولا ، يكتب فصولا جديدة توضيحاً لما يمر فى صفحات ابن خلدون من ذكر الأمم الكبار والأحداث الجسام فكانت منه هذه الصفحات التسعون فى المواد المختلفة عن الأنساب والقبائل والخلافة

---

(١) المصدر المذكور ، ص (ن) وسنرى أن محمد عبده قبله قد أحب ابن خلدون ودرسه فى دار العلوم ، فقلده شكيب فى ذلك من غير شك .

(٢) المصدر المذكور ص (س) .

واشتراط القرشية فيها ، والنشوء والارتقاء ومولد الإنسان على الأرض والآثار الحفرية التى تعين على ذلك ، وشبه الإنسان بالقرد ، وجمع فى مقالته هذه هذه آراء العلماء الغربيين ليناقش (داروين) . وبسط الأمر فى نوح وولده لقضية الطوفان وما قال فيها العلماء والفلاسفة . وهذه المواد تصلح لمعلمة إسلامية كبيرة شبيهة بمعلمة البستانى أو معلمة المستشرقين ، أو كأنها نواة لدائرة معارف — كما نقول اليوم — ينشئها شكيب ويتمها لو أتيح له أن يقف وقته عليها ، فهو واسع الثقافة بعيد الآفاق ، كثير المعلومات ، يصح أن يصبها فى معلمة نافعة ، ولكنه لم يفعل لانصرافه إلى موضوعات كثيرة .

أما المادة التى وقف عندها فى التعليق فهى مادة « الترك » أطال فيها كما قلنا فكانت كتاباً برأسه ، عرف هو نفسه أنه نادر لعصره فقال فيه[1] : « فمضيت فيه متوكلا على الله من أول تأسيس هذه الدولة إلى بداية الحرب العالمية متوخياً فى الوصف الحد المتوسط ، متجانفاً عن خطتى المفرط والمفرّط ، ولا أظن كتاباً قد وضع فى العربية عن الدولة العثمانية على غرار هذا الكتاب ، لا سيما فى العصر الحاضر » . والحق أن كتابه هذا عن الترك هو تاريخ مسهب لهذه الدولة ، تناول فيه أهم الأحداث البارزة ، وقصد فى كثير من المواضع إلى بيان موقفه من العثمانيين ، فتكلم عن خلفائهم فى الآستانة ، واستطرد إلى وصف الحال فى لبنان آنذاك ، كأنه يؤرخ لعصره ، أو كأنه يكتب تاريخ المسألة الشرقية من وجهة نظره . وعرض للثورات والفتن فى لبنان بين المسيحيين والدروز ، فرسمها رسماً حياً ، وعدّد المواقع بأيامها ، وذكر الرجال بأسمائهم ، وذكر دسائس الدول فى تفصيل كبير ، ووصف فتن الأرمن والأكراد وغيرهم ، وصوّر الجاسوسية كما رآها لعهده ، وكان صريحاً جريئاً على عادته فى قول الحق ، وكتابه يعد من أثمن الوثائق عن حال ذلك العهد . وقد عاش شكيب يشهد الدسائس ويراها ويسمع من كبار الرجال عن أسباب الأمور التى كانت تغمض على عامة الناس ، ولذلك كانت صفحاته عن العثمانيين أشبه بمذكرات

---

(١) المصدر نفسه ، س (ع) .

سرية فضح فيها كثيراً من الأشياء ، وغدا مصدراً هاماً عن الدولة العثمانية ، فتحدث عن أخطائها وعن أياديها ، وبسط التهم التى وجهت إليه ، وأفاض فى الحديث عن كل ما كان يعرف . وقد صب جام غضبه على المستعمرين وتناول الإنكليز بجمل صريحة فقال فيهم [1] : « وليس الإنكليز بأول كتلة بشرية اتسع سلطانها حتى أفقدها رشدها وجعلها تحاول تخليد حكمها على آفاق لا تغرب الشمس عنها ، بل من قبلها سكرت أمم كثيرة بخمرة العز » .

وكان شكيب يعتقد ويصر بأن البلاد العربية كلها مرشحة لأن تكون مستعمرات بريطانية ، وهو فى ذلك شبيه بأستاذه جمال الدين الأفغانى — كما قلنا — ولم يكن شديداً على الغربيين فحسب ، وإنما تناول العثمانيين كما تناولهم الأفغانى ، فاستبشع الجاسوسية فى عهد عبد الحميد ، وقال إن النزعات القومية استيقظت فى ظل الحرية بعد أن كانت كامنة فى الصدور . وهحجا الإيطاليين فوصف وحشيتهم فى طرابلس الغرب وحماقتهم فى العدوان ، وتقصير العثمانيين فى نصرة هذا القطر العربى .

وكتابه عن « الترك » يحتل مكانةهامة فى تأريخ هذه الحقبة ، فهو شاهد عيان ، اتصل بخلفاء آل عثمان كعبد الحميد ، ومحمد رشاد ، ووحيد وعبد المجيد ، كما اتصل بخديوى مصر ، مثل توفيق وعباس ، وعرف فيصل وابن السعود والإمام يحيى . فهو مطلع على كل بلاط ، واقف على أكثر ما كان يحدث فى حضرات الملوك والأمراء والخلفاء . ولو نشرت مذكراته السياسية عن الفترة التى أعقبتها الحرب الكبرى لأسدت يداً إلى التاريخ المعاصر . وقد عرفنا أن هذه المذكرات مودعة عند المجلس الإسلامى الأعلى بالقدس كما قلنا ، وهى حين تنشر تفضح المؤامرات وتنبش الأسرار ، وتكشف عن الدسائس والرجال ومواقفهم من أوطانهم . ولعل هذه المذكرات توضح موقف شكيب نفسه من العثمانيين ، وأياديه فى خدمة الوحدة العربية ، أكثر مما توضح كتبه المنشورة التى عرضنا لبعضها وسنعرض لبعضها الآخر .

---

(١) المصدر المذكور ، ص ٣٥٥ .

ومهما يكن من أمر ، فقد برهنا على أن شكيباً كان يعمل للتاريخ العربى والإسلامى على قدر ما أوتى من وقت ومن فرصة ، فنشر ما نشر خدمة لجيله وقومه ، وأسدى بذلك يداً كريمة إلى التاريخ والأدب ، واستحق بذلك أجمل درجات الخلود وأعطر آيات التقدير .

الفصل الخامس عشر

شكيب المؤرخ

الحلل السندسية فى الأخبار الأندلسية

١٩٣٦ — ١٩٣٩

وهى معلمة أندلسية تحيط بكل ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود ، كتبها قبيل السبعين من سنيه ، تحقيقاً لآمال ضحكت فى نفسه منذ أربعين عاماً . فلما سافر إلى أسبانيا ماراً بفرنسة ، كتب عن المواقع التى مر بها العرب فاتحين فكان كتابه عن غزواتهم قبل كل شيء، ثم كان هذا الكتاب عن البلاد التى مكثوا فيها قروناً ، فأفاض فى وصفها من كل نواحيها يحثه الحب والخيال وتكتنفه الآمال والأمانى فقال [٢] : « ولهذا رأيت أنه من أمثل ما يمكننى أن أخدم به هذه الأمة ، قبل انصرافى من هذه الدنيا هو أن أهدى ناشئتها عن هذه القطعة النفيسة من تاريخها ، كتاباً شافياً للغليل ، جامعاً لأقطار هذا البحث ، ناظماً بين القديم والحادث ، مقابلا بين ما قاله العرب وما قاله الإفرنج » . ولذلك طال وامتد فجعله فى عنوان شامل لتاريخ الأمة والأرض ، وأراد أن يكون أوسع كتاب عربى كتب عن الأندلس ، فقد لبث ست سنوات يبحث ويكتب فيه .

وقد سهر له الليالى فى التحقيق والضبط والتنقيب ، وأذاب له سواد العيون .

---

(١) نشرت فى القاهرة بين ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، فى ١٣٦٧ . صفحة مزينة بالصور والمصورات الجغرافية . وقد نشر مقال عن الكتاب فى المقتطف ١٩٣٨، ٩٢/ ٦٠٢ ، وفى المقتطف ١٩٤٠ ، ٩٧/ ٢١٧ .

(٢) الحلل السندسية ١/ ١٤ .

واختار النقل عن المؤلفين ليعرض آراءهم وجمع أفكارهم فى هذه الموسوعة . فسرد أسماء المؤرخين من العرب الذين كتبوا فى الأندلس ، وهم كثر ، وأسماء المستشرقين الذين تحدثوا عن هذه الحقبة فترجم عن اللغات التى يعرف وكلف أصحابه بترجمة النصوص الأسبانية ، وعزا الروايات إلى أهلها . وحشر فيه المعلومات الجغرافية والتاريخية ، ليكون كتابه موسوعة تضم أسماء الأسبان والعرب الذين عاشوا فى البلد الذى يعرض لرسمه ووصفه وتأريخه .

وجعل فى فاتحة كتابه تنويهاً وثناء على الأمير « عمر طوسون » كما جعل فى غزوات العرب تنويهاً وإهداء للملك فيصل الأول ، فقد لقى طوسون منذ خمسة وعشرين عاماً خلال الحرب الطرابلسية ، فعرف فيه العالم العامل والرجل الفاضل .

والأمير يصف الأندلس كما رآها خلال مقامه فيها ، فيشبه أرضها بالشام ثم يعكف على كتب الجغرافية ينقل عنها ما جاء عن هذه الربوع ، بقلم الكتاب العرب أو المستشرقين ، فيملأ صفحاته بياقوت وابن حوقل ودوزى وبروفنسال ، ويلتقى الغرب بالشرق ويتجاوران فى الصفحة الواحدة ، وتجد الترجمة الحرفية للآراء الغربية ، وترى الأسماء الأسبانية وما يقابلها بالعربية كأنك أمام معجم جليل جغرافى وتاريخى . وهذا أمر صعب لا يستطيعه إلا أولو العزم والصابرون فكأنه يدعونا إلى الاقتراح بعمل كتاب للمفردات الأسبانية وأمامها العربية مرتب على حروف المعجم ، يستقى من هذا الأثر الكبير .

وهذا الكتاب شبيه بالمعلمات الإسلامية الكبرى حين تتحدث فى الأقاليم وجغرافيتها ، كنهاية الأرب للنويرى وصبح الأعشى للقلقشندى ، لا يختلف عنها فى السرد والترتيب . أما الترتيب الحديث والاستنتاج فلا يصب هذا الكتاب ولا يلمّ به ، لأن صاحبه تأثر خطوات من قبله وأعجب بالقدماء فسار على آثارهم وتبع سننهم .

بدأه بالجغرافية ، فسرد وصف الأقاليم والمدن وما إليها ، وذكر الممالك وما يتعلق بها من تاريخ ، وأورد تراجم من انتسب إلى هذه المدن والممالك من

حكماء وأدباء وفقهاء وأمراء وملوك ، ونقل الوثائق التاريخية التى عثر عليها ، وقد خص الجزأين الأولين بالحديث عن شمالى الأندلس ، وخص الثالث بشرقى الأندلس وذكر خطته فى الجزء الرابع فقال إنه سيكون فى الحديث عن جيان وقرطبة والخامس سيكون فى أشبيلية وبطليوس وغرب الأندلس إلى البرتغال ، والسادس سيكون فى الحديث عن مملكة بنى الأحمر غرناطة والمرية ومالقة ، والسابع فى التاريخ من أول الفتح إلى آخر بنى أمية ، والثامن من بداية ملوك الطوائف إلى انقضاء المرابطين والموحدين ، والتاسع فى الكلام على سلطنة غرناطة إلى سقوطها . ويليه جزء بعرب أسبانية المسلمين الذين أقاموا تحت حكم النصارى إلى حين طردهم قاطبة فى سنة ١٦١٢ .

ولكن الأجزاء المذكورة لم يصدر منها بالطبع إلا ثلاثة ، وبقى خمسة منها — كما قلنا — حسب ما رسم الرجل ، لا نعرف أين مكانها من صنعه ، أهى مخطوطة ما تزال أم فى ضمير المؤلف ماتت بموته[١] . فإن كان الأمر الثانى فهو خسارة كبيرة ، لأن الرجل نوى أن يجمع بين دفتى هذا الكتاب كل ما عرفه من المصادر الأدبية والجغرافية والتاريخية لهذا القطر العزيز فاستوفى المكتبة الأسبانية بكتبها جميعاً وضعها أمامه ونقل منها ما يلم بالجغرافية والأقاليم حتى إذا أتمها أراد أن يبدأ بالتاريخ مع الجزء الرابع ولكن المنية عاجلته عن تحقيق هذه الأمنية العلمية الغالية أو عن طبعها ونشرها .

ومهما يكن من أمر فإن الرجل قد جهد جهداً شاقاً فى نقل كل ما يرجع إلى الأندلس من كتب العرب ، وجعلها فى كتاب واحد بعد أن كانت فى عشرات الكتب ، ولعله أراد بذلك أن يضعها بين أيدى علمائنا من الجيل الصاعد ليرجعوا إليها ويؤلفوا منها تاريخاً جديداً فى تبويبه ، نافعاً فى تصنيفه ، واضحاً فى فصوله يلم بالأرض أولا ، وبالساكنين على الأجيال بعد ذلك ، ثم يستنتج من هذا كله أثر العرب فى العمران والحضارة والتاريخ . ولم يكد يفوته مرجع كبير من شرق أو غرب فى الموضوع ، فقد طاف خزائن ألمانية وسويسرة

(١) بل لعلها فى الصناديق التى خلفها الرجل لأهله ، وأهلها بها ضنينون .

وأسبانيا واتصل بالعلماء الأسبانيين ، وركن إلى الاسكوريال ووصف المصادر الهامة وبسط تزييفها أو ثقتها ، وناقش العلماء المعاصرين ، وخرج من ذلك بدرس عظيم فى بيان مفتاح لدراسة « إسبانيا المسلمة » كما يراها هو لا كما يراها الفرنجة . فهو يعدها قطعة من تاريخنا وتراثاً من تراثنا وهم يعدونها فترة طارئة دخل العرب فيها عارضين ثم زالوا وكأنهم شغلوا العصور مستعمرين كما شغل العثمانيون تاريخنا . ولكن الأمير شكيب نظر إلى هذا التراث نظرة تختلف عن مؤرخى الغرب فعمل له وأحبه ، وكان منه هذا الجهد المبارك .

ويحلو لنا أن نسير مع الكاتب المؤرخ فى هذا الجهد الكبير ، وأن نقرأ صفحاته الجميلة الحلوة ، وأن نطوف الرياض والغياض ، وأن نصعد التلال ونهبط الوديان ، مأخوذين بروعته فى الوصف لأنها موطن أهله من « لخم » كما كان يقول . وهى ربوعنا وأرضنا وتراثنا ، كتبنا فيها بسيوف أجدادنا سطور المجد فى المعارك الظافرة ، وحبرنا فيها بأقلام علمائنا مجلدات ومجلدات لا ينفد عدها ولا يحصى عديدها ، فهى منا كضلوع فى الصدر ، وعروق فى الجسم ، نتنفس بها ، ونعيش على نبضاتها .

ولن يمل القارئ من هذه الصحبة الجميلة ، لأنه يتعرف فيها إلى بيته وأراضيه ويتخيل من خلالها أسرته وأهله ، فيتصور كيف عمروها وأسالوا فيها الحياة على أجمل ما تكون الحياة ، وإن الإنسان لا يمل أن يطوف فى أملاكه ، وأن يطلع على خيراتها . وهذه الربوع قطعة منا لا تنفصل ، وعضو من أعضائنا لا يبتر ، وفلذة من أكبادنا ، نحن إليها حنين الابن البار لأبيه الفقيد حين يتذكر محاسنه ويتلو مفاخره ، فيرفع الرأس تيهاً وفخاراً ، ويعد أنه يحافظ عليها بالحب والتذكار ، كما يحافظ على ما ورث من سكن يعيش فيه وبيت يأوى إليه سواء بسواء .

ومن لنا بدليل أروع من هذا الدليل يقودنا ببيانه إلى هذا الفردوس الأرضى ، وينقلنا بين أجزائه ببراعته الساحرة ، وأسلوبه العذب ولفتاته الشاعرية ، فيصيح

بنا معرفاً بالقوم والناس قائلا : « نعم[١] ، حواضر كالبحار الزاخرة كانت تموج بالبشر ، وحصون كالجبال الشامخة تحصى بالألوف وتكبو فيها جياد الفكر ، وجيوش كانت حصى الدهناء ، ورمال البطحاء ، ومساجد كانت فى الجمع المشهورة تغص بألوف الألوف من المصلين ، ومدارس كانت مكتظة بالألوف من القراء والطالبين ، وما شئت من إسلام و إيمان ، وحديث وفرقان ، وأذان يملأ الآذان ، وما أردت من نحو ولغة وطب ، وحكمة ومعان وبيان ، بلغة عربية عرباء ، يحرسها علماء كنجوم السماء ، وما أرادت من عيش خضل ، وزمن نضر ، وحزرات أنفس ، وضحكات قلوب . كل هذا عاد كهشيم المحتضر كأن لم يغن بالأمس ، ولم يبق منه إلا آثار صوامت ، وأخبار تتناقلها الكتب ، كأنه لم يعمر الأندلس من هذه الأمة عامر ، ولا سمر فيها سامر . قال تعالى : وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم » .

وهو منذ عبر جبال البرنس (البيرانه) أحس بأنها الحد الفاصل بين أوربة و إفريقية ، وشعر بأنه كان يسير نحو سواحل بلاده (الشام) ، فكيفما نظر وقع بصره على التين والزيتون والخروب والصنوبر والصبير ، وجميع الأشجار والنباتات التى عرفها فى بلاده . فيقول : « ولا شك فى أن هذا التشابه بين البلادين هو الذى حدا عرب سورية على انتجاع الأندلس أكثر من أى بلاد سواها . لأن الإنسان يحب إذا تغرب أن يقع فى أرض تشبه مسقط رأسه[٢] » . وهو يجد أن شمالى المغرب لا يفترق عن جنوبى أسبانية ، وكل الفاصل بينهما مضيق لا يتجاوز فى بعض الأماكن أكثر من مسافة ١٥ كيلو متراً . فهى بقعة واحدة خرقها الماء فجعلها شطرين ولكنه لم ينزع من كل من الشطرين وحدته الطبيعية مع الآخر .

وما وقف أمام هذا الفردوس الأرضى إلا ليشيد بالعرب ويقرأ لهم عن هذه الأرض صفحات وصفحات ، لا يقف عن نقلها وضبطها وفهمها ، كأنها

---

(١) مقدمة الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ١١ .

(٢) الحلل السندسية ، ج ١ ص ٢٤ .

سطور من نور تلمع لعينيه فيرى الدنيا بها ، ولا يراها بغيرها ، فى صوفية علمية عجيبة ، وعشق غريب . ولو أن امرأ عشق أرضاً بعينها وجبالا برسمها وأنهاراً بجريها ، وأراد أن يصف عشقه لها لما تجاوز فى حرارة قوله وجمال بيانه ما كان للأمير شكيب فيما سطر وكتب .

ونحن لا نحب أن نقف من هذا المتحف العريض موقف الدارسين المحدثين ، فنقول ونقول ، من غير أن نتخذ الأشياء المعروضة نفسها دليلا لما نقول ، فهى تتحدث بنفسها ناطقة ساحرة ، وكلمات الأمير فى ثنايا هذا الفردوس العريض كالتحف ، لها جمالها وسحرها وصدقها .

إنه حين يصف بلاد الأندلس ، ويرسم الأقوام الذين مروا فيها ، يصل إلى العرب ليقول[١] : « وجاء بعد ذلك العرب فأثلوا فى الجزيرة الايبرية أو الجزيرة الأندلسية على رأيهم ، حضارة عربية شرقية بلغت من الأبهة والفراهة ، وسلامة الذوق سدرة المنتهى ، فلا تكاد تمر بمكان إلا للعرب فيه آثار باهرة ، وعنهم أخبار تتحدث بها السامرة ولا يزال نظام سقيا الجنان ، وتوزيع المياه على الأرضين ، هو النظام الذى رتبوه فى أيامهم ، ثم إنه لا ينكر أن الفن المسيحى ، سواء فى القرون الوسطى أو من بعد عهد النهضة قد ترك فى اسبانية آثاراً فاخرة ومبانى فخمة ، كقصر الأسكوريال مثلا » .

« فالذين يقصدون إلى أسبانية من السياح لا تخيب آمالهم ولا تذهب نفقاتهم سدى ، وذلك لأن السائح الأوربى يجد دائماً فى اسبانية أشياء جديدة بالنسبة إليه .

« فالبلاد كلها عبارة عن جزيرة يحيط بها البحر من جهاتها الثلاث وتحيط بها جبال البرانس الشامخة من الجهة الرابعة ، فهى معتزلة فى مكانها ، منتبذة من أوربة زاوية خاصة بها ، غير متأثرة بغيرها ، محتفظة بجميع مميزاتها وخصائصها ، لاهى شرقية تماماً ولاهى غربية تماماًبل هى متوسطة بين أوربة وأفريقية ، واصلة بين المشرق والمغرب ، منطوية فى أحناء وجودها هذا المستقل على أسرار لايعرفها إلامن

---

(١) الحلل ١/٣٠٢ .

أكثر التجوال فيها ، وقرن السير بالنظام . »

ويسير الأمير بين الأسبان ، ويستقرئ حضارتهم ، فيجد أنهم يقلدون فى فن الرسم والتصوير ، فكنائسهم وقصورهم صورة للفن الإيطالى الذى يدور على محاكاة الطبيعة ، ورسومهم وتصاويرهم تتأثر بالفن الفرنسي والفلمنكى فليس فى اسبانية تصوير خاص بها . ويرى أن السائح الأوربى الذى لا يعرف بلاد الشرق ولم يزر بلاد الإسلام ، يجد فى أسبانية آثاراً عربية تعطيه صورة حقيقية عن المدنية الإسلامية ، والأندلس مثل رائع منها ، وأثر من أنفس وأرقى ما تركه العرب من الآثار فى الأرض .

«وأما السائح الشرقى[1] فإنه يقضى سياحته فى اسبانية متأملا غائصاً فى بحار العبر ، هائماً فى أودية الفكر . كلما عثر على أثر عربى خفق له قلبه ، واهتزت أعصابه ، وتأمل فى عظمة قومه الخالين ، وما كانوا عليه من بعد نظر . وعلو همم ، وسلامة ذوق ، ورفق يد ، ودقة صنعة . وكيف سمت بهم هممهم إلى أن يقوموا بتلك الفتوحات فى ما وراء البحر فى بحبوحة النصرانية ، وملتطم أمواج الأمم الأوربية . وأن يبنوا فيها بناء الخالدين ، ويشيدوا فيها ألوفاً من الحصون ، وأن يملأوها أساساً وغراساً ، كأنهم فيها أبد الآبدين . فلا يزال قلب السائح المسلم فى الأندلس مقسماً بين الإعجاب بما صنعه آباؤه فيها ، والابتهاج بما يعثر عليه من آثارهم ، وبين الحزن على خروجهم من ذلك الفردوس الذى كانوا ملكوه ، والوجد على ضياع ذلك الإرث الذى عادوا فتركوه ، وأكثر ما يغلب عليه فى سياحته هناك هو الشعور بالألم ، فهو لا يزال يسير بين تأمل وتألم ، وتفكر وتحسر ، لكنه يريد مع ذلك أن يقترى هذه الآثار ، وأن يمشى فى مساكن أولئك الآباء ، وأن يخاطب الأحجار ، وذلك لأنه لهوى النفوس سرائر لا تعلم ، من جملتها أنها تنزع إلى البكاء عند دواعى الوجد ، كما ترتاح إلى الطرب عند بواعث السرور ، وأنها قد تهتف بالأمرين معاً ، وتجمع الضدين شرعاً ، وأن كل ما هو حنين وتذكار ، وولوع بعد الأعيان بالآثار ،

---

(١) الحلل ، ١/٣٠٣ .

هو من سرائر البشرية ومما هو غالب على النفس الناطقة » .

كذلك يسير بنا الأمير شكيب فى مرابع الفردوس الخالد ، سيرة هوميروس فى الإلياذة ، والفردوسى فى الشاهنامة ، فكأنه ينشئ ملحمة فى النثر عن قومه وأعمالهم فى الأندلس وهى أشبه بالشعر يوشى التاريخ ، ويتيه بحلل الجغرافية والعلم ، يمزج روحه بالأحجار والأشجار ، فينطقها ويتكلم باسمها ، ويجرى معها فى سنن العبرة والتذكار ، على وعورة البحث العلمى ، وجفاف النصوص الجغرافية التى يثبتها بحروفها فى صفحات كثيرة .

وله إشارات ذكية بارعة عن روعة البناء والآثار فيلاحظ أن أهم ما تمتاز به المبانى الإسلامية نقش آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والأمثال والأشعار ، فى الحيطان والسقوف وفوق الأبواب وفى الأمكنة المعروضة للنظر ، بما تزداد به الأبنية سناء والأبهاء بهاء ، فيقول : « ولقد رأيت فى رندة قاعة انكشفت جديداً ، حيطانها كلها من المرمر ، وقد حفر عليها سورة الفتح من أولها إلى آخرها[١] » .

وتحدث عن جامع طليطلة فهو يعجب الإفرنج ، وعن كنيس لليهود وهو من أمثلة الصنعة العربية يقصد إليه السياح لنفاسة بنائه ثم يقول[٢] : « وقد بقى فى الأندلس من المآثر العربية التى يشار إليها بالبنان قصر الجعفرية فى سرقسطة ، ومنارة أشبيلية الشهيرة ، وباب ساحة النارنج فى هذه البلدة ، والقصر الذى بناه الملك بترو الملقب بالغاشم ولكن على الطرز العربى بأيدى بنائين من العرب » .

« فأما حمراء غرناطة فلا تزال إلى يوم الناس هذا زينة أسبانية وحليتها ، ومقصد المتفرجين من جميع الأقطار يزورها فى دور السنة من سبعين إلى مائة ألف متفرج ، ومن أغرب ما سمعت أن بعضهم يقيم الشهر والشهرين والثلاثة فى غرناطة ، وقلما يمضى يوم إلا ويقصد فيه إلى الحمراء حتى يمتع نظره بما فيها من نفائس الصنعة وبدائع الطبيعة لأن موقع الحمراء الطبيعى هو أيضاً نادر فى الدنيا » .

---

(١) ، (٢) الحلل ، ١/٣٠٧ .

وقد صدق الأمير شكيب – طيب الله ثراه – فالزوار لا ينقطعون عن غرناطة وحمرائها ليلا ونهاراً ، يملئون شعاب الجبل وأطراف الوادى من العالم الجديد والقديم ، تغص بهم الطرقات ، وتمتلئ بهم المقاهى . وحين زرت غرناطة رأى لى إخوانى هناك أن ألبث فيها أمداً طويلا أتملى بالنظر إلى مقاصر الحمراء تحت القمر المشرق ، وظلاله تعبث بأشباح العربيات من أخراتنا فيخيل إليك أنهن خرجن من جنان العريش ، ونشرن على طرقات الخمائل ، يبعثن الأريج والعطر ، ويزهين بالألوان المشرقة والثياب الفضفاضة ، وغناؤهن يمتزج بأصوات المياه الصاعدة ، فيلفك عالم من السحر والروعة يرقص الفكر ويسكر الخيال ، فينسى الأيام والليالى ، ويلبث مع غرناطة ما أتاح له الدهر مقيماً ومسافراً ، وظلال البيوت بقرميدها الأحمر وهى تتسلق الجبال ما تزال تسبح فى فكره ، وهو يشرف عليها من الحمراء .

وكل المدن الأندلسية تحظى من قلم شكيب بمثل هذه الروعة فى القول بعد الأوصاف الجغرافية التى ينقلها ، فيقول عن مدريد : « كان[١] بناء مجريط فى زمن العرب ضرورة عسكرية ، لأنهم جعلوها قلعة فى وجه القشتاليين . ولولا القلعة ما تكونت ثمة بلدة ، إذ ليس إلا بلد محل ، وماء ضحل ، وبقيت فى أيدى العرب مدة طويلة إلى أن تمكن الاسبانيول من إرجاعها سنة ١٠٨٣ » . ثم يصف حال مدريد ، ويذكر منها نوافح البرد القارس ، ولوافح الحر المحرق ، وتقلب الأنواء ، فكأنها – كما يقول – أعجوبة من الأعاجيب . ولا تسل عن حديثه فى آثار مدريد ووثائقها ، فهو يسعى هنا كذلك وراء المخطوطات والكتب والآثار فيقول : « ولما ذهبت إلى مجريط سنة ١٩٣٠ كنت أذهب كل يوم إلى هذه المكتبة ، وفيها اطلعت على كتب كثيرة تتعلق بالأندلس ، ثم اقتنيت أكثرها فيما بعد ذلك ، ونسخت بخط يدى يومئذ قسماً من « أخبار مجموعة » ، وهو أول تاريخ عربى لمسلمى الأندلس[٢] » .

---

(١) الحلل ١/٣٤٥ .
(٢) الحلل ١/٣٥١ .

ويحكى فى مكان آخر ما رآه فى مكتبة أكاديمية التاريخ ، ويسرد أسماء الكتب التاريخية ، وكلها كنوز لا نعيد فيها القول هنا ، وللمراجع أن يلتمسها عنده فهو بحاثة التاريخ ، وهو صديق الأندلس البار ، ومؤرخها العظيم . كما يسرد ما رآه فى خزانة الأسكوريال ويقول : « ولما زرت أسبانيا سنة ١٩٣٠ ، أى من ست سنوات ، ذهبت إلى الأسكوريال أنا واثنان من شبان المغرب النجباء[١] ، وسرواته الأدباء ، وهما السيدان العالمان الفاضلان أحمد بلا فريج ، ومحمد الفاسى الفهرى . . . فطوفنا فى الأسكوريال مدة ساعات . »

ونبلغ معه إلى طليطلة ، فنطوف حجرات التاريخ وصكوك البيع بين المسلمين والنصارى ، على قلم شكيب الذى يبذ المستشرقين فى صبره وفى تتبعه ، وفى لحاقه بالأوائل العرب من الباحثين عن الحديث والعلم والفقه . فما يختلف عن هؤلاء أو هؤلاء ، وإنما يجمع فى برديه ثقة العلماء المسلمين ، وطواف الباحثين الغربيين . وندخل الكنائس معه كما نشهد الجوامع والقناطر ، ونستمع إلى تراجم العشرات من رجالها ، تمر بنا كالشلال الهادر تروى أمجاداً ومفاخر وكتباً وآثاراً ، لا تقل عن آثار المشارقة فى لمهم وفهمهم وجهدهم لخدمة العربية ورفعتها ، فجناح ثقافتنا فى المغرب كجناح المشرق سواء بسواء ، لا يصح للعربى الدارس أن يغفلها أو يجهل منها علماً أو كتاباً ، لأنها تكمل ما كان للمشرق فى بناء عروبتنا وتتم الصرح الذى شيده الأجداد .

وحين يبلغ إلى « بلنسية » يقول[٢] فيها : « حاضرة من حواضر الأندلس الكبرى ما حضر منها وما غبر ، ومصر من الأمصار المعدودة فيما عمره البشر ، كانت إحدى العواصم الست التى ترجع إليها اسبانيا العربية ، وهى قرطبة فى الوسط ، وطليطلة فى الوسط إلى الشمال ، وسرقسطة فى الشمال إلى الشرق ، وأشبيلية فى الغرب ، وغرناطة فى الجنوب ، وبلنسية هذه فى الشرق . وما زالت هذه المدرة منذ خيم الإسلام بعقرتها إلى أن تقلص ظله عنها دار علم وتفكير ،

---

(١) الحلل ١ / ٣٥٩ ، تحدثنا عن المغربيين فى الصفحات السابقة وما وصلا إليه من مراتب .
(٢) الحلل ، ٣ / ٤٥ .

وفضل غزير ، ونعيم وملك كبير ، عدا ما تحلت من مرجها النضير ومحرثها الذى ليس له نظير ، وكانت دائماً معقل عروبة ومركز عربية ، وموطن بحث وتحقيق ، ومحط تصنيف وتنميق ، وفيها من كل نزعة عربية صحيحة ، وكل عرق فى العرب عريق . ومن مزاياها أنها متصلة بالبحر والجبل ، فلا يزال عيشها هنيئاً ، ولا يبرح سمكها طريئاً ، وجبنها طريئاً ، وإن لم يكن فيها سوى بساتينها التى لا يشبهها فى الدنيا شىء سوى غوطة دمشق ، وما يقال عن شعب بوان وصغد سمرقند . . . لكفى » .

وهذا هو الذى دفعنا لأن نشيد بعروبة تلك البلاد ، فهى مصنع الكرامة العربية . وهى كما أشار شكيب ببراعته إلى نزعتها وعرقها ، فلم ينس أهله وهو هناك ، ولم ينس دمشق وهو فى قلب بلنسية . وكيف ينسى العرب وينسى دمشق حين يتقرى ما صنع أبناء دمشق الأمويون من معجزات البناء وساحر الزخرف وعظيم الحضارة ، فى سبيل عروبة ، نتحدث عنها غالباً ولا نعرف ينابيعها كما عرفها الأمير شكيب ، فكان رائداً من رواد هذه القومية العظيمة ، تحدّث عن آثارنا فى تلك الربوع ، حديث المؤرخ العربى المخلص .

أجل كثيراً ما يثور به الحنين وهو يطوف الربوع الأندلسية ، فيشبهها بدمشق ، فحين رأى مرسية قال[١] : « ومن الغريب اجتماع الضدين فى تلك البقعة كما فى دمشق ، فإن الجبال فوقها كجبل قاسيون وغيره جبال جرد وهضاب صلع ، لا يكاد يرى فيها الناظر أدنى نبات ، وحذاءها غوطة دمشق التى تضرب بها الأمثال . وهنا الحالة بعينها ، فإذا نظرت إلى ما فوقك عن الشمال رأيت جبالا جرداً وهضاباً صلعاً ، لا يقع نظرك فيها على شجرة واحدة ، ولا على غصن أخضر ، وإذا نظرت عن يمينك وقع نظرك على جنان يصح أن يقال فيها إنها جنان الله فى أرضه فى عظمة أشجارها والتفاف أدواحها وتهدل ثمارها وتفجر أنهارها » .

وكذلك كانت أحب بلاد الدنيا إليه هى دمشق ، يقيس عليها ويوازن بها ،

---

(١) الحلل ، ٣/٢٤٣ .

ويشبه بمعالمها ، فكأنها الدنيا فى نظره ، يرددها على لسانه ، ويستحضرها فى ذهنه ، فلا تفوته غوطتها وجبالها ونهرها ، وثمرها وشجرها ، حتى إنه يستذكر فواكهها حين يذوق فواكه مرسية فيقول[١] : « وأما لذة فواكه مرسية وكثرتها ، فهما مما يكل عن وصفه القلم ، فهى فى ذلك كدمشق ، وفيها كدمشق المشمش الذى لا نظير له ، وهو يحفظ فى معامل حفظ الثمار ، ويصدر إلى الخارج ، وفيها البرتقال الجيد » .

هذه معالم القومية والعروبة فى كلامه وتصويره ، وأما ما اكتشفه وزاده فى التعريف ببلدان الأندلس فهو كثير ، رد به إلى الصواب ، ومحا الظنون ودفع الهجوم على العرب . ومما علله فأجاد فى تعليله اسم مرسية فقال إنها من الآس ، ورجع إلى ما قيل عنها فى اليونانية ، وما يقول الأتراك فى بلد « مرسين » اليوم ، وأثبت عن « حسن المحاضرة للسيوطى » تأكيد قوله . ولم يقف ذهنه الوقاد عن المشاركة فى اللغات ، والموازنة بينها وبين العربية فى تصحيف الأسماء الأسبانية ، فكان كالعلماء الأوربيين لهذا العصر ، لا يكاد ينخفض عنهم فى التعليل ومعالجة المصادر ، وكان كالأدباء القدماء صدقاً فى التحقيق ، وجمالا فى التعبير ، حتى ليعجز القارئ عن رد العبارة إلى شكيب أو إلى غيره من المؤرخين القدماء إلا بعد أن يعود إلى الحاشية فيقع على النسبة والذكر .

ومن أروع ما نقله الأمير شكيب إلى كتابه وأشده وقعاً فى النفس وإيلاماً فى الضمير هو تلك القصة الأسبانية فى رحيل العرب عن الأندلس ، وتشريدهم ، بعد سقوط مرسية ، إثر خيانة فظيعة . فقد ألف أحد الأسبان « تاريخ مرسية » وهو معاصر للعرب ، وطبع هذا التاريخ منذ مائة عام ، يصور الفاجعة والكارثة ، بقلم اسبانى لا عزبى . وتناوله الأمير بالتلخيص فصلا بعد فصل ، نحب هنا أن نروى سطوراً منه لبيان ما قدم شكيب فى سبيل تاريخنا القومى . فهو لم يكتف بمصادرنا العربية ، وإنما أضاف إليها مصادر غربية — كما قلنا — للموازنة والحقيقة ، فدل على سعة فى الفهم وبسطة فى العلم ، ووقوف على اللغات

---

(١) الحلل ، ٣/٣٩٩ .

الغربية ، وإيمان بالحياد العلمي .

نقل الأمير عن المؤرخ الأسبانى ، أن إحراق كتب العرب أنى وجدت كانت بأمر من الكردينال « شيميناس » وبإغراء من أساقفة النصارى حتى أسف الأسبانيون أنفسهم وأضر بهم ذلك فى الزراعة والصناعة والمعارف والفنون ، ففقدوا مصادر للمعرفة خلفها العرب الحكماء ، وجرى على اسبانية ما جرى بعد سقوط الدولة الرومانية من التدنى والانحطاط .

وصور المؤرخ الأسبانى حال حكام مرسية وحكام غرناطة ، وما قام بينهما من تنافر وحرب ، أدى إلى سقوط مرسية بيد الأسبان ، دون مقاومة سنة ١٢٩٥. وأن عرب مرسية كانت تضطرم الأحقاد فى صدورهم لوقوعهم فى أيدى النصارى الأسبان ، فكانوا يتحفزون للثورة ، ولكن ابن الأحمر قدم من غرناطة لتهدئتهم وقتل الروح فيهم ، ونقلوا بعد ذلك من مدينتهم إلى غيرها ، فصفت مرسية للمسيحية ، وسمى العرب الذين بقوا تحت حكم النصارى « بالموريسك » .

وعاش هؤلاء العرب الموريسك فى ذل وهوان ، فراح المسلمون يراسلون مسلمى المغرب مستصرخين لإنقاذهم ، فأمر ملك أسبانيا فيليب الثالث بإجلائهم خوفاً من الدسائس والنتائج ، وإخراجهم إلى بلاد البربر ، ونقلهم فى سفن إليها ، خلال ثلاثة أيام ، ومن وجد بعد ذلك قتل .

ووقعت الكارثة ففزع العرب لفراق الوطن ، وتمسكوا بالبقاء ، ولكن الأسبان لم يتهاونوا فى إخراجهم ، فغادروها على حال مريعة ، فبعضهم — كما قال المؤرخ الأسبانى — أضرم النار فى بيته وفى كل ما يملك ، وبعضهم قتل أولاده وانتحر ، وبعضهم قضى وهو ينتظر دوره فى ركوب البحر ، ومنهم من مات جوعاً أو مرضاً أو جزعاً ، وعدد الذين أجلوا عن « مرسية » وحدها ٢٦٠ ألف نسمة . ويختم المؤرخ كلامه بقوله : « هكذا كانت نهاية العرب فى مرسية ، بعد أن أقاموا فيها وفى البلاد التابعة لها ثمانية قرون وبهذه الصورة تخلصت البلاد ، ونجا الدين من الخطر الذى كان يهددها » .

وذيل المؤرخ الأسبانى بقائمة لأسماء مشاهير العرب الذين نزحوا عن مرسية ،

كما نزح آدم عن جنته وهبط إلى الأرض ، جزاء ما جنت زوجه عليه . والمرأة كانت من عوامل هذه الكارثة فى هذا الفردوس ، كما بسطنا منذ قليل فى الفصول السابقة عن نكبة الأندلس .

كذلك صور شكيب جنان الخلد ، وشبهها بربوعنا فى الشرق وخاصة بدمشق ، ثم صور النكبة والخروج ، ليصف لنا كارثة وقعت فى الأندلس بسبب تناحر الأمراء الحاكمين ، وتكالب الزعماء المترفين ، ونوم الجنود عن الحدود ، وغفلة الشعب عن ذلك كله لجهالته . ولعله كان يريد أن يمثل لنا أثر التكاتف والوحدة ، والعلم والمعرفة ، والحفاظ على الحمى والذود عن الأخلاق فى حياة الأمم والعرب منهم ، فكان يخاف أن تقع كارثة ثانية بالشعب العربى ، وتتكرر المأساة ، فقد كتب كتابه والدول العربية مشرعة السهام بعضها فى نحور بعض، يتلهى كل حاكم عربى فى النكاية بجاره الحاكم العربى، ويكشر له عن نابه وسلاحه ، و وراء كل رقعة أجنبى يضحك ، ومستشار يبتسم ، والدهر يسخر من رواية تعاد، ومهزلة تمثل فى العرب من جديد ، والعرب عنها غافلون . وقضى الأمير سنة ١٩٤٦ ، قبل أن تقع الكارثة الثانية وقبل أن يجلى العرب من جديد عن فردوس جديد هو فلسطين ، فى قلب أرضهم ، وفى قرارة بيوتهم ، بسبب التناحر والتكالب والغفلة . وضحك الأجنبى ، وابتسم المستشار ، وسخر الدهر من جديد !

ولهذا كله كانت صفحات هذا الكتاب منبراً فصيحاً ألقى الأمير شكيب عليه عظة وعبرة ، سكبها من مداد قلبه حباً للعرب ، وإخلاصاً لماضيهم ، وإشفاقاً على مستقبلهم فقال : « فلا يكونن دائماً من شأننا أن نتباهى بمجد الأوائل ، ونفاخر بالعظم الرميم ، دون أن نقتفى أثر الآباء ، ونحيي ذكر القديم » .

وهذه الدروس حرية بالنظر بليغة واعظة ، فهو يقول[١] : « من المعلوم أن العرب كانت تنقسم فى أكثر الأحيان إلى قيسية ويمانية ، وتقع بين الفريقين

(١) الحلل ، ٤٥٦/٣ .

الوقائع . وطالما كانت هذه المنافسة من عوامل انحطاط العرب ، وتغلب الأعاجم عليهم . ولما مات يزيد بن معاوية بايع الناس فى مكة وفى أكثر البلاد لعبد الله ابن الزبير . وكان له فى الشام أيضاً أنصار أشهرهم الضحاك بن قيس ، ولذلك كانت القيسية فى الشام مع ابن الزبير ، مما حمل اليمانية أضدادهم أن يتحيزوا لمروان بن الحكم غيظاً بالقيسية ، واشتدت الفتنة ، وانتهت بواقعة مرج راهط فى غوطة دمشق ، فانهزم القيسية ، وقتل ابن الضحاك وكثير من فرسان قيس ، وتأيد على أيدى اليمانية ملك بنى أمية .

وكأن الله جعل لبنى أمية حظ الغلبة على أيدى اليمنيـــة فإنه لما دخل عبد الرحمن الداخل الأموى إلى الأندلس ناوياً اقتطاعها من ملك بنى العباس وقاومه يوسف الفهرى عامل هؤلاء على الأندلس ، قام القيسية فيها بنصر الفهرى وخالفهم اليمنية إلى عبد الرحمن بن معاوية ونصروه نصراً مؤزراً ، وكانوا السبب فى استتباب ملكه . فكما كانت اليمن هى السبب فى استقرار ملك بنى أمية فى الشرق كانت كذلك السبب فى تأييد دولتهم فى الغرب » .

ثم يصف ما كان يقع بين هؤلاء وهؤلاء فى الأندلس من تزاحم وتباغض ، فكأنه يريد أن يقول إن القبلية هى التى دفنت وحدة العرب وأودت بأمجادهم ، وأنها تودى بهم إذا عادوا إليها فى شكل حزبى أو سياسى أو أى شعار مما قد تولده الحضارة الحديثة .

ولم يتح للمؤلف أن يصف نزوح العرب عن البلدان الأندلسية الباقية ، فبسط فصلا واحداً من المأساة المبكية ، وبقيت فصول وعد أن يفى بها فى الأجزاء الباقية ، ولكنها لم تر النور حتى الآن . فلعل أحد العلماء ينهض لطبع الأجزاء إن كانت موجودة ميسورة ، أو يقوم بتأليف كتاب على غراره يكمل به ما بدأ شكيب ، حتى نهاية العصور الأندلسية . وإننا لنرجو أن تعمد الهيئات الثقافية على تلخيص هذا الكتاب ، ووصف النكبة كاملة ، وأن تطبعه طباعة ميسرة موجزة ، ليكون فى أيدى أبنائنا من الشباب الصاعد ، يتعظ بما فيه لعله يحتفظ بالوحدة ، فالتاريخ درس كبير لمن فهمه ووعاه ، والتاريخ كثيراً ما يعيد

نفسه . ومع ذلك فنحن نجد فى هذا الكتاب الكبير نقائص واضحة على محاسنه التى ذكرنا . وهذه النقائص كانت لأكثر المؤرخين منذ خمسين سنة ، فقد كانوا ينقلون المصادر إلى كتبهم مصدراً بعد مصدر ، فتتكرر الأحداث والأوصاف والأعلام ، وتعاد الآراء فى شكل أوضح أو أقل وضوحاً ، ولكنها متلاحقة ، لم يستصف منها كاتبها زبدة القول ، ولم يوازن بينها ، ولم يستخلص منها بلغة العصر ما يجب أن يستخلص ، وأن يقرب ما فيها إلى الأذهان وأن يحذف التفصيلات الدقيقة ، فربما كانت هامة فى نظر المؤرخ العالم ، ولكنها تبدو غامضة فى نظر القارئ المتعلم . والتاريخ القومى يجب أن يكتب للناس لا لعلية القوم والمتخصصين . ولعل الأمير قصد العلية فى كتابه هذا ، فحشر كل ما جاء عن الأندلس فى كتب الغرب والعرب – كما قلنا – وأصبح كتابه معرضاً لجغرافية هذه الأقاليم والبلدان ، جمع كل ما قيل فى الموضوع . والناس يحتاجون إلى أهم ما يقال فى الموضوع .

ونحن إنما ننقد بروح هذه الأيام ، ونطالب رجال المدرسة الماضية بما يجب أن يأخذ به رجال المدرسة المقبلة ، وفى هذا غلو لطلب الكمال ، والحق أحق أن يقال .

الفصل السادس عشر
فى خدمة الوحدة العربية

الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف
(الرحلة الحجازية)
١٩٣١

رأينا أن الأمير شكيب يحب الرحلة ويستمتع بها ، ويسطر أثرها فى نفسه ، ويرسم مشاهدها لإخوانه وقرائه ، لعلهم يستمتعون بما ثار فى قلبه من خواطر وما جرى على قلمه من صور ، وما طاف حوله من معلومات ثمينة ، فلم يكن الأمير يقنع بما يرى وما يسمع ، وإنما يضيف إليهما ما كان يقرأ حول موضوعه ، فهو واسع الاطلاع ، دائم المطالعة ، كثير الإلمام بكتب الأقدمين ، لذلك كان فى كتبه ينقل قراءة من مشاهداته إلى مشاهدات من قبله ، ويطوف بهم بين أقوال الرحالة والمؤرخين القدماء وبين أقواله ، ويعتمد على المراجع اعتماداً كبيراً ، فتغدو كتاباته فى هذا الباب كأنها جامعة بين القديم والجديد ، وكأنها من صور الأدب الرائع ، والتاريخ الجامع ، والتحليل الاجتماعى ، فهو تلميذ لابن خلدون ، معجب به أشد الإعجاب — كما قلنا فى غير هذا المكان — لا يكاد يلم بالتاريخ حتى ينتقل إلى حال الشعب ، فيصور عيشه ومرافقه الحيوية ، ويرسم حاضره وماضيه ويخطط لمستقبله ، فيفرش الآمال والأمانى أمام قرائه .

ورأينا أن أكثر رحلاته انقلبت من مقالات إلى تآليف ، فخرجت فى كتب ألمعنا إليها ، ووقفنا عندها لنرى أثر الرجل فيما كتب وأثره فيما جمع للمتأدبين

والمثقفين . ورحلته الحجازية هذه جامعة لصفحات التاريخ والجغرافية والاجتماع ، على أساليب القدماء ، لا نكاد نرى فيها تبويباً ملحوظاً ولا نحس فيها وصفاً لرحلة فحسب كما فعل الرحالون قبله ، فهو يهدف إلى غرض بعيد ، هو نهضة العرب ويقظتهم وإنعاشهم ، وبث الحمية فيهم للتخلص من استعمار الأجنبى ، وللعمل على رفعة ربوعهم والسعى إلى وحدة عربية شاملة . وأكثر الكتب التى تظهر نفسية الأمير فى العمل لوحدة العرب هو هذا الكتاب . فقد أثار فيه مشاكل العرب الاجتماعية والسياسية ، وتحمس للإصلاح ، فظهر على لسانه ما كان قد تشربه منذ صباه من تعاليم الإمام جمال الدين الأفغانى ، وتلميذه محمد عبده .

وكان فى الظن أن يدور على لسان شكيب فى هذه الرحلة الحجازية أمر الإسلام والمسلمين فحسب ، ولكنه أضاف عبارات العروبة والعرب ، فى الأرض المباركة وفى مهبط الوحى . فوقف يدعو إليها ملوك العرب أجمعين ، لا يخص أميراً أو ملكاً أو يبايع واحداً دون واحد ، بل يقتصر على العروبة وعلى خير المسلمين . وقد كان موضع التكريم والإكبار والحفاوة عند مليك العرب فى الجزيرة عبدالعزيز ابن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ، فتوج كتابه باسم جلالته « عرفاناً لقدر العدل الذى وطد فيه دعائمه ، وناط بالإجراء مواثقه ، وابتهاجاً بالملك العربى الصميم الذى صان للعروبة حقها وللإسلام حقائقه[١] » ، ثم عطف بعد ذلك على ملوك العرب فدعا لهم بالتوفيق قائلا : « ولا سيما الملكين الهمامين ، الفاضلين الكاملين ، المعاهدين المجاهدين ، المتوكل على الله الإمام يحيى بن محمد حميد الدين صاحب اليمن ، والملك فيصل بن الحسين صاحب العراق والرافدين ، أدام الله توفيقهم جميعاً لما به حفظ تراث الأمة العربية ، وإبلاغها المقام الذى تسمو إليه نفوس العرب الأبية » . وقد أوردنا هذه السطور لنقف القارئ على ما كان من شعور الرجل نحو العرب فى هذه الفترة . فقد رحل سنة ١٩٢٩/١٣٤٨ إلى الحجاز ، وراح يكتب ما يرى

---

(١) الارتسامات ص ٥ .

ويصف ما يشاهد ويرسل ذلك فى مقالات إلى صديقه محمد على الطاهر لتنشر فى جريدة « الشورى » ثم رأى أن يكملها وأن يجمعها فى كتاب فأتمه فى لوزان « ٥ ذى الحجة الحرام سنة ١٣٤٩ » وبعث به إلى صديقه محمد رشيد رضا ، فجعله فى هذا الكتاب بعنوان : « الارتسامات اللطاف[1] فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، وهو الرحلة الحجازية لأمير البيان ونادرة الزمان الأمير شكيب أرسلان» .

وقد قدم للكتاب الأستاذ محمد رشيد رضا فى صفحات جميلة كذلك هى من طيب البيان والوصف ، فامتدح بيان الأمير شكيب قائلا : « ومن ذا الذى يطمع فى لحاق أمير البيان فى مثل هذا الميدان ميدان التاريخ وعلم الاجتماع والعمران ، وما فيه من عبر السياسة فى هذا الزمان ، ولا سيما سياسة الأمة العربية والإسلام » . وكان الأستاذ رشيد رضا يدعو لمليك الحجاز ويطيل فى مديحه ويرى فيه أملا من آمال العرب ، فوقع الكتاب من نفسه موقعاً عظيماً ، وطرزه بحواشيه وأسال فى أطرافه جملة ملاحظات نافعة . وذلك لأن الأمير فى هذه الفترة كان فى الذروة من فهم العرب والعروبة ، فقد جاوز السابعة والستين من عمره ، ونضج علمه وسمت خبرته ، فراح يتحدث عن قومه العرب بأجلى بيان ، ووافق ذلك هوى المصلحين لعهده والساسة لزمانه ، فساروا وراءه وعمت شهرته ، وماتت الألسنة الحاقدة التى كانت ترى فيه داعية للعثمانيين ، ولم تفهم مراميه البعيدة مما شرحناه فى رسم حياته .

وقد كان الأمير يتوق إلى أداء فريضة الحج ، ولكن العوائق والموانع كانت تحول دون أمانيه ، فلما يسر له الله ذلك ، قصد من لوزان إلى إيطالية ، ومنها ركب البحر إلى بور سعيد ، ثم أبحر إلى الحجاز ، ودخل جدة ثم البلد الأمين فبادر إلى البيت العتيق بالطواف ، وقام بمناسك الحج على أوفى ما يصنع المسلمون .

---

(١) نشر بمطبعة المنار فى ١٩٣١ ، فى ٢٨٤ صفحة .

ووصف الأمير الأديب ما شاهده خلال هذه الرحلة ، فبدأ بالباخرة والبحر ، ورسم المرسى فكأنه غاب انتثرت فيه البواخر بل كأنه هامبورغ أو نيويورك لكثرة البواخر . ثم صور مناظر الماء بألوان جميلة جعلناها من ألواح الأدب الجميل في الفصول السابقة . وذلك لأنه يوازن دائماً بين ما يراه في بلاد العرب وما رآه في الغرب فيطير بخياله إلى أجمل الربوع الأوربية ليصطاد صورها ثم يعود ليفضل بلاده العربية ، وقد غلبه الحنين واستبد به الحب والشوق ، وطارت نفسه فرحاً لحريته[١] فقال « شعرت أني حر في بلادي وبين أبناء جلدتي لا يتحكم في رقبتي المسيو فلان ولا المستر فلان إلخ . . . بحجة انتداب أو احتلال أو سيطرة أو حماية أو وصاية ، أو غير ذلك من الأسماء المخترعة التي يراد بها تنعيم مس (الفتوحات) وتخفيف مرارتها في الأذواق » . ويستمر الأمير في رسم « شعوره القومي » كما سماه ، فيصف هذه الحرية وهذا الشعور وصفاً عظيماً لا يكاد يدانيه وطني عربي في الحب والتقديس ، فكأنه درس من دروس القومية العربية يلقن لأبنائنا على لسان كاتب كبير ذاق الغربة وشرب مرارتها ، فلما حل في بلاد مستقلة عربية راح يغني حريتها وكرامتها فيقول[٢] :

« شعرت في الحجاز أني تظللني راية عربية محضة حقيقية ، لا راية مشوبة بشعار أجنبي ، ولا راية ليس يسير من تحتها جند عربي إلا ما كان من قبيل مرتزقة أو مستأجرين تحت قيادة من لا يرقب في هذه الأمة إلاً ولا ذمة ، وإنما ينظرون إليها كطعام للأمم التي تدعى عليها الوصاية » .

وكان الأمير لا يستطيع أن يدخل بلداً عربياً إلا بلاد الحجاز ، فحمد الله على زيارته لها مستقلة خالصة من شوائب الاستعمار ، بعيدة عن الامتيازات الأجنبية وقيودها . وحمد الله كذلك على اجتماعه بابن سعود فقال فيه[٣] : « الملك الأشم الأصيد ، الذي تلوح سيماء البطولة على وجهه ، والعاهل الصنديد الأنجد الذي كأنما قدّ ثوب استقلال العرب على قده ، فحمدت الله على أن

---

(١) الارتسامات ص ١٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ١١ ، (٣) المصدر نفسه ص ١٢ .

عيني رأت فوق ما أذني سمعت ، وتفاءلت خيراً في مستقبل هذه الأمة .

« لا أقصد في إعجابي هذا بشخصية الملك ابن سعود تنقص أحد من ملوك العرب الآخرين ، ولا التعريض بأي ملك أو أمير ينطق بالضاد بل نحن نتمنى تأييد الجميع وتسديد الجميع » وهذا وصف دقيق لموقفه بين ملوك العرب لا يفرق بينهم ، ثم يلمح إلى أن الناس يطلبون من الكاتب كره فلان من الملوك وحب آخر ، ولكنه يقول إن شرطاً كهذا ليس من الإنصاف في شيء .

ويصف الأمير دعوة الملك واصطحابه يوم وصوله إلى البلد الأمين « مكة » ، فوصف الطريق والحجاج كخيط غير منقطع ، والجمال تتهادى تحت الشقادف والبعد بين جدة ومكة آنذاك أربع ساعات .

وفي « مكة » أرخى شكيب لخياله العنان فوصف ذلك الفردوس الأرضي ، وصفاً رائعاً ، فهو مهبط الوحي ، كساه الله ثوباً من ثياب القدسية والروعة ما لم يكس مثله ، فأعاره الخلود والنعيم ، على أنه في واد ضيق ذي شعاب متعرجة ، تحيط به جبال جرداء صخرية صماء لا عشب ولا ماء ، يشتد فيه الحر حتى ما يطيق الإنسان ناره ، فيقول : « فبقدر ما أفاض الله على هذا المكان من الشعاع المعنوي قضى بحرمانه من الحلية المادية » . ولكنه على ذلك تهوى إليه أفئدة المؤمنين ، ويوفض إليه المسلمون « كأنما يوفضون إلى أنزه بقاع البسيطة وأطيبها نجعة وأكثرها خيراً وميراً . وتجد قلوبهم في الرحلة ملأى بالفرح ، لا يكادون يصدقون أنهم مشاهدوه من شدة الوجد وغلبة الهيام ، حتى إذا شاهدوه فاضت العبرات ، وخفقت الجوانح وتمايلت الأعطاف ، وانتقل الناس إلى عالم تكاد تقول إنه غير هذا العالم » .

أجل ، إن للأرض قدسية وروعة تفيض من الشعور بالإيمان ، فلا الشجر والماء ولا العطر والهواء ، ولا جمال الطبيعة كلها لتؤثر في هذا الشعور ، وذلك لأنها أشياء خارجية لا تستطيع أن تستبد بالقلب كما يستبد الإيمان والحب . وذلك دليل على أن الطبيعة ليست بالجمال الذي تحويه وإنما بذكرياتها العاطرة ، والمفاخر الدائرة ؛ فجمال الجماد شيء غير جمال الذكريات في الفؤاد . وهذه

الأرض شهدت نوراً طمس الظلام ، وجمالا محا اليبس والإقفار ، وعرفت ولادة رجل قاد أمة إلى الخير فارتفعت على كل أرض وسمت على كل صخر ونبتت فى أطرافها مشاعر الحب والقدسية فغلبت النفس وغمرتها ، وشاع فيها الجمال والكمال وانسكبا فى كل زاوية ، ووقعا فى كل طرف ، لا يراهما الحاج إلا من خلال قلبه العميق وشعوره الدفين ، فترى العين الخاشعة ما لا ترى العين الجامدة .

ومع هذا الإقفار يقول شكيب أن المجلوب إلى مكة من أصناف الفواكه والخضروات يفوق ما يجلب إلى عشر مدن من أمثالها فى عدد السكان ، ففيها ما ليس فى البقاع التى تشقها الأنهار وتظللها الأشجار ، ولا يكاد الحاج يشتهى شيئاً الا وجده فى هذه البلدة القاحلة . وحول مكة من المزارع والمباقل والمطابخ ، وفى جبال الطائف من الجنان والبساتين والكروم ما لا يأخذه العد ، وهى تفيض على البلد كالسيل المتدفق أو العارض المغدق .

فإذا كان هذا أمر الثمار والفواكه ، فأمر الماء أعظم ، وهو يجلب إليها كما تجلب الخيرات الأخرى ، وزبيدة زوجة هارون الرشيد أسالت عيناً تبعد نحو أربعين كيلو متراً ، فسقت وروت واستنطقت الألسن بالرحمة والدعاء . وهذه الماء ساقتها فى قناة يصفها شكيب فيقول[١] : « وأما علو سقف القناة ففى بعض الأماكن يقدر أن يمر فيها الفارس راكباً ، وفى غيرها لا يقدر أن يمشى فيها إلا الراجل » . وقد أنفقت زبيدة على هذه العين مليون دينار صرفتها فى سبيل الله وفى سبيل عباده .

وذكر شكيب أن ابن سعود زاد سبل الماء فى مكة ومنى فأزاح جانباً كبيراً من العلة . وأسس معامل للثلج فقضى على الظمأ والحر . ويقول فى وصف فصولها الأربعة إنها تنحصر فى فصلين[٢] : « أحدهما الشتاء وهو فى غاية اللطف وكأنه فصل الصيف فى أعالى لبنان . والثانى فصل القيظ المصادف ما يسمونه

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

بأشهر السرطان والأسد والسنبلة ، وهو فصل قد تصعد فيه الحرارة فى الظل بميزان سنتيغراد إلى الدرجة ٤٥ وإلى ٤٩ . وفى الليل يتعذر النوم حتى على سطوح المنازل . فإن الذى يبقى لاصقاً بتلك الصخور من لعاب الشمس يكفى لتسخين صفحة الليل إلى أن ينبلج الصبح » وهذا وصف بارع بعبارة رشيقة تنسال أبداً على قلم الأمير فى هذه الصفحات حتى ليرتفع الكتاب إلى مستوى الآثار الأدبية الرائعة . وهو واسع الفهم حسن التفسير للعبادات يثير قضايا هامة فى شأن الحج وغير الحج ، فيدعو المسلمين خلال هذا الموسم إلى اتقاء ضرر الحر باتخاذ مظلات يجتنبون بها ضربة الشمس ، فلا مبرر للانتحار — على حد تعبيره — ويدعو الحكومة إلى حفر آبار ارتوازية فى طول الصحراء وعرضها ، وبناء القنوات والصهاريج وإلى غرس حفافيها بالأشجار والرياحين ، فتتدلى الأفنان وترف الظلال وتخف حرارة الشمس ويلجأ الحجاج فى مثل هذه الأيام العصيبة إلى ظل ظليل وهواء بليل . ويضرب الأمثال بما صنع الأوربيون فى بلدان كثيرة من إفريقية وآسية ، فأسالوا المياه وغرسوا الأشجار وأزالوا الغبار ، وذلك لأنهم « سألوا العلم فأجابهم ، واستدروا ضرع الفن فجاد عليهم ، واعتصموا بحبل الثبات فأورثهم الثبات نباتاً ، وتغلبوا على الطبيعة وخففوا بأسها ونعموا حرشها ، ونحن باقون على ما كنا عليه فى القرون الوسطى أو قريب من ذلك ، نجد كل تغير بدعة وكل بدعة ضلالة ، وننسى أن من البدع بدعاً مستحسنة لابد منها ، وأن الضلالة كل الضلالة هى الجمود على القديم الذى لا قوة له إلا حكم العادة[1] » .

ونحن نرى فى هذا الأسلوب نعومة وذكاء فى النقد والتوجيه والسير مع التقدم واللحاق بركب الحضارة الغربية ، وموازنة نافعة لحاضر العرب بحاضر الغرب . والأمير شكيب تقدمى — على حد تعبيرنا اليوم — يساير الزمان الذى يعيش فيه ، ولا يطيق الجمود بحال من الأحوال ، على شدة تعلقه بأدبنا القديم وتاريخنا العريق . فهو يسرد صفحات وصفحات من مصادرنا القديمة عن وصف هذه

---

(١) المصدر المذكور ص ٢٣ .

الربوع ، ثم يصف الحاضر فينقل إلينا من مشاهداته الجميلة ما يبز صحائف القدماء ، فيلح على الحر الشديد ، ويلح على إيجاد الماء والخضرة فى هذه الأراضى المباركة ، ويحب أن يرى مواطن أهله فى روعة تقف لمرابع الغرب فيشيد بضرورة الحدائق لبلادنا ويقص ما رأى فى أوربة من ذلك فيقول[1] :

« ولقد وجدت مرة فى رومية فى فصل القيظ ففررت منها إلى بلدة تيفولى على مسافة ساعتين من رومية فى سفح الجبل، ونعمت من النهر العذب الفياض المنحدر من هناك ، وبشلالات ذلك النهر وبحيراته وحياضه بما لا أنساه طول حياتى . وإنما كانت درجة الحرارة البالغة ٣٤ هى التى توحى إلى تلك المحاسن التى رأيتها على نهر تيفولى وتنطقنى بهذه الفقر الشاعرة فى وصفها » .

وللأمير أن يرجو لقومه ما يستمتع به الغرب من هناءة وجمال . فعاصمة الطليان يشتد بها الحر حتى تضيق به الأنفس ، ويهب القوم إلى البحيرات وإلى تيفولى يستبردون ، فإذا فى تيفولى أعمدة من الماء تنهض إلى السماء وشلالات تنحدر من أعلى القمم ، والنور يتخلل الماء فيسكب الألوان الزاهية الساحرة ، ويعيش المرء على مقربة من رومة فى جنان يلعب فيها النور والظل ملاعب السحر فى العيون والموسيقا فى الآذان . ويد الإنسان التى أبدعت حول رومة ما أبدعت هى يد الإنسان التى تستطيع أن تبدع مثلها حول مكة والطائف إذا ما تولت إلى العمل والإنتاج وطرح الكسل . وهذا ما كان يحز فى نفس شكيب خلال حياته كلها ، يرى نعيم الغرب فيتمنى للشرق مثله ، ليصبح قومه مثل قومهم سواء بسواء ، بفضل الحضارة والسعى والعمل المنتج المثمر . وهذه وطنية صادقة وحب عميق للأرض الطيبة التى أنبتت حضارة دوت فى الدنيا القديمة ، وتنتظر أن تعود ثانية لتدوى فى القرن الحاضر مثل دويها القديم . فقد قامت « زبيدة » بعمل عظيم فى مشروعها لعصرها وهى امرأة ، فلم لايقوم الرجال فى عصرنا لمثل عملها ؟

وما يفتأ شكيب يقلب فى هذا الكتاب ألوان الوصف الجميل ، فيعرض

(١) المصدر نفسه ص ٣٨ .

علينا سحر المناسك ، ويرسم مواقف الحج ، ويصف الوقوف فى عرفات[١] فيقول : « ما أنس لا أنس منظر عرفات ليلا ، فهو من أبهج ما ارتسم فى خاطرى من مناظر هذه الدنيا الفانية مع كثرة ما شاهدت فى حياتى ، وما تقلبت فى الأمصار والعواصم » ويستعين بوصف ابن جبير الأندلسى حين زارها ، ويعلق على قوله بمثله روعة وإبداعاً ، لينتهى إلى أن الإسلام دين العمران ، وهو برئ من تبعة الانحطاط الذى عليه المسلمون الآن . فقد نهض بأهله إلى الدرجات العلى عندما كانوا يعملون بمقتضاه حق العمل . « وإنما كان المسئول عن هذا الانحطاط المسلمون لا الإسلام ، والقراء لا الكتاب ، والحملة لا المحمول ، والخزنة لا المخزون ، وهؤلاء هم الذين فقدوا الممالك وخسروا المجد القديم ، وجنوا هذه الجناية على الشريعة الإسلامية ، والمبادئ القرآنية والآداب العربية والثقافة الشرقية . وجعلوا كل أولئك مسئولا عن أمور لا مسئول فيها غير الأشخاص فى الحقيقة ، ولا مجرم غير الخلف الفاسد الذى أضاع الصلاة واتبع الشهوات ولقى الغى[٢] » . وطبعى أن يقول شكيب هذا القول فى مهبط الوحى ، وقد رأى جمال الحج وعظمة شعائره ، وجميل حكمته فى لم الشمل ، وتحقيق الوحدة العربية . وقد خص ذلك برسالة تحدثنا عنها فى غير هذا المكان وبسط فيها أسباب الانحطاط عند المسلمين المعاصرين . وألمع عنها هنا فبسط جهاد الملوك والأمراء والوزراء فى خدمة الأمة الإسلامية ، ووصف مشاريعهم وأعمالهم فى المشرق والمغرب ، فعرض لقرطبة وإفريقية والنيجر والسودان وأمر العمران فيها على أيدى المخلصين لعروبتهم وإسلامهم ، ليضرب الأمثال فى العمل والسعى المنتج .

وهكذا يستطرد شكيب فى كتابه كما يستطرد فى كتبه كلها فتسوقه الفكرة إلى أفكار ، وتدفعه العبرة إلى الاعتبار فيسوق التواريخ ، ويمضى إليها فى صفحات تكاد تقطع خيط الوصف وتسلسل الرسم . وإنما هى خواطر سجلها ، لا رحلة وصفها وصفاً يوماً بعد يوم كما يصنع الغربيون من الكتاب .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤١٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

ويعود شكيب إلى رسم الحج بعد هذا الاستطراد ، فيصف المزورين والمطوفين ، وأثرهم فى هداية الحاج ودلالته على طريقة الحج ، فأكثر الحجاج جهلاء لا يعرفون من أمر الحج ما يجب أن يعرفوا ، لذلك بسط الرجل أياديهم وذكر فضلهم ، وتطرق إلى الحجاج من الفقراء فرأى أنه ليست عليهم فريضة حج فهم يحملون أنفسهم إصراً لا قبل لهم به ، ويعيشون من أكياس رفاقهم ومن أكياس أهل الحجاز ، وقد يصيرون عالة على المطوفين أنفسهم . ويقترح شكيب أن تؤسس مدرسة خاصة بالمطوفين والمزورين ، لينتظم أمر الحج ، ولنزيد فى فائدة هؤلاء الرجال الذين يقومون بالدعاية للحج خير قيام ، فهم ينقسمون بحسب المناطق ، ويتكلمون لغات أهلها ، ويعرفون عاداتهم وتقاليدهم ويجرون فيها على أحدث ما يجرى عليه التراجمة والأدلة فى البلدان الراقية .

وقد أصاب شكيباً مرض أقعده وألزمه الفراش ، وذلك لشدة الحر ، فهو قد ألف جو سويسرة خلال سنين ، كان يقضى صيفها متنقلا من قنة جبل إلى قنة جبل ، ومنها ما يعلو عن سطح البحر ٢٠٥٠ متراً ، وكان يرتادها صيفاً وشتاء ، فيألف البرد . فلما وقع فى إقليم حرارته بين الأربعين والخمسين لم يتحمل شدته ، وزاد على ذلك هجوم البعوض فى الليل ، يطاردها وتطارده ، حتى ضاق بها وكاد يختنق ، وهرب عنه النوم ، ووقع فى أسر المرض والضعف . فلجأ إلى الطائف ولبث فيه أربعة أشهر على علو ١٦٠٠ م ، فرأى فيه ما رأى معاوية ابن أبى سفيان حين قال : « أنعم الناس عيشاً من يقيظ بالطائف ويشتو بمكة ويربع بجدة » . وذكر أن أراضى الطائف شامية فى فواكهها وثمراتها وعذوبة مائها وبرودة هوائها ، وتطرق إلى تاريخها ، واستطرد فى النقل عن القدماء والمحدثين على عادته فى تاريخ الطائف وفى عمرانها قبل الحرب وبعدها ، وفى النقوش التى بها ، وتعرض للأمن فى بلاد ابن سعود ، وأفاض فى رواية ما سمع وما رأى ، وتمنى لهذه البلاد الخير ، واندفع ثانية وثالثة يدعو إلى إعمارها بالجنائن ويصف ما حول مكة فيقول[١] : « ولقد رأيت على مقربة من مكة

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٥ .

وادى فاطمة الممتد إلى وادى الليمون مسافة خمس عشرة ساعة ، فرأيت جنة من جنان الله فى أرضه لا تفضلها بقعة لا فى الشام ولا فى مصر ولا فى العراق » وذلك ليبرهن أن هذه البلاد يمكن أن تصبح خير بلاد العرب بالعناية والرعاية ، وعلى رأس ما يمكن أن يصنع فيها مد الخطوط الحديدية ، فهى واسطة الوحدة بين بلاد العرب ، فقد قال كافور إن الشرط الأساسى لوحدة إيطالية ربط جميع أجزائها بالخطوط الحديدية ، فأتمها ، وكانت على يديه الوحدة الإيطالية .

وشكيب هنا بعيد الهم واسع الفكر يرمى إلى وحدة العرب عملياً فيقول فى هذه السن بعمل خط حديدى يسير بين ربوعهم النائية ليوحد بينهم[1] : « فإن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة مهما عارض فى ذلك اللئام من أعدائها ، والمتفسلفون من أبنائها ، وإن هذه الوحدة آتية لا ريب فيها ولو بعد مائة سنة أو أكثر » . وقوله هذا يقطع الألسنة التى تكلمت فى شكيب ورمته بالتهم ، لأنها لم تقرأ ما يكتب ، ولم تفهم مراميه البعيدة وآراءه السديدة .

ولو عاج العرب إلى وصف الأمير لهذه الربوع جبالها ووديانها وعيونها لعرفوا أى حب كان يكنه الرجل للأرض العربية وأى شوق يدفعه إلى إعمارها ورقيها ووحدة أهلها . فهو يصف وادى العقيق على أجمل ما وصفه الواصفون من الشعراء ، ويصف جبل سلع وهو مشرف على المدينة تعلو ذروته (٣٠٠٠) م ، ويقترح أن توضع عليه مرقاة للصعود إليه وتحويله إلى متنزه يعز نظيره فى الدنيا . وهو يستوحى ذلك كله مما رآه فى سويسرة وفى جنيف خاصة من مراق ومصاعد .

وقد أعجب الرجل بهذه البلاد إعجاباً لا حد له ، دفعه إلى الإيمان بقدرتها على تحرير العرب والعودة إلى انطلاقة جديدة تشبه الانطلاقة الأولى لتوحيدهم وجمع صفوفهم ، فهو يدعونا إلى أن نهب إلى الجزيرة فنجعلها : « الكهف المانع ، والأصل الجامع ، ونستخرج كل ما فيها من عيون الحياة الكامنة حتى تصون نفسها ، وتنجد أخواتها التى انبسطت عليهن أيدى الاستيلاء الأجنبى ،

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ .

وأصبحن لا يملكن لأنفسهن أمراً ، فتزحزح عنهن هذا الرق الذى يرسفن فى قيوده ، وتتم بذلك الجامعة العربية التى هى نكتة المحيا ونشيدة آمالنا فى هذه الدنيا . ويجب أن لا ننسى أن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله(١) » .

ولعلنا نؤمن بعد هذا بأن الأمير شكيب كان رائداً من رواد العرب وقائداً عظيماً من قوادهم إلى الجامعة العربية وإلى الوحدة العربية منذ ثلاثين سنة ، عبر عنها بصراحة اللفظ ، ودلالة الكلمة ، وحرفية العبارة ، فخيب ظنون أعدائه ، وأخرس ألسنة حساده ، وبرهن لقومه العرب بأنه من أوائل من نادى بهذه الوحدة وهذه الجامعة قبل أن تولد فى الإسكندرية عملياً . وقبل أن تتحدث عنها الألسنة بها تحدثت به . قال بها فى أم القرى مكة وقد حل فيها برهة من الزمن ، فكان شبيهاً بالسيد عبد الرحمن الكواكبي الذى تخيل ولادتها فى مكة قبله بثلاثين سنة ، فتساند الزعيمان المصلحان العظيمان فى الرأى والتفكير ، ولكن الاستعمار كان صاحب الرأى المسموع يلقن أبناءنا ما كان يريد أن يلقن ، فيخدع به أبناؤنا ، ويرمون زعماءهم بالكفر والإلحاد والخيانة والمروق من العروبة ، وزعماؤنا براء من التهم يحاربون على جبهتين ، دعايات المستعمرين ومقالات المخدوعين من قومنا ، والزمان كفيل بإظهار الحق مهما حاول طمسه هؤلاء المستعمرون .

وشكيب فى هذا الكتاب يرسم لقومه وسائل الاستقلال والوحدة ، فيدعو إلى إبعاد الشركات الأجنبية عن استثمار خيراتنا لئلا تنشب هذه الشركات مخالبها فى الدنيا العربية فيقول(٢) : « والأفضل أن نكون فقراء أحراراً ، ولا نكون أغنياء أرقاء . . . ولن نكون أرقاء وأغنياء أبداً ، لأن الثروة لا تجتمع مع فقد الاستقلال ، وهاؤم أهل المغرب والجزائر وتونس ، عندهم من معادن الفوسفات وغيرها ما يقوم بالمليارات ، وليس بأيديهم منه شيء حتى كأن ذلك ليس فى

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

أرضهم » ، فعلى المسلمين أن يستثمروا معادنهم وخيراتهم على أيدى متمولين منهم ، ففى جزيرة العرب أنهار من التبر كما قال اليونان عنها ، وفى استغلالها خير لشعبنا العربى ، يقوى به جيشه ويصلح إدارته ويبث العمارة فى بلاده . وفى البحر الميت ما يستخرج منه ما قيمته خمسة آلاف مليار جنيه ، وعشرون ألف مليون طن من الفوسفات .

وقد أورد شكيب حججه وأدلته من بطون الكتب القديمة والحديثة ، وسرد أماكن المعادن والثروات فى جزيرة العرب ، ودعا إلى استغلالها فى سبيل الوحدة العربية وانطلاقها – كما قلنا – من جديد عن هذه الجزيرة : « لأنها هى دار العروبة وعقر الأمة الناطقة بالضاد ، والمركز الذى تفرقوا منه إلى سائر البلدان ، والملجأ الذى يلجئون إليه إذا نبا بهم الدهر وأديل من المد بالجزر . وحسبك أنها هى أيضاً دار الإسلام ومبعث الدين ومهوى أفئدة المؤمنين . وأن فيها المثابة التى تخفق عليها قلوب ثلاثمائة وخمسين مليون نسمة من العالمين ، وهى البيت الحرام – حماه الله – مركز الحج ، ومقصد المسلمين من كل فج ، فلا يوجد مسلم على وجه البسيطة إلا وقلبه مشغوف بهذا البيت وجواره ، مشغول بنصرة حماته وعماره[١] » . وهذا قول صريح فى حب العرب والإسلام ، وفى الدعوة إلى الإصلاح والخير والعمل على الاستقلال والوحدة ، يلح فيه شكيب على ثلاثمائة صفحة يردده ويعيده بحرقة وإيمان وإخلاص ، لا تترك بعدها قولا لهامس أو لامز .

وهو إلى ذلك يؤكد أن المسلمين من كل قطر تحج أفئدتهم إلى الجزيرة وإلى وحدة العرب والمسلمين فيقول[٢] : « ولقد صادفت كثيرين من مسلمى الأمم غير العربية – أذكر الآن منهم كثيرين من أعيان التتر وفضلائهم لقيتهم فى موسكو بعد صلاة الجمعة – فرأيت من اهتمامهم بأمر الجزيرة العربية والحجاز الشريف واحفائهم فى الأسئلة عنه ، وتواجدهم الشديد ما لا يمكن

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ ، وذكرنا أنه زار موسكو بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة .

أن يكون أكثر منه عند العرب أنفسهم » . ولعله يريد أن العرب حين يجتمعون على الوحدة ستدعمهم الأمم الإسلامية والمسلمون من كل صقع حتى فى أقصى موسكو .

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه فى صدر هذا الفصل من أن الأمير شكيب دعا فى هذا الكتاب إلى الوحدة العربية صراحة ، وتحدث عن جامعة عربية ، ورسم الطريق إليها ، وحث على العمل لها مستوحياً من هذه الأماكن المقدسة ، مقتبساً من هدى الرسول ومن جلائل أعماله فى جمع العرب على صعيد واحد والسير بهم قدماً إلى السلام والأخوة والقوة ودفع الاستعمار والذل عمن كان فى كنف الرومان أو كنف الفرس ، حتى إذا تم النصر وقفوا جميعاً تحت راية واحدة لإعلاء شأن الحضارة ورفعة الإنسانية . ولعل مثل هذه الأقوال وقع فى كتب شكيب مراراً ، ولكنه لم يقع فى مثل هذه القوة والتخطيط كما وقع فى هذا الكتاب وهو يرسم الديار المقدسة ويصف مهبط الوحى ، ويتحدث عن الجزيرة . ولعله كان يحس ما يتحدث به قومه عن سعيه قديماً للعثمانية وللخلافة الإسلامية ، فتحدث عن عبد الحميد وعمله لتيسير الخط الحجازى وخدمته للإسلام والعرب فى تقريب أقطارهم وتوحيد شملهم ثم قال[1] : « ولكن العثمانية قد ذهبت وذهبت وحدتها وانطوى بساطها . وأما العربية فلن تذهب ، ووحدتها لن تزال نشيدة آمال العرب ، وإن من أركان هذه الوحدة وأعمدتها الكبرى هذا الخط الحديدى الذى لا يقف الإنكليز والفرنسيس فى وجه استئناف اتصاله بالشام وفلسطين إلا خوفاً من نقطة هذه الوحدة » . وهذا تأكيد جديد على إيمانه بالعروبة والوحدة العربية والعمل لهما متأثراً خطى الأقدمين ، آخذاً برأى كافور زعيم الوحدة الإيطالية . ولو قد فسح لشكيب فى السعى والعمر والمنصب لألح على زعماء العرب أن يسيروا على خطة كافور فى وحدتهم المرتقبة ، ولكنه لم يبلغ كل ما يتمناه ، فعرض آراءه من خلال هذه السياحة ، بعد أن جمع بين آراء القدماء من المؤرخين والجغرافيين وما قالوه فى هذه الربوع ، فغدا كتابه

---

(١) المصدر المذكور ، ص ٢٧٩ .

هذا شاملا جامعاً لما وصف القدماء وما رأى بنفسه ، وأصبح مرجعاً لمن يريد أن يتعرف إلى ما قيل فى الحجاز ، وما هو عليه فى حاضره ، وما يمكن أن يكون عليه فى مستقبله .

فكان من أحسن الكتب التى تدعو إلى زيارة هذه الأراضى الطيبة والتعريف بها ، لحسن بيانه وجمال وصفه ، وعمق أيمانه بوحدة العرب وقوتهم وغنى ثرواتهم وعظيم إمكانياتهم . بل إنه فصل من فصوله فى تاريخ العالم العربى وحضارة العرب وأياديهم على الإنسانية يكاد يلز بكتبه فى رسم الأندلس وفى وصف غزوات العرب فى أوربة ، وفى تعليقاته على حاضر العالم الإسلامى .

الفصل السابع عشر

دفاعه عن المسلمين والإسلام

حاضر العالم الإسلامى – لماذا تأخر المسلمون

١٩٢٥ – ١٩٣٩

الزعماء المصلحون قبله

فى ٢٥ سبتمبر ١٨٨٢ عاد الخديو من الإسكندرية إلى القاهرة تسنده قوة الجيش الإنكليزى . وفشلت ثورة العرابيين ووقعت بهم الهزيمة ، وساد مصر حينئذ جو من الانخذال والانحلال ، « وقبض على زعماء العرابيين وغيرهم من الضباط والعلماء والأعيان ، وغصت السجون بالمعتقلين رهن التحقيق والمحاكمة[1] » وكان فى هؤلاء الشيخ محمد عبده ، وقد اتهم بأنه أفتى بوجوب قتل الخديو لخروجه على إجماع الأمة . وبقى محمد عبده فى السجن ثلاثة أشهر عرف فيها خيانة الأصدقاء وشاية الموظفين ، وظلم الإنكليز . وانتهت المحاكمة ، فحكم على محمد عبده بالنفى ثلاث سنين إلى سوريا .

ولجأ الشيخ إلى بيروت ومعه طائفة من المصريين فكتب إلى أحد أصدقائه يقول : « وبعد فأنا اليوم فى بيروت فى فضل من الله أشكره ، وجميل إحسان أذكره . ومقامى عند جميعهم محفوظ ، ومكانى بعين التوقر ملحوظ ، غير أنه لا يسوى بقومى قوم ، ولا كيوم وطنى يوم » . فقد لقى الرجل أعظم ترحاب وإكبار ، فالتف حوله العلماء والأدباء وأحاطوه برعاية فائقة ، وراح هو يشرح الكتب ويطبعها ويعلق عليها ، ويدرس فى المدرسة السلطانية ببيروت .

وحضر الإمام حفلة فى مدرسة الحكمة أنشد فيها شاب فى السادسة عشرة من عمره قصيدة طويلة ، حيا فيها العرب وأمجادهم والإسلام ومفاخره وختم بالدعاء

(١) محمد عبده – لعثمان أمين ، ص ٦٨ .

للسلطان عبد الحميد ، فصفق له الشيخ الإمام واستحسن قوله ، واستبشر به خيراً ، وهش للقائه فى مجالسه ، فانعقدت بين الفتى وبين الشيخ صداقة كبيرة – كما قلنا فى أكثر من مكان – .

وكان الشيخ يرسل فى مجالسه ما تلقن على يد جمال الدين الأفغانى من سعى إلى الإصلاح وحب للإسلام ، وذود عن كرامته ، وتأليف فيه ، وعمل له . فقد كان الإمام لا يفتر عن الحديث فى رفع مستوى الأمة وتقويم أخلاقها والنهوض بها نهضة اجتماعية ، عن سبيل الثقافة والعلم ، فى وعى صحيح وفهم عميق لا يسير فى تقليد الغرب تقليداً أعمى ، وإنما يسعى فى تربية العقول والنفوس. وقد حث الشيخ على احترام القانون وتحقيق العدالة والمساواة ، وحمل على المفاسد ونقد الرشوة ، ودعا إلى الاقتصاد وحبب إلى إخوانه قراءة الكتب العربية والغربية المعربة فى مختلف فروع الفلسفة والتصوف والتاريخ والاجتماع والسياسة كما أوحى إليه السيد جمال الدين الأفغانى . وتحدث الإمام عن ابن خلدون فأفاض عن « مقدمته[1] » وشهد بما لها من محاسن عجيبة فى فهم الاجتماع والتاريخ ، وذكر القوم أنه كان يحاضر فيها بمدرسة دار العلوم بمصر سنة ١٨٧٨ ، وأنه كان يبسط آراء الفيلسوف المؤرخ فى أصول المدنية وعلم الاجتماع ، ويبين ما فيها من أسباب تقدم الأمم واضمحلالها .

وأصاخ شكيب إلى هذا منذ أول لقاء واستهوته أحاديث محمد عبده عن شيخه جمال الدين الأفغانى ، فشرع يقرأ له ويتوق إلى لقائه ، ويتعلق بموضوعاته ، فكتب مقالات فى الجرائد عن الإصلاح والاجتماع ، ونظم فى شعره ما أخذه عن هذا الإمام فى وجوب الترقى والتعلم والتثقف ، وفى أمجاد العرب والمسلمين ، ومناهضة الغرب المستعمر ، والحفاظ على المآثر والمفاخر .

وقد مال منذ هذا اللقاء إلى معرفة العالم الإسلامى كله وما فيه من أدواء وأمراض وعلل ، على اختلاف أقسامه وبقاعه وأوطانه ، ومال إلى معرفة الدواء

---

(١) رأينا فى غير موضع أن الأمير شكيب أحب مقدمة ابن خلدون كذلك ، وأنه فى ذلك مقلد لشيخه الإمام .

والبحث عنه عن سبيل علم الاجتماع . فأخبرنا فى تضاعيف كتبه عن هذا الميل وهذا الشغف قال : « ومن أعظم المؤلفين الذين أجادوا فى موضوع الإسلام ، العلامة درابر الأميريكى المشهور ، صاحب كتاب (اختلاف العلم والدين) فقد كتب كتاباً نادر المثال فى تاريخ الحركة الفكرية العلمية فى العالم ، وما كان بإزائها من العقائد والأديان . وما وقع من المصارعة بين المبدأ العلمى والمبدأ الدينى .

« وكنت اطلعت على هذا الكتاب إذ كنت فى الثامنة عشرة من العلم ، وأجمعت ترجمته إلى العربية ، ثم أنجزت ذلك نقلا عن نسخته الفرنسية التى كان يسهل على الترجمة عنها أكثر من النسخة الإنكليزية . ثم إنى لأجل زيادة التدقيق والضبط أطلعت عليها العلامة الشهير أستاذ أساتيذ العصر الدكتور فانديك[1] ، الذى كان لى عليه تردد كثير ، وكان له نحوى ميل شديد ، وكنت ممن يستضئ بآرائه . فالدكتور فانديك والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده طيب الله ثراهما ، هما اللذان صححا عزمى على ترجمة هذا الكتاب وباشرت ذلك » .

ثم قال عن مقدمة ابن خلدون[2] : « من أول ما بلغت سن الحلم لى ولوع خاص بمقدمة هذا العبقرى العظيم ، إلى أنى كنت أطالعها المرة بعد المرة ، وفى كل مرة أجد لها طلاوة » .

وإذن ، فقد استطاع الإمام أن يثير فى نفس تلميذه هذا الحب العظيم للعالم الإسلامى وإصلاحه ، واستطاع أن يأخذ بيده إلى المصادر وأن يدفعه إليها دفعاً كما رأينا ، وأن يموت قرير العين لأن تلميذه بدأ بتحقيقها وسيتم ذلك حياته كلها . والأمير شكيب يعترف بهذا فيقول فى الحديث عن محمد عبده[3] :

---

(١) كرنيليوس فان ديك ولد فى نيويورك سنة ١٨١٨ ومات فى بيروت سنة ١٨٩٦ ، وهو من المستشرقين العارفين — انظر آداب القرن التاسع عشر تأليف لويس شيخو ص ١٨٠ .

(٢) انظر تعليقات شكيب على تاريخ ابن خلدون ، فى جزء خاص بالمقدمة ، وقد نقلنا هذه العبارة فى أكثر من مكان فى هذا الكتاب .

(٣) حاضر العالم الإسلامى ، ١ / ٢٨٣ .

« أستاذنا فريد عصره ، ووحيد مصره ، حجة الإسلام الشيخ محمد عبده ، أكرم الله مثواه . تعرف إليه محرر هذه الحواشي فى عهد الطلب ، أيام كان هو منفياً فى بيروت على أثر الحادثة العرابية وذلك سنة ١٨٨٦ ، ولازمته وأخذت عنه ، واستفدت منه بقدر ما وسع فتور خاطرى. واستفضت من بحر حكمته ما أمكن أن يناله قصور عارضى ، ووجدت فيه الضالة التى كنت أنشدها ، والبغية التى كنت أبحث عنها ولا أجدها ، ورأيت فى فهمه العقيدة الإسلامية الشكل الوحيد الذى يرجى أن ينهض بالإسلام بعد أن آل إلى هذه الحال ، وأن يقيل عثاره بعد أن ظن ضعفاء العقول أن عثرته لا تقال ، وما زلت بعد أن عاد إلى وطنه مصر إلى أن أدركته الوفاة رحمه الله أجاذبه حبل المكاتبة ، وأقف على رأيه فى أكثر الأمور جزئيها وكليها ، وأستطلع منه طلع الأحوال ، وهو يبث إلى ما لا يبثه إلى غيرى من سوانح فكره » .

وحين رحل محمد عبده عائداً إلى مصر ، لحق به الأمير شكيب واتصل بحلقته — كما بسطنا فى تاريخ حياته — ، وأفاد منه ، ثم سافر إلى إستانبول يسعى إلى النبع الفياض والمصدر العظيم ، ليجد الإشعاع والنور عند الشيخ جمال الدين الأفغانى ، بعد أن اتصلت بينه وبين شكيب مكاتبات ومراسلات ، واجتمع به سنة ١٨٩٢ ولازمه ، وكان موضع أسراره وموطن إعجابه ، وظل معه حتى اضطر إلى السفر والعودة إلى سورية .

وسار الأمير قدماً بهدى هذين العالمين المصلحين ، وتشجيع منهما ، وظل كذلك حتى كان علماً من أعلام الإصلاح فى الإسلام ، وكاتباً مدافعاً عن حوزته فى كل بقعة ومكان .

فقد أحب الدولة العثمانية حباً بناه على أنها حامية الإسلام ، وحاملة لوائه ، فدافع عنها بلسانه وسنانه ، وقاتل فى طرابلس الغرب وكان إلى جانب القواد العثمانيين خوفاً من أن تذهب هذه الأرض العربية ملكاً للطليان ، وكان إلى جانب القواد فى البلقان خوفاً كذلك من أن تذهب الأراضى الإسلامية للغرب ، وكان إلى جانب لبنان فى الحرب الأولى يردع القواد عن الظلم ويخفف الويلات

ما استطاع . ومع ذلك اتهم تهماً شنيعة بحب العثمانيين والفتك بالمسيحيين ، والسير وراء الخديو أو السلطان ، كما اتهم إمامه وأستاذه محمد عبده من قبل بممالأة الإنكليز .

فلما احتل الفرنسيون أرض بلاده غدراً وعدواناً ومكراً ، هجر الأرض ولجأ إلى الغرب ، وهناك راح يكتب ويكتب ويدافع عن الإسلام والعرب لكل مكان ولكل زمان . وأرسل كتباً فى هذا الدفاع رصينة تعد من أمهات الكتب فى الموضوع . أولها :

١ — حواشيه على كتاب « حاضر العالم الإسلامى » ألفه ستودارد وترجمه الأستاذ عجاج نويهض ، وطلب إلى الأمير أن يعلق عليه ، فكان الأصل المترجم ثلث الكتاب ، وتعليقات الأمير ثلثيه ، مما يصلح أن يفرد فى كتاب عنوانه : « دفاع عن الإسلام » . وقد نشرت الترجمة سنة ١٩٢٥ لأول طبعة ، ثم أعيد بعد سنوات سبع تامات ، وزادت التعليقات ، فأصبحت كأنها دائرة معارف إسلامية . والأمير يتواضع فيرى تخصيص فئة لكتابة الإنسكلوبيديا الإسلامية لأنه لا يقدر وحده على ذلك . وهى تحتاج إلى ثلاثين مجلداً ، ولكنه يسميها معلمة إسلامية صغيرة ، تلم بالأفكار النائية والبقاع المجهولة التى سكنها المسلمون ، جمع معلوماتها خلال سبع وأربعين سنة من تراجم وأخبار لم يسجلها كتاب ولم يجر بها قلم ، فهى مشاهدات وسماعات سنطوف بأنبائها لنرى كيف أجرى قلمه فى الدفاع عنها .

فقد أحال الأمير شكيب سر إعجابه بفتوحات العرب إلى قوة الإسلام ، فما فتحوا نصف الدنيا بنصف قرن إلا بهذا الدين « وروى إعجاب نابليون بالإسلام ، ونقل عن المستشرقين اكبارهم للدين وحيرتهم من انتشار الإسلام هذا الانتشار العجيب ، وعزوا ذلك إلى قوة الإيمان ونهضة التحمس الدينى ، ثم تعرض للسيرة النبوية وروى ما قيل فيها وفى صاحبها ، وتطرق إلى رقى العرب الفكرى فى العصور الوسطى وبسط أمر الحضارة الإسلامية بسطاً واسعاً ، وتساءل لماذا كان الإسلام راقياً بذاته والشعوب الإسلامية غير راقية ، فرأى أن المدنية الشرقية يوم ظهر الإسلام قد ماتت وانمحت ، فأحياها الإسلام وجدد

آثارها وأقال عثارها ، وجلاها ونشرها ، ودبجها بديباجة القرآن ، فليس هو المسئول عن انحطاط أممه ، وهل أدت النصرانية إلى انحطاط يونان التى كانت من قبلها عنوان الرقى ؟ . وأثبت أن أعداء الأديان هم الذين بثوا هذه الآراء ، ورد على المستشرقين والملحدين ، ثم قال : « لماذا أيها الناس تدخلون الأديان فيما هى براء منه ؟ ولماذا تقحمونها فى موضوع يكذبكم فيه التاريخ بأماثيله الجمة[1] » .

وكم تبسط الأمير فى المدنية العربية ، وخدمة العرب لعلم الطب ، ونقل عن المجلات الطبية ليدعم رأيه ، وتحدث عن مشارق العالم الإسلامى ومغاربه وأياديه على الحضارة فى مر العصور ، وذكر العلماء والفلاسفة وأفضالهم على العالم .

وعرض الأمير للخلافة والملك ، ثم بدأ يؤرخ لليقظة الإسلامية ، وأعلام النهضة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وتحدث عن الجامعة الإسلامية ، وأفرد فصلا عن الدول المستعمرة والإسلام ، وأفاض فى تآمر الغرب ، وتعاقدهم على اقتسام بلاد الإسلام الباقية ، وقرارهم فى تقسيم بلادنا بين إنكلترة وفرنسة منذ سنة ١٩١٢ ، قبل الحرب العامة . ثم قال : « والحاصل أن الحلفاء طلبوا **فى أثناء الحرب العامة العون من كل دولة ، وعرضوا التحالف مع كل حكومة ،** حتى أصـــغر حكومات أمريكا ، ولم يكونوا ليقبلوا التحالف مع دولة من الدول الإسلامية علماً بما ينوونه للإسلام وجميع حكوماته فى المستقبل وفراراً من مكافأة دولة إسلامية بالإبقاء عليها[2] » . وأنحى باللائمة على هذه الدول ورأى أنها تريد ابتلاع الدول الإسلامية فحسب .

ولعل أكثر هذه الآراء السياسية فى العالم الإسلامى قد جاء قبله فى كتب المصلحين محمد عبده وجمال الدين على شكل آخر وأسلوب مختلف . ولكن شكيب تابعهما فى عداوتهما للإنكليز وزاد على ذلك بغضه لفرنسة ، وحربه عليها فى كل مكان .

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ١ / ٣٣١ .
(٢) حاضر العالم الإسلامى ، ١ / ٣٣١ .

وانتقل شكيب بعدها إلى الحديث عن العالم الإسلامى بمفهومه الواسع وخرج عن العالم العربى ، فطفق يتحدث عن المسلمين فى الهند وعددهم وأعمالهم ، وفى جاوى وما جاورها مما لا تجده فى كتاب عربى آخر ، إذ توسع فى جمع المعلومات وتكلم فى أمر الحضارمة الذين كانوا ينتشرون فى جاوى ونظر الهولنديين إليهم ، وخوفهم من انتشار الإسلام على أيديهم . ودافع عن هذه البلاد التى تقاوم الاستعمار الهولندى اليوم بعد خمس وعشرين سنة مقاومة عنيفة ، لم يتنبأ بأمرها مثل الأمير شكيب ، حين بسط ماضيها ، وما قاله المسعودى عنها وما كتبه أبو الفداء وابن خرداذبة ، وهو يفرق بين غربى الجاوى وشرقيها ، ويتحدث عن سلطة الإنكليز والهولنديين فى هذه الربوع ، ويقول إن المسلمين « فى الجاوى وسومطرة وبورنيو وسيلان وسائر المستعمرات الهولاندية هم ٣٥ مايوناً وبعضهم يقول ٤٠ مايونا» وينبه بذلك إخوانه إلى الشر المستطير الذى يخيم على هؤلاء الإخوان .

وتحدث عن مسلمى الفيلبين ، وقد عنيت بهم الدولة العثمانية بعض الشىء وأرسلت من رأى الحال هناك وعاد بحسرات وزفرات تنبىء عن حالهم الأليم ، وأنهم فى جهالة عمياء ، وتولى بهجماته الأسبانيين الذين استولوا على هذه الجزر وصرفوا هممهم إلى التبشير فيها .

وأطال الأمير بعد ذلك فى الحديث عن مسلمى الأندلس مما نجد بعضه فى كتابه « الحلل السندسية » ، ثم تكلم عن طرابلس الغرب وحربها ضد إيطاليا وقال : « منذ استولى على إيطاليا حزب الفاشيست تحت رئاسة موسولينى بدأ الإسلام فى طرابلس وبرقة يؤول إلى الانقراض التام . ومن المعلوم أن مبادئ الفاشيست هو الوصول إلى أغراضهم بكل وسيلة، وبدون أدنى نظر إلى ما يقال له حقوق الأمم وحقوق الإنسانية[1] » . ثم نقل إلينا أن الفاشيست قرروا تحويل طرابلس الغرب وبرقة بلاداً لاتينية، وأجمعوا إنزال مليونين أو ثلاثة من الطليان بها،

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ٢/ ٦٤ .

لاستعمارها . وذكر الفواجع والمآسى وعدد القتلى الذين ماتوا على يد الفاشيست إلى أن وصف ذلك وصفاً مؤلماً فقال : « وقد وقع لهم أنهم شنقوا نساء جردوهن من ثيابهن وأبقوهن مجردات عدة أيام » وتابع قوله فى رسم يقشعر له البدن لهوله وفظاعته : « فالفاشيست اقتفوا آثار فرديناند وإيزابلا فى الأندلس من كل وجه » . وكان الأمير يكتب هذا نفسه فى مجلته الفرنسية فيقول : « وقد أشرنا إليه مراراً وإلى سائر فظائع إيطاليا بطرابلس فى مجلتنا العربية المنهج الإفرنسية الملهج المسماة بالأمة العربية La Nation Arabe » .(١)

وحبب إلينا الأمير هذه الربوع الطرابلسية فى وصف أدبى جميل حين وازنها بربوع الشام فى المياه والفواكه والزرائع والتين والرمان والعنب والنخيل والتفاح والكمثرى ليذكرنا بأراض هى أخت أراضينا ونفوس هى قسائم نفوسنا ، لعلنا نغضب ونثأر ونثور ، وذلك أنه رآها رأى العين وجاهد فيها بنفسه ونشر عن العرب فيها ما يعد من أجمل صفحات تاريخنا العربى مما لا نقع على مثله فى مصدر أو كتاب .

وبلغ الرجل إلى الحديث « عن الجزائر » منذ ثلاثين عاماً ، فى لغة مؤثرة بليغة ، وعبارات بينة . فذكر تاريخها المجيد ، وأياديها فى خدمة الإسلام والعرب فقال : « وكانت الدولة العثمانية تتوكأ دائماً فى حروبها على أسطول الجزائر ، وتجعله ردءاً للأسطول العثمانى فى كل موقف خطير » . إلى أن كان الاحتلال الفرنسى للجزائر فى ٥ أيلول سنة ١٨٣٠ ، وكان ذلك لعهد الملك كارلوس العاشر ، وذكر ما كان من مقاومة وجهاد وحروب وخاصة على يد الأمير عبد القادر ، وما وقع من خفر العهد وإلقاء الرعب ، ووقوع الضحايا . وتكلم عن أفغانستان وغزو الإنكليز لها .

ثم انتقل المؤلف إلى المسلمين فى الصين ، وعددهم فيها لكل ولاية ومقاطعة وما عرفه العرب منها ، ودخول ابن بطوطة إليها ، واشتراك المسلمين فى الجيش والحكم ، وينقل الأمير شكيب عن دائرة المعارف ويعجب لأمرها فيقول فيها :

---

(١) المصدر نفسه ، ٦٨/٢ .

« وقد يأخذ القارئ العجب كيف أن دائرة المعارف الإسلامية تصرح بمثل هذه الأقوال التى فيها من التحامل والبغضاء وسوء النية بحق المسلمين ما لا يمكن المراء فيه[١] » . وينقل عن مجلة تصدر فى الصين قولها : « بينما المسلمون فى الغرب مظلومون مقهورون ، نحن معاشر الإسلام فى الصين أحرار نتمتع بالحقوق التى يتمتع بها سائر أبناء وطننا . فلنعكف على التعلم والتهذب وبذلك نكون جاهدنا لأجل عظمة الصين[٢] » . وفى الصفحات عن الصين معلومات عن الحالة الاجتماعية والسياسية غنية مفيدة .

وينتقل المؤلف من الصين إلى أفريقيا السوداء ، فيورد أقوال العلماء فى المسلمين كذلك ويرد عليها بحججه فيقول : « اعتنينا بتعريب هذه المقالة بحرفها حتى لا نترك مجالا للمكابرة ، ولا محلا للمناكرة ، وكنا نود لو تركناها كما هى تكفى بنفسها مؤونة الرد عليها ، لولا أن يكون فى الشرق لسوء الحظ من يتلقى كلام كل أوربى تقريباً حقيقة رياضية أو قضية مسلمة ، ولولا أنه لا يزال عندنا من حسن الظن فى هؤلاء القوم ما يجعل التنبيه فرضاً والتمحيص حتما . نعم إن افتتان الناشئة من الشرقيين بعدل أوربة وإنصافها ومعالى نزعاتها قد خف كثيراً بعد الحرب العامة عندما تجلت عرائس الحقائق على مناص المذابح ، وقشعت رياح الحوادث غيوم الأوهام التى كانت متلبدة فى الشرق ، من جهة تلك الفضائل وهاتيك المعالى[٣] » . وهذه نفحة من نفحات شكيب شبيهة بنفحات الأفغانى ومحمد عبده ، يحذر فيها الشرق من دسائس الغرب وأقواله ، والاتكال عليه والإيمان بآرائه ، وهو فيها عاقل كبير ، يأخذ بيد قومه إلى مواطن النقد النزيه والتبصر الحكيم . فيرد الكيل كيلا ، ويجيب الطاعنين ويرجع كيدهم إلى نحورهم ، فيقف لهم بالمرصاد ، ينقل عن مصادرهم المختلفة نقلا أميناً ، ثم يفند هذه المصادر بروح العلم والعقل فلا يدع غموضاً أو ظلماً إلا كشف

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ٢/٢٤١ .
(٢) المصدر نفسه ، ٢/٢٥٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ٢/٣٢٦ .

عنه وفضحه. والأمير لا يخدع بعداوة بعض الفرنسيس للإنكليز وفرحهم بمشكلات إنكلترة فى مستعمراتها الإسلامية فيقول عنهم : « فهؤلاء أكثرهم من الشيوعيين والاشتراكيين وهؤلاء كما تقدم أضداد الاستعمار ، لأنهم يقولون إن الاستعمار قضية عائدة على الطبقة المتمولة ، وهم لا يريدون أن يسفكوا دماءهم فى إفريقية وآسية ، ويموتوا بحميات هاتيك الأصقاع النائية لأجل زيادة ثروة المتمولين فى بلادهم . ناهيك أن طبقة العملة تشبه أهالى المستعمرات بكون الفريقين مستضعفين ، هؤلاء من الخارج وأولئك من الداخل ، فبين الفريقين جاذب التضامن الذى بين الضعفاء والمظلومين[١] » . ولذلك فهو يدعو المسلمين فى الشرق دعوة صريحة ، فيقول :

« فبعد أن تقرر وجود هذا التضامن المتين بين جميع الأوربيين فى وجه الإسلام والشرق بأسره ، لا عجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً ، لا سيما أن بين هؤلاء رابطة دينية[٢] » . وهكذا يصيح الداعى المصلح صيحته المدوية فى وحدة الشرق أو الإسلام ، لأنه مظلوم مضطهد ، قد عدا عليه الغرب فامتهن وطنيته ، وابتز أراضيه . وتصرف بحقوقه ومرافقه ، « وهذا ما امتازت به فرنسة أكثر من غيرها بدليل نسق استعمارها بالجزائر وتونس » . وهو يثير الحمية بقوله : « فالإسلام مبنى على العزة وعدم المبالاة بالحياة ولا بالمال فى الذب عن شريعة الإسلام ، وأن القرآن ملآن بذلك ، والحديث الشريف مستفيض به ، وما سقط الإسلام إلا بعد أن فتر عمل أهله بتلك الآى ، وغلبت عليهم كراهية الموت وحب الدنيا[٣] » . فالرجل يدعو إلى الجهاد والقتال والاستبسال والوقوف فى وجه الاستعمار الآثم ، كأنه يخطب فينا ليومنا هذا ، أو كأنه يسبق زمانه فيتكلم باسم زعمائنا وصحافتنا منددأ عن طريق الدين بهؤلاء الباغين المعتدين الذين يمتصون دماء الشرق ثم يتقولون عليه ، ويدعون أننا أمة لا نفهم إلا بالسيف ولا نقهر إلا بالقوة .

---

(١) ، (٢) المصدر نفسه ، ٢/٣٢٨

(٣) المصدر نفسه ، ٢/٣٣١ .

والأمير حين يعرض لأمته يأسو كلومها ويدافع عن قضيتها ، ويفضح الفرنسيين بقوله : « وإذا كان عمال فرنسة منذ أول احتلالهم لسورية ، أى منذ سنة ١٩١٨ إلى ساعة تحرير هذه السطور ، لم يفتروا يوماً واحداً عن تأريث الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى فى سورية ، وبين النصارى والدروز فى لبنان ، بعد أن كانت هذه الضغائن والذحول قد سكنت وتلاشت تقريباً ، فتجد سورية ولبنان اليوم فى أسوأ حال من هذه الجهة مما بذرته يد الاحتلال ، التى ظنت أنها لا تمتد إلا على بساط شقاق ، ولا تتمكن إلا من خلال فتنة ، فما ظنك بما كان يفعله عمال فرنسة فى الجزائر من تحريك الإحن بين العرب والبربر [١] » .

ولا يكاد المؤلف ينقلب من بحث المبشرين فى قطر إلا ليتناول الحديث عنهم فى قطر آخر ، لا يستثنى مملكة غربية ، ولا يكتفى بفرنسة ، وهولندة ، وإنكلترة ، وإنما يفضح الأميريكيين كذلك حين تعاطوا التبشير فى إفريقية ، ويتحدث عن طرق الدراويش فى القادرية والشاذلية ، والتيجانية والسنوسية ، حديث العالم الباحث .

ولعلنا نتعب القارئ فى الرحلة وراء شكيب من آسية إلى إفريقية ندخل معه كل قطر ، وننظر إلى الاستعمار والظلم والتبشير ، فى السودان والحبشة وماداغسكر ، وما كان فيها من حروب ووقائع ضد الأوربيين ، لننتهى دائماً إلى تعصب الأوربيين وتسامح المسلمين ، ونستمع إلى آراء المستشرقين وكتاب أوربة فى الموضوع يتهمون ويترجم شكيب تهمهم ويردها جميعاً ، فى سعى كبير وراء الجمع وإحصاء المصادر مما لا يقع إلا لأولى العزم من الباحثين والكتاب ، حتى ليخيل إلينا أن الرجل استوفى المباحث عن الإسلام وعاد إليها لم يغفل واحداً منها ليعرض على قومه رأى الأصدقاء والأعداء ، ويحذر من الغفلة وسوء الفهم ، فى بيان جميل وأسلوب بديع ، وتعريب عظيم ، فقد ملك الأمير ناصية اللغة الفرنسية ، وهو وحده كان يستطيع أن يقرأ ويترجم وأن يجيد الفهم وأن يحسن الرد ، فكان المنبر العظيم بالفرنسية والعربية ، للدفاع عن الشرق

---

(١) المصدر نفسه ، ٢ / ٣٤٠ ولن ينسى العالم العربى مقالات شكيب فى الظهير البربرى بالمغرب فقد أقامت وأقعدت ، وهى تضرب على هذا الوتر نفسه .

والإسلام ، وكان اللسان الناطق باسمنا ، وهو أمة من الكتاب بل مكتب دائم كان يقيم فى سويسرة على شطئان البحيرة الجميلة يدافع عن الحرية والكرامة والعزة لقومه ، كما دافع قبله جان جاك روسو عن الإنسان[١] ولكن الأمير نقل مكتبة كاملة إلى كتابه ، فصور حاضر العالم الإسلامى فى مرآة جلاها بحسن اختياره وبيانه وعظم حججه . ولعله استفاد من مكتبة « جمعية الأمم » المتوفاة التى كانت تجتمع ، لتتآمر على الشرق والعرب والإسلام فى أثواب براقة وألفاظ خادعة من دعوة إلى السلام والحرية والكرامة ، وهى تلبس قفازها تخفى تحته الأظلاف الدامية التى كانت تنشبها فى جسدنا ودمنا وعقول أبنائنا . وكان الأمير على مقربة من هؤلاء الدهاة الذين يفدون إلى شاطئ البحيرة ساخرين من عقلية العالم الشرقى ساعين إلى تسخيره متآمرين عليه ، داعين إلى استثماره محتجين بتأخره وجهله ، وتخلفه فى ميادين القتل والإجرام والسلاح والآثام ، لأنه ما يزال يؤمن بالرسالات القديمة لفلاسفته العظماء ، ويعتقد بأن الخير فى السلام ، والتآخى والتضامن لمصلحة الإنسان ورفاهية البشر .

ونستطيع أن نتخيل هذا الرجل قابعاً فى بيته بالمهجر إلى مكتبته ، يرسل النفثات حرى مؤلمة فى تكذيب ما ينشر عن الإسلام والشرق ، وتنبيه الغافلين ، وهو على شروط فى العيش لا تتفق مع حياة أسرته وموقع أهله من قومه ، ليدافع ويدافع ، وهو لو سكت لاحتل أحسن المناصب الزاهية فى بلده ، ولكنه كان يكره الأوربيين ، ويأبى العيش تحت إمرتهم وانتدابهم ، يحب أن يقول فى حرية ما يزيفونه فى لؤم ووقيعة ودسيسة ، ولم يكن يستطيع ذلك إلا فى سويسرة .

وكم يعجب المرء لأقوال الأمير ، يسير فيها مع الفكر الإسلامى فلا يحيد عنه ولا يحابى فيه . فقد كان مع العثمانيين فى خلافتهم يدعو لهم وينتصر لقضيتهم حين كانوا يسيرون بالشرق والإسلام نحو الكرامة ، فلما رأى الكماليين باعوا تركيا لمبادئ الغرب ، وانحازوا عن الشرق ليرتموا فى أحضان الحضارة الغربية ، ثار عليهم وأجهز على مصطفى كمال ورهطه فقال : « إن الذى قصده مصطفى

---

(١) أصدرنا كتاباً صغيراً عن « روسو » بدار المعارف ، فصلنا فيه الأمر .

كمال ورهطه لم يكن سوى مجرد التفرنج ، وأن تفهم أوربة أنهم هم نبذوا التقاليد الإسلامية ، ورموا بالشريعة القرآنية عرض الحائط ، وأقاموا مقامها قوانين أوربية[١] » . ثم قال : « إن الهدف من الكتابة التركية بالحروف العربية هو إقصاء الترك عن العرب ، وإبطال قراءة القرآن تدريجاً » .

وكان الأمير يسعى إلى مؤتمرات المستشرقين ، ليناقش العلماء عن الإسلام والشرق ، ويصحح آراءهم ، فقد روى أنه فى أواخر سنة ١٩٣١ ، اجتمع إلى المستشرق الهولندى (سنوك هور خرونية) وتبادلا وجهات النظر ، ثم نقل إلينا أن وزير معارف هولندة حين افتتح المؤتمر فى ليدن قال : « إن تبسط الأمة الهولندية فى المشرق لم يكن المقصد منه مجرد المكاسب المادية بل أكثر ما قصدته هولاندة بذلك هو نشر فضائل النصرانية[٢] » . فسأل المستشرق كيف تدعون المسلمين إلى ترك الاهتمام بأمر دينهم ، ورجالكم الرسميون يعلنون مثل هذا الكلام فى محفل العلماء والباحثين » . . . ؟

ودافع الكاتب المصلح عن الحروف العربية ، وبسط مزاياها ، وسرعة الكتابة بها فهى كالعلامات الستنوغرافية ، وأن نسبة السرعة فى الكتابة هى لصالح العربية بنسبة ثلاثين فى المائة .

وهذه المباحث والآراء التى أوردها الكاتب تضطرنا إلى النظر فيما ألف قبله لعلنا نعرف بمن تأثر الرجل ، فقد كتب الإمام محمد عبده « الإسلام والرد على منتقديه »، و « الإسلام والنصرانية »، ونشرت ذلك « العروة الوثقى » لجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، فسار على سنن الرجلين ، واستقصى فى ذلك حتى كانت هذه الفصول أضعاف أضعاف ما كتب فى الموضوع حتى زمانه . فقد كره المصلحان أفعال الغرب وهجومه على الإسلام ، وتابعهما الأمير فكان من عظماء المصلحين بعدهما فى الإسلام المعاصر ، لم يغادر صغيرة أو كبيرة فى مديح الدين والدعوة إلى التمسك به وإصلاح المسلمين إلا أوردها وساقها ووازن بين

---

(١) المصدر نفسه ، ٣/٣٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ٣/٣٧٣ .

حال الشرق والغرب ، ثم بسط أمانيه وآماله لخير الشرق والمسلمين .

وهو ينظر إلى الإسلام نظره إلى شريعة مثالية تحوى كل شىء لخير البشر ومساواتهم فيقول : «فى الشريعة الإسلامية مبادئ اشتراكية عظيمة متينة تفترق عن المبادئ الاشتراكية المعروفة فى أوربة ، بكون المبادئ الاشتراكية الإسلامية أوثق وأمتن ، وأجدر بأن يلتزم العمل بها المسلمون[1] » ، فهو يدعو إلى تحقيق الزكاة والقيام بها على أن تكون لها وزارة خاصة تحمل الأمة عليها ، وينتفى بذلك كل فقر وكل خصاصة بين المسلمين ، ويقل تفاوت الطبقات فى درجات الرفاهية وتتوفر وسائل التمريض والمؤاساة والتعليم وتشمل نعماؤها الجميع بدون منة غنىٍّ على فقير ولا اعتداد كبير على صغير .

هذه وقفة طائر عند التعليقات الثمينة القيمة التى حررها الأمير شكيب فجعلها أوسع من كتاب وأعمق من معلمة وأطول من مؤلف ، ينقصها التبويب على الأقطار والأوطان ، والجمع بينها فى صعيد واحد وكتاب شامل ، ليعرف المرء كيف كان العالم الإسلامى لعصر الرجل ، ويرجع إلى هذه التواريخ التى جمعها من المظان البعيدة المتفرقة جمعاً يلوح فيه البحث والدرس والتعمق والتنخل ، جمع المعلومات القديمة التاريخية إلى الآراء المستحدثة فى الغرب عن هذا العالم الواسع من أقصى الصين والهند إلى أقصى تخوم السنغال والحبشة والمغرب ، فكأنه حصر بين دفتيه هذا الفتح الإسلامى من أقدم عهوده إلى اليوم ، وصور فيه حال المسلمين وعيشهم ، وما فعله الغربيون فى ربوعهم ، وكشف عن عورات هذه الأمة الإسلامية وأخطائها وجهلها وتفككها ، وعدوان الغرب عليها لأنه رأى الثغرات الفاضحة فى هيكلها وفى حياتها الاجتماعية فكان كابن خلدون فى مقدمته العظيمة ، وفى نظراته الاجتماعية النقدية معلماً فى الاجتماع والسياسة والدين والاقتصاد .

والعجيب أن قلب الأمير شكيب قد وسع هذا العالم الإسلامى كله حباً وإكباراً وتقديراً ، لم يفرق بين لون ولون وجنس وجنس ، ولم يبلغ إليه التعصب

(١) المصدر نفسه ، ٤/٣٦٢ .

العرقى ، فنظر إليه نظرة إنسانية من خلال الدين الذى تغلغل فى صدره وأحشائه ، فآمن به وأراد لغيره أن يؤمن به وأن يسير على هديه وتعاليمه ، ليبلغ إلى الكفاح والنجاح . فقد اجتمعت آراؤه بآراء الهندى المصلح ، والصينى المخلص ، والأفغانى المحب ، والأفريقى الأسود والأبيض ، والعربى البربرى والزنجى ، تحت راية العمل والإصلاح ومدافعة الغرب المستعمر ، فهو كالزعماء العظماء من العرب .

وكان الأمير يعيش بجناحين من الحاضر والماضى فى الدفاع عن المسلمين والإسلام ، فلم يقف عند حاضرهم المؤلم ، وإنما خص شطراً كبيراً من حياته بالحديث عن ماضى العرب فى الأندلس ذلك الفردوس الضائع ، الذى نزلت به النازلة الكبرى فأفقدت المسلمين ربوعاً هى جنان الدنيا بالنسبة إليه . نزلها قومه من « لخم [١] » وعمروها فكانت زينة العالم وأغرودة التاريخ ثم غادروها لغيرهم يعتزون ببقايا حضارة الإسلام ، وما زرعت يداه فى أرباضها وحدائقها وقصورها . لذلك كتب معلمة ثانية عن هذا الماضى فى كتاب سماه : « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » ، تحدثنا عنه فى غير هذا المكان ، وعرضنا موضوعاته فى تفصيل ، وقلنا إنه حشر فيه آراء القدماء والمحدثين عن الإسلام بهذه الأصقاع ، وقابل بين ما قال فيهم العرب وما قال الفرنج . ورجع إلى مصادر كثيرة ، لم تفته منها شاردة عن العرب والمستشرقين ، عزاها كلها لأصحابها ، وبكى الربوع بكاء الداعية الإسلامى المصلح ، ووقف عند الكلمات والأعلام كما ينطق بها الإسبان اليوم فردها إلى أصلها وأعاد إليها ثيابها العربية الجميلة ، فى فرح لا يعدله فرح ، كأنه عاد بالمغانم من هذه البلاد الضائعة .

ورأينا أنه يهيم بحب الآثار العربية والإسلامية ، ويدافع عن أمته وعن تراثها الخالد مفتخراً معتزاً ، يروى آراء الغربيين الظالمة فى ماضينا وحاضرنا ليدحضها ويردها ، وقد تمثل « بالشدياق » فى صفحات كتبه ليروى منه

---

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص ٧ .

دفاعاً عن العرب وحضارتهم فى الغرب وخاصة فى « مالطة » فكأنه يحذو حذوه ويسير على خطاه .

وشكيب صريح يعترف بالواقع المزرى عن الشقاق بين المسلمين فيقول : « وإنى لأجد هذا الشقاق فى كل أمة ، ولا يخلو منه مكان . وقد وقع بين الصليبيين أنفسهم ، ولكن إن كان الشقاق عاماً فلاشك فى أن تسعة أعشاره هى عند المسلمين ، والعشر الواحد عند سائر الأمم بأجمعها ، وإن فسح لى الوقت لأكتبن كتاباً وأسميه الفوضى الإسلامية وما جنته على المسلمين ، والوحدة الإسلامية وما جنته للمسلمين »[١] .

٢ — وقد وفى الرجل بعهده هذا فكتب رسالة كبيرة فى هذا الغرض وجعل عنوانها « لماذا تأخر المسلمون ، ولماذا تقدم غيرهم ؟ » . وقد ذكر السيد رشيد رضا سبب تأليف هذه الرسالة قال : « كتب إلىّ تلميذى المرشد الشيخ محمد بسيونى عمران إمام مهراجا جزيرة سمبس برنيو (جاوة) كتاباً يقترح فيه على أخينا المجاهد أمير البيان أن يكتب للمنار مقالاً بقلمه السيال فى أسباب ضعف المسلمين فى هذا العصر ، وأسباب قوة الإفرنج واليابان ، وعزهم بالملك والسيادة والقوة والثروة »[٢] ، وأراد الرجل أن يكتب الأمير فى هذا « لتجديد التأثير فى أنفس المسلمين بما يناسب حالهم الآن لتنبيه غافلهم ، وتعليم جاهلهم ، وكبت خاملهم وتنشيط عاملهم » . فلما عاد الأمير شكيب من رحلته فى اسبانية ، كتب الرسالة فكانت آية من آيات بلاغته[٣] ، ارتفع بها إلى مستوى العالم المصلح الكبير ، وقد بلغ السبعين من العمر .

وافتتح شكيب رسالته بقوله إن حالة المسلمين الحاضرة فى القرن العشرين لا ترضى أشد الناس تحمساً بالإسلام ، لا من جهة الدين ولا من جهة الدنيا ، ولا من جهة المادة ولا من جهة المعنى . فالمسلمون متأخرون عمن يجاورهم

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ١٩٦ .

(٢) مقدمة الكتاب المذكور ، ص ٤ .

(٣) نشره فى مصر سنة ١٩٣٩ ، فى ١٦٦ صفحة .

ويساكنهم ، إلا فى البوسنة ، وفى روسية والصين . ولذلك رأى شكيب أن يبين أسباب ارتقائهم فى الماضى قبل أن يبين أسباب انحطاطهم فى الحاضر .

فقال إن أسباب الارتقاء كانت عائدة فى جملتها إلى الديانة الإسلامية التى جمعت العرب بعد فرقة . وبدلت طبائعهم، ولولا الخلاف الذى عاد فدب بينهم فى أواخر خلافة عثمان ، وفى خلافة على لكانوا أكملوا فتح العالم . وقد نقلهم القرآن من ذل إلى عز ، ففى اليمن وعمان والحيرة كان الفرس ، وفى أطراف الحجاز ومشارف الشام كان الروم ، فلم يستقلوا إلا بالإسلام .

ولكن « لم يبق من الإيمان إلا اسمه ، ومن الإسلام إلا رسمه ، ومن القرآن إلا الترنم به ، دون العمل بأوامره ونواهيه » وقد قعد المسلمون عن جميع العزائم التى قد كان يقوم بها آباؤهم . فقد كان أسلافهم يتهافتون على الموت الأحمر لإحراز الشهادة ، وكثيراً ما كانوا ينشدون الموت ولا يجدونه .

« واليوم فقد المسلمون أو أكثرهم هذه الحماسة التى كانت عند آبائهم ، وإنما تخلق بها أعداء الإسلام الذين لم يوصهم كتابهم بها ، فتجد أجنادهم تتوارد على حياض المنايا سباقاً ، وتتلقى الأسنة والحراب عناقاً »[1] . وذكر الأمير ضحايا الأمم الأوربية فى الحرب العامة وما بذلوا من ملايين النفوس ، فأية أمة مسلمة اليوم تقدم على ما أقدم عليه هؤلاء النصارى من بيع النفوس وإنفاق الأموال فى سبيل أوطانهم ودولهم . فهو يرى أن رأس الفضائل هو التضحية فى خدمة الوطن . والأمم الإسلامية — فيما يقول — « تريد حفظ استقلالها بدون مفاداة ولا تضحية ، ولا بيع أنفس ولا مسابقة إلى الموت ، ولا مجاهدة بالمال ، وتطالب الله بالنصر على غير الشرط الذى اشترطه فى النصر ، فإن الله سبحانه يقول : ولينصرن الله من ينصره . ويقول : إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[2] .

ومفهوم النصر هذا هو أن يطيع المسلمون الله ويجتنبوا نواهيه ، ولكنهم اليوم اعتمدوا على الدعاء فحسب ، والدعاء لا يغنى عن الجهاد ، ولا تستطيع

(١) المصدر المذكور ، ص ١٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨ .

الأدعية والأذكار أن تبلّغ الآمال . وليس الإسلام مجرد الصلاة والصيام ، والدعاء والاستغفار ، وإنما هو فى البذل والتضحية .

والمسلمون لا يجرون مع الأوربيين فى ميدان التبرع للمشروعات العامه ، ولا يسعون إلى الإيثار ، والعمل ، كما يفعل النصارى واليهود . وهذا مثال حديث العهد هو مسئلة فلسطين ، لقد أخذ اليهود فى جميع أقطار الدنيا يساعدون المصابين من يهود فلسطين ، وفرق بين تبرعات المسلمين وتبرعات اليهود ! واليهود عشرون مليوناً ، والمسلمون أربعمائة مليون تقريباً . وحوالى فلسطين ٣٥ مليوناً لو تبرعوا بقرش واحد عن كل جمجمة لاجتمع مبلغ كبير . ولكن أين البذل والتضحية ؟ . . .

وتحدث الكاتب عن حرب الطليان لطرابلس الغرب ، وما كان من دعم الدولة العثمانية للمسلمين ، فقد ثبت أقدام المجاهدين ، ورفع رأس العرب عالياً ، وكبّد الطليان خسائر فادحة فى الأرواح والأموال ، وقد كان نشيد الشباب الإيطالى الذاهب إلى الحرب فى غاية العجب : « يا أماه ، أتمى صلاتك ولا تبكى ، بل اضحكى وتأملى ، ألا تعلمين أن إيطالية تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً لأبذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الإسلامية التى تجيز البنات الأبكار للسلطان ، سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن ، ليس بأهل للمجد من لم يمت إيطالياً حقاً »[١] .

وتكلم عن حرب الريف وقعود المسلمين عن نصرة المجاهدين بالأموال والأرواح ، وتبرعهم للحرب كلها خلال سنة بـ ١٥٠٠ جنيه لا غير . وأما خيانة المسلمين بعضهم لبعض وخذلان إخوانهم والتزلف للأجنبى ، فقد بسط من أمره فى الريف وفى فلسطين كجنود شرقى الأردن ما يؤلم ويوجع . وسبب استئساد الأجنبى هو تبرع ابن الملة فى مظاهرته وتحكمه . ويقسم المؤلف الموت إلى قسمين الأول : الموت لأجل الحياة وهو البطولة والفداء ، « وأما الموت الثانى فهو الموت لأجل استمرار الموت ، وهو الموت الذى يموته المسلمون

(١) المصدر المذكور ، ص ٣٢ .

فى خدمة الدول التى استولت على بلادهم . وذلك أنهم يموتون حتى ينصروها على أعدائها ، كما يموت المغربىّ مثلا حتى تنتصر فرنسا على ألمانيا مثلا ، ويموت الهندى حتى تتغلب إنكلترة على أى عدو لها ، ويموت التترى فى سبيل ظفر الروسية . والحال أنه بانتصار فرنسة على أعدائها تزداد فى المغرب غطرسة وظلماً وابتزازاً لأملاك المسلمين وهضماً لحقوقهم»[١] .

والكاتب المسلم يأسى لهذه الأرواح تبذل رخيصة فى سبيل نصرة المستعمرين الغاشمين وفى خدمة الدول الباغية فيموت المغربى فى صفوف الفرنسيين مقاتلا ضد الألمان ، ويرتفع العلم الفرنسى حين النصر ، وأما الجثث والضحايا فهى عربية تملأ القبور ، لا يذكرها الناس إلا أنها ماتت حية وماتت ميتة .

والأمير يتناول الجواسيس والخونة من المسلمين بالنقد اللاذع ، ويرميهم بالمسئولية والجريمة ، وأنهم يشترون الدنيا بالآخرة ، ويرى أن سبب تأخر المسلمين هو الجهل والعلم الناقص ، وفساد الأخلاق ، وفساد أخلاق أمرائهم ، وتشجيع العلماء لهؤلاء الأمراء وسكوتهم على الضلال والطغيان ثم يقول[٢] : « هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء وعلو مناصبهم ، يظنون فتياهم صحيحة ، وآراءهم موافقة للشريعة ، والفساد بذلك يعظم ، ومصالح الأمة تذهب ، والإسلام يتقهقر ، والعدو يعلو ويتنمر » . والأمير كأساتيذه حين يجدون فى كثير من المتعممين وسيلة إلى الخديعة والفساد ، وهو يقول : « فقد أضاع الإسلام جاحد وجامد » .

ومؤلفنا ينظر أحياناً إلى الإسلام كقومية أو هو يمزج بين القوميه والدين حين يتحدث عن القومية فى الدول الأوربية وحفاظ السكان عليها ، فيستشهد بأمثال على ذلك ، ويشيد بالقومية فى اليابان ، ويتحدث عن العربية فى فلسطين وتمسك اليهود بها . وهو بذلك يلح على القومية[٣] ممزوجة بالدين فى كثير من كتاباته .

---

(١) المصدر المذكور ، ص ٣٧ .

(٢) المصدر المذكور ، ص ٥٩ .

(٣) تحدثنا فى فصل سابق عن آرائه فى الوحدة العربية والعرب .

فإذا ما تحدث عن الدين نظر إلى الجامدين نظرة ازدراء ، حين يرى أنهم يحاربون العلوم الطبيعية والرياضة والفلسفة بحجة أنها من علوم الكفار . وهو يرى أن الإسلام دين دنيا وآخرة ، وأن المسلم عليه أن يعقل ويتوكل، وأن يرحب بكل جديد لا يعارض العقيدة . والجامدون فى الإسلام كالجامدين فى النصارى حين قاوموا الآراء العلمية الجديدة .

ومن أعظم أسباب انحطاط المسلمين فى نظر شكيب هو فقدهم كل ثقة بأنفسهم ، وساعد على المرض سعى الفرنجة ودعاتهم فى ترويج النظريات التاعسة بين المسلمين فى أنهم لا يصلحون بعلم أو صناعة أو حرب أو سلم ، حتى لكأن المسلمين من طينة والفرنج من طينة أخرى . فالمسلمون لا يحسنون شيئاً من المشروعات العمرانية ولا بد لهم من الأوربى حتى يدخلوا على يده الإصلاح فى بلادهم ، ولاحظ لهم فى الأعمال الاقتصادية أصلا ، وكل مشروع إسلامى اقتصادى صائر إلى الحبوط إن لم تكن له أركان افرنجية . حتى لم يبق فى بلاد الإسلام شيء اسمه الاقتصاد إلا كانت إدارته بأيدى الإفرنج أو اليهود . وقد بقى الإفرنج واليهود يتمتعون بخيرات بلاد الإسلام قروناً وحقباً طوالا دون مزاحم ولا مراغم ، ويستدرون فيها أخلاف كل صنعة . ويقول : « وكأن المسلمين لم يوجدوا فى الدنيا إلا عملة أو أكرة يشتغلون بأيديهم ولا يشتغلون بعقولهم »[١] .

وخلص الأمير شكيب فى ختام كتابه إلى دعوة المسلمين لينهضوا ويتقدموا ويجاهدوا بالمال والنفس ، وأن يترقوا كما ترقى غيرهم من الأمم فهم رجال كما أن أولئك رجال ويجب أن يبتعدوا عن التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال . فإلى الأمام !

ولو عاش الأمير شكيب إلى الساعة لرأى أن كثيراً من الأقطار الإسلامية قد سارت نحو الوحدة العربية ، كما سار الغربيون فى قومياتهم مسوقين برابطة اللغة والتاريخ والصلات الروحية المشتركة . وإذا استيقظ الشرق خابت

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ .

آمال الغرب فى الاستعمار والاستثمار ونضبت موارد الرزق الدنىء وذهب الزمن الذى تمتص فيه دماء الشعوب لأنها متخلفة بحكم التكالب والدسائس ، واستيقظ الضمير الإنسانى فى الأخذ بيد الضعيف إلى أن يشتد ، والفقير إلى أن يستغنى ، والجاهل إلى أن يتعلم ، ونشأت أفكار جديدة واسعة الأفق بعيدة الأغراض تحب أن ترى الإنسانية متحدة فى سلم دائم وهناءة مقيمة ، بعيدة عن شريعة الغاب من اعتداء القوى على الضعيف ، تعمل لخير البشرية ورقيها والاستمتاع بما فى الدنيا من نعيم وجمال وثروات . فالأرض واسعة ، والناس سواسية ، والعمر قصير ، يجب أن ينفقه الناس فى الرفعة والمجد والإنتاج والخلود ، لنفع الآخرين والاستفادة من أياديهم والدنيا وطن واحد للإنسان إذا كان إنساناً حقاً ، يريد الخير لغيره والسعادة لجاره والنعيم للعالم كله . وبهذا تنادى الأديان كلها ، وينادى المفكرون كلهم ، وينادى شكيب بما نادى المصلحون قبله . والمهم أنه عاش مخلصاً لها مدافعاً عنها مجاهداً دونها بلسانه وقلمه بالعربية والفرنسية يلقى الأعداء فيناقشهم ، ويتوجه إلى الأصدقاء فيشرح لهم ، ويستلهم معانى الإسلام الرفيعة فى الجمع بين المسلم والمسلم ، والشرقى والعربى على أرض المحبة والسلام ، لا يريد بالفرنجة ضرًّا ، وإنما يريد أن يكفوا ضرهم عن هذا الشطر العزيز الذى أفنى عمره فى سبيله ، وظل منفيًّا بارادته من أجله .

ولقد استطاع الأستاذ الكاتب علال الفاسى أن يلخص جهاده فى سبيل الإسلام والمسلمين ، فقال يصف عظمة شكيب[1] :

« وحينئذ تتجلى عظمة شكيب ، فقد جعل من نفسه علماً تتجه إليه أنظار المسلمين فى كل أنحاء الأرض . لقد أصبح مكتب التنفيذ لمؤتمر إسلامى غير موجود ، ورئيس الديوان لخليفة إسلامى معدوم ، ومكتب الاستعلام والإعلام عن كل قضية وكل بلد للعرب وللمسلمين فيها حق أو نصيب . ولكن جهاده الإسلامى العام لم ينسه أبداً وطنه الخاص الذى هو بلاد الشام بكل أجزائها

(١) من دراسة مخطوطة أرسلها إلينا الصديق علال الفارسى جعلها فى محاضرة عن « شكيب والقومية » وتحدث فيها عن يد الأمير على المغرب وخاصة فى قضية الظهير البربرى .

بل إنه كان يخدم سوريا الكبرى بخدمته لقضايا المسلمين إذ كان يكفى أن تتوجه منه رسائل وبرقيات لدنيا المسلمين ، لكى تثور ضد فرنسا وبريطانيا والصهيونية ، وتتوالى الاحتجاجات من كل جهة على أعمال الاستعمار والصهيونية فى أراضى الشام » .

وهذه كلمة رصينة حكيمة فى خطة شكيب ، يقولها صديق عرفه سنين ، ورافقه وراسله ، وجمع عنه وأخذ من أقواله ، فعرف أن شكيباً « كان يدعو إلى الجامعة الإسلامية كرابطة سياسية واجتماعية بين مختلف الشعوب التى تنضوى تحت لواء العثمانيين » وعرف أن سياسته كانت واضحة ، وهى أن صالح العرب هو فى صالح اتحاد المسلمين وجمع كلمتهم : « وأن الخليفة مهما يكن وضعه غير طبيعى وحاله غير شرعى فإنه محور تلتقى حوله أهداف المسلمين » .

الفصل الثامن عشر

مع أعلام عصره

شوقي أو صداقة أربعين سنة

١٩٣٦

كتب شكيب مقالات كثيرة فى الأدب شعره ونثره ، وأرسل فى كتبه التاريخية شيئاً كثيراً عن النظم والنثر ، ولكنه لم يترك كتاباً واحداً فى دراسة أديب أو فى الحديث عن شاعر ، يصحّ أن يتخذ أنموذجاً ودليلا لأسلوب الأمير فى الدراسة والتحليل غير هذا الكتاب فى « شوقى » . فقد افتتح أدب المقفع ورسائل الصابى وغيرهما بمقدمات أدبية جميلة بسطنا أمرها ، ولكنها ليست كتاباً قائماً فى التحليل والدراسة . وأكثر الكتب التى ألفها شكيب كان سبب تصنيفها الود والحب ، لا يكاد يصنف كتاباً إلا إذا أحب موضوعه وكلف به ، وفكر فيه ، فأصبح جزءاً من نفسه . ولا شك فى أنه أحب شوقى لأنه كان على الصورة الحلوة التى يريدها شكيب لشعراء زمانه ، فى تعلقه بالمتانة والرصانة وفى سعيه لخدمة الإسلام والعرب .

ولقد كان شوقى نبعة جديدة ووحياً جديداً يصح أن يفخر قومه بنبوغه . حمل لواء الشعر الجميل ، فجمع فى برديه روعة القدماء فى الأسلوب ، وجنوحهم إلى الرقة والطبع ، ووقوفهم عند عمود الشعر العربى فى المتانة والجزالة واحترام الصيغ العربية والقوالب المتداولة ، وقفز أحياناً بمعانيه قفزات رائعة أحلته من الشعر الجديد محلا جميلا . ولكن الشرق العربى كان يضطرب خلال حياة شوقى فى تيارات مختلفة من الأدب ، لا يكاد زعماؤه يستقرون على مذهب شعرى ، فنشأت مدارس مختلفة بعضها ينظر إلى الشعر القديم عند العرب على

أنه وحده الشعر ، ويرى أن الشعراء المحدثين يجب أن يأخذوا به معنى ومبنى ليعيدوا سيرته الزاهرة وليرجعوا الأنغام القديمة إلى المسامع فقد ملت اللحن والضعف ، وكرهت الترخص فى التعبير والتصوير .

ومدرسة أخرى كانت تنظر إلى الشعر العربى على أنه تراث محترم مقدّس ، ولكنه وجد لزمانه ولا يصلح بمعانيه ومبانيه القديمة لزماننا ، فأراد زعماء هذه المدرسة أن يبدلوا فى النظرة إلى القديم وأن يثوروا لخلق شعر جديد يتصل بالشعر العالمى ، بحيث يصور الحياة التى يحياها الشعب العربى الجديد ، فى ميادينه المتحضرة وأن يعبر عن العصر وأمانيه وصوره ، وأن يطلق التقليد والقوالب طلاقاً بائناً لا رجوع بعده ، وأن يتحرر فى الوزن وفى الغرض وفى التعبير .

وبين المحافظين والمجددين نشأت فئات كثيرة ، تنوعت أهدافها حتى ما تحصى فى سطور . وذاق أحمد شوقى خلال هذه الحرب بين المتصارعين ما ذاق ، واكتوى بالنار ، فنقم عليه كثيرون قعوده عن تجديد صيغ الشعر وألوانه وصوره ، فقد كان يستطيع ذلك لوقوفه على الفرنسية ، واتصاله بالغرب وإقامته فيه .

ولكن أحمد شوقى ظل عاكفاً على الشعر القديم يشرب منه . وينهل ويعلّ . إليه يرجع وبه يرتوى ، وعليه يعتمد ، فيجد فيه سعة وغنى تمكنانه من رسم موضوعاته الجديدة ، وتصوير ألواحه التى خلف ، فكان صورة للشعر الجميل فى القرن العشرين ، وكان روحاً من العباسيين أو من الأندلسيين انطلقت من خلال القرن الثالث فتقمصت جسد هذا الرجل الحالم الشارد ، وهكذا وصل الأدب العربى بنسبه بينه وبين القدماء على انقطاع عشرة قرون .

وكانت المقالات التى ثارت حول الرجل كثيرة تملأ كتاباً ضخماً من كتب الأدب ، لو جمعت لكانت دراسة عجيبة . وبعض هذه المقالات كان حيادياً وبعضها كان شخصياً لا يعرف الحياد ، وبعضها يلم بكل شىء إلا بالنقد الأدبى الصحيح ، فالنقد الجديد كان حائراً كحيرة الأدب نفسه . وحيرة

السياسة نفسها . وذلك لأن الناس كان ينظر بعضهم إلى الغرب على أنه وحده الذى يعيش ، وأن العرب ما يزالون فى الصحراء ، وبعضهم يكره الغرب ويكره إلى ذلك كل ما يجيء منه .

ولما قضى شوقى كان العرب يلتمسون كتاباً فى الشاعر فلا يجدون . والكتاب يحوج إلى دراسة علمية تحصى السنين التى عاشها الشاعر ، وتتقصَّى قراءاته وترسم دقائق حياته وما أنفق فيها من ألم وفرح ، ومرض وصحة ، وما كان للوحى من أثر فى شعره ، وما كان للقراءة والأحداث من عمل فى قريضه .

وفيما كان القراء ينتظرون هذا الكتاب إذ طلع عليهم الأمير شكيب أرسلان بمقالات نشرها فى جريدة « الجهاد » ، ثم جمع أكثرها وطبعها فى كتابه هذا[١] ، يتحدّث فيها عن أحمد شوقى ، ويقص ما يعلم عن حياته ، وقد عرف الكثير عنه ، ولقيه وأحبه ، ورأى فيه صورة للشعر الجزل القديم ، تعيش ثانية فى أنفاس هذا الصديق الشاعر .

والحق أن هذا الكتاب لم يكن الدراسة التى ينتظرها الدارسون المحدثون التقدميون ، لأنه خرج على صورة تشبه الكتب القديمة التى ألفت عن الشعراء القدماء ، فيه الموازنة للآمدى ، وفيه الصبح المنبى عن المتنبى ، وفيه وثبات تلتمع من خلاله وآراء نادرة تشع من سطوره . والكتاب فى جملته حديث شخصى ومذكرات عن رجلين تصادقا وتحابا ، فقضى أحدهما وعاش الآخر ليقصّ ما كان بينهما . ولذلك أصاب شكيب حين جعل عنوانه « صداقة أربعين سنة » فالكتاب فى رسم هذه الصداقة الأدبية ليس غير .

إنها هذه الصداقة بين أديبين كبيرين عاشا أواخر القرن التاسع عشر وصدراً من القرن العشرين ، وتأثرا بمدرسة واحدة فى الأدب شعره ونثره ، وعرفا أهدافاً متقاربة فى السياسة وفى الدين وفى الاجتماع . وكلاهما أمير فى أدبه ، فشكيب أمير البيان وشوقى أمير الشعراء . وشكيب هو الذى اختار اللقب لشوقى

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٦ فى ٣٤٧ صفحة — وقد جاء عنه مقال فى مجلة العرفان ٢٧/٧٥٨ .

واقترحه عليه ليكونا على حظّ واحد فى الرفعة الأدبية ، وقديماً كان الشاعر يحبّ أن يكون أميراً أو ملكاً ، بل أصبح فى بعض العصور الأدبية أكثر الشعراء يسمون أمراء . كابن حيّوس وغيره . فالصداقة إذن وطيدة متينة ترتبط أصولها بكثير من الأسباب ، جمعت بين الرجلين على اختلاف مزاجهما فى الحياة .

ولم يشهد الأدب العربى أديباً أحب أديباً واعترف له بمثل اعتراف شكيب من غير أن يكون فى ذلك مدفوعاً إلى حاجة أو نفع أو كسب ، إلا فيما ندر من عصورنا القديمة . فإذا رافق هذه الصداقة بعض الكدر وبعض الاختلاف فى الرأى ، فإنه لم يفسد فى الحبّ قضية ، لأن الصديق الأديب لا يكون صورة لصديقه الأديب فى كل أشكالها وألوانها . وما خلق الله روحين على شكل واحد وفهم واحد وذوق واحد من غير اختلاف أو تباين ، لذلك وقع فى كتاب شكيب مالا ينصر شوقى .

وحين جمع شكيب مقالاته فى كتاب عن شوقى رأى أن النـــاس نسوا أمير الشعراء بعد حولين من وفاته ، وكان الأجدر أن يزداد حبهم لتقادمه ، وقد نصب نفسه منذ زمن ، كما قال فى المقدمة لنشر ذكرياته عنه ، وصرفه الزمن عنها ، لكن « إسعاف النشاشيبى » ألحّ على شكيب فى الوفاء بالعهد ، فكانت هذه الذكريات .

وطبعى أن تغصّ الذكريات بما يتحدث عن شكيب وعن شوقى على حد سواء ، نصف عن المؤلف ونصف عن المؤلف فيه ، فالذكريات مشتركة ، والحوادث متشابكة ، ولا بد فى الحديث عن شوقى من الحديث عن شكيب . لذلك كانت دراستنا عن شكيب وحياته تستمد من هذا الكتاب أكثر مادتها . وشعر شوقى يحتلّ جانباً كبيراً من الكتاب ، والجانب الآخر هو الذى يخصنا فى رسم طريقة شكيب وأسلوبه فى هذه الصفحات .

وهذه الذكريات تعتمد على الذاكرة فعلا فى كل شىء ، فى الأرقام وفى رواية الشعر ، وفى وصف الحوادث ، فهى قد تختلف عما عرف الناس ولكنها تضيف معلومات ثمينة جداً تصلح لكتاب فى شوقى ، كما تصلح المصادر القديمة

فى الحديث اليوم عن شاعر قديم ، يتخذ الدارس المواد الأساسية ، ويبنى عليها بحثه واستنتاجه . فكم من فقرة فى الصفحات تشير إلى كثير مما يجهل الدارسون عن حياة شوقى وعن شعره .

فالأمير شكيب دخل مصر وخرج منها سنة ١٨٩٠ ، وهو لم يسمع بشاعر اسمه شوقى ، فقد كانت شهرة الرجل قاصرة على وسط معين ، ولكن « الأهرام » فى تلك السنة نشرت شعراً فى مدح الخديوى توفيق بتوقيع « أحمد أفندى شوقى » . ونظر شكيب فى القصيدة فلم يشأ أن يضيع وقته فى قراءتها لأن الناظم كان مجهولا عنده . ثم قرأ له وقرأ فطرب وقال إنّ شوقى شاعر مطبوع ، لأنه رأى فيه « النسج الرقيق المتين والأسلوب الرشيق الرصين واللغة العربية الفصحى التى لا تؤتى من جهة ، والمعنى المتناهى فى الدقة ، اللابس من اللفظ أجمل حلة »[١].

هذا أسلوب شكيب فى الحكم على شاعر يقرأ له من غير أن يعرفه ، وهذا هو سر إعجابه به . فى لفظه وحلته وانسجامه ولغته ، ينبئ عن ذوق شكيب فى الدراسة وفى النقد ، وفى متانة العبارة ، والأمير نفسه يوازن فيقول فى قصيدة لشوقى : « فعند ما قرأت هذه القصيدة وجدتها من النوع المرقص الذى لا يقع نظر أديب عليه إلا اهتز له طرباً وراح نشوان . وكما قال هو عن نفسه كانت أبياته هذه من السهل الممتنع أشبه بشعر البهاء زهير لو اندمجت فى ديوانه ، ولم يقل أحد لقارئ الديوان إنها من نظم شوقى لكانت حقيقة بشعر البهاء زهير ، لا تقل عنه شيئاً ، ولو سمعها الحسن ابن هانئ لارتضاها لنفسه ولم يتكبر عليها »[٢] .

فهو يشبهه بالبهاء وبأبى نواس بعد أن قرأ له مرة ومرة ، فأصبح يترقب شعره ، ويتردد فى الموازنة بينه وبين البارودى .

وحلت سنة ١٨٩٢ ، وكان شكيب فى سياحة بباريس ، وكان شوقى

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٨ — وقد روينا هذه الجملة من قبل .

(٢) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٩ .

فى عطلة بباريس كذلك قدم من مونبليه ، وعمل القدر على اجتماعهما وتعارفهما فى مقهى واحد ، على سعة الحاضرة وكثرة السكان ، ووفرة المشاغل والمشاكل ، وتعدد الملاعب فى كل قلب ، وربطت بينهما الصداقة والود ، فقال شكيب : « حتى صرنا كأخوين ، وغدونا نجتمع كل يوم مرة بل مرتين ، وأكثر تلاقينا كان فى مقهى داركور » . وهذا المقهى يعرفه الطلاب ، إذ يصطفون على كراسيه يترقبون هلال الحظ ، أو صدقة الجمال ، تنساب أمامهم قوافل المارة وجحافل الزوار على شارع من أحفل الشوارع بالحى اللاتينى فى منظر عجيب ، لو رآه الطيار من عل لشبهه بالنمل الصاعد النازل على خطوط طويلة ساعياً وراء عش يبنيه مما يجمع ومما يدخر . . .

ويلتقى الأخوان الأميران بعد ست وثلاثين سنة فى باريس بمقهى « داركور » كذلك ، ليتحدثا فى الشعر طبعاً ، ومع شوقى ديوان المتنبى وصديقه محمد عبد الوهاب ، ومع شكيب ذكريات لا تنفد عن الشعر القديم ، فهو من رواته . وينقضى الشهر فى باريس ، على صحبة أخوين فى سن واحدة من بلدين شقيقين .

ويتفرق الجسمان ولكن الخاطر والضمير كما قال شوقى ظلا متعانقين ولبث الصديقان يتكاتبان ، ويبث كل منهما صديقه ما فى نفسه ، وذلك لأن شكيباً وصف نفسه فقال : « ومن نعم الله علىّ أنه عافانى من داء الحسد الذى قد يبتلى به الكثيرون لا سيما من رجال الأدب الذين لا يزال الواحد منهم يتعقب ويترقب حتى يجد لأخيه غلطة يبرد غلته بتكرارها وتنبيه الأفكار إليها » . فقد خلا من حسد أخيه ، وافتخر بنبوغه ، ورأى أن شوقى وقف نفسه على الشعر فصار له غراماً « فهو آناء ليله يفكر فى الشعر ، وأطراف نهاره يستنبط المعانى الغريبة ، وكلما عنّ له معنى قيده ، وكلما انفتق فى ذهنه مرمى أحرزه ، وهيأ له قالباً رائعاً حتى إذا جاءت أول فرصة أودعه إياها » . هذا كلام ناقد عارف بالشعر ، عمل فيه واشترك فى صنعه ، فوصف الصنعة وصفاً دقيقاً ، لأنه ابن الحرفة وقف على أسرارها ، فكشف عنها الأستار . ولم يكن شكيب كما رأينا

ناقداً للشعر فحسب ، وإنما كان قبل ذلك حائكاً ، كما يقول فيه القدماء ، لذلك استطاع أن يصف شاعرية شوقى .

وقال فى صدد هذه الشاعرية أقوالا حسنة صادقة بارعة ، لا تلم بشوقى وحده ، وإنما تلم بالشعر كله وبالشعراء جميعاً ، فهو يرى أن نفوس الأدباء لها أوقات صفو وأوقات كدر ، وأنها فى أوقات الصفاء قد تخلق معانى لا تتأتى لها فى كل حين . ويقول : « وربما لاح فى فكر الأديب خاطر فى إحدى السويعات لو استرسل فيه لأتى فيه بالعجائب ، على حين أنه إذا أنشده فى وقت آخر ، وحاول أن يستأنف ما كان يلوح له فى ساعة الصفاء لوجد زنده ، فيه صَلداً ، ورأى أنه يهيب بتلك الخواطر السابقة فلا تجيبه ، ويطمع أن يقتنص تلك الشوارد التى كانت بين يديه فإذا هى الآن لا تطيعه ومنها ما ذهب غير معاود ، ومنها ما عصى غير مقرن . ولذلك كان يجب على الأديب شفاف الطبع أنه إذا عنّ له فى سويعات الصفاء معنى مبتكر أو خاطر شريف ، ووجد هذا الموضوع منثالا عليه أن يسرع إلى قيد أوابده ويأخذ القلم فيحرره ، وإذا كان شعراً نظمه، وإذا كان نثراً دبجه حتى لا يفوته فيما بعد »[1] . وهذه كلمات أستاذ فى الأدب جديرة بالحفظ ، لأنها ترسم « تجربة الشعر » عند الشاعر ، وشكيب من خير من يصفها ، وهى نصائح للمتأدبين شبيهة بالنصائح القديمة التى كان يرسلها صاحب العمدة أو يرسلها مسلم بن الوليد[2] لتلميذه دعبل ، وقد أراد له أن لا يظهر على النــاس أول ما يظهر إلا بشعر متين قوى ليعرف به .

ومن الخير للأدب أن يكتب الشاعر عن شاعر ، فإن لم يوفق فى رسم حياته فإنه بالغ مبلغاً عظيماً فى رسم أدبه وتفاعله مع الأدب ، كما يقول المعاصرون . وهذا هو الجيد فى هذه الذكريات ، يكتبها شكيب الشاعر عن شوقى الشاعر . فيتخيل كيف ينظم وكيف يقيد الشوارد ، وكيف يرمى بسهمه

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢١ .

(٢) انظر مقدمتنا لديوان صريع الغوانى ، وقد طبعناه بمصر ، فى ذخائر العرب .

وراء الطرائد . وكيف يبلغ إلى التوفيق فى صيده . ولم نسمع بهذا أو بمثله فى تحليل شوقى وشاعريته لكتاب آخر غير هذا .

ويتابع شكيب فيقول : « ولا يجوز للشاعر أن يجعل السياسة أو الاقتصاد أو الصناعة أو الفقة أو شيئاً آخر من مناحى الحياة فوق الشعر ، بل ينبغى أن يكون الشعر هو غرضه الأول ، وأن تدور حياته من حوله ، فجميع المشاغل تكون له فضلة ، ويكون الشعر هو العمدة » ونحس فى هذا القول أسى شكيب لانشغاله عن الشعر بغيره ، فإن لم يكن أسى فهو تحليل للأسباب التى قادت شوقى إلى النجاح ، وجعلت منه شاعراً كبيراً ، لأنه انصرف تماماً إلى الشعر فلم يشغله شاغل ، كما يريد أن يقول ، وكما قال عنه مطران « إن شوقى كان يفكر فى الشعر قاعداً وقائماً وحاضراً وبادياً وسائراً وسارياً ، وفى المركبة وماشياً . . . » .

وهذا الالتفات إلى الشعر جعل من شوقى شاعراً ، لأنه انصرف إليه ولم يشركه بغيره وقلّما زاول إنسان عملين إلا غلب أحدهما عليه أو قصر فى الاثنين معاً . أما أن شوقى خص شعره بالأمير فلصق به وسمّى باسمه فذلك لا يزرى بالشاعر كما يرى شكيب لأنه يمدح المقام لا المقيم — كما بينا فى ثنايا هذا الكتاب — والمقام رمز الأمة وعنوان الملّة ، ومديحه إشادة باستقلال وطنه فى وجه الغاصبين ، فليس فيه تزلف ، وإنما هو دعاء فى الشعر ، لنصرة الوطن ومليكه ، كدعاء الخطباء فى الجوامع سواء بسواء . وهذا الكلام كما قلنا ينطبق على شعر شكيب وشوقى معاً .

وقد وصف الأمير شاعره شوقى بنزاهة اللسان وعفة الضمير ، فما هجا ولا رتع فى لحوم الناس ، فكان زكى الطبع راجح العقل طاهر اللفظ ، تباعد عن كل نزاع ، وترفع عن القال والقيل .

وزار شوقى لبنان فاستضافه شكيب ، واجتمع الشمل والشمل فى صروح « صوفر »[١] العالية ، ولكن الإقامة كانت قصيرة لأن شوقى « كان أشبه بالطير

---

(١) مصيف من مصايف لبنان العالية على الطريق بين بيروت ودمشق .

يريد أن يبقى حرًّا طليقاً » . وتناشدا الشعر ، من غير شك ، وزادت الألفة بينهما فيما نحسب ، ولكن الأمير يزور مصر بعد ذلك فيصف جفوة فى شوقى لعلها فيما يقول بسبب قربه من الخديو أو بسبب آخر يحار فى وصفه . وهكذا كان فى الذكريات كدر شاب علاقتهما — كما قلنا — ولم يكن صفواً كله .

والتقى الرجلان بعد ذلك فى استانبول ، لقاء قصيراً ، ثم كان لقاء باريس الذى وصفنا فى مقهى داركور ، والرجلان فى سن الشيخوخة فراحا يجتمعان فى مقهى الجامع ، وفيه كانا ينصرفان إلى سماع الأغانى والمنادمة والطرب ، فكانت ساعات حلوة ، أبقت فى نفس شوقى أثراً كبيراً ذكره حين عاد إلى مصر ، ورسمه فى جريدة « الشورى » للكاتب المجاهد « محمد على الطاهر » ، نقله شكيب كذلك إلى كتابه على صفحات .

وختم اللقاء الطويل ، وأعقبه لقاء قصير خلال ساعات فى السويس والأمير فى منصرفه من الحج سنة ١٩٢٨ ، قدم إليه شوقى فى جماعة من الأصدقاء ، وكان سرور وفرح ، وكان هذا آخر لقاء بين الرجلين ، فكان الوداع الأخير بين أخوين ربطت بينهما وشائج الأدب ووسائل الشعر ، فقضى شوقى سنة ١٩٣٢ ، ولقى ربه بعد أربع سنوات من هذا الوداع .

ويلاحظ القارئ أننا سرنا على منهج عجيب فى الحديث عن كتاب شكيب فى شوقى سيراً لا يخلو من استطراد وتعريج ، نقطعه كثيراً بأخبار اللقاء والسفر والزيارة والاجتماع ، وذلك لنساير أسلوب شكيب فى كتابة ذكرياته ومقالاته ، فبينما يتكلم عن الشعر يتكلم عن السفر ، ويعود إلى هذا وهذا من غير منهج ثابت . وهو فى ذلك صورة من الأدب القديم تابعناه فيها صفحة بعد صفحة . لنشير إلى حياة الرجلين وما كان من صلاتهما ، وهذه الإشارة تنفع فى فهمهما جميعاً ، بل تنفع فى حياة شوقى لأنه لم يخلف لنا ذكرياته ولم يجمع الأدباء كثيراً منها ، كما جمعوا لغيره . فلعله كان يكره الحديث عن نفسه ، وعن مشاعره الخاصة ، فحذف من الشعر والنثر ، والمقدمات ما أراد أن يحذف ،

وترك « الشوقيات » غفلا من كل دليل . وكتاب شكيب هذا يعين الباحثين فى هذا المناحى .

وذكر شكيب ما كان من أصدقاء شوقى ومن أعدائه ، وحكى ما كان من نقد حوله ومدح فيه . فبسط نقد اليازجى فى رواية شوقى « عذراء الهند » ، ومآخذه على أمير الشعراء فى اللغة واستعمالاتها . وذكر أن النقد نشر فى مجلة « البيان » لليازجى ، وأنه ثار باسم شوقى للرد عليه ، ونشر شكيب رده ، فكان مع الحق فى تخطئة شوقى أو فى الدفاع عنه ، وهو ردّ لغوى — تحدثنا عنه فى فصل آخر — استغرق صفحات من هذه الذكريات ، ليست بالقليلة وليست بالهينة . وليس هذا الرد وحده الذى أنشأه شكيب ضد اليازجى ، وإنما أنشأ ردّاً آخر على أديب انتقد رثاء شوقى فى عبد العزيز جاويش . فدافع شكيب عن ركاكة شوقى — على دعوى القوم — وأشاد بلغته وأخذ عليه بعض التعقيد ، وشبهه فى ذلك بالمتنبى . فكانت هنات من أحمد المتنبى ومن أحمد شوقى على ما بينهما من الزمان . وقديماً قال ابن خلدون إن المتنبى والمعرى لم ينسجا على أساليب العرب ، وهما هما ، فكيف يكون حال شوقى ؟

وأما القصائد التاريخية لشوقى فقد عرض لها شكيب وعرج خلال ذلك على التاريخ العثمانى فأفاض فيه ، وهو ملم به معاصر لأحداثه ، وقرأ علينا نماذج من شعر شوقى رأى أنها مختارة وأنها منيفة على غيرها ، وللناس أذواق كما قال ، وقد يرى الواحد مالا يرى الآخر ، وهو يلمح إلى وفائه لشوقى بكلمات نحبّ أن نرويها ؛ فهى من صمم الأدب ، يتخيل شكيب أن صديقه الشاعر بعد وفاته قد نظر إليه من برزخه وأطل عليه من نافذة الغيب ، وحدّق به بعيونه قائلا : أهكذا تنسانى يا أخى ؟ فيجيبه قائلا[1] :

« لو نسى عهدك الأولون والآخرون لما خفرتُ لك عهداً ولا مذقت لكَ ودّا ، وإنك فى الغيب عندى لكما فى المشهد ، وأنت تعلم أنها صداقة أربعين سنة ، تساقينا كؤوسها صفواً بدون قذى وتبادلنا رياحينها عفواً بدون أذى .

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ١٢٥ .

« فانْ أظمأ عهدك النسيان فلى مدامع ترويه،وإن شطّت بشعرك النوى فإن الدّهر كله يرويه ، وإنه وإن بكاك الناس حبًّا بالأدب ورحمة للسان العرب ، فإنى لأبكيك بصفتين : صفة الأديب البر بلغته ، الغيور على صناعته ، وصفة الأخ الضنين بأخوته ، الحريص على مروءته ، فأنا فى مقدمة من لك من الإخوان والأتراب الذين يبكون فضلك ويذكرون عهدك إلى آن يواورا فى التراب » .

وهذه سطور صادقة تبين عن وفاء عميق وشعور شريف ، فقد كان الأمير فى شغل شاغل بالغرب ، يدافع عن قضايا سورية والعرب جميعاً ، ويعمل ليل نْهار للسياسة وبلجمعية الأمم ، ويسافر ويكتب ويخطب ويراسل ، فإذا تفرغ لصديقه شوقى فى هذه الصفحات الطويلة ، فقد أحله مكاناً عظيماً وشغل به قلمه عن حب وعن إخلاص لا شك فيهما ، فلم يصدر عن قلمه مديحٌ كهذا المديح . ولقد رأينا أن دراسته لديوان أخيه لم تستغرق صفحات عدة. وسنرى فى دراسته للسيد رشيد رضا على ضخامة الصفحات أنه لم يسترسل فى مديحه كما فعل هنا. وهو على ذلك يعتذر عن التعليق على أبيات شوقى وقصائده، ويقول : إنه لو فعل لأسال صفحات كثيرة فيه ، وإنما يعرف عمله بقوله[1] : « وإنما هى رسالة توخينا فيها تجديد ذكرى شاعر كبير ، وتسجيل علاقاتنا مع أخ قديم ، إنجازاً لوعد قطعناه على نفسنا يوم فجعنا به ، والإخاء إخاء فى الحياة وبعد الممات ، وعلى اللاحق أن يحفظ عهد السابق . وأرانى قد أشفقت على عهد شوقى أن ينسى » .

فالكتابَ مقالات فى ذكرى صديق ، وليس فى دراسة الشاعر كما قلنا فى صدر الكلام ، فلا يعتمد على تحليل المحدثين من إشراك الجغرافيا والتاريخ وعلم النفس والفلسفة والمنطق فى فهم الرجل ومكانه وزمانه . ويبدو أن الأمير شكيب لا يؤمن بهذا اللون من التحليل . ويشفق على نفسه أن يأخذ به ، فيسخر منه بأسلوبه قائلا :

---

(١) المصدر المذكور ، ص ١٣٥ .

« فأما أسلوب التحليل الذى درج عليه بعض أدباء هذه الحقبة الأخيرة من هذا العصر ، يذهبون فيه مذاهب الإفرنج لا فى المعنى فقط بل باللفظ تقريباً . ويورد الواحد منهم البيت ، فيأخذ بتشريحه من وجهه ومن قفاه ومن أسفله ومن أعلاه ، ويشير إلى ما هنا من عاطفة جريئة ، وما هناك من ابتسامة بريئة ، ويستعمل فى الوصف تلك الألفاظ الأوربية التى ليس فيها من العربى إلا الحروف ، بحيث إن كثيراً من العرب لا يفهمون منها قليلا ولا كثيراً ، فلسنا من هذا الأمر فى قبيل ولا دبير[1] » .

وهذا الكلام نسوقه ونستشهد به لا لنتحدث عن كتابه فى شوقى فحسب و إنما لنشير كذلك إلى طريقة شكيب فى تحليل الأدب ورسم الأدباء ، فهو كما قلنا دائماً محافظ على أساليب العرب ، وهو يريد كتابه صورة للنقاد القدماء الذين ألفوا فى البحترى وفى أخبار أبى تمام ، لأن طريقتهم فى رأيه ما تزال هى المثلى . وهو يعترف بأنه لو أراد أن يقلد الأوروبيين لكتب مثل هذه الفصول التحليلية بلغة أوربية ولكنه يكره أن يطبق الطريقة بحروف عربية فلكل أمة أدبها ولكل قوم مشربهم . ولعله يقصد إلى إبعاد طريقة الغرب عن كتاباتنا التحليلية ، وأن لا نسرف فى سرد أعلام غربية ، فهذا تنطع فارغ وتحذلق غير سائغ ، والشعر شىء والعلم شىء آخر — كما يقول — .

والأمير شكيب يتحدث عن شعر شوقى وألوانه على طريقة الموازنة ، فيورد شعره ، وشعر غيره ممن سبقه أو عاصره ، وبذلك سرد كثيراً من مختار الشعر الطيب فى فنون المديح والرثاء والحكايات والملاحم أو الشعر التاريخى ، والوصف ونستطيع أن نحكم على ذوق شكيب بما روى من شعر كثير فى تاريخ المصريين الفراعنة وفى الدين الإسلامى وفى الأنبياء جميعاً وخاصة فى السيد المسيح ، ولا تسل عن الأحداث التاريخية التى أجراها على قلمه السيّال خلال هذا الحديث ، فكانت عبرة للمعتبر ، وخاصة فى النكبات التاريخية ، فقد تحدث عن حال المسلمين خلال تسعين سنة انقضت بين فوز الصليبيين باسترجاع نيقية (فى

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣٦ .

الأناضول) سنة ١٠٩٧ إلى واقعة حطين ، فرسم الصليبيين يسرحون ويمرحون فى ظل فوضى الإسلام فقال[1] :

« فإنه ما رأى الراءون ولا روى الراوون ، ولا يمكن أن يتصور العقل مهما كان واسعاً ولا الخيال مهما كان خصباً درجة الفوضى التى كانت عليها الدول الإسلامية وقتما زحف الصليبيون إلى الشرق . فى كل بلدة أمير ثائر على سلطانه ، وفى كل قصبة شيخ ثائر على أميره ، وفى كل قطر دولة تناوىء أختها ، وفى كل مملكة وزراء يمدون أيديهم فى الخفاء إلى أعداء دولتهم ، والفاطميون فى مصر حرب على العباسيين فى بغداد ، والسلاجقة حرب بعضهم على بعض ، بين فرع ألب أرسلان أصحاب فارس وفرع قطولمش أصحاب قونية ، والأناضول وجميع السلاجقة أعداء للدانشمنديين أصحاب شرقى الأناضول . وهذا كله سهل لا يعد شيئاً بالقياس إلى فوضى سورية التى كان كل من فيها تقريباً يريد أن يكون مستقلا .

« فالشام فى يد دقاق السلجوقى ، وحلب فى يد رضوان أخيه ، وهما يقتتلان برغم أنهما أخوان ، وحماة فى يد أمير ، وحمص فى يد أمير آخر ، وطرابلس لها أمراء ، وفلسطين يتقاسمها الفاطميون والسلاجقة ، ولا يقيم العامل فى عمله أكثر من أشهر معدودة حتى يثور على دولته طمعاً فى الاستقلال » .

ثم رسم الفواجع التى حلت والفتك الذى وقع ، والشقاق والعداء ، وحصد الرءوس بلا استثناء ، واستئصال الأهالى المسالمين كالمحاربين ، وإتلاف النساء والشيوخ والأسرى ، والتجاوز على الأعراض ، وإنزال المعرات ببيوت الصون والستر مالا رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على بال .

ولم يكن الأمير لينسى أنه يكتب فى شعر شوقى وفى رسم صداقته له ، ولكنه لم يكن ينسى كذلك أن مهمته فى حياته هى دعم العروبة والإسلام والنضال عنهما ، وأن كل حادث وقع فى الماضى يمكن أن يتكرر فى الحاضر ، وأن عليه كمصلح عربى وزعيم إسلامى أن يرتفع إلى مستوى الذروة فى نصح

---

(١) المصدر المذكور ، ص ١٩٤ .

قومه وفى استعراض تاريخهم كلما مرّ بحادث من أحداثهم . فلما عرضت له وقائع الصليبيين فى قصيدة «شوقى» عاد بنظره إليها ، فجلا الغامض ، وطرق أمر الانتصارات والإنكسارات ، فقد رسم شوقى فى قصيدته الأيام المظفرة ولم يرسم غيرها ، ورأى شكيب أن يكمل اللوحة وأن يتحدث فى الفشل ليفيد قومه منه ، فعرض لتاريخ قومه فى سورية آنذاك يصف لنا فى مرارة صفحات فاجعة من تاريخنا فيقول[١] :

« وما كفى تمزيق المسلمين بعضهم لبعض حتى نجمت منهم فرقة الإسماعيلية الحشاشين وتمالئوا مع الإفرنج ، وصار هؤلاء كلما خشوا عادية أمير مسلم يرون فيه خطراً عليهم أو يبدو لهم منه أنه يسعى فى جمع شمل الإسلام رموه بهؤلاء الحشاشين فذهب هؤلاء واغتالوه . وقد يكونون فى هذه المؤامرة فى اتفاق مع أناس من ملوك المسلمين وذلك كما اغتيل مودود قائد الجيش السلجوقى الذى جاء لاستنقاذ مسلمى سورية فخاف طغتكين أمير دمشق من مغبة الأمر وأرسل من اغتاله فى الجامع الأموى وهو يصلى ، وكان ذلك بتواطؤ بين طغتكين والصليبيين . وكما اغتيل برسق صاحب حلب والموصل وهو يصلى فى جامع جامع الموصل وكان من كبار المجاهدين . وكثيراً ما جاءت جيوش جرارة من آل سلجوق مجتمعة من فارس والعراق والجزيرة لأجل استخلاص سورية من أيدى الإفرنج فلم تكن تصل هذه الجيوش إلى سورية حتى تجد كثيراً من أمراء المسلمين فى سورية قد انحازوا إلى الإفرنج ووقفوا صفاً واحداً معهم فى وجه تلك الجيوش الآتية لاستنقاذهم وقاتلوها أشد قتال . ثم ترجع هذه الجيوش إلى بلادها وتترك المسلمين فى سورية بإزاء الإفرنج فيعود الإفرنج ويكرون على المسلمين ، وينقضون العهد الذى كانوا عاهدوهم إياه ، ويذبحون الرجال والنساء والأطفال ثم لا تجد المسلمين يتوبون ولا يذكرون ، ولا تجد مع ذلك أمراء الإسلام فى سورية مستفيدين أى عبرة من نكث الإفرنج المتكرر ولا متناهين عن غيهم وغرامهم بالشقاق وقتال بعضهم بعضاً » .

(١) شوقى أو صداقة . . . ص ١٩٥ .

ولا شك فى أن هذه الصفحة من تاريخنا تبعث الأسى والحزن ولكنها تفيد العبرة والعظة ، وتلقن العرب درساً قاسياً فى مضرة الاختلاف والشقاق والتكالب على الحكم ، وتحبب إليهم الوحدة والتكاتف فى الظروف الحالكة. وهذه الصفحة تحز فى نفس شكيب وتؤلمه وتثير فى نفسه شعوراً لا يشبهه أى شعور ، فهو يعرف تاريخ الإسلام ويعرف دقائق تاريخ العرب ، ولا يستطيع أن ينسى الأفراح والأحزان وهو يقرأ هذا التاريخ ، لأنه تراثه وعزه ، فأفراحه أفراحه وأحزانه أحزانه ، لذلك لا يستطيع أن يمسك قلمه عن الخوض فى وحدة العرب وعزة الإسلام وهو يقرأ شعراً فى هذه الوحدة وهذه العزة ، لأنه وقف حياته على النضال فى سبيلهما وطوّع قلمه فى خدمتهما مخلصاً وفياً .

والأمير يعرف أول من يعرف أن هذا الشقاق وجد فى كل أمة ، فهو يقول إنه فى كل مكان وقد وقع بين الصليبيين أنفسهم ،ولكنه يربأ بالعرب والمسلمين أن لا يتعظوا وأن لا يتنبهوا بالأحداث ولا يرى لهم أن يشبهوا غيرهم من الأمم فى هذا ، فهم خير أمة أخرجت للناس ، لذلك يندد « بالفوضى الإسلامية وما جنته على المسلمين » .

وتطول ثورة شكيب فى هذا الكتاب ، فيضرب الأمثال من شعره نفسه فى حال المسلمين حين الحروب الصليبية ، ويصور ظلم الفرنجة فى بلاد العرب وحلم العرب حيالهم ، وذلك لينتهى إلى إجلال شوقى لأنه نصر المسلمين بشعره ، وكتب قصائد كالملاحم فى تخليدهم ، فلقبه بالشاعر الإسلامى ، وأورد من شعره فى الإسلام والمسلمين وأطال حتى لكأنه عقد أكثر الكتاب فى نصرة العقيدة وأصحابها ، وعرض لقصائد شوقى فى النبى الكريم ، فبسط الأبيات فى شجاعته ودعوته ورسالته ، وتأثر بها فقال[١] : « وختم شوقى هذه القصيدة بأبيات فى غاية التأثير تذوب لها القلوب حسرة وذكرى ، وتتحدر العبرات شفعاً ووتراً ، وتشهد لشوقى فوق شهادات لا تحصى بأنه شاعر الإسلام بجميع جوارحه رحمه الله ، وجزاه عن الإسلام خيراً » . ولعل الذى جمع شوقى وشكيب هو

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢١١ .

العمل للإسلام . بل لعل الذى حببه إليه هو هذه الروح الإسلامية التى رآها شكيب فى شعره فكأنه جعل عنوان تأليفه « شوقى والإسلام » . فقد عملا معاً فى سبيل الخلافة عملاً متشابهاً ، فانتصرا للعثمانيين وأنشدا فيهم قصائدهم ، وانقلبا عليهم حين انقلبت دولتهم على يد الكماليين إلى دولة بعيدة عن الإسلام .

وشكيب يرى أن شوقى كان من أبصر الأطباء بعلل الإسلام الحاضرة ، ومن أكثرهم معرفة بجوهر الدين ، ومن أوفرهم فهماً للرسول الأعظم ، فقصائده فى النبى ترسم الدين الإسلامى أجمل رسم وأصدقه ، وأشعاره فى نصرة العثمانيين ضد الأوربيين تعد من أبلغ الشعر وأحلاه ، وكذلك أشعاره فى نصرة العالم العربى على اختلاف دوله ، فقد جعله فى الإشادة بثورة الشعب فى كل قطر ، فى سورية وطرابلس الغرب وغيرهما .

ويستمر شكيب فى عرض الديوان على الموضوعات الباقية فى المدح والرثاء والوصف بأسلوبه القديم مستطرداً على عادة كتب النقد فى القرن الثالث أو الرابع من غير تبويب أو تنظيم أو منهج مرسوم ، فهو جملة مقالات متتابعة وذكريات متلاحقة تشيد بذكرى الشاعر الخالد أحمد شوقى وبسط أياديه على العرب والمسلمين ، والأدب العربى كله ، يوازن فيه بين شعر شوقى وأشعار القدماء فى الموضوع والأسلوب ، فيدل على سعة فى العلم وبسطة فى الفهم وغنى فى تراثنا العربى ووقوف على كتبنا القديمة .

وجملة القول فى شكيب أنه أديب عربى يقع من عصره وزمانه فى الموقع الجليل ، فهو يصور البحث لأيامه ، والكتب لعهده ، إذ كانت تعتمد على السرد والرواية والموازنة والاستطراد ، مع غير أن تمس أسلوب الغربيين فى تحليل الأدباء مع أن الرجل اتصل بالأدب الغربى وهو فى لبنان : فلما سافر إلى الغرب عاش مع كتب العرب لينصر العرب ويشيد بأمجادهم فلم يتعلق بأساليبهم وتآليفهم .

الفصل التاسع عشر

مع أعلام عصره

السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة(١)

١٩٣٧

عاش شكيب حياته كلّها لغرضين اثنين ، عمل لهما خلال أربعين سنه كما استطاع أن يعمل ، موزع القلب بينهما ، هما الجهاد الأدبي في سبيل التراث العربي والجهاد السياسي في سبيل الأمة العربية الإسلامية . وقد أخذ كل منهما من وقته ما أخذ الآخر ، واستنفذ طاقته في سبيلهما جميعاً ، فلم ينتصر في أي منهما كما يجب أن ينتصر ، لأنهما لم يخلقا لرجل واحد ، ولم يكتبا لقلب واحد في الحياة . فالأدب شيء ، والجهاد السياسي شيء آخر . ولكن الأمير شكيب أراد أن يملك البيان وأن يملك السياسة معاً وأن يكون في كليهما لا يخفق ولا يتأخر ، فلم يكتب له أن يكون كما أراد . ولو خص شكيب نفسه بالبيان وحده وانصرف إلى الشعر والنثر والتأليف في التاريخ الإسلامي لكان نادرة الزمان وواحد العصر ، ولو خصّ نفسه بالسياسة وحدها لكان زعيم البلاد العربية والإسلامية وحده لا ينازعه في المنصب والمقام منازع . ولكنه سار في السبيلين معاً وانصرف إليهما جميعاً فأصبح شيئاً كثيراً في الأدب وأصبح شيئاً كثيراً في السياسة ، ولكنه سجل في كليهما هنات تؤخذ عليه وتقصيراً يشار إليه .

ألف في شوقي فلم يكن زعيم النقد وإمام الأدب ، وألف في « رشيد

(١) طبع في دمشق ، بمطبعة ابن زيدون سنة ١٩٣٧ ، في ٨١١ صفحة .

رضا »(١) فلم يكن زعيم السياسة الفرد ، لأن قلمه فى الكتابين معا كان صورة لحياته ، وحياته كانت موزعة بين هذا وهذا . لم ينصرف كل وقته إلى الأدب فيؤلف فى الأعلام الذين عرفهم والشعراء الذين قرأ لهم ، وفى الشعر والنثر اللذين عاصرهما ، وهو أديب ناثر مترسل من الطراز الرفيع ، وشاعر قوى ذو أسلوب متين . ولم يجعل أوقاته كلها للسياسة العربية ، ولم يعش فى معمعان هذه السياسة وفى قلب هذه المعركة ، فلم يقم فى البلاد العربية خلال جهاده فى سبيلها ، وإنما كان بعيداً يترصد أخبارها ، ويتلقى أنباءها عن الصحف والرسائل والكتب المؤلفة والأنباء المذاعة ، تتضارب فى سمعه كما تتضارب الموجات المتصارعة فى قلب المذياع ، لا يكاد يتبينها السامع إلا بشق النفس وإعمال الفكر والقياس . ومع ذلك كان شكيب يبدى فيها رأيه ويرسل فيها مقاله ويكتب فى أمرها رسائله ، فإذا هو يخطئ كثيراً ويصيب كثيراً ، فى فهم هذه السياسة ، فلا هو يستطيع توجيهها ، ولا هو يستطيع أن يتقبل التوجيه على علاته . وذلك لأنه كان يستمد آراءه فى حاضر العرب والإسلام من مصادر قد يعلق بها الظن والتجريح ، فإذا شك عاد إلى التاريخ القديم يستوحى صدق النبأ وصحة الرأى ، فيقع فريسة التفسير القديم للأحداث الجديدة وليس هذا التفسير دائماً صحيحاً وقوياً صادقاً ، ينطبق أتم الانطباق من غير نظر إلى فارق الزمن والظروف .

فالأمير إذن كان يعيش فى جهاده السياسى على ما يتلقى من الأنباء ، يتصل بالعالم الإسلامى كله ، يراسل رجاله وزعماءه ، ويقرأ فى سويسرة وفى غيرها بأوربة ، لينتهى إلى حكم فيها وخطة للسير عليها ، فكانت هذه الأنباء عزيزة عليه ، لأنها كانت سمعه وبصره ، يرى بواسطتها ويسمع بها ، ليعود بفكره وعقله إلى البلاد العربية ليفهم أحداثها وما يقع فيها من تطور ودسائس وأحابيل ، وكان فى هذه الأنباء العزيزة جملة الرسائل التى تصله من العالم العربى والإسلامى ، ومن أعظم هذه الرسائل ما كان يبلغه من أخيه وصديقه وصفيه « محمد رشيد

(١) تكلم عن الكتاب الدكتور كاظم الداغستانى فى مجلة الطليعة ٤ / ٢٣٣ ، ونشر عنه مقال بالمقتطف ١٩٣٨ ص ٩٠٩ ، وفى الهلال ٤٧ / ١١٤ ، ومجلة المجمع العلمى العربى ١٥ / ٣١٦ .

رضا » ، وهذه الرسائل هامة لأنها موضوع هذا الكتاب بل إنها كل هذا الكتاب .

والكتاب ضخم فى ثمانمائة صفحة أو تزيد ،نشر فيه شكيب أكثر ما وقع له من رشيد رضا ، فصدر كتابه بترجمة الرجل بقلم رشيد رضا نفسه ، ثم نشر ما قاله شكيب قديماً فى صديقه وما قاله بعد ذلك فى تأبينه ، ونشر شعر رشيد فى مقصورته المطولة التى نظمها فى زفاف عبد القادر المغربى[1] بلديه وصفيه وهذه الصفحات تبلغ الثلاثمائة تقريباً ، أتبعها فى خمسمائة صفحة برسائل كتبها رشيد رضا إلى أخيه شكيب منذ سنة ١٩٢٢ — ١٩٣٥ قبيل وفاته ، وهى حقبة قصيرة فى سنيها لكنها كانت حافلة بالأحداث الجسام تغص بالمؤامرات والمقالات والكتب والآراء ، التى كانت تملأ أسواق البلاد العربية وتطرق أسماع الناس جميعاً . وهذه الرسائل صريحة جريئة تحمل الأسماء واضحة والإشارات بينة ، لأنها قامت بين أخوين يبدى كل منهما لأخيه رأيه فى غير جمجمة أو غمغمة . فليست الرسائل مقالات تعد للجماهير وإنما هى أسرار تنتقل داخل مغلفات فيها أسى وحزن وفرح وقطيعة ونقاش لم تجعل للنشر والإذاعة ولكنها كتبت لتفصح عن نجوى النفس للنفس وحديث القلب للقلب ، فى أساليب جميلة كان بعضها فى أمور عادية من ملابسات الحياة المادية ،تتصل بعيش رشيد رضا وماله ومطبعته ومجلته ومنشوراته ،وبعضها فى أمور عالية تهم الوطن العربى كله ، وتبحث فى مآل الأقطار الإسلامية . ولكن طابعها الجميل هو الصداقة بين رجلين اتفقا فى الدفاع عن العرب والإسلام . واختلفا فى طريقة الدفاع وأسلوب العمل ، ولم يمنعهما هذا الاختلاف من أن يجعلا أيديهما معاً فى سبيل المصلحة العامة ، وأن يبنيا معاً لبنات خيرة فى صرح الوطن الكبير ؛فالأعمال بالنيات ،

(١) كان عبد القادر المغربى زعيماً من زعماء الإصلاح وكاتباً من خيرة الكتاب عمل فى الصحافة بمصر . ثم ركن إلى دمشق فكان عضواً عاملا للمجمع العلمى العربى بدمشق وظل يعمل ويؤلف ويحبر المقالات حتى وافته المنية فحزنت دمشق ، وبكاه فطاحلها ، وخسره الأدب والإصلاح — انظر دراسة الدكتور محمد أسعد طلس فى ترجمة المغربى وآثاره نشرة المعهد العالى للدراسات العربية العليا بالقاهرة .

ولا تثريب على من أخلص النية وفشل فى تسديد الهدف . وسبب الاختلاف بين الرجلين نشأة كل منهما ، وحياة كل منهما . وقد عرفنا حياة شكيب من خلال كتبه وآثاره .

ونستطيع أن نعرف هنا حياة رشيد رضا من خلال المقالات والدراسات والرسائل، نستقرئها جميعاً فنجد فى سطورها ما يعيننا على فهم الرجل ومعرفة آرائه ومبادئه وأهدافه ونظرته إلى العرب وإلى الإسلام .ونحن نحاول أن نرسم من هذه المقالات والرسائل خطوطاً عريضة سريعة لحياة رشيد رضا ، لعلنا نقف على ما بين الرجلين من صلة فى الفكر والسياسة والرأى ، فهى تعيننا على فهم شكيب نفسه ، وتفقنا على ما كان يأخذ عليه صديقه وأخوه من أخطاء فى اللغة وفى السياسة ، يوردها شكيب فى صراحة عجيبة ، ويعلق عليها فى الحواشى موافقاً حيناً ومخالفاً حيناً آخر .

ولا شك فى أن حياة رشيد رضا توضح كثيراً من حياة شكيب . وتكشف عن نقاط لم نكن نفهمها إلا إذا عرضنا لها فى شيء من الايجاز نحلل به هذا الكتاب ونستخرج منها ما ينفعنا فى هذه السيرة .

فقد ولد رشيد رضا فى قرية « القلمون » على ثلاثة أميال من « طرابلس الشام » ، فى أسرة رفيعة القدر ، أصلها من أشراف الحجاز ، انتقلت منذ القديم إلى العراق ، ونزلت النجف الأشرف، ثم جاءت منه إلى الشام فنزلت بقرية « كرك نوح » قرب معلقة زحلة ، ثم انتقلت إلى القلمون . فالمنبت عظيم والنسب كريم والأسرة على جاه واسع فى الشرف والكرامة والدين والتقوى وعزة النفس . أخذ أفرادها بالعلم والدين فكانت لهم خزانة كتب موروثة فيها النادر القيم ، وتعلق كثير من أفرادها بالتصوف ، فلا غرابة فى أن يتلقى الطفل « محمد رشيد رضا » دراسته فى القرية ، فيحفظ من القرآن ويجيد الخط والحساب ، ولا عجب فى أن يعنى به أبوه عناية علمية فيرسله إلى مدينة طرابلس ليتم فى مدارسها الابتدائية علمه فينصرف إلى الحساب والجغرافية والعقائد والعبادات .

---

(١) ما تزال القرية تسمى بهذا الإسم ، وهى من الجمهورية اللبنانية ، وفيها آثار قديمة .

ولكن هذه العلوم كانت باللغة التركية فانصرف الفتى عنها كارهاً لها ولأهلها . واندفع إلى المدرسة الوطنية الإسلامية ، لأنها تعلم بالعربية وتلقن الفرنسية كما كانت تلقن المدارس الخاصة فى ذلك الإقليم .

واستطاع الفتى أن ينصرف إلى الدراسة وأن يعزف عن اللعب والعبث والرياضة واللهو ، وأن يعيش فى عزلة عن زملائه منذ صباه ، وأن يقبل على هذه المدرسة الوطنية ، ولكن العثمانيين ألغوها ، وشتتوا طلابها فانقطع الفتى إلى المدارس الدينيـــة فى طرابلس ، ونمت فى نفسه فكرتان كره الأتراك وحب الكتب الدينية ، مما كان له أكبر الأثر فى مجرى حياته ، فعاش عليهما وناضل دونهما ، وكان منه ما كان بتأثير هذه النشأة ، كأن العثمانيين دفعوه إليهما دفعاً بطيشهم وتعسفهم وجهلهم .

وتعلق — فيما يقول لنا — بكتاب إحياء العلوم للغزالى ، وتأثر بالزهد واحتقار الدنيا ، وتصاغرت الوظائف الحكومية فى نظره ، فنشأ أول الأمر صوفياً ، ثم مال إلى الشعر والعلوم العربية ، وتميز بالسليقة وحفظ غريب اللغة ، وأخذ بالفقه والحديث . وسلك إلى النقد والتجريح فى الحديث وفى غير الحديث مما نراه فى نضاله ضد الملوك والاستعمار . وقد أثرت فيه النشأة الدينية تأثيراً بالغاً صرفه إلى العبادة العميقة ، فكان يحيي الليالى بالعبادة ويقوم أيامه على الدراسة . وكان أن خص نفسه بالدفاع عن الدين الإسلامى والمسلمين ، ووقر فى نفسه حب العرب وكره العثمانيين ، فانصرف إلى حرب الأتراك ومن يناصرهم ، وكره الغربيين كرهاً لا يقف عند حد متأثراً بالصحف التى كانت تصل إلى أبيه من مصر ، وشغف حباً باراء جمال الدين الأفغانى وعشقه عشقاً عنيفاً ، كما عشق محمد عبده . وأتيح له أن يسافر إلى الآستانة سنة ١٩٠٩ وأن يقف على الاستبداد العثمانى من كثب ، وأن يعرف كره الطورانيين للعرب ، ففكر فى إنشاء جميعة ومدرسة للدعوة والإشاد فلم يتم له ذلك ، لأن العيون مبثوثة والأرصاد فى كل مكان .

فعاد إلى طرابلس الشام وراح يكتب مقالات فى الجرائد لم ترض السياسة

الحميدية ، فأحس بضيق وحرج وخرج منها بالفرار نجياً إلى مصر . قبل أن يغادر بلاده سافر إلى بيروت ، سنة ١٨٩٤ ، وراح يبحث فيها عن « شكيب أرسلان » ، لأنه كان يرى فيه كاتباً إسلامياً مصلحاً ، ورجلا حرّاً مخلصاً من مريدى الإمام محمد عبده . وهنا نشأت قرابة روحية قويت على الأيام فربطت بينهما محبة « الإمام عبده » والسير على تعاليمه .

وحلّ رشيد رضا بمصر فاتصل إثر وصوله بمحمد عبده ، ولزمه لزوم الظل ، وتبعه فى دروسه ومحاضراته وحلقاته ، ودخل عليه فى بيته حتى سقطت بينهما الكلفة ، فكان يغشى غرفة نومه دون سائر الناس وذلك لأنه كان يحمل آراءه وأفكاره إلى مجلته التى أنشأها منذ قليل وسماها « المنار » . وفى هذه المجلة راح رشيد رضا يبث تعاليم الإمام وتفسيره للقرآن ، وآراءه فى إصلاح المسلمين . وكان يتناول العثمانيين وأنصارهم بقلمه اللاذع ، ويكشف للناس سوء نياتهم ، وكرههم للعرب وسعيهم لقتل العروبة . ويسعى من وراء هجومه أن يؤلب العرب على الأتراك وأن يدفع بقومه إلى « فكرة القومية العربية » . فهو يرى أن العثمانيين سيئو النية نحو العرب . وهنا كانت نقطة الخلاف بينه وبين شكيب ، فقد كان رشيد نيقاوم الدولة العثمانية حين كانت تحارب البلقان وكان شكيب يناصر هذه الدولة ، فيرى فى انكسارها انكساراً للشرق وللإسلام . وهذه السياسة أضرت بصداقة الرجلين فلبثا تسع سنوات متفرقين لا يكتب أحدهما إلى الآخر لاختلاف السياسة فى خطة كل منهما . ومع ذلك يقول شكيب متناسياً : « وكانت المودة التى بيننا غالبة على ما بيننا من اختلاف النظر فى هذه المسألة وعلى كل لم نصل إلى الوحشة[1] » . وكذلك انقطاع تسع سنوات لا يسمى وحشة فى رأى شكيب !

وكان رشيد يثير الإنكليز ضد العثمانيين ، ويسعى عندهم لنصرة العرب ، وظن أنه يستطيع أن يؤلبهم لمصلحة قومه ، ولكنه خاب وفشل حين رأى أن الإنكليز يعملون لهدم العثمانيين ولهدم العرب معاً ، وتفريق أجزاء الأقطار العربية

---

(١) السيد محمد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة ، ص ١٥٢ .

وتسليح كل منها ضد الآخر كما فعلوا فى مقاطعات الهند ، ليحتاج كل قطر إلى عونهم ، ويستنجد بهم كصديق وحليف . وفهم الإنكليز كذلك أن رشيد رضا لن يعمل معهم فى الدعاية لتوطيد أقدامهم فى البلاد العربية فغضبوا منه وقبضوا عليه وفكروا فى نفيه إلى مالطة فى جملة من نفوهم ، ولكنهم عدلوا عن ذلك ، وتركوه تحت المراقبة فأصبح عدواً للأتراك والإنجليز معاً .

وحين تأسست الحكومة السورية إثر الحرب العامة ، انتخب رشيد رضا رئيساً للمؤتمر السورى « مجلس الأمة السورية » ، ولكن الجيش الفرنسى دخل بعد ذلك دمشق وقضى على الحكومة العربية الفتية بعد اتفاق بينه وبين إنكلترة فى تقسيم الأقطار العربية واستعمارها . فرجع رشيد من الشام إلى مصر ، وكان ذلك فى سنة ١٩٢٠ .

وما قدم مصر حتى سعى مع إخوانه فى عقد مؤتمر بأوربة من السوريين والفلسطينيين للاحتجاج على فرنسة وإنكلترة ، وكان مقر المؤتمر فى جنيف . وسافر رشيد رضا مع رجال الوفد إلى سويسرا ، ووافاه شكيب إليها من برلين ، فاجتمع الصديقان بعد طول انقطاع ، وتوطدت بينهما المحبة والألفة منذ ذلك الحين ، فى أغسطس ١٩٢١ ، وتفاهم الأخوان على خطة متقاربة إن لم تكن موحدة ، تتلخص فى الهجوم على الاستعمار وفى دعم القومية العربية ، وتخليص العرب من الانتدابات وويلاتها . وتتابعت الرسائل بينهما حين رجع رشيد إلى مصر وبقى شكيب أميناً دائماً للسر فى سويسرة . وظلت تترى متلاحقة فى موضوعات مختلفة ، فيما يكتب الأخ إلى أخيه من أموره الخاصة وأمور بلده وشئون قومه حتى قضى رشيد رضا ، فجمع شكيب أكثرها فى هذا الكتاب . وبقيت رسائل شكيب لم تنشر حتى اليوم ، وهى فى حوزة آل رضا من غير شك وهم كرام سراة علماء يقضون دين الوفاء ، ويعملون قريباً — إن شاء الله — على نشرها وجمعها خدمة للأخاء ، كما فعل شكيب فى شأن سيدهم وعميدهم ، فنشر فضله وعلمه وكرّمه أى تكريم فى هذا الكتاب .

وفى هذه الرسائل تحدث رشيد رضا عن كثير من أسرار حياته وعما فعل

من أجل العرب والمسلمين ، فقال إنه كتب إلى الحكومة الإيطالية أن المسلمين مستعدون أن يتخذوا من إيطالية صديقاً إذا كانت تسير سيرة تخالف إنكلترة وفرنسة ، وذلك عملا بقوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . وحدّث قنصل إيطالية فى الشام بهذا الشأن، وكلف أخاه شكيب بمواصلة السعى مع الطليان فى هذا الأمر ، ولكنه يئس من هذه الدولة حين رآها تتكالب على الاستعمار فقال : « إن العدوى سرت إلى هذه الدولة من حليفتيها »[١] ، وكان يرى لإيطالية الفتية أن تبتكر سياسة فتية مثلها ، وأن تنبذ العجوزين فرنسة وإنكلترة ، وأن تجعل نفسها مناط آمال الأمة العربية .

وذكر فى هذه الرسائل أنه كتب إلى مصطفى كمال بوجوب تعضيده للمسألة العربية والإسلامية ، ولكنه قال إن زعيم الأتراك « لم يسف من أوج كبريائه للرد عليه » ، وانتهى فى الحكم على الأتراك: « أنهم سيئو الطويسة راسخون فى بغض العرب والعربية » .

وذكر كذلك أنه كتب مذكرة إلى لويد جورج سنة ١٩١٩ بتحرير العرب كأصدقاء وطلب عونهم فى قضيتهم باسم الإنسانية والأخلاص للشعوب المظلومة لا استغلال من وراء ذلك ولا استثمار ، فلا يكون ثمة سادة ولا عبيد ، ولكنه عاد بالفشل والخيبة واليأس ، فعرف أن بريطانية وفرنسة وإيطالية وتركية كلها تتآمر على العرب وتحكم الحصار حولهم لتمنعهم من التآلف والاتحاد تحت اسم « القومية العربية » ، لأن هذه القومية إذا استيقظت ماتت مصالح القوم ، وأفلست شركاتهم الاستعمارية ، وجاعت شعوبهم الظامئة إلى خيرات الأمم المتخلفة فى حضارتها — كما أرادوا أن يسموها — . وعرف كذلك أن هذه الدول ستشرع فى غاب الانسانية قانوناً جديداً قديماً هو أن تكون للأسد حصته يأكل الصغار والضعاف ليغذى جسمه ، وينعم وحده فيصول ويجول ، ويفتك ويقتل ، ويبسط فى الغاب سطوته ونفوذه ، ويمنع عنه غيره من الأسود . وبهذا المعنى كان الأسد رمز الدولة البريطانية ، توغل فى الشرق كأنها تتوغل فى غابتها وملكها من أقصى الهند إلى تخوم ليبيا .

(١) الكتاب المذكور ص ٣٢٢ .

وقد أخذ رشيد رضا بكره البريطانيين من غير هوادة كما فعل أستاذه جمال الدين الأفغانى وإمامه محمد عبده ، وقال إن الشعوب الإسلامية والعربية ساعية فى أظفار الأسد وأظلافه تقطيعاً وتحطيماً ، وتنبأ بخروجهم من الهند ومصر وفلسطين . وقد حققت الأيام آراء رشيد رضا . وقد كان يلوم كل من يتعاون مع بريطانية فى البلاد العربية ، فيتناول البيت الهاشمى على أنه ربط الحجاز بمواثيق ولاء وتبعية لبريطانية . ويدعو لابن سعود بإنقاذ الحجاز منه ونزع القيود عن الأراضى المشرفة المقدسة وفك المواثيق المربوطة والمعاهدات الاستعمارية . وكتب إلى ابن سعود فى كل مناسبة ، وذكر ذلك فى هذه الرسائل . وأصغى إليه ابن سعود فحطم كثيراً من هذه المعاهدات واحتل مكاناً رحباً من تقدير رشيد رضا فى هذه الرسائل . وتحمل الرشيد كثيراً من العنت فى سبيل ذلك وهاجمته الأقلام فى كثير من الأمصار العربية لهذه السياسة ، واتهمته بأنه وهابى ، لأنه سلفى يدين بالكتاب والسنة ويجرى فى أقواله وآرائه عليهما وحدهما ، فيطلب هدم القبور والأضرحة العالية ، ويكره عبادة الأولياء ، كما يفعل الحنابلة[1] منذ أقدم العصور الإسلامية وكما فعل السعوديون ، فوصلت بينه وبينهم حبال المودة ، وجعل من مطبعته « المنار » مكاناً لطبع مؤلفات وآثار تسير على هذا الهدى أنفق عليها السعوديون وشغلوا وقت الرجل ، فكان يحفل بها ويعمل لها ، ويقضى أكثر ساعاته فى اتقانها ، ويملأ أكثر رسائله إلى شكيب فى الحديث عنها .

وفى هذه الرسائل كذلك أن رشيداً كان يسعى إلى مؤتمر عربى فى القاهرة ، يجمع فيه وفود العرب والمسلمين من كل حدب وصوب ، ليتناقشوا فى أمورهم وحاضرهم ومستقبلهم . وليس هذا المؤتمر بالجديد فقد فكر فيه الزعماء المسلمون فى صدر هذا العصر ، ومنهم عبد الرحمن الكواكبى إذ نشر كتابه[2] « أم

---

(١) انظر طبقات الحنابلة ، لابن رجب ، تحقيق هنرى لاووست وسامى الدهان ، بدمشق سنة ١٩٥١ .

(١) انظركتابنا عن «عبد الرحمن الكواكبى» فى سلسلة نوابغ الفكر العربى بمصر سنة ١٩٥٨.

القرى » وفصل الأمر فى المؤتمر ورسم جلساته ووصف الحوار فيه والمناقشات ، وهيأ له أسباب نجاحه كأنه مؤتمر واقعى عقد فى مكة . وقد نشره رشيد رضا فى مجلته « المنار » وعلق عليه ورحَّب به .

وأراد بعد عشرين عاماً من وفاة الكواكبي أن يعيد الكرة لعقد مؤتمر عربى إسلامى فى القاهرة لا فى مكة . فكتب إلى جاوة والجزائر وحضرموت وغيرها من الممالك الإسلامية ، يدعو الزعماء إلى مؤتمر الخلافة حتى لا يبقى الإسلام بغير خليفة[١]. ورأى أنسب الأمصار لعقده فيها هى مصر ، بالرغم من أن مصر لا تتمتع بتمام استقلالها ، واعترض عليه فى ذلك مسلمو الهند وجاوة . وكتب رشيد رضا كتاباً سماه « الخلافة أو الإمامة العظمى » بسط فيه آراءه وفصل الأمر فيه ، ولقى الكتاب رواجاً فى الشرق والغرب ، وترجمه إلى الفرنسية الأستاذ المستشرق هانرى لاووست ، ونشره فى بيروت سنة ١٩٣٨ ، وقدم بين يديه بمقدمة وافية ودراسة قوية ، ورأى أنه يعبر عن آراء الزعماء الأقوياء من المسلمين والعرب . وترجم الكتاب إلى لغات أخرى شرقية وغربية . وقد وقع بين رشيد والكواكبي خلاف حول هذا المؤتمر نفسه قبيل وفاة الكواكبي ، وكانت ثمة مناقشات شتى « من دون أدنى مغاضبة » . ولعل هذا الخلاف كان يدور حول فهم القومية العربية لتلك الأيام .

وللرشيد آراء بثها فى هذه الرسائل تناثرت فى أطرافها ، منها فى الهجوم على بعض علماء الأزهر لزمانه ، فقد أخذ عليهم أنهم بايعوا خليفة الآستانة بالأمس[٢] ، وقاموا يكفرون حكومة الكماليين اليوم ويدعون إلى قتالها لارجاعها عن بغيها على خليفة الرسول وإمام الأمة ، ومنها الهجوم على سماسرة العروش وطلاب التيجان الذين راحوا يطلبون أثماناً للشعوب والأوطان ويلقون دلاءهم فى المسألة السورية ، وهو يقصد بذلك عليا ابن الحسين ، والخديوىّ عباس ،

---

(١) السيد رشيد رضا أو اخاء . . . ص ٣٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦٧ .

فالأول كان يرشحه أخوه فيصل[١]، والثانى كان يرشحه الأتراك ملكاً على سورية ، وكثيراً ما كتب فى الانتصار لسورية وفلسطين وقد قال ١٩٢٩ فى صدد الأخيرة[٢] : « الأمر الأهم الأعظم فى مسألتنا العربية وكذا الإسلامية هو مسألة الثورة فى فلسطين » ، وبذلك رقى رشيد رضا إلى منزلة الزعامة السياسية العاقلة ، فرأى الخطر على فلسطين قبل عشرين سنة من الكارثة الفاجعة التى بترت عضواً من أشرف أعضائنا فى المجموعة العربية ، وكان رشيد رضا يسعى فى الوحدة العربية الكبرى . وإذا كان رشيد يهاجم البيت الهاشمى كله فى أول الأمر فهو يثنى على دهاء فيصل بعد ذلك ويقول[٣] : « وأما فيصل فهو السياسى الوحيد فى هؤلاء الملوك والأمراء الذين ظهروا فى العرب فى عصرنا ، وأسوأ ما يسوءنى منه أن سياسته لادينية . . . » ويأخذ عليه أموراً حذفها شكيب من كتابه حين الطبع . وهذا بعض ما اختلف فيه شكيب ورشيد من النظر إلى الأعلام والشخصيات المعاصرة ، فقد يحب شكيب شخصاً يكرهه رشيد رضا . وقد يميل شكيب إلى رأى سياسى لا يراه صديقه . ولكن هذا كله لم يكن يفسد الود بينهما كما كان يقول شكيب[٤]. وكان أكثر هذا الاختلاف فى النظر إلى الدولة العثمانية وسياستها نحو العرب . وشكيب كان يعترف بأكثر ما جاء فى هذه الرسائل من نقد فيه ، فيرى رأى رشيد ويستمع إلى نصحه ، ويأخذ بتعليماته ويقول[٥] : « كنت أعدّه أستاذاً لى » وليس بينهما فى السن إلا خمس سنوات .

ولا شك فى أن رشيد رضا كان بالنسبة إلى شكيب أوسع أفقاً فى فهم

(١) يقول شكيب فى حاشية الصفحة ٦٢٧ : « كنا نتذاكر مع المرحوم فيصل فى المسألة السورية ، فكان يريدنا على مساعدة أخيه الملك على أن يكون ملكا على الشام » .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣٧ .

(٣) المصدر المذكور ، ص ٦١٠ .

(٤) المصدر المذكور ، ص ١٥٢ .

(٥) المصدر المذكور ، ص ٢٦١ .

الدين وفى الثقافة الإسلامية وفى التمكن من المفردات اللغوية . فقد لازم محمد عبده ولبث فى مصر قرب المصادر الإسلامية ، وعاش فى قلب المعركة الإسلامية ، بين الأزهر ورجال السياسة اللاجئين من سوريا وفلسطين ولبنان ، يجتمع إلى هؤلاء وهؤلاء ويستمع إلى زعماء الإسلام من الأقطار الشرقية كذلك ، ويقرأ صف مصر فى إدارته بمجلة المنار ، وكانت له جرأة نادرة ونشاط عجيب وقد لخص شكيب سياسة صديقه بقوله[١] : « وكانت إلى جانب نزعته الإسلامية المحضة ، نزعة عربية لا تقل عنها تمحضاً ، وكان يجمع بينهما دون أدنى تكلف » فهو يعترف بأن رشيد رضا كان يعمل فى الحقلين الإسلامى والعربى ويستوى فى آرائه مع الجيل الذى نعيش فيه ، فيعمل للوحدة العربية ، ويعين بنشاطه الأمم المظلومة فى الشرق وخاصة المسلمين ، وبذلك كان رفيع المقام فى قومه وجيله وعصره . ولذلك استبد بحب شكيب كما استبد شوقى بحبه ، فقد أحب شكيب الشعر الإسلامى العربى على لسان شوقى وأحبّ النضال السياسى العربى على قلم رشيد ، وألف فى كل منهما كتاباً ، فجعل شوقى صديقه خلال أربعين سنة وجعل رشيد رضا أخاه خلال أربعين سنة ، وهو يعلل لنا ضمناً بعض ما يريد بهذا التفريق بين الأخ والصديق فيقول[٢] : « وأما علاقاتى الأخوية مع السيد الأستاذ فلا مقايسة بينها وبين علاقاتى مع شوقى ، لأن شوقى كان قليل الكتابة غير حريص على المراسلة ، بينما الأستاذ يكتب دائماً ، ويكتب طويلا ويعيش فى اتصال دائم مع إخوانه إن قربوا فبالمشاهدة وإن بعدوا فبالمراسلة » . وليس هذا كل أسباب الحب والتفضيل فيما نرى فقد كان شكيب يرى فى شوقى فناناً مخلصاً للعروبة والإسلام موفقاً فى الشعر يلحق بالفحول . وكان يرى فى رشيد رضا دعامة للعروبة والإسلام مجاهداً فى سبيلهما وقد عاش شكيب على جناحين من حب الشعر والأدب وحب النضال والسياسة ، فرأى ضآلته فى شوقى ورشيد ولم يخص غيرهما بما خصهما به ، فألف

---

(١) المصدر المذكور ، ص ٢٥٩ .

(٢) المصدر المذكور ، ص ٢٥٧ .

فى الأول مقالات وجمع فى الثانى مقالات ورسائل، وأخرجهما على كتابين هما صورة لحب شكيب وسعيه وآرائه ، بل هما صورة للكتب المؤلفة فى عصره والأساليب المتبعة فى زمانه ، شبيهان بما ألف رشيد رضا فى الإمام محمد عبده ، قريبان فى الجمع والتصنيف مما صدر خلال تلك الفترة .

وليس من السهل أن نخرج بأكثر من هذه الآراء من خلال هذا الكتاب ، فهو مقالات ورسائل على غناها تستطرد وتوغل فى التفاصيل ، والرسائل على فائدتها لا تلم بموضوع واحد . ولا تهدف إلى عون القارىء على دراسة الرجل . ولكن الأمير شكيب تجمعت لديه مئتا رسالة خلال هذه السنين وأراد أن يجمعها لتكون كترجمة وذكرى لأخيه ، وقد غلبه الأسى على فقده وأعوزه الوقت فى استخلاص ما فيها من زبدة ومن خطوط عامة ، فأرسلها فى هذه الصفحات ، وحذف من سطورها والأسماء فيها ما لم يكن يرى نشره ، وكلفه جمعها سبعين يوماً على كثرة مشاغله ، فكان هذا الكتاب بقلم رشيد رضا فى أكثره ، وناشره هو شكيب ، حققه وعلق عليه ، فجعله مادة لمن يكتب بعده .

ولا شك فى أن الذين يريدون أن يدرسوا رشيد رضا يستطيعون أن يقرأوا كتبه فى الإصلاح وفى الوحى المحمدى وفى الخلافة أو الإمامة العظمى وفى تفسير القرآن ، وفى مقالاته الكثيرة بمجلة المنار على خمس وثلاثين سنة ، كما يستطيعون أن يرجعوا إلى أسلوبه الشخصى غير المتكلف فى هذه الرسائل ، فقد كان الرجل يكره النثر المسجع ويميل إلى الترسل الحر ، فأسلوبه يختلف فى أغراضه وأساليبه عن أساليب المترسلين القدماء . والذين يريدون أن يعرفوا نظرة شكيب إلى السياسة وأخطائه فى كتبه[١] وزلاته وهناته فى بعض تعابيره لابد أن يرجعوا إلى صفحات هذه الرسائل .

---

(١) انظر ملاحظات رشيد رضا على الألفاظ الواردة فى كتب شكيب وتعابيره ، بالصفحات ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، وغيرهما من المصدر المذكور ، وقد تحدثنا عنها فى فصل خاص سابق .

والكتاب بعد هذا كله من أيادى شكيب فى رفعة الأمة العربية والإسلامية ، يقدر عليه ويستحق به أوفى الثناء ، ولكنه ليس فى أصالة الكتب التى نؤلفها اليوم لدراسة الأعلام وتحليل آثارهم فقد كان شكيب بعيداً عن هذا لا يلم به ولا يعنى بأمره .

الخاتمة

ولد شكيب أرسلان فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، وسورية فى حال مذهلة من القلق والاضطراب ، تتنازعها التيارات المختلفة والآراء المتباينة فى السياسة والاجتماع والفكر والأدب ، فنشأ منذ صباه على تربية عالية ، أخذ فيها بالشعر الفصيح والنثر المتين وتعلم اللغات الأجنبية ، وعاش فى جو سياسى محموم يتنازعه الولاء للعثمانيين وحب الغربيين .

ومكنت له أسرته وحاله الاجتماعية من الاتصال بكبار العاملين فى حقل الأدب واللغة والسياسة . وأتيح له أن يتتلمذ على كبار اللغويين ، وأن يجتمع إلى الزعماء المصلحين ، وأن يتصل بالشعراء الفحول . وأن يسافر إلى مصر والآستانة وباريس، وأن يرى ويشاهد . وأن يستمع إلى تقدير الكتاب لأسلوبه ، وإعجاب الشعراء بنظمه ، واكبار الزعماء لاتجاهاته الإسلامية فى الإصلاح والسعى لخدمة العرب .

ومضى فى سبيل الشعر والنثر ، يكتب فى نقاء وينظم فى متانة ، فدوت شهرته ، وذاع صيته ، وعلا اسمه ، فأثنى عليه الفحول أمثال شوقى وحافظ ومطران وعبد الله فكرى والمنفلوطى والأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا ، وعمر طوسون ، ويعقوب صروف ، وأحمد تيمور ، وأحمد زكى ، ولقب فى قومه بأمير البيان .

وسار فى طريق السياسية والنضال فوضعه اللبنانيون منذ شبابه فى الأقطاب المعروفين ، فكان مع حبيب باشا السعد ، والشيخ كنعان الضامر وسليم عمون أحد أربعة يعملون لرفعة البلد والحفاظ على استقلاله وحرمته[1] . وقربه رجال الحكم وقواد الجيش والوزراء والسلاطين ، فكانت له صولة ودولة ، يستطيع أن يشارك فى مجرى الأحكام وسير الآراء كزعيم من زعماء العرب ،

(١) ذكرى شكيب ، ص ٤٢٩ .

فأحبه أنور باشا ، وخافه جمال السفاح ، واختاره قومه نائباً فى مجلس النواب بالآستانة ، وقدره زعماء العرب فجعلوه نصيراً لقضية لبنان وسوريا ، وممثلا مدافعاً عن بلاده فى سويسرة ، ثم اختاروه فى الوفد الذى سعى إلى الصلح بين العاهلين عبد العزيز آل سعود والإمام يحيى حميد الدين . وأحبه فيصل الأول ، ورجع إليه رجال الوفد السورى فى المعاهدة مع فرنسة ، ونظروا إليه نظرتهم إلى أحد زعماء القضية العربية ، فكان من رواد النهضة الأدبية ، ومن العاملين للوحدة العربية ، والاستقلال لأقطار العرب .

وقدره الغربيون كذلك ، فأحبه غليوم الثانى ، واحترمه موسولينى ، وأكرمه هتلر ، وأشاد به ماكدونالد ، وخافه الفرنسيون والإنكليز والمستعمرون الأوربيون لحملاته اللاذعة وكتاباته الحماسية فى رفعة العرب والدفاع عنهم ، ورد المغيرين على كرامتهم واستقلالهم . وعرفوا أنه كان اللسان الناطق للعرب والمناضل المنافح عن مبادئ الإسلام ، فكم حرك قومه إلى الاستقلال ، وشجع الثورات ضد المستعمرين ، وناصر الشعوب المظلومة فى كل مكان ، فكان منارة للسفن الماخرة فى عباب النضال ، ومشعلا هادياً إلى العدالة والمساواة وإحقاق الحق .

وتنبه الأدباء والعلماء إلى آثاره وكتبه ، فرأوا فيه محققاً لتراثنا القديم عاملا لتحقيقه ونشر روائعه وكنوزه على سبيل جميل وحب صادق ، وعرفوا فيه مترجماً معرباً ينقل أداب الغرب على بيان حلو وعرض موفق ، ومؤرخاً عاملا يكتب فى أيام العرب بالأندلس وفرنسة وسويسرة وإيطالية وفى غزواتهم وفتوحاتهم وزعيماً مصلحاً يدافع فى كتبه عن مبادئ الإسلام وحضارة العرب ، ويدعو إلى الوحدة العربية ، ومؤلفاً فى الأدب العربى يترجم للأعلام ويسطر مقدمات الكتب ، وصحفياً يملأ أنهار الصحف العربية والفرنسية ، ومراسلا وفياً لكل متظلم أو سائل من بلاد العرب والإسلام يمطره برسائله ، حتى لكأنه جماعة فى فرد وأمة فى رجل .

وامتلأت رفوف المكتبة العربية بكتبه المطبوعة[١] ، ومقالاته المنشورة ،

(١) ذكر المتحدثون عنه أن له آثاراً مخطوطه لم تنشر ، منها : اللهجات العربية ، وبيوتات

وقصائده المتفرقة ، حتى أربى مجموع صفحاته المطبوعة فى الكتب فحسب على خمسة آلاف صفحة ، فكان ذخراً للتاريخ الإسلامى ، والأدب العربى والفكر الاجتماعى ، والإصلاح السياسى ، وغدا علماً بين أعلامنا فى سعة إنتاجه ، ووفرة اطلاعه ، وجمال بيانه ، لا يمارى اثنان فى أنه ملك الخلود واستحق الثناء والإكبار .

فليس غريباً أن يقف الأعلام بعد وفاته للثناء عليه ، وأن يتسابق الشعراء إلى رثائه ، والخطباء إلى امتداح أياديه ، فقد كان مجلياً فى أكثر الميادين التى خاض فيها، وأنفق العمر فى خير قومه العرب والمسلمين على أجمل ما ينفق الإنسان عمره .

ولن نختتم هذه الدراسة فى حياته ، وأدبه ، وآثاره ، من غير أن نورد طاقة من الآراء فيه ليست أحسن ما قيل فيه وإنما هى بعض ما نحب أن نرويه هنا شاهداً على فضله . قال فيه الأستاذ فارس الخورى : « هوى بدر الإشراق فى عالم الأدب ، وأنهار صرح البلاغة العربية ، وعلم الفصاحة المجلى أمير البيان غير المنازع » . وقال عارف النكدى : « عظيم من عظماء الشرق والمسلمين ، وحجة العرب وإمامهم فى اللغة والتاريخ والسياسة غير مدافع ، وأميرهم فى البيان والخطابة غير منازع » .

وخصته الصحف العربية فى المشرق والمغرب وأندلس المهجر بمقالات ودراسات قصيرة ، ووقفت له الصفحات فى بيان أدبه ، وفضله ، وعلو نفسه ، وعظيم خدمته .

وبكاه الشعراء الأعلام ، فرثاه خليل مطران ومحمد البزم وشبلى ملاط ، والياس فرحات ، وعلال الفاسى ، وقال فيه على محمود طه :

رزء العروبة فيك والإسلامِ ... رزء النهى وفجيعة الأقلامِ
هو مأتمُ الأحرار فى متوثب ... بصفوفهم مستبسل مقدامِ

العرب فى لبنان ، والقول الفصل فى رد العامى إلى الأصل ، وتاريخ لبنان ، ورحلة إلى ألمانية ، ومذكراته .

أأبا الفــدائيين صوتُك لم يزل   فى الشرق وحىَ يراعةٍ وحُسام

أما آراء الشعراء والكتاب والزعماء فيه خلال حياته فقد أوردنا منها شواهد على عبقريته ونبوغه وتفوقه فى صناعتى النظم والنثر ، جعلناها بين أيدى أقوالنا لتشفع لنا فى الآراء التى بسطناها ، والأحكام التى أدلينا بها ، فإن كان أكثرها فى تمجيده وحبه فقد كان أكثر أحكامنا فى تمجيده وحبه . وكثيراً ما يطغى الحب على الدارسين حين يصحبون كاتباً أو شاعراً أو مؤلفاً خلال شهور طويلة ، يقرءون له عشرين مجلداً ، يصبحون عليها ويمسون فيذهب بهم الحب مذاهبه وينسون ما هم فيه ، والصحبة تورث الحب والألفة ، وتمحو ما عداهما من جوانب النقد ، فتظهر الحسنات وتخفى السيئات ، وتلك طبيعة البشر وعلة ضعفهم حين الألفة والود ، يظنون الخير كل الخير فيما ألفوا وفيمن عاشروا ، فلا ينظرون إلا بعين الرضا . . .

والله يشهد أننا ما وفرنا جهداً فى قراءة آثار الرجل ، وأننا نظرنا إليه بمقياس زمانه ، ووازناه بمعاصريه ، وقسناه على أنداده ، وحسبنا حساب ظروفه وملابساته واغترابه ، وقلقة وحيرته ، فرأينا له خيراً كثيراً ، وآثاراً نافعة وسعياً عظيماً . جزاه الله عن العربية وأهلها خير الجزاء ، وأثابه عن الإسلام والمسلمين لما قدم من خير ومن حسنات

ورحم الله تلك الروح الكريمة .

الفهارس

ا ـ آثار شكيب أرسلان المطبوعة

(١) « باكورة نظم الأمير شكيب أرسلان » ، طبعة بيروت ١٨٨٧ ، فى ٩٢ صفحة .

(٢) « المختار من رسائل أبى إسحق الصابى » ، تحقيق الأمير شكيب أرسلان ، الجزء الأول ، بعبدا (لبنان) ١٨٩٨ ، فى ٢٨٦ صفحة .

(٣) « الدرة اليتيمة » ــ لابن المقفع ، تحقيقه ، القاهرة ١٩١٠ ، فى ٧٠ صفحة (وطبع قبلها بمطبعة الجامعة فى بيروت ١٨٩٧ م) .

(٤) « آخر بنى سراج » ــ تأليف الفيكونت ده شاتوبريان ، وترجمة الأمير شكيب ، ومعه خلاصة تاريخ الأندلس ، وانقضاء العصر فى دولة بنى نصر ، طبعة المنار بمصر ١٩٢٥ ، فى ٤١٥ صفحة (وطبع قبلها بمطبة الأهرام سنة ١٨٩٧ بالإسكندرية) .

(٥) « روض الشقيق » ــ وهو ديوان أخيه الأمير نسيب ، حققه وقدّم له الأمير شكيب ، وطبع فى دمشق ١٩٢٥ م فى ٢٧٦ صفحة (لشكيب فيه ١٥٠ صفحة) .

(٦) حاضر العالم الإسلامى ــ تأليف ستودارد الأمريكى ، وترجمة عجاج نويهض ، وتعليقات الأمير شكيب فى أربعة أجزاء ، الطبعة الثانية بمصر ١٩٢٥ ، فى ١٥٨٨ صفحة .

(٧) أناتول فرانس فى مباذله ــ لبروسون ومعه كتاب لنقولا سيفور فى أناتول فرانس ، ترجمة الأمير شكيب ، وتعليقاته عليه ، المطبعة العصرية بمصر ١٩٢٥ فى ٣١٠ صفحات .

(٨) النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى ــ تأليف محمد أحمد الغمراوى مصر ١٩٢٩ (مقدمة شكيب فى ٥٦ صفحة) .

(٩) الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ــ تأليف

الأمير شكيب ، وقف على تصحيحه السيد محمد رشيد رضا ، وطبعه بمطبعة المنار فى مصر ١٣٥٠/١٩٣١ فى ٢٨٤ صفحة .

(١٠) "محاسن المساعي فى مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي" ــ تحقيق الأمير شكيب ، طبعة عيسى البابى الحلبي فى مصر ١٩٣٣ ، فى ١٦٦ صفحة .

(١١) "تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط" ، تأليفه ، طبعة عيسى البابى الحلبي فى مصر ١٣٥٢ ؛ ١٩٣٣ ، فى ٣٠٧ صفحات .

(١٢) "ديوان الأمير شكيب أرسلان" ــ وقف على ترتيبه وطبعه السيد محمد رشيد رضا ، وتوفى قبل تمام طبعه ، نشر بمصر ١٣٥٤/١٩٣٥ فى ٢٠٥ صفحات .

(١٣) "الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية" ــ تأليف الأمير شكيب ، طبعة المطبعة الرحمانية فى مصر ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ فى ثلاثة أجزاء فقط عدد صفحاته ١٣٧٩ صفحة .

(١٤) "شوقى أو صداقة أربعين سنة" ــ طبعة عيسى البابى الحلبي فى مصر ، ١٩٣٦ فى ٣٤٧ صفحة .

(١٥) "السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة" ــ طبع بمطبعة ابن زيدون فى دمشق ١٩٣٧ ، فى ٨١١ صفحة .

(١٦) "تعليقات على ابن خلدون" ــ تأليف الأمير ، طبعة مصر ١٩٣٦ ، فى ٤٠٥ صفحات .

(١٧) "النهضة العربية فى العصر الحديث" ــ محاضرة للأمير شكيب ، طبعت على نفقة جريدة الجزيرة ، بدمشق ١٩٣٧ ، فى ٤٧ صفحة .

(١٨) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ــ تأليف الأمير شكيب ، طبعة مصر ١٩٣٩ ، فى ١٦٦ صفحة .

* * *

٢ ـ أهم المباحث والمقالات فيه[1]

(١٩) محمد على الطاهر ــ ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، القاهرة ١٩٤٧ فى ٥٢٦ صفحة .

(٢٠) البستانى ــ الأمير شكيب أرسلان (فى مجموعة المناهل رقم ٢٨) بيروت ١٩٥٢ .

(٢١) مارون عبود ــ رواد النهضة الحديثة ، ص ١١٠ ــ ١١٤ .

(٢٢) يوسف سركيس ــ معجم المطبوعات العربية والمعربة ، عمود ٩٣٢ .

(٢٣) رفائيل بطى ــ شكيب أرسلان ، مجلة الكتاب (سنة ١٩٤٧ بمصر) ٣/٥٦٦ .

(٢٤) رفائيل بطى ــ شكيب أرسلان ، مجلة الرسالة (سنة ١٩٤٧ بمصر) ١٥/٤٦ و٢٠٧ .

(٢٥) محمد رجب البيومى ــ شكيب الشاعر ، مجلة الرسالة بمصر ، ١٥/١٣٧٩

(٢٦) جبرائيل جبور ــ الأمير شكيب أرسلان ، مجلة الأبحاث ببيروت ١٩٥٤ ، ٧/٣٣ .

(٢٧) أمين محمد أبو عز الدين ــ الأمير شكيب ، مجلة الأديب بيروت ١٩٤٧ .

(٢٨) محمد كرد على ــ المذكرات دمشق ١٩٤٩ ــ ٢/٤١٨ ــ ٤٢٣ .

(٢٩) محمد بهجة البيطار ــ كلمة فى الأمير شكيب أرسلان ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ١٥/٣٩٦ .

(٣٠) سعد مخائيل ــ شعراء الشام والعراق ومصر ، ١٦٧ .

(٣١) مجلة العروبة ــ عدد خاص عن الأمير شكيب أرسلان ، بيروت ١٣٤٧ هـ العدد ٣ .

---

(١) ذلك عدا ما نشر فى المجلات والصحف من نقد عن كتب الأمير شكيب والتعريف بها ، أشرنا إلى أكثرها فى حواشى الكتاب ، حين الحديث عن كل أثر من آثاره .

٣ ـ المراجع المذكورة فى الكتاب

إبراهيم المويلحى : ما هنالك ، لأديب فاضل من المصريين ، طبع فى مطبعة المقطم بمصر ، سنة ١٨٩٦ ، فى ٢٥٥ صفحة .

أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربى ، القاهرة ١٩٣٠ .

أحمد شوقى : الشوقيات ، ديوان الضعيف أحمد شوقى ، الجزء الأول ، مصر ١٨٩٨ .

أحمد فارس الشدياق : الواسطة فى معرفة أحوال مالطة ، طبعة الجوائب ، بالآستانة ، ١٢٩٩ هـ . (الطبعة الثانية) .

أمين نخلة : الحركة اللغوية فى لبنان فى الصدر الأول من القرن العشرين الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٨ فى ٦٧ صفحة.

أنيس المقدسى : العوامل فى الأدب العربى الحديث ، (طبع بعنوان الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ، بيروت ١٩٥٢ .

جمال الدين القاسمى : قواعد التحديث فى فنون الحديث ، دمشق ١٩٢٥ (مقدمة شكيب أرسلان فى أربع صفحات) .

حفنى ناصف : مميزات لغات العرب ، القاهرة ١٩٥٧ ، على يد ابنه الأستاذ مجد الدين حفنى ناصف ، فى ٤٤ صفحة .

خليل السكاكينى : مطالعات فى اللغة والأدب ، القدس ١٩٣٥ فى ١٧٦ صفحة (من خزانة الصديق الدكتور اسحق موسى الحسينى) .

سعيد الشرتونى : أقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد ، بيروت ١٨٨٩ فى ثلاثة أجزاء .

شاكر الخورى : مجمع المسرات ، بيروت ١٩٠٨ .

شكيب أرسلان : اللهجات العربية ، مقال فى مجلة المقتطف ، يناير ١٩٣٢

شكيب أرسلان : مقال فى مجلة الفتح ، مصر ١٩٤٠ . العدد ١٨٢ .

شكيب أرسلان : مقال فى مجلة الزهراء ١٩٤٦ هـ ، المجلد العاشر صفحة صفحة ٦٠٨ .

صلاح لبكى : التيارات الأدبية الحديثة فى لبنان (لبنان الشاعر) محاضرات ألقاها فى معهد الدراسات العربية العالية ، وطبع فى القاهرة ١٩٥٤ فى ٢٢١ صفحة .

طه حسين : حديث الأربعاء طبع مصر ، دار المعارف ١٩٤٥ ج ٣.

عبد القادر المغربى : مجلة المجمع العلمى العربى ، دمشق ، ١٣ /٣٨٢ .

عبد الله فكرى : الآثار الفكرية ، بولاق ١٨٩٧ .

كارل بروكلمن : تاريخ الأدب العربى ، بالألمانية ، ليدن ١٩٤٢ ، ج ٣ (فى ترجمة شكيب أرسلان) .

لويس شيخو : الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ، بيروت ١٩٢٤ (الطبعة الثانية) .

لويس شيخو : تاريخ الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين بيروت ١٩٢٦ (ظهرت تباعاً فى مجلة الشرق) .

محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، بيروت ١٩٥٤ ، الجزء الثانى فى ١٩٣ صفحة .

محمد راغب الطباخ : مجلة المجمع العلمى العربى ، دمشق ، ١٩٤٧ .

محمد رشيد رضا : مجلة المنار ، القاهرة ١٩٢٢ (مذكرات لشكيب أرسلان) بالمجلد ٢٣ تحت عنوان « كوارث سورية فى سنوات الحرب » .

محمد سامى الدهان : محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان ، ألقاها الدكتور سامى الدهان على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية ، طبع معهد الدراسات العربية العالية (جامعة الدول

العربية) بمطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٨ ، فى ١٩٣ صفحة .

محمد سامى الدهان : عبد الرحمن الكواكبى تأليف الدكتور سامى الدهان ، دار المعارف فى القاهرة ، ١٩٥٨ ، فى ١٢٠ صفحة .

محمد سامى الدهان : محمد كرد على ، حياته وآثاره ، دمشق ١٩٥٥ فى ٧٠ صفحة .

محمود سامى البارودى : ديوان البارودى ، مصر ١٩٤٠ .

محمد كرد على : مجلة الكتاب ، بمصر ، مارس ١٩٤٨ ، ص ٣٧٩ وما بعدها (مقال عن شكيب) ثم فى مذكراته .

محمد كرد على : مجلة المقتبس ، القاهرة ١٣٢٤ ، السنة الأولى .

محمد كرد على : رسائل البلغاء ، القاهرة ١٩٤٦ .

محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ، بيروت ١٩٣١ فى ٤٦٨ صفحة .

مصطفى الشهابى : القومية العربية ، مصر ١٩٥٩ .

نقولا الترك : ديوان المعلم نقولا الترك ، تحقيق فؤاد البستانى ، بيروت ١٩٤٩ .

يوسف داغر : مصادر الدراسات الأدبية ، بيروت ١٩٥٦ ، الجزء الثانى .

يوسف صفير : مجالى الغرر لكتاب القرن التاسع عشر ، جمعه يوسف صفير وطبع فى بعبدا (لبنان) ١٩٠٦ (قسم النثر) .

واشنطن أرفنج : قصص الحمراء ، ترجمة الأستاذ ابراهيم الأبيارى ، دار المعارف بمصر ١٩٥٥ .

؟ : حسر اللثام عن نكبات الشام ، طبع بمصر ١٨٩٥ فى ٢٧٦ صفحة ، من غير ذكر لمؤلفه ولعله لميخائيل مشاقة .

المؤتمر السورى : أعمال الوفد السورى الفلسطينى ، من مايو ١٩٢٢ إلى أكتوبر ١٩٢٢ ، القاهرة ، يناير ١٩٢٣ بالمطبعة السلفية فى ١٥٢ صفحة ، نشرها المؤتمر السورى الفلسطينى (اللجنة التنفيذية للمؤتمر بمصر) .

٤ – أبواب الكتاب

صفحة

القسم الثانى
شعره ونثره وثقافته

صفحة

القسم الثالث
آثاره ومؤلفاته

الفهارس